

# تاريخ التعليم فى الإنجلترا

تأليف

دكتور محمد عبد الحميد عيسى

استاذ التاريخ الاسلامى

رئيس قسم التاريخ

كلية التربية - جامعة عين شمس



## الإهداء

الى افعلى ما فى حياتى

..... وطنى

..... وأهلى

..... وأستاذتى





## المقدمة

ترددت كثيرا قبل اختياري هذا الموضوع هدفا لرسالتى ولدراساتى العليا ، وذلك بسبب الصعوبات الكامنة فى هذا المجال ، كما أننى لم أكن متأكدا من قدرتى على الوفاء بمتطلباته .

لكن من ناحية أخرى ، فإن النظام التعليمى لأمة من الأمم إنما هو الأساس الذى تبنى عليه حضارتها ، ويساعد بفعالية فى تطورها وارتقائها وبقائها . والاهتمام بالتعليم والعلوم ، وفتح الباب لاستقبال التيارات الثقافية ، والتأثر بها والتأثير فيها ، دون الذوبان فى تيارها ، وعدم ضياع الشخصية الأصلية ، يساعد على الارتفاع بالمستوى الثقافى ، وعلى العكس من ذلك فإن التعصب والانغلاق على أفكار معينة ، وعدم الأخذ والعطاء يؤدى الى الركود الفكرى ، وعدم الابداع ، وما الى ذلك من عوامل ، تؤدى فى النهاية الى الانهيار والفناء .

ان الأهمية العظمى الكامنة فى دراسة تاريخ التعليم ، والتى لا تنزل عن أهمية دراسة أى جانب من الدراسات الانسانية ، هى التى ألححت على ودفعتنى الى دراسته .

أما بالنسبة للسفر فى اختيار تاريخ التعليم فى الأندلس بالذات ، فدوافعى اليه ترجع الى عدة أسباب منها :

— توفيقى فى الحصول على ترشيح الدولة المصرية لى للدراسة فى أسبانيا على منحة من منح التبادل الثقافى المقدمة من الحكومة الأسبانية الى مصر .

— أن هذا الموضوع لم يتطرق اليه أى باحث على الإطلاق ، اذا تاريخ التعليم

ما استثنينا مجموعة المحاضرات التى ألقاها المستشرق الاسبانى الكبير  
جوليان ريبيرا فى عام ١٨٩٣ بجامعة سرقسطة .

— أن دراساتى خلال المرحلة الجامعية ، فى كلية التربية بالقاهرة ،  
تؤهلنى للتصدى لمثل هذا الموضوع التاريخى ، والتربوى فى نفس  
الوقت .

وقد واجهت من الصعوبات فى هذه الدراسة ، ما لم يخطر لى على  
بال أبدا ، رغم علمى مقدما ببعض مشاكلها .

فالدراسات الاجتماعية عموما ، لم تجد الاهتمام الكافى ، الذى هى  
جديرة به ، وقليلة جدا الكتب والمصادر ، التى يمكن أن تلقى ضوءا — ولو  
بسيطاً — على حياة الرجل العادى ، وقليل جدا ، ان لم يكن نادرا ،  
أن تجد مصدرا أو مؤرخا ، يصور لك حقيقة العلاقة الشخصية  
أو الاقتصادية بين الناس .

وبالنسبة لموضوع تاريخ التعليم ، فان ما خلفه المؤرخون قليل جدا ،  
ضاع معظمه ، ولم يصل إلينا منه الا شذرات قليلة متفرقة ولا ينطبق  
هذا على أسبانيا الاسلامية فحسب ، وانما هو يشمل العالم الاسلامى  
بأكمله ، فكما قلت : المؤلفات فى هذا المجال قليلة جدا ، ويظل من أهمية  
أكثرها ، أنها نقلت عن بعضها ، أو تناولت نفس الموضوعات ، وغلبت  
على هذه الكتب الاهتمامات الخلقية ، وما يجب أن يتحلى به العالم  
والتلميذ ، وواجبات كل منهما ، ومسألة شرعية الأجر ، من الناحية  
الدينية .

فاذا انتقلنا الى الأندلس ، فالمشكلة أصعب وأعقد ، فعلى الرغم  
من انتاجهم الغزير فى كافة المجالات ، وعلى الرغم من أن كثيرا من  
كتاباتهم كانت بهدف تعليمى ، الا أن مؤلفاتهم فى مجال التعليم ، لم تتعد  
الكتب التالية :

١ — اللباب في معرفة العلم والآداب ، لابن عبد ربه ، المتوفى ٣٢٨ هـ / ٩٣٩ — ٩٤٠ م (١) .

٢ — آداب المعلمين — خمسة أجزاء لأبي عمر أحمد بن محمد ابن عفيف بن عبد الله ، المتوفى ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م (٢) .

٣ — جامع بيان العلم وفضله — جزءان ، لابن عبد البر الأندلسي ، المتوفى ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م (٣) .

٤ — آداب العلم ، لابن عبد البر (٤) . (ومن المحتمل أنه نفس الكتاب السابق) .

ولم يصل إلينا من هذه الكتب الا كتاب جامع بيان العلم وفضله ، ويتناول أهمية دراسة العلوم الدينية ، والأخلاق التي يجب أن يتحلى بها العلماء والدارسون ، وإلى جانب هذا الكتاب ، وصلتنا بعض الاشارات التربوية التي كتبها ابن حزم الأندلسي ، المتوفى ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م ، وابن العربي المتوفى ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م ، وابن الخطيب ، المتوفى ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م .

أما علماء شمال أفريقية ، أقرب المناطق الجغرافية الى الأندلس فقد كانوا أكثر إنتاجاً من الأندلسيين في هذا المجال ، فقد خلفوا مجموعة من المؤلفات التربوية الجيدة ، وأهمها كتاب آداب المعلمين لابن سحنون المتوفى ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م — أحوال المعلمين وأحكام المعلمين للقباسي

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون ، عن أسامي الكتب والفنون ، ص ١٥٤٣ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٣٩ ( طبعة القاهرة ) .

البغدادي : إيضاح المكنون — ج ١ ، ص ٤ .

(٣) ابن عبد البر : جامع بيان العلم — طبع عدة مرات .

حاجي خليفة : كشف الظنون ، ص ١٢٧٩ .

(٤) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ص ٤٣ .

المتوفى ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م — وكتاب الإمام في معرفة أصول الرواية  
وتقيد السماع للقاضي عياض اليجصبي ، المتوفى ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م ،  
وخصص ابن خلدون ، المتوفى ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م ، فصلا كبيرا في مقدمته  
للعلم والتعليم ، وكتاب جامع جوامع الاختصار والتبيان للمغراوي ،  
المتوفى ٩٠٣ هـ / ١٤٩٦ م .

وفي القرن الحالي بدأ اهتمام واضح بدراسة الحياة التعليمية  
والتربوية في الاسلام ، حيث قام عدد محدود من الباحثين العرب  
والأجانب بالدراسة في هذا المضمار ، كما تم تحقيق مجموعة من  
المخطوطات ، التي عاشت حبيسة المكتبات والصدائق ، خلال مئات  
السنين .

قام الدكتور أحمد شلبي بتقديم رسالة دكتوراه في جامعة  
كمبريدج ، صدرت في كتاب لأول مرة في عام ١٩٥١ م ، بعنوان ( تاريخ  
التربية الاسلامية ) ، وعلى الرغم من هذا العنوان الواسع ، فان تصفح  
الكتاب ، يبين أن الدكتور شلبي قد قصره تماما على المشرق الاسلامي ،  
وبالذات على كل من بغداد والقاهرة ، وأنه لم يشير الى الأندلس الا في  
فقرات مبتسرة .

وقدم الدكتور أسعد طلس رسالة دكتوراه في السوربون ، ثم  
طبعت أيضا بعنوان ( تاريخ التعليم في الاسلام ) ، تضمنت بعض  
الاشارات الى التعليم في الأندلس ، ولكنها ظلت أيضا كسابقتها مركزة  
على المشرق الاسلامي فقط .

كذلك فان الرسالة التي قدمها الدكتور أحمد فؤاد الأهواني ،  
قد ركزت على النواحي التربوية التي نادى بها القابسي ، وقارن ذلك  
بآراء التربويين المشاركة ، دون أن تتعرض النواحي التاريخية .

أما بالنسبة للتعليم في أسبانيا الاسلامية ، فلم يتعرض له أحد في

رسالة عملية حتى الآن ، وكل ما هناك في هذا المجال ، كما أشرت سابقا ، مجموعة المحاضرات التي ألقاها خوليان ريبيرا في عام ١٨٩٣ ، وبعد ذلك هناك عدة مقالات يوالى إصدارها من حين لآخر ، الأستاذ ( جورج مقدسى ) ، ويشار إليها في ثنايا هذه الدراسة ، كما أن الزميل كريم عجيل حسن ( من العراق ) قد قدم رسالة ماجستير عن الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية نشرت عام ١٩٧٥ م في بغداد .

ومن أهم الصعوبات التي واجهتها في الدراسة :

— عدم وجود مراجع وأبحاث في هذا المجال يمكن الاعتماد عليها ، وخاصة أنني أردت تناول الموضوع من زواياه التاريخية . وليس من الناحية التربوية ، ولقد اضطررتي ذلك إلى البحث في مجموعات كاملة من المؤلفات ، أي أنه لم يكن من الممكن نى الرجوع إلى كتاب معين ، وكان لابد من الرجوع إلى مجموعات من الكتب ، وأهم هذه المجموعات ، سلسلة كتب التراجم الأندلسية .

ومن حسن الحظ أن الأندلسيين أولوا هذا العلم اهتماما كبيرا ، وظفوا لنا سلسلة متواصلة من تراجم علمائهم ، أشرت إليها عند حديثي عن العلوم الاجتماعية في الفصل الثاني : مجموعة الكتب التاريخية والجغرافية — كتب الأدب . بصورة عامة — ما أمكن رؤيته من الانتاج الأندلسي ، أو ما كتب عن الأندلس في كافة المجالات .

— التناقض الشديد في بعض القضايا ، أو الغموض الشديد في بعضها الآخر ، مما جعل تكوين رأي حول بعض الأمور مسألة صعبة جدا . وأشد هذه النواحي غموضا قضية تدخل الدولة في التعليم ، وظهور المدارس في الأندلس ، والمرتبات .

— اتساع موضوع الدراسة ، وتشعب الموضوعات المتصلة به ، فالدراسة هنا تلمس كل نواحي الحياة الأدبية والعلمية التي عاشتها الأندلس ، كما أنها ترتبط بكل ما كتب عن هذه الفترة التاريخية ، في كافة

مجالات الأدب واللغة والنحو والفن والفلسفة والجغرافيا والتاريخ والرحلات والاجتماع والطب والهندسة والزراعة والفلك والرياضيات والعلوم الدينية بكاملها . وإذا أردت الإشارة الى كافة الكتب أو المقالات الصادرة عن أحد هذه المواد ، أو على الأقل أهمها ، فإن دراستي هذه ستتحويل الى سفر ضخم جدا من الأسماء والمؤلفات ، ولذلك كنت أجد لزاما على الاختصار ما أمكن والإشارة الى كتاب واحد فقط في بعض الأحيان .

وهدفى من هذه الدراسة ، أن أقدم صورة عن التعليم في أسبانيا الاسلامية ، أى كيف كان يتم تشكيل الفرد وتنقيفه ، ابتداء من سنى حياته الأولى ، حتى يصل الى أقصى ما يطمح اليه من تعلم — ميبيا النواحي التالية :

- متى يبدأ هذا التعليم ومتى ينتهى ؟
- الأماكن التى يمارس فيها خلال كل مرحلة من مراحل الحياة
- تعليم الخاصة ، مثل أبناء الأمراء والوزراء والقادة ، وتعليم النساء .
- المعلمون : مستواهم الثقافى والاقتصادى والاجتماعى ... الخ
- الدولة ودورها فى التعليم .

ووضعت خطتى لنتناول هذه الدراسة على أساس أن أبدأ مع بداية الحياة التعليمية للأطفال ، وأن أطور الدراسة مع تطور سن ومراحل تعليم الطفل فأدرس أولا المرحلة التعليمية الأولى ، وأتناولها من كافة جوانبها :

المكان ، السن ، برنامج الدراسة ، الوقت ، المعلم ، أجر المعلم ، تعليم البنات ... الخ .

ثم أنتقل الى دراسة المرحلة التعليمية الثانية ، مبيها خواصها وأهميتها ، ومتناولاً أياها من نفس الزوايا التي تناولت بها المرحلة الأولى .

أما في المرحلة التعليمية الثالثة ، فاننى ركزت على المدارس في الأندلس ، وعلى الرطة بنوعيتها الداخلى والخارجى .

ولقد كان من حسن حظى العثور على مخطوطة صغيرة بمكتبة الأوسكوريال تتضمن بعض اجازات من معلمين مشرقين لطلبة من الأندلس وشمال أفريقيا ، قمت بقراءتها ونشرها ضمن الفصل الخاص بالاجازة .

وتناولت في فصل خاص ، كيفية تعليم أبناء الخاة ، وبالذات من كانوا يعدون لمناصب معينة ، مبينا في ذات الوقت الاهتمام الذى بذله الأغنياء في سبيل التعليم .

أما عن دور الدولة في التعليم ، فقد خصصت له فصلين طويلين ، أحدهما استعرضت فيه جهود حكام الأندلس ، في صالح التعليم والفقهاء والعلمين والطلبة ، أما الآخر فقد جعلته لبعض مظاهر تدخل الدولة في التعليم ، موضحا فيه بعض نقاط تدخل الدولة الفعلى ، سواء في البرنامج التعليمى أو دفع المرتبات أو بناء المؤسسات التعليمية .

ان الأهمية الكبرى لهذه الدراسة تكمن في اطلاعنا على الأسلوب الذى اتبعه الأندلسيون في تربية أبنائهم ، كما أنها تبين لنا مقدار الاهتمام الذى بذلوه درنة وشعبا في هذا المجال الحيوى علاوة على اطلاعنا على صفحة ناصعة من تاريخ أمتنا الاسلامية في العمور الوسطى .

ان أكبر المشاكل التى نعالجها في عالمنا الاسلامى المعاصر ، هي

فقداننا لنظام تربوى سليم نتبعه فى مراحل تعليمنا المختلفة ، وان  
مأساتنا الحقيقية تكمن فى أننا حقل تجارب لنظريات تربوية شرقية  
وغربية لا تتفق مع تاريخنا وعقائدنا وطبيعة تكويننا وكان من نتيجتها  
ما نعانيه اليوم من انفصام فى الشخصية ، وضعف فى المستوى .

ان دراستى لأحد عمد الازدهار والرشى فى فترة من فترات  
الاسلام الزاهية ، ليست توقفا عند الماضى ، ولا هى دعوة للعودة  
للوراء ، بقدر ما هى محاولة للتعرف على أساس ثابت يمكن أن نركن  
اليه فى بناء أمتنا الحديثة .

ولعل هذه الدراسة تفيد فى التعرف على ما يجب الأخذ به ، وما  
يجب أن نبتعد عنه ، حتى نتمكن من بناء نظام تربوى سليم ، لتربية  
أجيالنا القادمة .

وأعترف أن الموضوع جاد وخطير ويحتاج الى جهود جماعية ،  
وأنى رغم كل ما بذلت أرى فيما قمت به ، أوجه نقص كثيرة ، ونقاطا  
تحتاج الى مزيد من الدراسة والبحث ، ورغم ذلك فاننى أشعر بالرضى ،  
لأننى بذلت كل ما أمكننى ، وفتحت الباب أمام غيرى لاستكمال النقص  
ولمزيد من التعمق والبحث .

وثمة كلمة أخيرة ، تجب الإشارة اليها فى نهاية هذا التقديم :منذ عدة  
أعوام كان التفكير فى مجرد كتابة هذه المقدمة لا يعدو أن يكون حلما من  
أحلام اليقظة وكان اليأس مضيما على أفكارى تماما ، وذلك بسبب  
مشكلة المعادلات ، التى استغرق حلها ثلاث سنوات كاملة ، ومن هنا أذكر  
بكل العرفان جهود الأستاذين الدكتور بدرو مارتينيث مونتانيث عميد  
كلية الآداب ، بجامعة الأتونوما حينذاك ، ورئيس هذه الجامعة حاليا  
والدكتور لويس سواريث فرنانديث ، أستاذ ورئيس قسم تاريخ



المصور القديمة والوسطى بكلية الآداب ، في سبيل حل هذه المشكلة الادارية ، ومساعدتي على البدء في دراساتى العليا بالكلية في عام ١٩٧٧ •

أما في المجال العلمى فاننى أركز شكرى على ما قام به الدكتور غويس سواريث المشرف على هذا العمل ، أشكر له موافقته على اختيار الموضوع وتحمسه له ، والساعات الطويلة التى قضاهامعى نقاشا وبحثا ومراجعة وأعترف أنه كان المشجع فى لحظات اليأس ، والحافز فى أوقات الركود وأنه لولا جهوده ومتابعته ، لتأخر هذا العمل ، ربما لعدة سنوات •

ويدين هذا العمل بالفضل الى كثير من العلماء والباحثين من العرب والأسبان ، فلقد ساهم فيه بإبداء الآراء والاقتراحات مجموعة كبيرة من علماء الدراسات العربية الأسبان من العاملين فى الجامعات الأسبانية والمعهد الأسبانى العربى للثقافة بمدريد ، ومن المتخصصين فى الدراسات الأندلسية من كافة البلاد العربية وخاصة الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، مدير المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ، والذى أعطانى من وقته وجهده الكثير فى سبيل أعداد هذا البحث ، وللهؤلاء جميعا أدين بالكثير من التوجيهات والنصائح •

كما أوجه شكرى الخاص الى مكتبتين عظيمتين فى مدريد ، يرجع اليهما الفضل فى امدادى بكل المراجع التى استخدمتها فى هذا البحث - أقصد مكتبة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية ، ومكتبة المعهد الأسبانى العربى للثقافة ، فاليهما والى القائمين بالأمر فيهما عرفانى وامتنانى •

والى أصدقائى وزملائى الأسبان ، الذين تقبلونى جاهلا بلغتهم ، وبلدهم ، فعلمونى ، وساعدونى فى اجتياز كل الصعوبات التى واجهتها ، أشكرهم من أعماقى ، وخاصة الذين ساعدونى فى رسالتى هذه ، وحسنوا من مستوى ترجمتها الى الأسبانية •

وأعترف بالفضل الكبير لصديقي الباحث الأسباني لويس مولينا  
والزميلة الدكتورة مانويلا مارين ، الباحثة بالمعهد الأسباني العربي .

والى زوجتى العزيزة ، يرجع فضل كتابة هذه الرسالة على الآلة  
الكتابة العربية ، وسهرها الليلي الطويلة ، في فك رموز خطى الذى لا  
يقرأ ، ونقلها نقلا صحيحا ومنظما على الآلة الكتابة ، فلها منى الشكر  
والتقدير .

وأشكر بصفة خاصة الآنستين المودينا بيريل وأمبارو فارغاس اللتين  
تولتا كتابة الرسالة باللغة الأسبانية سواء عند عمل المسودات لعرضها  
على الأستاذ أو عند كتابتها للمرة الأخيرة .

وأحمد الله سبحانه على هذا التوفيق

محمد عبد الحيد عيسى

مدريد : أول فبراير ١٩٨٠ م .

تمهيد :

## المسرح الجغرافي

### شبه الجزيرة الأيبيرية :

هي واحدة من ثلاث شبه جزر تضرب في البحر المتوسط ، بارزة عن جسم القارة الأوروبية ، وأقصد بها كلا من شبه جزيرة البلاد اليونانية ، والبلاد الإيطالية ، والثالثة هي موضوع هذه الدراسة ، وتتشابه هذه مع زميلتيها في تلك الخاصة ، لكنها تختلف عنهما بخواص ذاتية مستقلة تجعل منها وحدة جغرافية ذاتية ، وتنبع هذه الخواص من موقعها الفريد في البحر المتوسط ومن هيئتها الخاصة .

وتشكل شبه الجزيرة الأيبيرية وحدة جغرافية متكاملة وواضحة ، حتى أنها تختلف عن كثير من البيئات المجاورة لها من الشمال أو الجنوب سواء من ناحية التضاريس أو من بعض تفصيلات المناخ السائد فيها . وتقع هذه المنطقة في أقصى الطرف الغربي لحوض البحر المتوسط ، وتحيط المياه بحوافها في  $\frac{3}{4}$  محيطها الكلي ، والباقي فقط هو الذي يربطها بجسم القارة الأوروبية ، حيث تقع سلسلة الجبال الشاهقة الفاصلة بينها وبين فرنسا .

ولا يتخذ سطح شبه الجزيرة لونا متجانسا ، بل على العكس من ذلك فإنه ينقسم الى عدد من الأقاليم الطبيعية المتباينة عن بعضها ، تتخللها مجموعة كبيرة من الجبال والمرتفعات والأودية والمنخفضات ، مما كان له أثره الكبير في مسار تاريخ هذه المنطقة ، ووضع مسألة الوحدة الذاتية والعنصرية لشبه الجزيرة الأيبيرية ، ويعبر عن ذلك أحد

الكتاب الأسبان ، قائلا « أننا في الوقت الذي نلاحظ فيه بسهولة ، الوحدة العضوية لشبه الجزيرة الأيبيرية ، نلمح أيضا سلاسل الجبال المتعددة ، والضاربة في أنحاء كثيرة منها ، والمختربة لها من طرف آخر ، مما يدفعنا الى التفكير في مسألة التمزق والتشتت الذي مارسه هذه السلاسل الجبلية داخل شبه الجزيرة على مدى القرون والأجيال » (١) .

وتقع شبه الجزيرة الأيبيرية بين خطى طول ٣٦ و ٤٤ شمالا ، وبين خطى طول ٣ شرق جرينتش ، و ٩ غرب أى أنها تقع في المنطقة المعتدلة الشمالية ويحيط بها المحيط الاطلنطى من الغرب . ويجدها من الشمال البحر الكانتابرى وجبال البرتات . والبحر المتوسط من الشرق والجنوب الى أن يتصل بالمحيط .

وتمتد شبه الجزيرة من الشمال الى الجنوب ٨٦٨ كم ، ومن الشرق الى الغرب ١٠٩٢ كم ، ومتوسط ارتفاعها عن سطح البحر ٦٦٠ مترا (٢) .

والمساحة الاجمالية لشبه الجزيرة الأيبيرية ٥٨١٦٦٦ كم<sup>٢</sup> ، تحتل منها البرتغال ، التى تقع في غرب اسبانيا ، ٨٨٧٤٠ كم<sup>٢</sup> فقط ، وتشغل اسبانيا باقى المساحة ، وهناك بعض الجزر الخارجة عن هيكل شبه الجزيرة وهى جزر البليار ، وأرخبيل الكنارى ومساحتها الكلية ١٢٢٨٦ كم<sup>٢</sup> (٣) . وأشير الى هذه الجزر هنا ، لأن المسلمين أقاموا في جزر البليار ، كما عرفوا الكنارى وأسموها ( جزر الخالدات ) .

ويتباين المناخ في شبه الجزيرة الأيبيرية حسب الموقع الجغرافى لكل اقليم ، وان سادته بصفة عامة السمات السائدة في منطقة البحر المتوسط . وقد يغطى هذا المناخ أيضا المناطق بالقرب من المحيط

(1) Saldevila; F. : Historia de España; 111.1

(2) Garangex, Ernesto : Nueva Geografia Universal;

111. 345.

(3) Sopena : Geografia de España: 1. 24.

Vila; Valentf : La Peninsula Iberica. p. 21.

الأطلنطى ، أما الأقاليم الشمالية فتنتسب الى مناخ وسط أوروبا .  
ويعطى ذلك كله أهمية خاصة لشبه الجزيرة ، كما أنه يتسبب فى تنوع  
نباتاتها ، وطبائع الانسان فيها ، وبالتالي تنوع الانتاج .

والأندلس ليس تعبير جغرافيا ثابتا ، بل هى كلمة تعنى مناطق أسبانيا  
الاسلامية ، سواء اتسعت هذه المناطق لتشمل كل شبه الجزيرة الأيبيرية  
تقريبا فى الأعوام الأولى من الفتح ، أو اقتصرت على مجرد مدينة غرناطة  
فى عام ١٤٩٢ م .

ففى أعوام الفتح الأولى ، كانت كلمة الأندلس تعنى شبه الجزيرة  
للأيبيرية تقريبا ماعدا الجزء الشمالى الغربى ، ثم بدأت الممالك الأسبانية  
المسيحية فى التشكل وبدأت حرب الاسترداد ، وبالتالي النمو المستمر ،  
ذلك النمو الذى كان يعنى فى الوقت نفسه تنحس الأرض الاسلامية ،  
أو تناقص المساحة التى تتضمنها كلمة الأندلس . وهكذا عند سقوط  
الخلافة القرطبية كان الخط الفاصل بين أسبانيا الاسلامية وأسبانيا  
المسيحية يمتد من جنوب برشلونة فى خط متعرج فى اتجاه الغرب حتى  
يلتقى مع المحيط الاطلنطى عند أعلى البرتغال الحالية تقريبا .

أما على عهد المرابطين والموحدين فان الأندلس كانت تدّ تناقصت  
كثيرا ، وانحصر الخط الفاصل الى الجنوب كثيرا ، وخاصة فى اقليم  
الوسط وأصبح لقاؤه مع المحيط ، يقترب من جنوب البرتغال الحالى .

ثم سقطت الدولة الموحدية ، وازدادت حركة الاسترداد بشدة ،  
واقصر الأندلس على مملكة غرناطة ، التى تآكلت قليلا ، حتى سقطت  
المدينة فى نهاية الأمر .

وقد اكتفيت هنا بهذا العرض الجغرافي ، الذي يحدد أن كلمة الأندلس ،  
أو تعبير أسبانيا الإسلامية ليس قاصرا على ما يعرف اليوم بـ ( أندلثيا )  
وانما هو كان يشمل كل المناطق التي خضعت للمسلمين ، أو بمعنى أدق ،  
المناطق التي صلت لسكنى المسلمين مسكنا دائما ، بصرف النظر عن  
خطوط الحدود العسكرية . أما الاستعراض التاريخي لهذه الفترة ، فأننى  
سأتناوله فى الفصل الخاص بالدولة والتعليم .

## المسألة الأولى

### الدولة والتعليم في الأندلس





## الفصل الأول

### منذ الفتح الى نهاية الدولة الأموية

#### (١) مقدمة :

إن العلاقة بين الدولة والعملية التعليمية ، تنبع من الدين الاسلامي ذاته ، حيث أن ذلك الدين ليس فقط شعائر يؤديها العبد نحو خالقه ، بقدر ما هو نموذج حياة متكامل ، يتناول كل ما يتعلق بالانسان نحو ربه ، ونحو نفسه ، ونحو الناس ، ويحدد كافة الحقوق والواجبات ، التي يجب على المؤمن اتباعها .

ومن هنا ، أقصد أنه انطلاقاً من تلك القاعدة ، قاعدة أن يدرك الناس قواعد دينهم ، وبالتالي أسس حياتهم ، ومنطلقهم التي تكوين شخصيتهم داخل المجتمع ، ومن ثم صياغة هذا المجتمع على أسس تتلاءم وقواعد دينهم ، كان لابد من التعليم ، ولابد من التربية المتكاملة للناس وتعريفهم بهذه الأسس والقواعد التي يجب عليهم الانطلاق منها الى كافة باقى مظاهر حياتهم الأخرى . إذا فالعلاقة بين الدين الاسلامي والتعليم هي علاقة عضوية ، علاقة يمكن أن نقودنا الى القول ، بأن الدين في حد ذاته ليس الا عملية تعليمية ، بدأ بأمر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم أن ( اقرأ باسم ربك الذي خلق ) (١) ، ثم استمر بعد ذلك يتولاه ، عن طريق الوحي ، بتعليمه وتوجيهه ، حتى أكمل تعليمه ، أو ان شئت أكمل له دينه . حين قال :

(١) القرآن الكريم : سورة العلق رقم ٩٦ .

( اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام ديناً ) (٢) ومن هنا يمكن لنا تفهيم قول الصوفى المرسى الكبير ، الشيخ محبى الدين بن عربى ( توفى ٥٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م ) حين يقول :

( اعلم أن العلم على الحقيقة هو الله ... أول أستاذ فى العالم ، العقل الأول ... فطم آدم الأسماء كلها المتوجبة عن ايجاد العالم العنصرى ، وعندما عجزت الملائكة عن معرفة الأسماء علمها لهم آدم ، فصار أستاذا لهم ، وورث آدم فى العلم الأنبياء فصاروا أساتذة البشرية ، وورث الأنبياء الأولياء ، والله يعلم الأنبياء والأولياء ، بالوحي الالهى ، أو عن طريق الملائكة ، وهؤلاء يعلمون تلاميذهم مباشرة أو عن طريق الأحياء والتأثير النفسى » (٣) .

تلقى الرسول صلى الله عليه وسلم ، تعليمه من ربه ، والتكليف بأن يتولى تعليم الناس ذلك ، فقام بذلك ، بادئا بأصحابه وأقربائه المقربين أمراً إياهم نقل ذلك الى الناس ، وأن يقوم هؤلاء بتعليم غيرهم ، قائلاً صلى الله عليه وسلم :

« ما من شئ أعظم عند الله من رجل تعلم علماً ، فعلمه للناس » (٤) وهو القائل أيضاً : « خير الناس ، وخير من يمشى على حديد الأرض المعلمون » .

ولم يقنع رسول الله بأمر أصحابه بالقيام بالتعليم ، بل انه اهتم اهتماماً كبيراً بهذا ، وله عليه الصلاة والسلام من الأحاديث والأقوال

(٢) القرآن الكريم : سورة المائدة رقم ٤ الآية ٣ .

(٣) ابن عربى : الشيخ محبى الدين ، الفتوحات المكية ، ج ٢ ،

ص ٢٣٩ ، ٣٤٠ .

(٤) ابن خير الاشبلى : نبرست ابن خير ، ص ١١ .

الحائثة على ذلك ، مما ذكر بعضه في فصل آخر ، ولمن يرغب الاطلاع على ذلك بتوسع ، فعليه مراجعة بعض الكتب الآتية : « أخلاق العلماء » للأجري ( ٣٦٠ هـ - ٩٧١ م ) (٥) ، و « فتح المجيد » لعبد الرحمن آل الشيخ ( ١٢٥٨ - ) (٦) ، و « جامع بيان العلم » لابن عبد البر ( ٤٦٣ هـ - ١٠٧٠ م ) (٧) ، و « تذكرة السامع والمتكلم » لابن جماعة ( ٧٣٣ هـ - ١٢٣٢ م ) (٨) ، و « الأحياء » للغزالي ( ٥٠٥ هـ - ١١١١ م ) (٩) .

ولست بمستطيع أن أجمع ، ولو قليلا مما كتب في هذا المجال ، لسعته وكثرته ولكن ذلك هو الذي دفع بالتعليم دفعا لكي ينتشر في كل مكان وصل اليه الاسلام ، وجعل « العلم يثب على قدميه وثبا في كل موضع وطأته قدم الفتح العربي » (١٠) .

كان الرسول عليه الصلاة والسلام هو المعلم الأول في الاسلام . وكان هو أيضا الحاكم الأول ، وحيث أن الرسول هو المثل الأعلى ، كان على من يأتي بعده أن يتولى نفس المهام التي كان عليه توليها . ولذلك فالخليفة هو الحاكم السياسي ، وهو في ذات الوقت الامام الروحي ، ومسئوليتهم عن تعليم شعوبهم ، نابعة من كون امامهم الأول ، الرسول ، كان هو المعلم الأول . والمسئولية أيضا في هذا المجال ، هي مسئولية كل

(٥) الاجري : أبو بكر بن الحسين ، اخلاق العلماء - القاهرة ، ١٢٤٩ هـ - ١٩٣١ م .

(٦) آل الشيخ : عبد الرحمن بن حسن ، فتح المجيد ، وشرح كتاب التوحيد - الرياض .

(٧) ابن عبد البر : أبو عمر يوسف ، جامع بيان العلم وفضله - القاهرة .

(٨) ابن جماعة : بدر الدين ابراهيم بن جماعة ، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم ، حيدر آباد ، ١٢٥٢ هـ .

(٩) الغزالي : أبو حامد ، احياء علوم الدين ، ج ١ ، بيروت .

(١٠) سليم طه : التفریب وکبار المربين في الاسلام ، ص ٢٣٩ ،

مجلة سوسر ، ج ١ و ٢ ، المجلد ٢٣ عام ١٩٧٦ .

من تولى الحكم سواء كان خليفة أو أميرا أو مجرد حاكم في منطقة ما . تلك هي القاعدة ، ولكن الخلاف هنا في ممارسة هذه المسؤولية ، وإن كانت الممارسة قد تباينت من فترة الى أخرى ، ومن اتليم الى آخر .

وإذا ما كانت الأحداث السياسية أو غيرها ، قد حجب مسؤولية الحاكم عن العملية التعليمية ، أو أن الحاكم في فترة من الفترات أهملوا هذا الواجب انديني ، فإن ذلك لا يعنى انتفاء المسؤولية أو عدم وجودها .

وإذا كان الرسول قد مارس التعليم ، بمعنى تعليم الاسلام للناس ، الا أنه أعطى لهذا المعنى بعدا آخر تتجلى فيه مسؤولية الحاكم تجاه تعليم شعبه ، أقصد بذلك أن الرسول عليه السلام قد جعل تعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة فداء لأسرى معركة بدر<sup>(١١)</sup> .

وفي البلاد العبد الحديثة بالاسلام ، تتجلى مسؤولية الحاكم في هذا المجال فعليه مسؤولية تعليم الناس قواعد الدين الجديد ، ولا يقتصر الأمر على الحاكم فقط ، وإنما يتعداه الى كل مسلم عالم ، الى كل انسان يمكن له أن يعلم ، فـ « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته »<sup>(١٢)</sup> . ولعل ذلك يعطينا تفسيراً لتلك العملية المعقدة التي تنقلنا اليها كتب التراجم والتي تصور لنا حلقات التعليم ، ومجالس المناظرة ، وجلسات المعلمين وكأنها خلايا نحل ، لا ينفخ الطلبة من حولها . وحرص الناس ، من كافة الطبقات على أن يكون معلما أو متعلما وعلى

---

(١١) الداودي : كتاب الاموال ، المخطوط رقم ١١٦٥ الأوسكوريال ، الورقة ٣١ .

محمد عبد الحميد ، تدخل الدولة في نظام التعليم بالاندلس ( محاضرة لم تنشر ) ، وانظر التطبيق على هذه المحاضرة بـ « انريكا » بقلم الأستاذ ماريانو أروبياس ، ص ٩١ ، العدد ٤٣٥ لسنة ١٩٧٨ م .

(١٢) مسلم : صحيح مسلم ، الامارة ٢٣ ، خوستيل ، ص ٢٢٤ .  
الرجراجي ، رسالة دكتوراه ١٩٧٤ ، ص ٢٢ .

أن يقول لغيره ما يعلمه وما سمعه ، وأن يسمع من ذلك أيضا ما يعلمه وما يسمعه ، امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم في وصية له لابن عمه على بن أبى طالب ، حيث يقول : « يا على ، كن عالما ، أو متعلما ، أو مستمعا ، ولا تكن الرابع ختيك » (١٣) .

وقد اصطبغت العملية التعليمية في هذه الفترة المبكرة ، بالطابع الدينى ، أى أننا أهتمت بالعلوم الدينية ، وتعليم الناس الدين الجديد . هذه هى القاعدة العامة — على ما أرى — فى كافة بلاد العالم الإسلامى والتي حكمت أيضا المنهج والمحتوى التعليمى الذى يجب أن يسود هذه الفترة المبكرة جدا ، من تاريخ التعليم فى الإسلام .

ولكن الأمر لم يستمر على ذلك مدة طويلة ، لأن الإسلام ، انتشر بصورة سريعة جدا فى مناطق ذات حضارة قديمة ، فقد تمكن من افتتاح بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا غربا ، وبلاد العراق وفارس ومنطقة وسط آسيا حتى حدود الصين شرقا . نعم انتشر الإسلام بسرعة غريبة ، وفى فترة لا تزيد على قرن واحد من الزمان على مساحة واسعة جدا من الأرض ، معمورة السكان ، قديمة الحضارة ، ولها صلة واسعة بالعلم والتعليم من قبل الإسلام ، بل لها علومها الخاصة بها التى كان لابد وأن تتفاعل مع العلوم الجديدة ، وتؤثر فيها أيضا . لأن العرب قد أقبلوا على ترجمة هذه العلوم الى اللغة العربية ، مما جعل المنهج التعليمى يمتد ليشتمل على علوم عقلية وفكرية وفلسفية مختلفة .

---

(١٣) من وصايا النبى لابن عمه على بن أبى طالب ، المخطوطة رقم ١٨٧٤ ، مكتبة الأوسكوريال — وجه الورقة رقم ٣ ، وانظر أيضا الترجمة التى نشرها ليدى الوصايا الدكتور براوليو خوستيل بمجلة « مدينة الله » الأوسكوريال ، الممدد (١) المجلد ١٩٢ عام ١٩٧٩ ، والبسيوى : مختصر البسيوى ، ص ٧ .

إن ظاهرة السرعة التي تمت بها الفتوحات الإسلامية خارج شبه الجزيرة قد حيرت كثيراً من المطلقين والمؤرخين حيث أجمعوا تقريباً على أرجاعها إلى العامل الاقتصادي أو لعامل إنتاج أو لأية عوامل أخرى (١٤) . ولكن أحداً من غير المسلمين لم يعط اهتماماً إلى الجانب الروحي في عملية التوسع الإسلامي . لقد سبق لي القول بالتكليف الديني لعملية التبليغ ، وتعليم الآخرين الدين الجديد ، وهو عامل حاسم وهام دون أعمال للعوامل الأخرى السياسية والاقتصادية . ويخلص الدكتور « محمد غلاب » المؤرخين التكررتين اللتين سبقت الإشارة إليهما بقوله :

« يعرف جميع المتقنين أن الأمة العربية وثبتت إلى الأملم يد الإسلام وثبتت هاتين ، أحدهما على أثر اتساع القرآن في جياتنا »

(١٤) انظر في ذلك - على سبيل المثال - بعض الأعمال التاريخية مثل :

- الويس سواريث فرنانديث ، « مجلد التاريخ العالي » : ج٢ « العصور الوسطى » ، ط ٢ ، مدريد ١٩٧٢ .

Suarez Fernandez, Manual de Historia Universal  
Tomo III, Edad Media.

- وانظر أيضاً في هذا المجال المؤرخ الأسباني « رافائيل التليال » في كتابه :

Altamira, Historia de España y de la Civilización  
Española, Madrid, 1913.

- أيليو ميرا : السبانيا العصور الوسطى -  
Mir, Emilio : La España Medieval.

- خوان بيرنيت : « المسلمون الأسبانيون »  
Juan Vignier : Los Musulmanes Españoles.

- خاكوس مير : « تاريخ العصور الوسطى »  
Jaques Mir : Historia de La Edad Media.

- الطونيو بلانكو : « مجلد علم التاريخ الأسباني »  
Blanco, y Beretta : Síntesis de Historia de España.

النظر في الكون العام ، وفي النفس الانسانية ، وفي الأسباب والمحيطات  
ثانها بعد فلسفة ، وعداها بعد حيرة ، فيه الشرآن فكان  
محبنا انار لمقدريه بسين الحكمة ، فاختدوا ينتجعونها ويتطلعون  
اليها في شوق وشغف ففازوا منها بحظ وافر ، هذه هي الوثبة الأولى ،  
أما الثانية فقد كانت بعد نقل الحكمة والعلوم الأجنبية إلى العربية<sup>(١٥)</sup> ،  
ثم بعد ذلك ينتقل إلى تفصيل أنواع الدراسات المنبثقة عن القرآن ،  
وعن العلوم الأخرى ، وليس ذلك مجالنا الآن ، فلنعد إلى أسبانيا ،  
لنرى كيف انطبق ذلك عليها في الناحية التعليمية ، وماذا تفردت به داخل  
هذا الإطار العام .

#### (ب) التعليم في عصر الولاة ( ١٢٨/٩٥ هـ - ٧٥٦/٧١٤ م ) :

وببدأ عصر الولاة في أسبانيا الاسلامية ، بعد الفتح الاسلامي ،  
وعودة القائدين ( موسى بن نصير وطارق بن زياد ) إلى دمشق ، وتعيين  
الأمير عبد العزيز بن نصير ، واليا على الأندلس في عام ٦٩٥ هـ - ٧١٤ م .  
الذي تولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، المعروف بالداخل مقاليد  
الحكم في قرطبة عام ١٣٨ هـ - ٧٥٦ م .

وتتميز هذه الفترة المبكرة من تاريخ الإسلام في أسبانيا ، بالصراع  
الدموي بين القبائل العربية ، وبين العرب والبربر ، خلاوة على أنها  
فترة تشيبت الإسلام في أسبانيا ، وعلى الرغم من ذلك ، فإننا يمكن أن  
نتبين بعض ملامح الحركة التعليمية فيها .

يتفق المؤرخون على أن الجيوش الاسلامية التي توجهت لفتح  
شمال أفريقيا وبعد ذلك توجهت لفتح الأندلس كانت مصحوبة بمجموعات من  
الصحابة والتابعين ، وخاصة التي فتحت شمال أفريقيا ، أما تلك  
الجيوش التي دخلت الأندلس ، فمن المترك فيها كذا جدا أن يكون

(١٥) بحث فلاح في المعركة عند الرند ، ص ٢٨٩ .

قد رافقها أحد من الصحابة ، أما التابعون ، فلا شك في عبور بعضهم —  
يحدددهم لنا المؤرخون بأعداد مختلفة ، ولا يتفقون على رقم معين في  
هذا المجال ومنهم :

• محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري

• حنش بن عبد الله الصنعاني

• عبد الرحمن بن عبد الله الخافقي

• زيد بن قاثد السككي المصري

• موسى بن نصير (١٦)

كما أن هناك عددا آخر من التابعين قد دخلوا الى الأندلس .

ووردت أسماءهم في مدونات أخرى ، حيث يذكر « أن موسى بن  
تصير قد سار الى الأندلس في عشرة آلاف فارس ، وكان معه من  
التابعين — رضى الله عنهم — حنش بن عبد الله الصنعاني ، وأبو  
عبد الرحمن بن عبد الله الجبلي وعبد الرحمن بن شماسه المصري ،  
وأبو النضر جيان بن أبي جبلة في عشرين رجلا منهم » . ويؤيد ذلك  
الحميدي بملاحظة يقول فيها ، أن عبد الملك بن حبيب ( ١٧٩ — ٢٣٨هـ /  
٧٩٦ — ٨٥٣م ) — يؤيد ذلك العدد بقوله « ودخل الأندلس من التابعين  
سوى من لا يعرف — نحو من عشرين رجلا ، بهؤلاء وغيرهم ، أتى  
موسى بن نصير » ( ١٧ ) .

( ١٦ ) ابن حجر العسقلاني : تهذيب التهذيب ، ج ٣ ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

( ١٧ ) الحميدي : جذوة المتقوس ، ص ٧ .

ابن حجر : تهذيب التهذيب ، ج ٦ ، ص ٨١ و ١٩٥ .

ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ٤٩ .

المراكشي : عبد الواحد ، المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، ص ٨ .

محبول المؤلف : وصف جغرافية الأندلس . المخطوطة رقم ٣٦ بالمعهد  
المصري للدراسات الإسلامية بمديرد .

الأوسى : حكيت على ، نصول في الأدب الأندلسي ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

مؤنس : حسين . نجر الأندلس ، التعليقات ، ص ٩١ .



وملاحظة ابن حبيب « سوى من لا يعرف » ، تبين أن هناك غيرهم آخرين قد دخلوا الى الأندلس • وربما دخل الأندلس بعد الفتح مجموعة أخرى من التابعين •

ولقد كانت المهمة الرئيسية لهؤلاء التابعين هي تعليم الناس الدين الاسلامي واللغة العربية • ومن هنا يمكن القول بأن التعليم قد بدأ في الأندلس مع الفتح مباشرة ، وإن اتسم بطابع القلة والبساطة وتركز في تعليم اللغة العربية والدين الاسلامي للسكان الجدد •

ويصف الدكتور ( هيك ) هذه الفترة بأنها كانت شديدة التواضع وأن حلقات التعليم فيها « لم تتجاوز حلقات في بعض المساجد ، التي كانت قليلة جدا حينذاك ، كما كان الأساتذة قليلين بطبيعة الحال » (١٨) •

ولقد بينت في رسالتي الصغرى — بنوع من التفصيل — كيف أننا نجد بعض بدايات التعليم الأولى ، وبعض الاشارات الى ظهور المكاتب ، مبينا أن الفترة الزمنية لظهور المكاتب في الأندلس ننجاور السنوات العشر الأولى من تاريخ الفتح (١٩) •

ولم تقتصر علاقة الدولة بالتعليم في هذه الفترة ، على قيام هذه المجموعة من القادة الدينيين بالتعليم فحسب ، بل أننا نجد بدايات الاهتمام من الأمراء بالتعليم ، متمثلا في الزيارة التي قام بها الصميل ، لمعلم يعلم الأطفال ، ومناقشته اياه في آية قرآنية ، كان المعلم يقرأها للأطفال (٢٠) • وسأشير الى هذه القصة ، ضمن حديثي عن بعض مظاهر تدخل الدولة في التعليم ، في نهاية هذا الباب •

---

(١٨) هيك : احمد عبد المقصود ، الادب الاندلسي ، ص ٦٥ •

(١٩) محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس منذ الفتح

حتى الخلافة ، ص ٤٥ — ٤٩ •

(٢٠) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق عبد الله الطباع ،

ص ٦٣ ، طبعة كوديرا ، ص ٤٠ •

ولقد شهدت هذه الفترة قدوم دفعات جديدة من العرب ببعضهم جاء نتيجة صدق فتح الأندلس في العالم الاسلامي ، وبعضهم جاء ضمن القوات التي كان يسلها حكام دمشق الى أسبانيا ، وبعضهم جاء يدفعه الحماس الديني للقيام بعملية تعليم اللغة ونشر الدين .

ولقد ساعد على ذلك أن بلاد الأندلس قد اقيمت قبولا كبيرا من العرب ، حتى أنهم شبهوها ببلادهم الأصلية ، والبلاد المجاورة لهم . ولقد نقل المقرئ وصف البكري ( ٤٣٣/٥٨٧هـ - ١٠٤١/١٠٩٤م ) قائلا :

« الأندلس شامية في طبيعتها وهوائها ، يمانية في اعتدالها استوائها ، عذبية في عطرها وزكائها ، أحوازية في عظم جبايتها ، صينية في جواهر معادنها ، عذبية في منافع سواحلها » (٢١) .

ولقد شهدت أرض الأندلس في هذه الفترة في المجال التشريعي انتشار مذهب « الأوزاعي » ( عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ، ولد عام ٨٠ من الهجرة ٧٠٧ ميلادية ، وقضى معظم حياته في سوريا ، وتوفي في عام ١٥٧ هجرية ٧٧٧ ميلادية ودفن في بيروت ) ، الذي ساد وانتشر وسيطر على الحياة التعليمية فيها .

ويرجع الدكتور محمود على مكي أسباب احتلال هذا المذهب مكانا مؤثرا في الحياة التعليمية الأسبانية الى « أنه خلال الفترات الأولى من حياة أسبانيا الاسلامية ، فإن هذا البلد تابع بأمانة ، التقاليد والعادات الشامية في كل مظاهر الحياة » (٢٢) .

(٢١) المقرئ : ازهار الرياض في أخبار التفاضل عياض - ج ١ ، ص ٦٠ ، ويمكن الاطلاع على ترجمة للبكري في كتاب تاريخ الجغرافيين الجغرافيين في الأندلس للدكتور حسين مؤنس ، ص ١٠٨ - ١٤٨ .  
(٢٢) محمود على مكي : التيارات الثقافية الشرقية وأثرها في أسبانيا الاسلامية ، ص ١٢٨ .

Makky, Mahmud : Ensayo Sobre Las Aportaciones  
Orientales En La España Musulmana  
y su Influencia en la formación de la cultura.

ويدل على انتشار المذهب الأوزاعي ، بذاية بعض الرحلات من الطلبة الأندلسيين الى بلاد الشام ، واستمرار تدفق العلماء من المشرق الى الأندلس ، هذا ولقد أشار الدكتور محمود مكي تفصيليا ضمن رسالته للدكتوراه ، التي قدمها لجامعة مدريد ، والمنشورة بالمعهد المصري للدراسات الاسلامية بمadrid ، الى التيارات الثقافية المشرقية وتأثيرها في تكوين الثقافة الأندلسية ، ومن المستحسن ايراد بعض الأسماء التي أوردها كتب التراجم في هذا المجال تاركا لمن يرغب الاستزادة ، قراءة رسالة الدكتور محمود على مكي - يقول الحميدى عن معصعة بن سلام ( توفي ١٩٢ هـ / ٨٠٩ م ) « أندلسى فقيه ، من أصحاب الأوزاعى ، وهو أول من أدخل الأندلس مذهب الأوزاعى » (٣٣) .

هذا ولقد عاش هذا المذهب بعد ذلك في الأندلس فترة طويلة رغم سيادة المذهب المالكي على عهد الامارة ، حيث نجد « زهير بن مالك البلوى ( ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م ) من أهل قرطبة كان فقيها على مذهب الأوزاعى على ما كان عليه أهل الأندلس قبل دخول بنى أمية » (٣٤) .

أما عبد الملك بن الحصن بن محمد بن زريق ، فكان يغلب عليه « مذهب الأوزاعى وكان الأغلب عليه الفقه ولم يكن من أهل الحديث » (٣٥) .

كما أنه لا شك أن هذه الفترة قد شهدت جهودا كبيرة في نقل علوم اللغة العربية والدين الاسلامى الى أسبانيا ، مما أمكن له أن يترك آثاره على الفترات الزمنية اللاحقة ، والتي شهدت نهضة ثقافية

(٣٣) الحميدى : جذوة المتنبى ، ص ٢٢٧ .

(٣٤) ابن النضرى : علماء الأندلس ، ص ١٨١ ، والحميدى ،

ص ٢٠٥ .

(٣٥) ابن النضرى : علماء الأندلس ، ص ٢٢٥ ، والحميدى .

ص ٢٦٣ .

عامة خلال عصر الامارة ، ومما يفسر لنا وجود عدد كبير من التفتاء  
والعلماء على عصر عبد الرحمن الأول و خلفائه (٢٦) .

ويمكن القول باختصار أن التعليم في هذه الفترة ، قد اتجه أول  
ما اتجه الى تعليم الكبار ، حيث بدأ بهم ، يعلمهم اللغة العربية والدين  
وبعد ذلك بدأ ظهور المكاتب لتعليم الأطفال .

(د) عصر الامارة ( ١٣٨ - ٢١٦ هـ ، ٧٥٦ - ٩٢٩ م ) :

اضطربت الأمور في الدولة الأموية وسقطت في عام ١٣٣ هـ /  
٧٥٠ م ، وقامت مقامها دولة جديدة هي الدولة العباسية . وحيث أن  
الصراع بين الأسترتين الأموية والهاشمية صراع قديم ، فان تولى  
احدهما السلطة كان يعنى بالنسبة للأخرى المطاردة والحرمان .

ولقد كان وصول الأمويين الى السلطة ، بعد مقتل على بن أبى طالب  
يعنى حرمان أسرة بنى هاشم ، وخاصة أبناء على بن أبى طالب ، من حق  
كانوا يطالبون به باستمرار ، وطاردهم الأمويون بكل العنف والقسوة ،  
مما تسبب في اتحاد كلمة الأسرة الهاشمية في العمل على القضاء على  
الأمويين وساعدهم على ذلك جمهور كبير وخاصة موالى الخرس حتى  
تمكنوا من اسقاط الدولة الأموية ثم انفرد العباسيون بالحكم دون  
العلويين ، وتولوا مهمة القضاء المبرم على الأسرة الأموية . تمام  
العباسيون بتلك المهمة بكل جد ونشاط ، وحاولوا بكل الوسائل التخلص  
تماما من الأسرة الأموية ، مما تسبب في هربهم وتشتتهم واختفائهم  
في كل مكان .

وانصب الاضطهاد أيضا على أنصار الدولة الأموية ، وعلى كل

(٢٦) انظر بعض التفاصيل عن الحياة الاجتماعية والثقافية في كتاب  
« الدكتور حسين مؤنس عن نجر الأندلس » .

من كان يعمل في خدمتها ، مما تسبب أيضا في هروب واختفاء عناصر كثيرة من هؤلاء .

ومن الذين تمكنوا من الهرب ، الأمير عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل أو بعبد الرحمن الأول (١١٣/١٧٢ هـ - ٧٣٢/٧٨٨ م) ذلك الأمير الذى تمكن بسياسة وصبره ، وحسن تدبيره أن يصل الى الحكم فى قرطبة وأن يؤسس لبنى أمية دولة فى الأندلس ، تعمل على أن تضم بقايا من نجا من الموت من الأمويين .

وليس هنا مجال الاستطراد فى سرد الأحداث التاريخية التى أدت وتلت سقوط الدولة الأموية فى المشرق ، ولا كيفية إعادة ارساء قواعد دولة أموية جديدة فى الأندلس ، لأن ذلك الموضوع عالجه كثير من كتب التاريخ وكتب فيه المؤرخون سواء من العرب أو من غير العرب . وما يهمنى فى هذا المجال إبراز نقطة اعتبرها هامة ، وكان لها تأثيرها على المستقبل الثقافى والعقل فى الأندلس فيما بعد .

يجمع كثير من المؤرخين على أن الدولة الأموية كانت دولة عربية أى أن عمادها كانوا العرب بينما الدولة العباسية كانت دولة اسلامية . أى أن عمادها كانوا المسلمين . وحيث أن أنصار الدولة الأولى كانوا نتيجة لذلك من العناصر العربية الصرفة ، فان مطاردة العباسيين انصبحت على جانب كبير من العرب - صنائع وموالى الأمويين ، مما جعلهم يهربون الى مكان لا تحمل اليهم فيه يد العباسيين .

ان نجاح عبد الرحمن الداخل فى الوصول الى الأندلس . وتأسيس دولة هناك ، فتح الباب على مصراعيه أمام هؤلاء الفارين . لى يجدوا عنده الملاجئ والأمان . وساعد ذلك على هجرة المزيد من المشرقيين ، بكل ما يحملونه من علوم ومن حياة اجتماعية ومستوى ثقافى.

الى الأندلس مما قدم زادا جديدا للثقافة والحياة التعليمية على أرض الأندلس ، ويشاركنى فى ذلك بعض الكتاب حيث يقول أحدهم :

« وليس من شك فى أن شطة الثقافة الأندلسية قد ذكت عندقدوم كثير من الأمويين وأشياعهم الذين كانوا على قدر كبير من الثقافة • وليس من شك أيضا فى أن وفودهم على الأندلس ، وطأ للثقافة سبيل الانتشار والذيوخ » (٢٧) ، ويقول آخر « ان من نتائج سياسة عبد الرحمن الداخل ، أن أخذت وفود المهاجرين الأمويين تنثال على بلاد الأندلس لدعم الدولة الناشئة وتعزيزها ، وكون الروانيون ما يمكن أن نسميه اليوم بالطبقة الأرستقراطية أو الخواص » (٢٨) •

لقد شهد حكم عبد الرحمن الداخل الكثير من المشاكل السياسية، وتميز بالحروب الكثيرة من أجل تثبيت سلطان بنى أمية فى الأندلس ، ولكنه لم ينس فى غمار ذلك كله ، أن يرتفع بمستوى شعبه وعاصمته الى درجة كبيرة ، فعمل على تأسيس المساجد والمباني ، وإنشاء عدد من الخواص ، وإن كان أهم ما قام به هو إنشاء عدد كبير من المساجد وخاصة بدء بناء مسجد قرطبة الجامع ، الذى سيصبح فيما بعد أكبر منار للعلوم فى الغرب الاسلامى على الاطلاق • ومع التسليم بأن كل مسجد كان مركزا ومكانا للتعليم ، ومكانا لتدريس القرآن والسنة النبوية ، يمكننا أن نحكم على الحركة التعليمية على عهد عبد الرحمن الداخل بأنها حركة نشطة وحية • قال بعض من أرخ للأندلس :

« انتهت مساجد قرطبة على أيام عبد الرحمن الداخل الى أربعمائة

---

(٢٧) الريسونى : الادب النسوى فى الأندلس ، ص ١٠٦ •  
 محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم فى الأندلس — ماجستير  
 ( لم تنشر ) ، ص ٤٩ •  
 (٢٨) جودت الركابى : فى الادب الأندلسى ، ص ١٦ •

وتسعين مسجدا ، ثم زادت بعد ذلك كثيرا » (٢٩) •

ولقد اهتم عبد الرحمن بالقادمين الى الأندلس ، وجعل ديوانا خاصا لهم حيث يتصل علينا صاحب كتاب ( أخبار مجموعة ) أنه :  
« كتب الى عبد الرحمن بن معاوية بعض من وفد عليه من قريش ، يستنسرده نبيما يجريه عليه » (٣٠) •

اهتم الأمير عبد الرحمن كثيرا بالعلماء وعلماء الدين ، وتقدمت الدراسات على عهده تقدما كبيرا ، وزادت الرحلات الى المشرق من الذين أتموا تعليمهم الأولى في الأندلس وظهرت في مجالس التعليم في القيروان والاسكندرية والفسطاط ، ودمشق وبغداد ، ومكة والمدينة ، أسماء طلبة من الأندلس ، خرجوا أساسا للعلم ولأداء فريضة الحج ، فنجذبهم المجالس العلمية في المدن التي مروا بها ، فجلسوا يتعلمون ، يكتبون الكتب ، ويحملونها معهم أثناء عودتهم مع ما يمكنهم الحصول عليه من الكتب المكتوبة في البلاد التي مروا بها •

ويمكن القول بأن عدد الطلبة الذين تعلموا على عهد عبد الرحمن الداخل كان كبيرا جدا ، لأن هؤلاء استطاعوا أن يتحكموا في الدولة تماما على عهد الأمير هشام ( ١٧٢ - ١٨٠ هـ / ٧٨٨ - ٧٩٦ م ) وأن يثوروا في سنة ٢٠٢ هـ / ٨٠٨ م ، ثورة عنيفة على الحكم بن هشام المعروف بالحكم الربضي ( ١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢ م ) ، فاذا تذكرنا أن حكم هشام قد استمر حوالي ثمانى سنوات ، وأن هذه الثورة وقعت في تباينات حكم الأمير الحكم — بعد حوالي اثنين وعشرين عاما من حكمه — أدركنا أن غالبيتهم قد بدعوا تعليمهم ودراساتهم ، على عهد عبد الرحمن الداخل الذى استمر حكمه لأكثر من ثلاث وثلاثين سنة •

---

(٢٩) التبرى : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٧٨ ، طبعة القاهرة .

(٣٠) مجهول : أخبار مجموعة ، ص ١٦ .

وإذا كان عبد عبد الرحمن الداخل على الرغم من اتسامه بالاضطرابات والمشاكل السياسية ، قد وجدت فيه هذه البدايات التعليمية الحسنة ، فإنه استطاع أيضا أن يمهّد الطريق لفترة سلام وازدهار طيبة على عبد ولده هشام الذي حكم خلال المدة من ١٧٣ الى ١٨٠ هـ ( ٧٩٦/٧٨٨ م ) .

يجمع كثير من المؤرخين على أن الأمير هشام قد نهض بمدينة قرطبة ، فعمل على تجميلها ، وزينها بالحدائق والبساتين والمباني الجميلة ، وزاد في مسجد أبيه ، وشيد غيره من المساجد في أنحاء البلاد ، وعنى بنشر اللغة العربية وتدريسها (٣١) .

ويصف سانشيث البرنوس الأمير هشام بأنه : « ورع ، عادل وإن كان قليل السلطة ، ليس بالفتى المنتظر لاكمال عمل والده عبدالرحمن الداخل ، الجسور القاسى ، وعلى الرغم من ذلك فإن هشام أظهر حزما ونشاطا في مواجهة المشاكل التي واجهت خلافته لأبيه » . وخالف بعض ما فطر عليه في مواجهة أحداث أدت الى تثبيت دولته ، وحيث أن الشعوب تحتاج الى فترات هدوء وراحة بعد الأحداث الدامية التي تجتاحها زمنا من التاريخ ، فاننا نجد الأمير هشام ، بعد أن يقضى على تمرد اخوته والناظرين ، وبعد ثباته على العرش ، يعود ليؤكد تقواه وورعه الدينى . لقد اهتم بالجهاد ضد المسيحيين لكي ينشر كلمة الله

---

(٣١) انظر في ذلك :

الحمدى : جذوة المقتبس ، ص ١١ .

الحجى : عبد الرحمن ، التاريخ الأندلسى ، ص ٢٨٢ ، وكذلك

ص ٢٨٧ .

عنان : محمد عبد الله ، دولة الاسلام فى الأندلس ، ج ١ ،

ص ٢٢٩ .

غنيم : عبد الشافى ، محاضرات فى تاريخ المغرب والأندلس .



الواحد . لقد حاول أن يخلل قرطبة ، بل أسبانيا كلها دين الله الإسلامى ، ودعا الناس للصلاة فى المساجد ، وكان عادلا جدا » (٢٢) . ولقد تعود على أن يرسل فى الليالى الباردة أكياسا من الدراهم للذين يمكنون فى المساجد ، يعبدون الله سبحانه وتعالى .

وعهد هشام الرضى ، كما كان يسمى ، يعتبر فترة حاسنة فى مجال التعليم فى الأندلس ، فلقد كان الأمير نفسه ، مهتما اهتماما مباشرا بالعلماء والفقهاء مانحا إياهم كل ما يستطيع من حماية وتأييد ، وكان له ديوان أرزاق ، لتوزيع عطائاه ، حتى أنه « لم يقتل أحد من جنده فى شيء من ثغوره أو جيوشه ، إلا وألحق وأدبه فى ديوان أرزاقه » (٢٣) .

ويقول عنه ليفى بروفنسال :

« ان تقاه وورعه واتساع ثقافته ، قد جعله يميل باستمرار الى التعامل مع فقهاء قرطبة الذين أتاحت لهم ، بمناسبة الحج ، زيارة الأماكن المقدسة الإسلامية . »

ولقد شجع كثيرا خلال مدة حكمه ، زيارة مواطنيه ، لهذه الأماكن ، واهتم شخصا بأن يعمل هؤلاء على أن يحضروا الى أسبانيا ، آخر ما وصلت اليه العلوم الإسلامية فى المشرق » (٢٤) .

**انتشار المذهب المالكي :**

ولا ينكر أحد اهتمام هشام بالتعليم والعلماء ، والبحث على ذلك وإلى عهده ينسب انتشار المذهب المالكي فى الأندلس وسيطرته على

(٢٢) سانشيت البرنوس : اسبانيا الإسلامية ، ص ١٤٧ .  
Sanchez Albornoz : La Espania Musulmana, 1 ; 147.

(٢٣) مجهول المؤلف : أخبار مجموعة ، ص ١٢٠ .

(٢٤) ليفى بروفنسال : اسبانيا الإسلامية ، ص ١٤٧ .

طريق التعليم

الحياة التشريعية والتعليمية \* ولهذه الظاهرة أهمية كبرى ، خاصة على الحياة التعليمية في مراحلها المتوسطة والعليا ، لأنه إذا كان صحيحا أن الوظائف في الدولة قد قصرت على أتباع هذا المذهب ، فإن ذلك يدفع بالجميع الى دراسة المالكية ، وبالتالي فإن التأليف سوف يقتصر أيضا على هذا المجال ، مما يصنع الحياة التعليمية كلها بالمذهب السائد في الدولة ، ولنتوقف قليلا أمام انتشار المالكية في الأندلس .

تأسس المذهب المالكي في المدينة المنورة على يد مالك بن أنس ( المتوفى ١٧٩ هـ - ٧٩٥ م ) ، الذي اتخذ من اجماع أهل المدينة ، أساسا لمذهبه ، ووضع كتابه المشهور « الموطأ » ، الذي يعد أساسا تشريعا مهما في الاسلام عامة ، وفي غرب الاسلام خاصة \* ويذكر لنا القاضي عياض ثمانية عشر طالبا أندلسيا ، تتلمذوا على يد مالك وعاصروه (٢٥) .

أما أول من أدخل ( الموطأ ) الى الأندلس ، فالأمر يتنذب بين البخاري بن قيس ( المتوفى ١٩٩ هـ - ٨١٩ م ) (٢٦) ، وزيد بن عبد الرحمن ، المعروف بشبطون ( المتوفى ٢٠٤ هـ - ٨١٩ م ) (٢٧) ، وأحدث الطباعة كتاب ( ترتيب المدارك ) للقاضي عياض ، تذكر ثمانية طلاب تعاصروا في تلقى العلم ، على يد مالك بن أنس (٢٨) .

(٢٥) اليحصبي : القاضي عياض ، ترتيب المدارك - ج ١ ، ص ٨ ، ١٣ .

(٢٦) الحميدى : جذوة المتيسر ، ص ٣٠٥ .

ابن نرحون : الديباج ، ج ٢ ، ص ١٣٦ ، والطبعة القديمة ، ص ٢١٩ .

مكي : نفس المصدر ، ص ١٦٣ .

(٢٧) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ص ١٨١ .

الحميدى : نفس المصدر ، ص ٢٠٣ .

مكي : التيارات الثمانية المشرقية ، ص ١٦٤ .

(٢٨) اليحصبي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٨ .

ومن انتشار المذهب المالكي في الأندلس ، انظر دور الفقيه يحيى بن عمر الأندلسي في المقدمة التي كتبها الدكتور محمود طلي مكي لكتابه « احكام السوق » ، ص ٧٢ - ٧٧ .

ولكن الشحمية الكبرى ، التي يعزى إليها نشر الموطأ في الأندلس ،  
 هي شخصية انفتية القرطبي يحيى بن يحيى الليثي ( متوفى ٢٣٤ هـ /  
 ٨٤٨ م ) ، ثم شخصية عيسى بن دينار قاضي طليطة ( متوفى ٢١٠ هـ /  
 ٨٢٥ م ) . وتذكر بعض المصادر وفاته في عام ٢١٣ هـ / ٨٢٧ م . يقول  
 عنه ابن فرحون ، في الديباج المذهب :

« كانت الفتيا تدور عليه ، لا يتقدمه في وقته أحد في قرطبة ،  
 وكانت له فيها رئاسة بعد انصرافه من المشرق ، وكان ابن القاسم  
 — عبد الرحمن بن القاسم معلما مصريا مالكا ، توفي ١٩١ هـ /  
 ٨٠٦ م ) — يعظمه ويحله ، ويصفه بالفقه والورع ، وكان لا يعد في  
 الأندلس أفقه منه في نظرائه ..... وهو الذي علم لأهل  
 عصرنا المسائل ، وكان أفقه من يحيى بن يحيى »

وبه وبإحیی انتشر علم مالك بالأندلس ورجعت الفتيا إلى  
 رأيه » (٣٩) . ويتول عنه الحميدي :

« انه كان قد أجمع في آخر أيامه ، على أن يدع الفتيا بالرأي ،  
 ويحمل الناس على ما رواه من الحديث في كتب ابن وهب ( ١٩٧ هـ /  
 ٨١٣ م ) وغيرها ، ولكن أعجلته المنية عن ذلك » (٤٠) .

يذكر ليفي بروفنسال ، تتلمذ عيسى بن دينار على مالك ، وينفيه

(٣٩) ابن فرحون : الديباج المذهب في تاريخ أعيان المذهب ، ج ٢ ،

ص ٦٥ ، ٦٦ .

حميدي : المصدر المذكور ، ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

ابن فرحون : نفس المصدر ، ص ١٧٨ .

(٤٠) الحميدي : نفس المصدر ، ص ٢٨٠ .

مكي : المصدر السابق ، ص ١٩٩ .

ابن فرحون : المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

مكي ( محمود ) : مقدمة كتاب أحكام البراءة ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

الدكتور مكى قائلًا « أنه كان أصغر من يحيى ، ولذلك لم يتعرف على مالك » ،  
« ومات عيسى سنة ٢١٢ هـ ، ومات الليثى سنة ٢٣٤ » .

ولكن القاضي عياض ، يذكر عيسى بن دينار ، بين الذين لم يروا  
مالكا بن أنس (٤١) .

ونتوقف قليلا أمام السؤال العام الخاض بكيفية انتشار  
المذهب المالكي في الأندلس — فهناك الكثيرون يرون أن الأمير هشام ، ومن  
بعده ابنه الحكم ، هما السبب المباشر في انتشار هذا المذهب في  
الأندلس — يقول ليفي بروغنسال :

« أنه في الأعوام الأخيرة التي سبقت وفاة مالك بن أنس ، استمع  
عدد من طلبة الأندلس مثل زياد بن عبد الرحمن ويحيى بن مضر وعيسى  
ابن دينار ، والفقيه القرطبي الشهير ، ذو الأصل البربري ، يحيى بن  
يحيى الليثي — هؤلاء الطلبة الذين ذكروا لمعلمهم ورع وتقوى أمير  
الأندلس ، قاموا بعد عودتهم بنشر مذهب مالك في قرطبة وفي مدن  
الأندلس الكبرى ، وذلك بالموافقة الصريحة لأمر بني أمية هشام والحكم  
الأول » (٤٢) .

كما أنه يقول :

« أنه إذا كان المؤلفون العرب ينسبون ، أما إلى هشام ، أو إلى ابنه  
الحكم ، المبادرة ، لكونهما فضلا نشر المذهب المالكي في الأندلس ،  
وتبنياه مذهبا رسميا ، فالحقيقة في المسألة أن كلا الأمرين قد ساهم  
في انتشار المذهب المالكي ، وأن الثاني — أي الحكم — هو الذي

(٤١) البهصبي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧ .

(٤٢) ليفي بروغنسال : تاريخ إسبانيا — الترجمة الأسبانية : ج ١ ،

ص ٩٧ ، ٩٨ .

قرر بعد أعوام قليلة من وفاة والده بأن يكون القضاء والوظائف الكبرى سواء في قرطبة أو في باقي أنحاء الأندلس ، لمن يقدمون فتواهم على هذا المذهب التشريعي الجديد » (٤٦) .

وتميل دائرة المعارف الاسلامية الى نفس الرأي قائلة بأن هشام « أول من استوعب في أسبانيا تأثير المدرسة التشريعية والفقهية لعاصره ، عالم المدينة مالك بن أنس ، ممهدا الطريق لفتاها ، ومقهما لهم كافة المساعدات » (٤٧) - متفقة في ذلك مع أورده صراحة القاضي عياض في ترتيب المدارك (٤٨) .

لكن الدكتور محمود علي مكي ينشئ ذلك بشدة ، مرجعا الأسباب التي أدت الى انتشار المذهب المالكي في الأندلس الى عوامل تطورية طبيعية تستجيب لحاجات المجتمع الأندلسي الذي دخل مرحلة استقرار تختلف عن الفترة التي سبقتها والمليئة بالمشاكل والحروب ، وأن مذهب الأوزاعي كان يتلاءم مع الأجيال الأولى على أرض الأندلس ، ولكن مع نهاية حكم الأمير عبد الرحمن الداخل ، وإسلام عدد كبير من سكان الأرض الأسبانية ، ومع السلام الذي ساد ربوع الأرض ، تجلت الحاجة الى تكوين فقهى وتشريعي ، يتناسب مع شعب مستقر ، وجيد التنظيم - ثم يستطرد الدكتور مكي بعد ذلك ، مجيبا على السؤال الهام :

لماذا اختار الأسبان المسلمون المدرسة المالكية في الوقت الذي كانت فيه مدرسة أبو حنيفة ( المتوفي ٨٥٠هـ / ٧٦٧م ) مزدهرة ؟

(٤٦) نفس المصدر ، ص ٩٦ .

(٤٧) دائرة المعارف الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢١٨ « النص الانجليزي » .

(٤٨) اليحصبي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

والأخص اجابة الدكتور مكى فى هذه النقاط :

١ - لأن أغلبية العرب القاطنين فى أسبانيا قدمت من الشام ومن مصر وجالية كبرى من المدينة .

٢ - لحرص الأسبان المسلمين على الحج وحميتهم الدينية للتردد على الأماكن المقدسة .

٣ - انفصال السلطة فى الأندلس عن سلطة بنى العباس فى بغداد وتبنى العباسيين المدرسة الحنفية ، مما دفع الأندلسيين الى تبني المالكية (٤٦) .

ويصر فى النهاية على أنه خلال عهد عبد الرحمن وابنه الأمير هشام لم يمارس المالكيون أية وظيفة من وظائف التشريع الكبرى فى الأندلس . أما عن الحكم الربضى ، فلم يكون هو الشخص الذى يفرض - بل ولا يفكر فى أن يفرض - المالكية ، كمدرسة رسمية فى الأندلس (٤٧) .

ومن الغريب هذا النفى الذى يقدمه الدكتور مكى ، فهو نفسه فى أكثر من موضع فى رسالته ، يعترف بأن عيسى بن دينار ، كان قاضيا على طليطلة ، وأن الفتيا كانت تدور عليه (٤٨) ، وأن « الغازى بن قيس » قد عاد الى أسبانيا ، فى بداية حكم هشام ، وأنه قد عين مشاورا ، مع القاضى مصعب بن عمران ( انظر رسالة الدكتور مكى ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ ) .

---

(٤٦) مكى : رسالته فى الدكتوراه المذكورة ، ص ١٥٤ - ١٥٨ .  
وانظر النصل الذى عقده الدكتور حسين مؤنس لانتشار المذهب المالكي فى الأندلس فى كتابه « فجر الأندلس » ، ص ٦٥٢ - ٦٥٥ .  
(٤٧) مكى : الرسالة المذكورة ، ص ١٥٧ .  
(٤٨) انظر فى ذلك : مقدمة الدكتور محمود على مكى لكتاب احكام السوق ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

أما عن دور الأمراء في نشر هذا المذهب ، فهو دور لا يثقل فيه ،  
وإن لم يكن بطريقة مباشرة ، فإن مجرد موافقتهم وسماحتهم للعلماء  
بالتدريس ونشر هذا المذهب يعتبر دورا وإن كان غير مباشر \* والقاضي  
عياض ينسب ذلك بصراحة مطابقة الى هشام (٤٩) .

ولقد شهد عهد الأمير هشام تشجيعا حقيقيا على التعليم ، واتخذ  
الأمير نفسه لأبنائه ، مؤدبين مشهورين بالعلم والخلق ، بل لقد وصل به  
الأمر ، أن سكن بعضهم في داره ، كما حدث مع « مشمر بن نمير » ،  
الذي قدم الأندلس في أيام هشام فضمه الى تأديب ولده ، وأنزله في  
الدار المعروفة بسار (٥٠) \* كما أن هشام اختار لتأديب ولّى عهده الحكم  
عالميا كبيرا هو وكية بن ربيعة (٥١) .

والى هشام ينسب بناء عدد من المدارس في الأندلس ، وحيث  
أن هذا الموضوع يحتاج الى مناقشة أوسع ، والى تفصيل كبير ، نتيجة  
لكثرة الخلاف حوله ، فاننى سأعالجه عند حديثي عن بناء المدارس في  
الأندلس .

ولعل تربية وتعليم الأمير هشام نفسها يمكن أن تفسر لنا  
اهتماماته العلمية ، ورعايته للعلماء والفقهاء على عهده ، حيث تجلت  
هذه الاهتمامات منذ صباه الباكر ، مما أعطى ثماره العذبة بعد ذلك -  
عند توليه مقاليد الأمور في البلاد .

يحكى المستشرق الأسباني « خوسيه انطونيو كوندى » أنه في  
ذلك الوقت عرف الأمير هشام بأريحيته وذكاؤه ، مما كان يبعث  
السرور لوالده ، الذي كان يميل اليه ، لبشاشته ومهارته .

(٤٩) اليعصبى - ترتيب المدارك ، ج ١ ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٥٠) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ص ١٦٦ .

(٥١) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ج ١ ، ص ٦٥ ، طبعة مدريد .

ولقد قام والده بتربيته على يد أفضل المعلمين في ذلك الوقت حتى يؤهله لشئون الحكم ، وما يستلزمه من العدالة والانصاف .

« أمر عبد الرحمن الداخل ، بأن يحضر هشام مع أخيه الأكبر سليمان المجلس العلمي للقاضي في المسجد الجامع حيث أظهر الأميران نباهة ونجابة في كل مناسبة من المناسبات » (٥٢) .

أما على عهد الأمير الحكم فقد حدث صدام بينه وبين الفقهاء بسبب غيرته الشديدة على السلطة ، وزيادة تدخل الفقهاء - في شئون الحكم ، مما ترتب عليه قيام الفقهاء بالثورة على الحكم ومحاصرته في قصره في عام ٢٠٢ هـ / ٨٠٨ م .

ولقد قضى الحكم بعنف وقسوة على الثورة ، وطرد عددا كبيرا ممن قام بها فسكن بعضهم مدينة فاس ، وارتحل قسم آخر الى الاسكندرية ، ثم منها الى جزيرة كريت حيث أسسوا دولة سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ، استمرت ما يزيد على قرن من الزمان (٥٣) . وقد يعطينا ذلك فكرة عن كثرة عدد الفقهاء على أيام الحكم ، اذا ما علمنا أن القسم الذي اتجه الى الاسكندرية كان يقدر بحوالي ١٥ ألف نازح من الأندلس .

وأصدر الحكم ، بعد ذلك ، عفوا عاما عن الشخصيات العلمية وخاصة الفقيهيين ، ظالوت ويحيى بن يحيى الليثي (٥٤) ، ثم عمل على

(٥٢) كوندى : خوسيه انطونيو ، تاريخ الحكم العربي في اسبانيا ، ص ٥٥ .  
Conde, Jose Antonio : Ho de La Dominacion de los  
de los Arabes en Espania p. 55.

(٥٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٨٠ .  
الحجى : التاريخ الأندلسي ، ص ٢٤٢ .  
(٥٤) أنظر من يحيى بن يحيى : كتاب تهذيب التهذيب - ج ١١ ، ص ٣٠٠ ، ٣٠١ .



تتشجيع العلم والعلماء حتى أسلم الدولة بعد وفاته الى فترات تعدد  
من أخصب فترات الدولة الأموية في الأندلس ، ومن أزهى عصورها  
التاريخية والسياسية والثقافية ، أقصد بذلك العصر الذي تولى فيه  
الأمير عبد الرحمن الأوسط حكم البلاد .

يقول المؤرخون أن عصر عبد الرحمن الأوسط تتحكم فيه أربع  
شخصيات قوية تماما وكل واحدة منها تمثل جانبا من جوانب الحياة  
الثقافية والاجتماعية في الأندلس ، وهم الفقيه اللامع يحيى بن يحيى  
الليثي ، والحكيم عباس بن فرناس والموسيقى المغني «زرياب» ثم  
زوجته الأميرة طروب .

والشخصيات الثلاث الأولى تمثل التوازن بين الاتجاهات الثقافية،  
التي أمكن لها أن تسود على عصر عبد الرحمن الأوسط . فالفقيه يحيى  
بن يحيى الليثي ( المتوفى ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م ) من أصل بربري ، ولكنه كان  
ذكيا ، حتى سمي بعقل الأندلس ، ويحكى لنا الحميدى سبب هذه  
التسمية فيقول عنه :

« كان مالك يسميه عاقل الأندلس ، وكان سبب ذلك فيما يروى  
أنه كان بمجلس مالك ، مع جماعة من أصحابه ، فقال قائل : قد خطر  
الفيل ، فخرجوا ولم يخرج ، فقال له مالك : مالك لم تخرج لتنظر الفيل ،  
وهو لا يكون في بلادك ؟ فقال له : لم أرحل لأبصر الفيل ، وإنما رحلت  
لأشاهدك وأتعلم من علمك وهديك ، فأعجبه ذلك منه وسماه عاقل  
الأندلس واليه انتهت الرياسة في الفقه في الأندلس ، وبه انتشر  
مذهب مالك هناك وتفق به جماعة لا يحصون ، وروى عنه غير واحد ،  
منهم أبناء عبيد الله ، واسحق ، وأبو عبد الله محمد بن وضاح ،  
وزياد بن محمد بن زياد ، وإبراهيم بن قاسم بن هلال ، ومحمد بن  
أحمد العتيبي ، وإبراهيم بن محمد بن زياد ، ويحيى بن حجاج ،

ومطرق بن عبد الرحمن ٠٠٠ وغيرهم ٠ وكان مع امامته ودينه ٠ مكينة  
عند الأمراء معظما ٠ وعنيفا عن الولايات ٠ متنزها جت درجته عن  
القضاء ٠ فكان أعلى وزرا من القضاة ٠ عند ولادة الأمر هناك لزهده  
في القضاء وامتناعه عنه « (٥٥) » .

ويستطرد الحميدى ناقلا عن انشقيه أبى محمد على بن أحمد قوله :  
« مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان : مذهب أبى  
حنيفة ( توفي ١٥٠هـ / ٧٦٧م ) ٠ فإنه لما ولى القضاء أبو يوسف ٠  
كانت القضاة من قبله ٠ فكان لا يولى قضاء البلاد من أقصى المشرق  
الى أقصى أعمال أفريقيا الا أصحابه والمنتمين الى مذهبه ٠ ومذهب  
مالك بن أنس عندنا ٠ فان يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان ٠  
مقبول القول في القضاة ٠ فكان لا يلي قاض في أقطارنا ٠ الا بمشورته  
واختياره ٠ ولا يشير الا بأصحابه ومن كان على مذهبه ٠ والناس  
سراع الى الدنيا والرياسة ٠ فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم  
به ٠ على أن يحيى بن يحيى لم يل قضاء قط ٠ ولا أجاب اليه ٠ وكان  
ذلك زائدا في جلالتهم ٠ وراعيا الى قبول رأيه لديهم « (٥٦) » ، وفي  
ذلك مظهر من مظاهر تدخل الدولة في نشر مذهب تشريعى ٠ ودور هذا  
الفقيه ٠

أما عن العالم عباس بن فرناس ( توفي ٢٧٤هـ / ٨٨٧م ) ٠ فإن

(٥٥) الحميدى : المصدر السابق ٠ ص ٣٥٩ ٠ ٣٦٠ .

اليحصى : ترتيب المدارك ٠ ج ٣ ٠ ص ٣٧٩ - ٣٩٤ .

(٥٦) ترجمات يحيى بن يحيى الليثي كثيرة جدا ٠ واكتفى بالامارة  
الى :

الحميدى : ص ٣٥٩ - ٣٦١ ٠ والدياج المذهب ٠ ص ٣٥٠ .

والنجاح ٢ ج ٢ ٠ ص ٢١٨ ٠ والفتى لابن حبان تحقيق مكى ٠

ص ٨٣ ٠ ٨٤ .

المقارنة التي أجراها الأستاذ الدكتور عبد الشافي غنيم « أستاذ تاريخ الأندلس بتربية عين شمس » بينه وبين المغنى زرياب تعتبر أساساً متيناً للحديث عن ذلك الرجل ، يقول :

« في الواقع ، لا يمكن الحديث عن عصر عبد الرحمن الأوسط ، بعيداً عن حياة زرياب وابن فرناس ، لأن الأول كان يمثل الجانب الذوقي والحسي في فلسفة حكم عبد الرحمن الأوسط والحضارة الأندلسية بوجه عام ، والثاني كان يؤكد الجانب العلمي التقدمي ، والتطور الفكري والعلمي في الحضارة الأندلسية بوجه خاص » (٥٧) .

خان عباس بن فرناس اماماً في علم العروض ، « بل انه أول علماء العروض في الأندلس على الإطلاق » (٥٨) ، كما أن ابن فرناس قد برع في علوم الطبيعة والرياضة وشغف بالرياضيات ، حتى وضع في سقف بيته قبة كهيئة السماء ، مثل فيها الأفلاك والنجوم والسحب ، حتى حارت معرضاً يفد الناس اليه من كل مكان ، كما أنه صنع بتكليف من الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، آلة لرصد حركات الكواكب والنجوم ، كما كلفه الأمير بعمل آلات لمعرفة الأوقات ، فقام بانجاز آلة تعرف بها الأوقات ليلاً ونهاراً وأسمائها المثقالة ، ورفعها إلى الأمير مع هذه الأبيات :

ألا أننى للدين خير أداة      إذا غاب عنكم وقت كل صلاة  
ولم تر شمس بالنهار ولم تب      كواكب ليل حالك الظلمات  
بيمن امام المسلمين محمد      تجلت لى الأوقات للصلوات

(٥٧) عبد الشافي غنيم : محاضرات في تاريخ المغرب والأندلس -

عصر الامارة .

(٥٨) عبد الشافي غنيم : نفس المصدر .

وله أيضا مجالات أخرى واسعة ، ليس المجال هنا لذكرها ، ولكنها تدل دلالة واضحة ، على الآفاق الفكرية والحضارية ، التي امتلأ بها عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط ، الذي وصل بالأندلس الى درجة كبيرة من الحضارة والرقى<sup>(٥٩)</sup> .

أما زرياب : أبو الحسن علي بن نافع ( ١٧٣ - ٢٣٨ هـ / ٧٨٩ - ٨٥٢ م ) ، المغني ، الموسيقي ، نقى بدأ حياته في المشرق في كنف العباسيين في عصر الخليفتين العباسيين المدي ، وهارون الرشيد ، وقد تكاملت له كل أسباب النبوغ والتفوق ، فقد كان شديد الذكاء ، لطيف الحس ، عذب الصوت ، رقيق الأمل . ولقد هاجر الى الأندلس على عهد عبد الرحمن الأوسط ، وكان وصوله في عام ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م ، وخرج الأمير عبد الرحمن الأوسط لاستقباله بنفسه ، وما أن سمع غناؤه وحديثه ، حتى تسفت به ، فعمره بفضلته وإنعامه ، وأجرى عليه من الرواتب والأرزاق ، الشيء الكثير ، وقدمه على سائر المئين .

وكان وصول زرياب الى الأندلس ، بداية عهد جديد من التطور الاجتماعي ، وخطوة حقيقية في سبيل التقدم والازدهار ، لا في مجالات الطرب ، والغناء ، والموسيقى فحسب ، بل في مجالات النمو الاجتماعي والحس الذوقي ، والسمو بالآداب ، ومختلف مظاهر السلوك ، حيث جلب زرياب الى الأندلس ، آخر ما وصلت اليه الحضارة الاسلامية ، من تطور في المشرق ، مغيرا تلك الحياة العسكرية الجافة ، التي صبغت بلاد

(٥٩) انظر ترجمة عباس بن فرناس الواردة في : الحميدى ، ص ٣٠٠ . وابن حيان : المقتبس ، نشر ميلتشور انطونيا ، ص ١٤٤ ، ونشر محمود على مكى : التعليقات ، ص ٥١١ ، والمقرئ في نفع الطيب ، ج ١ / ١٢٣ ، ٤ / ١٢٩ . الشبى : البقية ، ص ٤٣١ . ابن عبد ربه : العقد الفريد : طبعة سعيد العريان ٢٥٧/٥ . والثعالبي : بنية الدهر - ج ١٦/٢ .

وكتاب « جيانجوس » تاريخ الامة الاسلامية بأسانبا ، ص ٤٢٦ ، الجزء الاول .

Gayangos The History of the Mohammedan Dynasties in Spain Vol. 1 ; p. 426.

الأندلس فترة طويلة ، حيث ظلت فيها حياة البداوة ، والخشونة والجفاف ، الى نهايات القرن الثاني من الهجرة / الثامن الميلادي .

والحق أن زرياب قد قابل الجميل بالجميل ، وأخلص للأندلس أيما إخلاص ، وعمل على النهوض بالمجتمع الأندلسي ، لكي يصل به الى مستوى المجتمع العباسي في بغداد ، مستفيدا من الحماية والتشجيع ، اللذين وفرهما له أمير الأندلس ، حيث يذكر بعض المؤرخين أنه قد جعل بين داره ودار زرياب ، بابا خاصا ، يستدعيه منه كلما أحب سماع غنائه الرائع ، وصوته العذب (٦٠) . ويذكر ابن حيان ، أن الأمير عبد الرحمن ، أنزله في منية نصر (٦١) ، التي أخذت اسمها ، من اسم الفتى نصر ، كبير غلمان القصر ، وأكثرهم قربا الى الأمير ، والذي ملك في مطولة سم الأمير عبد الرحمن ، بغرض نقل الحكم من بعده الى ابنه الأمير عبد الله ، ابن زوجته طروب (٦٢) .

وما من أحد كتب في تاريخ الأندلس ، الا وأشار الى الأهمية الكبرى لزرياب — ذلك الشرقي الذي استطاع وحده أن ينقل أمة بأسرها من حال البداوة الى حال الحضارة عن طريق : تحبيب هذه الأمة في الموسيقى ، وتنظيم أسلوب حياتها اليومي (٦٣) .

(٦٠) عبد الشافي غنيم : تاريخ الأندلس ، عهد الامارة .

(٦١) ابن حيان : المقتبس ، طبعة مكى ، ص ١٣ .

(٦٢) بالنسبة لمنية نصر ، انظر تعليق الدكتور محمود على مكى في ملاحظاته ، على كتاب المقتبس لابن حيان — التعليق رقم ٥٦ ، ص ٤٣٤ ، وكذلك الروض المعطار ، ص ١٨٧ .

وبالنسبة لقصة الفتى نصر مع الأمير عبد الرحمن ، انظر : ابن حيان : تحقيق مكى ، ص ٨ — ١٢ ، وانظر ، ليفى بروفنسال ، تاريخ اسبانيا ، ج ١ ، ص ١٧١ ، الترجمة الاسبانية .

(٦٣) انظر عن حيلة زرياب وآثاره في الاندلس :

ابن حيسان : المقتبس ، تحقيق محمود على مكى ، ص ١٣ ،

ولقد واجه عمر الأمير عبد الرحمن خطرا خارجيا ، تمثل في هجمات النورمان على الأندلس . وقد قاموا بجوهمهم الأول على الأندلس في عام ٣٢٩ هـ ، الموافق ٨٤٤ م ، متجهين الى ناحية أشبيلية ، ويذكر لنا العذري :

« أنه في سنة تسع وعشرين ومائتين ، ورد كتاب وهب الله بن حزم ، عامل الأشبونة ، يذكر أنه حل بالساحل قبله أربعة وخمسون مركبا للمجوس ، ومعها أربعة وخمسون قاربا . فخرجت الكتب الى العمال بالاحتراس (٦٤) . ولكن ذلك لم يمنع من أن يصل التطور الثقافي والعلمي ونمو الحركة التعليمية في الأندلس ، حيث كان الأمير عبد الرحمن الأوسط ، على حد التعبير الوارد في دائرة المعارف الإسلامية بأنه كان « راعيا وحاميا لكافة الفنون والعلوم » (٦٥) ، كما أن عهده عرف بعهد « السلام الطويل » (٦٦) .

= الحميدي : جذوة المناس ، ص ٩٥ . ولعل أطول ترجمة لزياب ، ودوره في الأندلس أوردها المتري في نوح الطيب ، ج ٤ من ص ١١٧ - ١٢٩ . تحقيق محمد عبد الحميد .  
لغني برونسال : تاريخ إسبانيا ، ج ١ ، ص ١٧٢ ، الترجمة الإسبانية .

جارشيا غوبيث : الشعر العربي الأندلسي ، ص ٣٢ ، ٣٣ .  
Garcia Gomez, Poesia Arabigo Andaluza, p. 32.

احسان عباس : اخبار الغناء والمغنين في الأندلس ، مجلة الأبحاث ، آذار ١٩٦٣ .

على راضي : الأندلس والناصر ، ص ٢٩ ، ٣٠ .  
جودت الركابي : الأدب الأندلسي ، ص ١٧ .

وانظر أيضا مقالة المستشرق الأسباني « خوليان روبيرا » .  
Ribera, J. : La Musica de las Gantigas.

(٦٤) العذري : نصوص عن الأندلس ، ص ٩٨ - ١٠٠ .

ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ، ص ٤٩ .  
The Encyclopedia of Islam, Vol. 10, p. 53.

(٦٥) دائرة المعارف الإسلامية ، ج ١ ، ص ٥٣ ( النص الإنجليزي )

(٦٦) سوارث فرنانديث : لويس ، تاريخ إسبانيا ، ص ٢٤ ، ٢٥ .  
Suarez : Historia de Espania.

ولقد عقد ابن حيان مقابلاً لذكر أولى النباهة في دولة الأمير  
عبد الرحمن بن الحكم ، يمكن أن تظهر منه بعض ملامح التطور الثقافي  
والعلمي ، خلال هذه الحقبة (٦٧) .

ونختم الحديث عن عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط ، بقول ابن  
اللقوطية :

« لقد سار في الناس بخير سيرة ، وانترم اكرام أهل العلم ، وأهل  
الأدب والشعر في دولته ، واسعافهم في مطالبهم كلها » (٦٨) .

تولى الأمير محمد ( ٢١٧ - ٢٧٣ هـ / ٨٣٢ - ٨٨٦ م ) ، حكم  
الأندلس ، بعد وفاة والده الأمير عبد الرحمن في عام ٨٥٢ / ٨٥٢ م ،  
حيث كان الأمير قد أوعز بذلك إلى وزرائه وأهل خدمته ، ويقول ابن  
حيان : « كان الأمير عبد الرحمن قد كشف عن مذهب ولده ، ولدا ولدا ،  
وعجم أخلاقهم اختاروا فوجد محمداً منهم راجحاً لهم بجلاله . فاضلا  
باعتدال أحواله ، فأطهر تنفيله عليهم ، بعد علم منه بهم » (٦٩) . ويصفه  
الحميدى ، بأنه كان محباً للعلوم ، ومؤثراً لأسل الحديث ، عارفاً  
حسن السيرة » (٧٠) .

والحقيقة أن عصر الأمير محمد ، قد شهد استمراراً للفترة الأردهار ،  
التي سادت خلال حكم والده عبد الرحمن ، إلا أنه كان أكثر ميلاً  
للحرية ، فلم يمكن النقياء من سلطانهم المطلق ، بل أنه سمح بالقيام  
بتدريس علوم جديدة في الأندلس ، مثل علوم الحديث . ولم يقصر  
الأمر على المدونة ، أو على تعاليم مالك بن أنس ، وموقف الأمير محمد  
عن بقى بن مخلد ، يكفي للدلالة على هذه الحالة ، وأنقل هنا قصة هذا  
الفقيه مع فقهاء عصره والأمير محمد .

عاد الفقيه بقى بن مخلد ( توفي ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م ) بعد رحلة طويلة

(٦٧) ابن حيان : المتنبس ، تحقيق مكى ، ص ٧٦ - ٨٨ .

(٦٨) ابن اللقوطية : افتتاح الأندلس - طبعة مدريد ، ص ٥٨ .

(٦٩) ابن حيان : المتنبس ، تحقيق مكى ، ص ١٠٤ .

(٧٠) الحميدى : جذوة المتنبس ، ص ١١ .

« بما جمع من العلوم الواسعة ، والروايات العالية ، والاختلافات  
الفقهية ، وغاز ذلك فقهاء قرطبة ، أصحاب الرأي والتقليد ، الزاهدين  
في الحديث ، العارفين من علوم التحقيق ، المقصرين عن التوسع في  
المعرفة ، خصدوه ، ووضعوا فيه القول القبيح ، حتى ألزموه البدعة ،  
وشنئوه إلى العامة ، وتخطى كثير منهم برميهم إلى الاتحاد والزندقة ،  
وتشاهدوا عليه ، بغليظ الشهادة ، داعين إلى سفك دمه ، وحاطبوا  
الأمير محمداً في شأنه ، يعرفونه بأمره ، ويكثررون عليه بكل ما يرجون ،  
من الوصول إلى سفك دمه ويسألونه تعجيل الحكم فيه ، فاشتد خوف  
بني حدا ، واستترت خوفاً على دمه ، وعمل على الفرار من الأندلس ،  
أن أمكنه ذلك ، فأرشد الله إلى التعلق بحبل هاشم بن عبد العزيز ،  
وسؤاله الأخذ بيده ، وكتب إلى الأمير محمد ، ينشده الله تعالى في دمه ،  
ويسأله التثبيت في أمره ، والجمع بينه وبين خصومه ، وسماع حجته ،  
فيأتي في ذلك بما يوفقه الله له ، فألقى الله في نفس هاشم الاختفاء ،  
بشكواه ، والاعتناء بأمره ، فحضر له عن ساعده ، وأوصل كتابه إلى  
الأمير محمد ، يشرح حاله ، فعطف عليه ، واتهم الساعين به إليه ،  
فأمر بتأمين بقي بن مخلد ، واحتضاره مع الطالبين له فتناظروا بين  
يديه ، فأدلى بقي بحجته ، وظهر على خصومه ، واستبان للأمير حسداهم  
أياه ، لتقصيرهم عن مداه ، فدفعهم عنه ، وتقدم إليه بمطاطاة قدمه ،  
ونشر علمه ، وأمر بإيصاله إليه في زمرة الفقهاء ، والرفع من منزلته ،  
فاعتلى درة العلم ، ولم يزل عظيم القدر عند الناس ، وعند الأمير  
محمد ، إلى أن مات رحمه الله » (٧١) .

- (٧١) ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار المغرب ، ص ١٥٤ .  
ابن الفرسي : طباء الأندلس ، ص ٨١ - ٨٣ .  
ابن حبان : المتبص : تحقيق الدكتور محمود علي بك ،  
ص ٢٤٥ - ٢٥٠ ، وكذلك ص ٢٦١ - ٢٦٥ .  
هذا ، وقد وردت ترجمة : بقي بن مخلد في معظم كتب التراجم ،  
وأشير إلى بعضها :  
الحبيدي : جذوة المتبص ، ص ١٧٧ ، ابن بشكوال : الصلة ،  
ج ١ ، ص ١١٦ .  
الزبي : بغية المتبص ، ص ٢٤٥ - ٢٤٧ .



ولقد عمدت الى اثبات هذه الرواية الطويلة ، لأن لها معنى خاصا في العملية التعليمية ، حيث فتحت الباب على مصراعيه ، لانتشار علم الحديث في الأندلس ، ذلك العلم الذي كانت له بدايات متواضعة ، بدأت منذ عهد عبد الرحمن الداخل ، ولكنها لم تزدهر وتنتشر الا في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن . ويقول ابن الفرضي ، عن أثر بقى ابن مخلد : انه هو « الذي نشر حديثه ، وقرأ للناس روايته ، فمن يومئذ ، انتشر الحديث في الأندلس » ثم تلاه ابن وضاح فصار الأندلس دار حديث واسناد ، وانما كان الغالب عليها قبل ذلك ، حفظ رأى مالك وأصحابه » (٧٢) .

ويعترف المستشرق الأسباني الكبير غونشاليث بالينثيا ، المتخصص في الدراسات العربية ، بقيمة الجسارة ، التي كادت أن تكف بقيا حياته ، فيقول :

« أما في بقية صنوف الآداب ، فقد مضى الناس على ما قرره السلف من المناهج ، ففي دراسة الفقه ، مضوا على الأسلوب التقليدي ، ولم يشذ عن ذلك ، الا المحاولة الجريئة التي قام بها بقى بن مخلد . عندما أراد أن يلحق الناس أصول مذاهب فقهية أخرى ، غير المذهب المالكي ، كالذهب الشافعي مثلا ، وقد كادت جرأته هذه أن تكفه حياته ، ولولا تدخل الأمير محمد بنفسه في الأمر — استجابة لشكوى تقدم بها الفقهاء اليه في أمر بقى — لما نجا هذا الأخير من هلاك محقق فقد أقر الأمير بقيا على التدريس كما يريد ، وأتاح الفرصة بذلك

= ومن الدراسات الحديثة : الأوسى : فصول من الأدب الأندلسي ، ص ٤٦ .

محمود على مكي : رسالته للدكتوراه المذكورة ، ص ٢٠٦ . ريبيرا : التعليم بين المسلمين الأسبان ، ص ٢٤ ، ٢٥ .  
(٧٢) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ص ٨١ ، التاريخ المذهب ، ص ٢٤٠ .

للمذهب الشافعي في الأندلس. » (٧٣) \*

ويذكر ابن حيان ، أنه « كان من طباع الأمير محمد بن عبد الرحمن الأناة والحلم ، قد ظاهرهما على حليتي اليقظة والفهم ، وكان مكرما لأعلام الناس ، مقدما على طبقاتهم ، لذوى الفقه والعلم منهم ، يرفع مجالسهم ، ويزلف رسائلهم ويسعف رعايتهم ، ويستشعر مع ذلك الحذر من تحاسدهم ، والتوقف على السماع من بعضهم في بعض ، ويسعى لاستئلافهم ، والاعراض عما يشاكسون فيه ، ولا يؤثر شيئا على السلامة منهم ، يعيد القول في ذلك ويبدئه » (٧٤) \*

ولذلك لم تكن حادثة بقى بن مخلد ، هي الحادثة الوحيدة التي تدخل فيها الأمير شخصيا لانقاذ عالم من علماء المدينة ، من سورة غضب الفقهاء . ومن تعصبهم الرافض لكل جديد — ويحكى لنا ابن حيان أيضا ، موقفه من العالم محمد بن عبد السلام الخشنى ( المتوفى ٢٨٦ هـ / ٨٩٨ — ٨٩٩ م ) ، فيقول :

« لما سعى بالفقيه أبى عبد الله الخشنى ، الى ما نسب اليه ، عأدرج في طى المطالبة معه ، وأخيف في سجنه اخافة بقى ، التي أدته الى الاستخفاء ، لم يقتد به في ذلك لصرامته ، وابعاء نفسه ومناقبه ، وأبى أن يستخفى ، وقال : ما كنت أستخفى لقول الحق ، ولا أخشى في الله أحدا ، وإن أصب في الله ، فطريق الخير سلك بى ، فميل في الطلب عليه ، وأسىء القول فيه . »

وكثر على السلطان في شأنه حتى أمر محمد بن حارث ، متقدا أحكام السوق ، باحضاره ، ووقفه على ما ينسب اليه ، ومعرفة ما عنده . وكان ابن حارث ، متقدا أحكام السوق ، موصوفا بالأفئ والحيالة ، فأحضر الخشنى معنوتا به ، فلما مثل بين يديه خشن سؤاله ، وقال له :

(٧٣) فونثاليت بالينشا : تاريخ الفكر الاندلسى ، الترجمة العربية ، ص ٧٢٦ ، والنص الأسباني ، ص ٢٦٨ و ٢٧٨ .  
(٧٤) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق مكى ، ص ٢٤٥ .

ايه يا عدو الله وعدو نفسه ! ألأنت القاتل ان في القرآن ناسخا ومنسوخا؟  
فقال الخشني : ان الله تعالى يقول في محكم كتابه : « ما ننسخ من  
آية أو ننسها ، نأت بخير منها أو مثليا » (٧٥) . (مخطى عليه) سطوة شوما .  
(فعلم بذلك وايد بن عبد الرحمن بن غانم ، متولى المدينة) (٧٦) . فدخل  
الى الأمير محمد ، فأعلمه بما أحدثه صاحب السوق محمد بن حارث  
على محمد بن عبد السلام ، وحكى له قوله له . فضحك الأمير محمد  
حتى وضع كفه على وجهه ، ثم قال : يا وليد ، لقد لقي الخشني من  
ابن حارثنا غتا . لكنني أنظر اليه أعرايا في ثملته ، بدويا في نهجته ،  
يكلمه بما لا يفهمه . اخرج الساعة اني الجاهل المسائن ابن حارث ،  
فعنفه أشد التعنيف وأعلمه أنه لولا عذرنا اياه ، لجبله بهذا الشأن الذي  
ليس بعذر لنا في تولية مثله لعاقبناه على فعله . وممر باطلاق محمد بن  
عبد السلام ، ثم اعتذر عنا اليه لما نبيل منه ، وقل له فليطامن جأشه ،  
ويعمر مجلسه ، وينشر علمه » (٧٧) .

ولذلك كان الخشني يسدأ مجالس تعليمه ، بالدعاء للأمير محمد ،  
ويختتم هذه المجالس بالدعاء له أيضا على ما يذكر ابن حيان في الصفحة  
المذكورة بها الجملة السابقة .

ويورد ابن حيان بعد ذلك ، روايات سابقية من المؤرخين لهذه القصة  
التي تلقى ضوءا باهرا على عدة قضايا ، قد أعود الى بحثها في مجالات  
أخرى (٧٨) لتشابهها مع ما أورده ابن القوطية عن القاضي « أمية بن

- 
- (٧٥) قرآن كريم : سورة البقرة ١٠٦/٢ .  
(٧٦) ما بين القوسين ، الأول وضعته ليستقيم الحديث لأنه ناقص  
من النص ، والثاني من تعليق الدكتور مكى في ص ٢٥٢ ، من المقتبس .  
(٧٧) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق مكى ، ص ٢٥٠ - ٢٥٢ .  
(٧٨) نفس المصدر ، ص ٢٥٢ - ٢٦٢ .  
أما عن ترجمة محمد بن عبد السلام الخشني ، فأنظر بالإضافة الى ذلك :  
الحبيدي : جذوة المقتبس ، ص ٦٣ - ٦٥ . النباهي : قصصة  
الأنطلس ، ص ١٣ ، ١٤ . الضبي : بغية الملتبس ، ص ١٠٣ .  
السيوطي : بغية الوعاة ، ص ٥٢ . القزويني : تنقيح الطيب ، ج ٣ ، ص  
٦ ، ٥ ، ص ٩٧ . ابن حيان : المقتبس ، نشر انطونيا ،  
ص ٧ ، ٨ .

عيسى - أحد وزراء الأمير - واهتمامه بحادث تعليم الأسرى الموجودين بدار الرهائن ، وما لذلك من دلالة على تدخل الدولة في التعليم » (٩٧) .

ومثال آخر على اهتمام الأمير محمد بحماية العلماء ، هو موقفه من الفقيه القرطبي قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيار ( المتوفى ٢٧٨ هـ / ٨٩٠ م ) ، فقد رحل قاسم إلى المشرق ، وتعلم على يد أساتذة المذهب الشافعي هناك ، وحينما عاد إلى الأندلس ، اصطدم بعقلية فقهاء المالكية المتمسكة بالتقليد والحفاظ على آراء من سبقهم ، وعدم قبولهم للتجديد ، وقرر أن ينشر بين مواطنيه مبادئ المدرسة الجديدة ، عن طريق التعليم والتأليف ، ولقد تمكن من الحصول على حماية الأمير محمد الذي عينه وثائقيا خاصا به (٩٨) .

ونختتم الحديث عن هذا الأمير بما قاله عنه أقرب المؤرخين لعصره بأنه كان « مكرما لأعلام الناس من أهل العلم » (٩٩) ، وكان « شغوفا بالبيان ، مؤثرا لأهل الآداب » (١٠٠) .

ولقد أدى الاهتمام الذي بذله كلا الأميرين عبد الرحمن ومحمد إلى ازدياد تطور الحركة الثقافية ونموها ، بحث أنه حينما تعرضت الأندلس لفترة طويلة من التمزق ، امتدت على مدار حكم الأمير عبد الله ( من ٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ - ٩١٢ م ) ، لم تتأثر هذه الحركة ، ورغم أنها كانت أسوأ فترات حكم أسرة بنى أمية سياسيا ، إلا أنها ظلت محتفظة بضوئها الثقافي والعلمي ، ويصف لنا المؤرخ المصري محمد عبد الله عنان ، الجو العلمي والثقافي المحيط بالأمير عبد الله قائلا : « كان مجلس الأمير عبد الله قبل الخلافة ، وبعدها ( يقصد قبل

(٧٩) ابن القوطية : افتتاح الأندلس - تحقيق روبرا ، ص ٩٤ .

(٨٠) المقري : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ .

غونثالث بالنشيا : تاريخ الفكر الأسباني - النص الأسباني ، ص ٢٧٧ .

(٨١) ابن القوطية : افتتاح الأندلس - طبعة مدريد ، ص ٧١ .

(٨٢) مجهول : أخبار مجموعة ، ط . مدريد ، ص ١٤٥ .

توليه الأمانة وأثناء حكمه ) ، أعمر مجالس الملوك بالفضائل ، وأنزهها عن الرذائل ، وأجمعها لطبقات أهل الأدب والعلم « (٨٣) ، ثم يواصل الحديث قائلاً : « كان في مقدمة أصدقائه وجالسه ، زعيم شعراء العصر ، أبو عمر أحمد بن عبد ربه ، صاحب العقد الفريد ، وكان شاعر الدولة الأموية ، ومادح أمرائها منذ الأمير محمد حتى الناصر ، وموسى بن محمد بن جرير ، المعروف بالزاهد ، وسعيد بن عسر العكي ، وعبيد الله ابن يحيى بن ادريس الخالدي ، وسعيد بن عبد ربه ، ابن أخى صاحب العقد ، وكلهم من أكابر الشعراء والكتاب . وكان من أخص وزرائه في تلك المجالس العلمية ، الوزيران العالمان الأديبان : عبد الملك بن جهور وعبد الملك بن شهيد . وكان من عادته أن يلجأ الى العلماء وأهل الرأي ، في المشورة ، ويستعين بأرائهم وأحكامهم فيما يواجهه من أحداث وخطوب ، وكان بقى بن مخلد فقيه العصر ، وأعظم علمائه ، أكثرهم حظوة لديه ، وكان يبجله ، ويزوره في داره ، ويقتبس منه ، ويستمتع لنصحه » (٨٤) .

ويشهد عصر الأمير عبد الله ، نوعاً آخر من العلوم ينساب بين القرطبيين ، ويتعارض تعارضاً شديداً مع عقلية فقهاء ، الذين كان يستشيرهم ويقربهم دائماً . ظهر محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيج ( ٣٦٩/٣١٩ هـ - ٩٣١/٨٨٢ م ) ، الذي يعتبر أول فيلسوف أندلسي ، وكان « أول أمره قد تلقى تعاليم الدين والحكمة ، على يد صديق لأبيه ، ونشأ محباً للدراسات العقلية ، فنبغ فيها وهو ابن سبعة عشر عاماً . ومن العجيب أنه كان في هذه السن المبكرة ، أستاذاً له تلاميذ يعلمهم » (٨٥) .

وفي نص آخر ، يوصف ابن مسرة « بأنه أول مفكر أصيل أطلعه

(٨٣) نقل ذلك عن ابن حبان ، طبعة انطونيا ، ص ٣٤ - ٣٦ .

(٨٤) عنان : دولة الاسلام في الأندلس ، ص ٥٦ .

(٨٥) أحمد هيكل : الادب الأندلسي ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

الأندلس الاسلامي ، وكان يستر آراءه ، وراء نسكه وزهده ، وكان أبوه عبد الله من أهل البيع والشراء ، وكان يهوى آراء المعتزلة ، وكان صديقاً لخليل الغفلة ( انظر ترجمة خليل الغفلة في علماء الأندلس طبعة القاهرة - ج ١ ، ص ١٦٥ - وطبعة مدريد ، ص ١٢٠ ، ١٢١ ) ، وهو الذي علم محمداً ، علوم الدين والفلسفة » (٨٦) .

ويبدو أن ابن مسرة ، قد بدأ في تعليم مبادئ الفلسفة والاعتزال في الأندلس واتخذ لذلك مقراً بعيداً عن الرقباء ، في منزل له بجبل قرطبة ، ولكن الأراجيف والشائعات تناشرت ودارت حول طبيعة تعليمه مما جعله يخاف على نفسه . ولقد قلت أن أسوأ فترات حكم الأسرة الأموية في الأندلس ، كانت فترة الأمير عبد الله ، ولذلك فليقد رأى الأمير أن يسكت عن ابن مسرة وأتباعه ، خوفاً مما قد يؤدي إليه من غشنة جديدة ، ولكن ابن مسرة اتهم بالزندقة ، « فخرج فاراً ، وتردد بالشرق مدة ، فاشتغل بملازمة أهل الجدل ، وأصحاب الكلام والمعتزلة ، ثم انصرف إلى الأندلس ، فأظهر نسكا وورعاً ، واغتر الناس بظاهره ، فاختلّفوا إليه ، وسمعوا منه ثم ظهر الناس على سوء معتقده ، وتبع مذهب ، فانقبض من كان له ادراك وعلم ، وتمادى في صحبته آخرون غلب عليهم الجول ، فدانوا بنحلته » (٨٧) .

واختلف الناس في أمر ابن مسرة ، « ففرقه تبليغ به مبلغ الأمانة في العلم والزهد ، وفرقة تطعن عليه بالبدع لما ظهر من كلامه في الوعد والوعيد ، وبخروجه عن العلوم المعلومة بأرض الأندلس ، الجارية على مذهب التقليد والتسليم » (٨٨) .

ولقد اعتبره الدكتور محمود علي مكي « أول صوفي في أسبانيا

(٨٦) غوثيالك بالشتا : تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٣٢٧ ، ترجمة

حسين مؤنس .

(٨٧) ابن الفرضي : علماء الاندلس ، ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٨٨) نفس المصدر ، ص ٣٣٨ .

الاسلامية» (٨٩) \* وليس من شك في انتشار تعاليم ابن مسرة ، انتشارا واسعا (٩٠) ، مما سبب قلقا للدولة ، على عهد عبد الرحمن الناصر ، وسأشير الى ذلك عند حديثي عن عهد الخلافة (٩١) \* .

وهكذا تطورت الأمور التعليمية ، على عهد الأمانة ، تطورا كبيرا ، فتعددت مظاهر التعليم ، وزادت أماكنه ، وكثر عدد الطلاب والمعلمين ، وينقل عن القاضي صاعد الطبقى ( المتوفى ٤٦٣٠ هـ / ١٠٧٠ م ) قوله :

« ان هذه البلاد استمرت بعد الفتح لا يعنى أهليا بشيء من العلوم ، ألا بعلوم الشريعة ، وعلم اللغة ، الى أن توظف الأمر لبني أمية ، فتحرك ذوو العلم ، لطلب العلوم » (٩٢) \* .

ومن هذه المذاهب التي حاولت في فترة مبكرة أن تجد لها أرضا في الأندلس المذهب الشيعي ، وهذا المذهب بالذات واجه مقاومة عنيفة من الدولة ، لأنه يقوم على سلب بني أمية حقهم في الحكم ، ويقتصر ذلك على آل البيت \* .

---

(٨٩) محمود مكي : الرسالة المذكورة ، ص ٢٢٢ \*  
وانظر أيضا ترجمة لابن مسرة نشرها « بدرو شاليتا » ، ضمن تحقيقه للجزء الخامس من المقتبس لابن حيان ، ص ٣١ \* .  
(٩٠) انظر الكتاب الذي وضعه المستشرق الأسباني آسين بلاثيوس عن ابن مسرة ومدرسته ، في مدريد  
Asin Palacios : Ibn Masarra y Su Escuela.

(٩١) انظر في ذلك :  
ابن حيان : المقتبس - الجزء الخامس ، تحقيق بدرو شاليتا ، ص ٣٥ \* .

محمد عبد الله عنان : السفر الخامس من المقتبس ، ص ١٣١ \*  
( مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية - مدريد ، العدد ١٣ ، ٦٥ - ١٩٦٦ ) \* .

(٩٢) محمد يوسف موسى : بين الدين والفلسفة في رأى ابن رشد ، ص ٧ \* .

ولقد نشأ الفكر الشيعي ، بعد وفاة الرسول تقريبا ، وازدهر خلال الصراع بين علي ومعاوية ، واستيلاء الأمويين على الخلافة في المشرق ، ومحاولتهم التخلص من مطالبات الأسرة الهاشمية بالحكم ، واستطاع المتشيعون لعلي بن أبي طالب ، بالتحالف مع أبناء عمهم من بني العباسي ، الاطاحة بحكم أسرة بني أمية في دمشق ، وفي هذه اللحظات تمكن العباسيون من الاستحواذ على السلطة وحدهم ، وعملوا على القضاء على الأمويين والعلويين على حد سواء — مما دفع بأصحاب المذهب الشيعي الى العمل سرا ، حتى تمكنوا من تحقيق بعض النجاح في فارس وشمال أفريقيا ، وحاولو التسرب الى الأندلس — يقول الدكتور مكى : « ان الأمر لم يخل ، بكل تأكيد ، من ثورات ذات طابع شيعي ، ولكنها كانت مشتتة ، وقليلة النجاح » (٩٣) .

« ولقد كان من بين هذه الثورات ، والمؤامرات الكثيرة ، التي تجرد عبد الرحمن الداخل للقضاء عليها بيد حازمة ، أخبار فتنه ، قام بها مربر الأندلس ، يقودهم معلم صبيان ، يسمى «شقيا» ، جمع بين الحماس الديني ، والشعبذة ، وزعم أنه ينتسب الى علي وفاطمة » (٩٤) .

ويوافق المستشرق الأسباني ، غونثالث بالينثيا ، على أن ذلك ، كان القصد منه : القضاء على محاولة ادخال الفكر الشيعي ، حين يذكر تلك القصة عذ حديثه عن نشأة التفكير الفلسفي في الأندلس ، ويذكر : « وقد قضى بعنف على الحركات الأولى التي رمت الى التجديد في ميدان الفقه ، خاصة ، وكان لها في نفس الوقت طابع سياسي ، ومن هذه

(٩٣) محمود علي مكى : رسالته المذكورة ، ص ٣ .  
وانظر مقال للدكتور محمود علي مكى عن التشيع بالأندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمطرد — العدد ٢ ( ١٩٥٤ ) .  
(٩٤) غونثالث بالينثيا : تاريخ الأدب الأندلسي ، ص ٣٢٣ .  
و ص ٢٢١ من النص الأسباني .

Gonzalez Palencia : Ho de la Literatura Arabigo. Espan-  
nola, pp. 22, 323.



الحركات تلك التي قام بها « شعيا بن ثتيا » ، وهو مؤدب صبيان ، نحا نحو التعصب والشعبذة ، وزعم أنه من أبناء علي وفاطمة ، وانتحى معاشية من شنتبريه Santabria . وقد قضى عبد الرحمن الداخل على هذه الثورة سنة ١٥٢ هـ / ٧٦٩ « (٩٥) » .

ويحدد الدكتور مكي القضاء على هذه الثورة فيما بين سنتي ١٥٠٠ ، ١٦٠ هـ / ٧٧١ - ٧٨١ م (٩٦) .

ونشير أيضا في هذا المجال الى أبي عبد الله محمد بن ابراهيم بن حيون ، من أهل وادي الحجاراة ( توفي ٣٠٥ هـ / ٩١٧ - ٩١٨ م ) ، ذلك الرجل الذي « لم يكن بالأندلس قبله أبصر بالحديث منه وهو ضابط ، متقن ، حسن التوجيه للحديث ، صدوق » ، ولكنه لم يذهب مذهب مالك ، وكان « يزن بالتشيع لشيء كان ينظر منه ، في حق معاوية ورضي الله عنه » (٩٧) .

ومن المذاهب التي انتشرت في الأندلس خلال هذه الحقبة ، ووجدت مقاومة من المذهب المالكي ومن الدولة ، مذهب الاعتزال ، الذي بدأ في العراق ، وانتشر في الشرق ، حتى أصبح في فترة ما ، المذهب الرسمي للدولة العباسية .

ولأسباب سياسية ، ودينية ، واختلافات فقهية في كثير من

(٩٥) نفس المرجع ، ص ٣٢٤ « النص العربي » - ترجمة د. حسين مؤنس .

(٩٦) ابن حبان ، المقتبس - طبعة القاهرة ، ص ٢٦٦ ( تحقيق د. محمود مكي ) .

مجبول : أخبار مجموعة ، ص ١٠٧ ، ١٠٩ .

(٩٧) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ . الحميدى : جنوة المقتبس ، ص ٣٩ ، الضبي : بغية المتبس ، ص ٥٥ ، ابن حبان : المقتبس ، تعليق الدكتور مكي رقم ٤٥٤ ص ٥٧٧ ، ومثاله عن التشيع في الأندلس - مجلة المبدى المرى للدراسات الإسلامية بمديرد ، العدد الثاني - ١٩٥٤ م .

المسائل ، كان المذهب المالكي من أكبر أعداء المعتزلة ، من الناحية الفكرية ، كما كان الأمويون من أكبر أعدائهم في الجانب السياسي .

ولم تعدم الأندلس بذورا للاعتزال على أرضها ، ومن أشهر معتزلي أسبانيا في تلك الفترة ، خليل بن عبد الملك المعروف بخليل « الفضلة » أو « الغفلة » ، وهو من أهل قرطبة ، وكان مشهورا بالفقر ، لا يتستر به ، « ولما مات خليل ، أتى أبو مروان بن عيسى ، وجماعة من الفقهاء ، وأخرجت كتبه ، وأحرقت بالنار ، إلا ما كان فيها من كتب المسائل » (٩٨) ، ولعل هذه هي أول مرة تحرق فيها كتب على أرض أسبانيا الإسلامية ، وسنرى كيف سيتكرر هذا الحادث مرات على مدار تاريخ هذه المنطقة .

ومن الغريب أن بقى بن مخلد ، الذي تعرض لمخايطة الفقهاء له ، كان من الذين هاجموا خليل ، وحرمه من حضور مجلسه ، بل أنه هدد به بسفك دمه « فقال له بعد سؤاله عن عدة آراء ، ومنها رأيه في القرآن : والله لولا حالتك ، لأشرت بسفك دمك ، ولكن قم فلا أراك في مجلسي بعد هذا الوقت » (٩٩) ، مما يبين لنا السيطرة التامة للمذهب المالكي ، ودرجة التعصب التي وصلت إلى التهديد بسفك الدم ، مما دفع إلى تشأة المدارس السرية ، تحت رايه ظاهرية من الزهد والتقشف ، على ما أشرنا إليه من قبل في حالة ابن مسرة - أو إلى الترام المنزل ، والبعد والتدريس ، مثلما حدث مع القرطبي «حسن بن سعد بن إدريس ابن رزيق بن كسيلا الكنانى ( المتوفى ٨٣٣٣ / ٩٤٣ - ٩٤٤م ) ، «الذى كان يذهب إلى النظر ، وترك التقليد ، ويميل إلى قول محمد بن إدريس

(٩٨) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٦٥ « طبعة القاهرة » - و ص ١٢٠ ط . مدريد .  
بالنشا : الأدب الأندلسى ، ص ٢٢٢ من « النص الأسبانى » .  
راعى : الأندلس والناصر ، ص ٢٠ .  
(٩٩) ابن الفرضى : علماء الأندلس - ط . مدريد ، ص ١٢٠ ،

الشافعي ، وكان يحضر الشورى ، ولما رأى الفتيا دائرة على مذهب  
المالكيين ، ترك شهودها ، ولزم بيته « (١٠) » .

كما ظهرت في هذه الفترة ، نحل ومذاهب أخرى ، لا أجد داعيا  
لذكرها لأنها خربت محاربة شديدة ، وقضى عليها ، وظل المذهب المالكي  
سائدا ومنتشرا الى فترة طويلة ، ويصف ابن الخطيب حالة أسبانيا  
الاسلامية قائلا :

« أحوال هذا القطر في الدين ، وصالح العقائد ، سنية ، والنحل  
فيهم معروفة ، فمذاهبهم على مذهب مالك بن أنس ، امام دار  
الهجرة ، جارية » (١١) .

#### (د) عصر الخلافة :

يطلق اسم « عصر الخلافة » تجاوزا على عصر الخليفة  
عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ( ٥٢٧ هـ / ١١٩٠ م - ٥٣٥ هـ /  
١١٦١ م ) ، ولكن من المعروف تاريخيا ، أن عبد الرحمن بن محمد ،  
المعروف بعبد الرحمن الثالث ، تولى الحكم سنة ٣٠٠ هـ - ٩١٢ م ،  
وعمره ثلاثة وعشرون عاما ، وظل ستة عشر عاما كاملة مستخدما لقب  
أمير فقط ، ولم يتسم بالخلافة ، واعتبارا من عام ٣١٦ هـ - ٩٢٨ م ،  
اتخذ الأمير عبد الرحمن الثالث لقب الخلافة ، وتسمى بالناصر لدين  
الله (١٢) - وليس هنا مجال الحديث عن التاريخ السياسي ، ولكن  
المهم الاشارة الى أن الأندلس في عصر الناصر ، قد وصلت الى درجة

(١٠٠) ابن الفري : علماء الأندلس ، ط . القاهرة ، ج ١ ،

ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(١٠١) ابن الخطيب : الاحاطة - ج ١ ، ص ١٣٤ .

(١٠٢) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق شاليتا ، ص ٢٤١ ،

شاسيت البرنوسى ، اسبانيا الاسلامية ، ج ١ ، ص ٣١٥ ، سواريث

برنيسيت : مجمل التاريخ العالمى ، ج ٣ ، ص ٢٦٧ ، وتاريخ اسبانيا ،

ص ٦٩ .

من الاستقرار السياسي ، لم تعرفها من قبل ، بل انها وصلت الى قمة مجدها السياسي خلال فترة حكم عبد الرحمن الثالث ، وذلك ترك آثاره على كافة مجالات الحياة الأخرى .

وبالنسبة لجال تشجيع العلوم ، والعناية بالتعليم ، على عهد عبد الرحمن الناصر ، فاننا نجد أنفسنا أمام فترة من الفترات التي تنخر بها الأندلس والتاريخ الأندلسي الى يومنا هذا ، فاننا نجد أنفسنا أمام صفحة مشرقة من صفحات عبد الرحمن الناصر ، لا يمكن أن تنكر ، بل على العكس ، يعترف بها كافة المؤرخين ، من المشرق والمغرب على حد سواء .

اننا نجد على عهد الناصر ، وربما للمرة الأولى في التاريخ ، ما يمكن أن نطلق عليه بالتعبير الحديث ، اسم « وزير الدولة للعلم » ، فقام عبد الرحمن الثالث ، بعد مضي فترة من حكمه ، بئدب ابنه الحكم ، ولى عهده ، للقيام بمهمة رعاية العلم والعلماء ، في مملكته ، وأنقل ذلك عن صاعد الطبقي ( توفي ٤٦٦ هـ / ١٠٢٣ م ) ، حيث يقول في كتابه « طبقات الأمم » :

« ثم لما مضى صدر من المائة الرابعة ، انتدب الأمير الحكم المستنصر بالله ، ابن عبد الرحمن الناصر لدين الله ، وذلك في أيام أبيه ، الى العناية بالعلوم ، والى إينار أهلها ، واستجلب من بغداد ، ومن مصر ، وغيرهما من ديار المشرق ، عيون التكاليف الجليلة ، والمصنفات الغربية ، في العلوم القديمة والحديثة ، وجمع منها في بقية أيام أبيه ، ثم في مدة ملكه من بعده ، ما كاد يضاهاى ما جمعته ملوك بنى العباس في الأزمان الطويلة » (١٠٣) .

ولهذا الحادث أثره الكبير في الحياة العلمية في الدولة الأموية ،

لأن اختيار الحكم بالذات لهذه المهمة ، وهو الذي « تهيأ لذلك ، لفرط محبته للعلم ، وبعد همته في اكتساب الفضائل ، وسمو نفسه الى التشبه بأهل الحكمة من الملوك » (١٤) - قد صبغ الحركة العلمية على عهد عبد الرحمن الناصر ، بعدة مظاهر :

أولاً - فتح الباب على مصراعيه ، لاستجلاب العلماء المشارقة الى الأندلس ، ومن الصعب ، تحديد عدد الوافدين ، الذين وفدوا في هذه الفترة لكثرتهم ، ولكن من الواضح أن الحكم كان يختار عينات جيدة من الأساتذة ، أمكن لها أن تملأ جوانب الأندلس عامة ، علما وتعليما ، ومن أبرز من قدم في هذه الفترة ، أحمد بن أبي عبد الرحمن القرشي ، وهو « من أهل مصر ، وفد على الناصر بقرطبة ، وكان دخوله إليها في ( محرم ٣٤٣هـ / ٩٥٤م ) فأكرم الناصر مثواه ، وكان فقيه أهل مصر » (١٥) - وأبو علي القالي البغدادى ( ٢٨٨ - ٣٥٦هـ = ٩٠١ - ٩٦٧م ) ويجب أن نتوقف قليلا أمام تلك الشخصية العلمية الباهرة لسببين : أولهما قيامه بتأديب الحكم المستنصر ، مما سترك أثره على الخليفة فيما بعد ، وثانيهما المجموعة الهائلة من الطلبة ، الذين تلقوا العلم على يديه في قرطبة ، علاوة على المؤلفات التي خلفها لنا .

يقول المقرئ « أن الناصر ، هو الذي استدعاه من بغداد » (١٦) ، بينما تذكر مراجع أخرى كثيرة أن الحكم المستنصر ، هو الذي استدعاه الى قرطبة (١٧) ، ولقد وصل الى الأندلس في عام ٣٣٠هـ / ٩٤١م ، حيث استقبله الحكم المستنصر بالله أحسن استقبال ، « وتلقاه بالجميل ، وحظى عنده ، وقرب منه ،

(١٤) صاعد : نفس المصدر ، ص ٨٨ .

(١٥) المقرئ : نفخ الطيب ، ج ٤ ، ص ١٣٩ .

(١٦) المقرئ : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٧٥ .

(١٧) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ١٥٥ .

وبالغ في اكرامه » (١٠٨) \* ونستخلص من الروايات التي سجلت استقبال الناصر لأبى على القالى ، مدى الاهتمام الكبير بالناحية العلمية الذى بذله الخليفة عبد الرحمن الثالث \* وتجمع كتب التاريخ والتراجم ، على أن الحكم ، « الذى كان يتصرف عن أمر أبيه ، أمر الوزير ابن رماحس ، أن يجىء مع أبى على الى قرطبة ، ويتلقاه فى وفد من وجوه رعيته ، ينتخبهم من بياض أهل الكورة ، تكرمة لأبى على ، ففعل ، وسار معه نحو قرطبة فى موكب نبيل » (١٠٩) \*

ثانيا - اعطاء هؤلاء المعلمين الفرصة للتعليم فى مساجد قرطبة ، مما ساهم فى رفع المستوى العلمى والتعليمى لأهل الأندلس ، وشجع على الرحلة من الأقاليم الى قرطبة ، ولا يعنى ذلك ، انتفاء النهضة العلمية فى عواصم الأقاليم الأخرى ، بل ان هذه الأقاليم قد أخذت حظها أيضا من عناية الخلفاء بها ، وان كانت قرطبة على أساس أنها العاصمة ، قد احتلت المكانة الأولى فى ذلك المجال \* وسوف أعود الى مناقشة مسألة اعطاء المعلمين الفرصة للتعليم فى مساجد قرطبة من قبل الخلفاء عند الحديث عن تدخل الدولة فى العملية التعليمية ، فى الفصل الثالث من هذا الباب \*

ثالثا - استجواب البارزين من علماء الأقاليم الى قرطبة ، اما للاقامة بها ، أو لاعطاء بعض الدروس ، ثم العودة الى بلادهم الأصلية ، مثلما كان الحال مع أبى يحيى زكريا بن خطاب التطيلى ، الذى « رحل سنة ٣٩٣ هـ / ٩٠٥ م ، وقدم الأندلس ، وكان الناس

(١٠٨) الحميدى : نفس المصدر ، ص ١٥٥ .

(١٠٩) المقبرى : النسخ ، ج ٤ ، ص ٧١ ، جونثالث بالنيثيا : الفكر الأندلسى ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ من « الترجمة العربية » ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٦٩٣ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٢٠٤ ... الخ .

يرحلون اليه في تطيلة للسمع منه ، واستقدمه المستنصر الحكم ، وهو ولي عهد ، فسمع منه أكثر مروياته ، وسمع منه جماعة من أهل قرطبة ، وكان ثقة مأمونا » (١١) .

وكذلك قام الخليفة بنقل الفقيه محمد بن عيسى بن رفاعة الخولاني ( توفي ٤٣٧هـ - ٩٤٨م ) من أهل رية ، ولقد كان لهذا الرجل شهرة طيبة ، لم يجد ابن الفرضي بدا من الاعتراف بها حين يقول « انه كان يرحل اليه للسمع منه من قرطبة وغيرها » . وعلى الرغم من أن ابن الفرضي يتهم ذلك الفقيه بالكذب ويحاول أن يؤكد ذلك بأكثر من وسيلة الا أنه يقول « استقدم محمد بن عيسى الى قرطبة سنة ٤٣٦هـ / ٩٤٧م ، فأقام يحدث بمدينة الزهراء بقية ذلك العام ثم انصرف الى رية ، فمات بها بعد ذلك حوالي عام ٤٣٧هـ » (١٢) . كما أن الحكم استقدم الشيخ محمد بن مروان بن زريق (توفي ٤٣٩هـ / ٩٥١م) ، من أهل بطليوس ، الى قرطبة للاستفادة منه (١٣) .

ابا - الاهتمام بالكتب : ولقد اشتهر عن عبد الرحمن الناصر ، حبه للكتب ، حتى بلغت شهرته في ذلك ، الامبراطور البيزنطي ، الذي رأى أن أظلي هدية يمكن أن يقدمها اليه ، هي كتاب جديد ، هو كتاب « ديسقوريدس » . ويصف المستشرق الأسباني الكبير « خوليان ريبيرا » هذه النسخة قائلا : « انها كانت نسخة رائعة ، كتبت بحروف من ذهب ، وزينت برسوم جميلة ، تمثل النباتات المذكورة في النص ، وقد رجا الماهل الأموي الامبراطور البيزنطي ، أن يرسل له عالما ليرجم له الكتاب ، لأنه لا يعرف اليونانية ، ولم يسهل عليه العثور على شخص عالم بها ، يستطيع أن يترجم له الكتاب ،

(١١) المتري : نفع الطيب ، ج ٣ ، ص ٣٨٨ .

(١١١) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

(١١٢) ابن الفرضي : نفس المصدر ، ص ٢٥٤ .

فأرسل اليه الامبراطور الراهب نيقولا ، « ليكون في خدمته » (١١٢) .

وانقسم الاهتمام بالكتب في هذه الفترة الى مظهرين :

أولهما — الحث على التأليف ، والاغداق ما أمكن على العلماء ، لكي يقوموا بتأليف الكتب ، فلقد كان « الحكم المستنصر قبل ولايته الأمر وبعدها ، ينشط أبا على ، ويعينه على التأليف بوسع العطاء ، ويشرح صدره بالافراط في الاكرام » (١١٤) ، ولهذا ، « طرز الشيخ أبو على القالى ، كتاب «الأمالى» باسم الحكم المستنصر » (١١٥) ، كما أن عبد الملك بن عمر بن محمد ابن عيسى بن سعيد ، الأديب ، المؤرخ ، ألف للحكم ، ولى العهد ، في خلافة أبيه الناصر ، كتابا في الآداب والوصايا ، أسماه « اصلاح الخلق » (١١٦) . كما « قام أحمد بن محمد ابن عبد ربه ( ٣٤٦ — ٣٢٨ هـ / ٨٦٠ — ٩٤٠ م ) ، بجمع ديوانه الشعرى ، البالغ أكثر من اثنين وعشرين جزءا ، للحكم المستنصر على عهد أبيه » (١١٧) .

والقاء نظرة تأملية ، على الموضوعات التى اهتم بها الحكم فى عهد والده الناصر ، يبين لنا نوع اهتماماته التى لم تقتصر على أعمال دينية ، وانما شملت الشعر ، واللغة والأدب . « الخ »

- 
- (١١٢) ريبيرا : اهتمام المسلمين فى الأندلس بالكتب ، ترجمة جمل  
محرز ، ص ٨٦ ( مجلة معهد المخطوطات العربية ) .  
(١١٤) المقبرى : النسخ ، ج ٤ ، ص ٧٥ .  
(١١٥) نفس المصدر ، ص ٧٢ .  
(١١٦) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٢٦٧ .  
الراكنى : ابن عبد الملك : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، الجزء  
الأول ، ص ٢٦ .  
(١١٧) الحميدى : الجذوة ، ص ٩٤ — ٩٦ .  
الضبى : البقية ، ص ١٤٨ — ١٥١ .  
راضى : الأندلس والناصر ، ص ٥٦ .



ثانيهما - الحصول على مؤلفات من كافة البلاد الاسلامية ، وخاصة من بغداد ، « فأرسلوا رسلا أذكاء ، أكفاء ، الى دار السلام مزودين بمبالغ ضخمة من المال ، وأوصوهم أن يسلكوا الممكن وغير الممكن من الطرق للحصول على أهم ما تنبأ به به بغداد من دور العلم ، وجواهر المعرفة ، فذهب أولئك الرسل ، واستعملوا الروية والأناة ، وبذلوا المال سخاء ، فنجحوا في رسالتهم ، وقاموا بمهمتهم خير قيام ، وعادوا من دار الحكمة وقد نقلوا أكثر ما ترجم من المؤلفات في بغداد ، وسلموها للخلفاء ، فحفظوها بين سحورهم ونحورهم ، حسنا بها ، وحرصا عليها ، وأمروا بنسخ صور كثيرة منها ، فذاعت في ربوع الأندلس ثم تخطت البحر المتوسط الى شمال أفريقية » (١١٨) .

والنتيجة الحتمية لهذين الاتجاهين ، أعنى : الحث على التأليف ، والبحث عن الكتب في المشرق ، تضخم مكتبة قرطبة ، بصورة كبيرة ، وقيام كل من الأمراء والمواطنين بتقليد الحكام في ذلك ، مما أفسح المجال لظهور مكتبات كثيرة في الأندلس . سوف نتناولها بالدراسة في موضعا ، عند الحديث عن المكتبات ودورها التعليمي .

وثمة جانب آخر تتجلى فيه عناية الناصر بالتعليم : ألا وهو رعايته للعلماء والفقهاء والعلمين ، فكان يستقبلهم في مجلسه ويمنحهم جوائزهم ، ولم يقتصر ذلك على المشهورين منهم ، بل لقد وصل الى معلمي الكتاب ، ويقص علينا ابن الشرضي أن « محمد أحمد بن يحيى الزهرى ، المعروف بالأنسبيلي الزاهد ،

(١١٨) غلاب : الفاسخة الاسلامية ، ص ١٣ ، ١٤ .

وآسين بلاثيوس : ابن مسرة ومدرسته ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

( تاريخ التعليم )

من أهل قرطبة ، ويكنى أبا عبد الله (توفي ٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م) ،  
كان معلم كتاب ، وكان يدخل على أمير المؤمنين عبد الرحمن  
ابن محمد ، ويأخذ جوائزه « (١١٩) » .

لقد وصلت الأندلس عامة ، وقرطبة خاصة ، الى درجة عالية من  
التطور ، حتى أصبحت « أعجوبة العصور الوسطى » (١٢٠) ، ولكن ذلك لم  
يكن نتيجة لعصر الخلافة فحسب ، وإنما هو — على ما بينت في هذا الباب —  
حصار سنوات طويلة من الاهتمام بالعلماء والأدباء ، وتشجيع القيام  
بالتعليم ، والحرص على الحصول على الكتب ، حتى أن العالم الكبير ،  
والنحوي الفذ أبا علي القالي عند وصوله الى أرض الأندلس ،  
ولكنه ما رأى من ضعف اللغة على مدار رحلته الى الأندلس ، كان  
يتصور أنه ، عند وصوله الى الأندلس ، سوف يحتاج الى مترجم ، ولم  
يكن الأمر كذلك ، فحينما استقبله ابن رماح وصحبه في الطريق الى  
قرطبة ، ضمن وفد كبير من غلبة القوم ، ساروا يتذكرون الأدب ،  
« فأنشد أبو علي بيت عبدة بن الطبيب :

ثم قمنا الى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل

وأخطأ أبو علي ، وأنشد « أعرافها لأيدينا مناديل » فأنكر ابن رفاعه (١٢١)  
الأكبري ذلك ، وكان من أهل الأدب والمعرفة ، وفي خلقه حرج وزعارة ،  
واستعاد أبا علي تثبتا مرتين ، فأنشده في كليهما « أعرافها » فلوى

(١١٩) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ص ٣٤٢ .

(١٢٠) فارمر : تاريخ الموسيقى ، ص ١١٦ .

ولم يترك الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم مجالا للحديث  
عن قرطبة بعد صدور كتابه الرائع « قرطبة حاضرة الخلافة الإسلامية »  
والذي صدر في بيروت في جزعين في عام ١٩٧١ ، وللأسف الشديد أن  
الكتاب قد التهمته نيران الحرب الأهلية ولم تنج منه الا عدة نسخ تكرم  
المؤلف بإيداعها مكتبة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بميدريد ومكتبة  
المعهد الأسباني العربي للثقافة .

(١٢١) محمد بن رفاعه الأموي الألبيري ، توفي في عام ٤٠٣ أو ٤٠٤ ،

انظر الإحاطة ، ج ٣ ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

ابن رفاعه عنانه منصرفا وقال : أمتع هذا يوفد على أمير المؤمنين ، ويتجشم الرحلة لتعظيمه ، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس لا تغلط فيه الصبيان ؟ والله لا أتبعه خطوة ، وانصرفت عن الجماعة ، ونذبه أميره ابن رماحس أن لا يفعل ، فلم يجد فيه حيلة ، وكتب إلى الحكم يعرفه ، ويصف له ما جرى لابن رفاعه ، ويشكوه ، فأجابه — الحكم — على ظهر كتابه : الحمد لله الذي جعل في بادية من بوادينا ، من يخطيء وأفد أهل العراق الينا ، وابن رفاعه أولى بالرضا عنه ، من أنسخط عليه ، فدعه وثأنه وأقدم بالرجل غير منتقص من تكرمته فسوف يعليه الاختبار ان شاء الله ، أو يحط به » (١٢٢) . وعند وصول أبي على القالى إلى قرطبة ، أثنى على من بها من الفقهاء وخاصة محمد ابن القوطية .

ولكن على الرغم من ذلك كله ، على الرغم من اجماع المؤرخين والكتاب ، على رعاية الناصر للعلوم ، واهتمامه بالحركة التعليمية الا أننا يجب أن نتوقف قليلا أمام الحملة العنيفة والشديدة التي وجهها الناصر ضد أتباع مذهب ابن مسرة الفرجاني . هذا ، ولقد قدم لنا الجزء الذى نشر حديثا من « مقتبس ابن حيان » نصوصا تفصيلية وواضحة عن هذه الحملة ، يتبين منها أن الناصر قد كلف صاحب المدينة ، عبد الله بن بدر ، « بالتنقير عنهم ، والقصر لآثارهم ، وطلب الدلائل عليهم ، والايقاع بمن صح لديه أنه منهم ، أو مقول لهم ، فتجرد ابن بدر ، يفتشد تخويفهم ، وأغلظ لمن عثر عليه منهم ، فجرت لهم في ذلك خطوب ، يطول القول فيها » (١٢٣) ، ولم يكتف الخليفة بذلك وانما أصدر كتابا في شأن هؤلاء ، قرى في جميع الأمصار .

ولقد توقفت طويلا أمام هذه النقطة : لماذا قام عبد الرحمن

(١٢٢) التبرى : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٧١ .  
ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .  
(١٢٣) ابن حيان : المقتبس ، تحقيقى شالينا ، ص ٢٤ .

الثالث بذلك ؟ هل حقا كانت تعاليم ابن مسرة من الخطورة بحيث تدفع بالناصر الى شن هذه الحملة القوية ؟ أم أن سلطة الفقهاء في قرطبة كانت قوية الى درجة تجبير الخليفة على اتخاذ مثل هذه الاجراءات الشديدة ؟

ان عددا كبيرا من الأبحاث الحديثة ، قد أثنت على ابن مسرة ، وأبعدت عنه أى شك في الالحاد أو الهرطقة أو الزندقة ، بل ان المؤرخين القريبين جدا من العصر ، يثنون على عمله الدينى عامة والمالكي خاصة فيصفه ابن حيان بأنه كان « يسرد مسائل مدونة المالكية عمدة السنة ، سرد القرآن ويشققها بالاجتلاب بأوضح برهان ، حتى يخرج منها أجزاء مختصرة حسنة لم يزل الاجماع من مخالفيه الى اليوم ، واقعا على أنها أفضل ، وأوجز ، وأبسط من كل مختصرة ، صيغت فيها » (١٢٠) .

أما بالنسبة لسلطة الفقهاء في تلك الفترة ، فاننى ، على الرغم من العناية الكبيرة التى قدمها لهم الناصر لدين الله ، لا أعتقد أن الخليفة كان راضيا لهم ، بل على العكس من ذلك تماما ، لقد كان يتمتع بسلطة قاهرة ، مكنته من تنفيذ أشياء كثيرة ، على الرغم من الفقهاء ، وليس أدل على ذلك ، من اتخاذه منذر بن سعيد البلطى الظاهرى ( ٢٧٢ - ٣٥٥ هـ / ٨٨٦ - ٩٦٦ م ) ، قاضيا ، وصاحب الصلاة ، والخطابة بجامع الزهراء ولقد كان منذر ظاهريا ، يقول بقول داود ابن على الظاهرى ( ( توفى ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م ) ، ولا يخفى ذلك . حقا انه كان اذا جلس للقضاء حكم على المذهب المالكي — ولكنه فى مؤلفاته ودروسه ، ومجالس علمه ، لم يكن يخفى اتباعه للمذهب الظاهرى . بل ان البعض قد وصل الى القول بأن منذر بن سعيد : « كان من المريدين

لابن مسرة ، في معظم آرائه » (١٢٥) ، ومع ذلك لم يتعرض منذر لأية مضايقة من فقهاء قرطبة ، بسبب منزلته من الناصر .

وإذا ما وضعنا في الحسبان ما حدث مع الفقيه ، أبي الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت الشنتريني ( توفي ٤٢٦ هـ / م ١٠٣٤ م ) وصاحبه الفقيه أبي محمد بن حزم ، حيث تعرض لهما صاحب المدينة ، وأمرهما بالقيام وترك التحلق ، ومنع العامة عن الاجتماع اليهما (١٢٦) ، ثم تعرض أتباعهما للنسج ، والامتهان — لأدركنا أن شخصية الناصر كانت فعلا أقوى من فقهاء عصره وأنه لم يكن يخضع لهم في مسألة مثل مسألة ابن مسرة .

لقد فكرت في البداية ، أن الناصر ، ربما قد قام بذلك في الستين الأوليين من حكمه ، لكي يكتسب مودة العامة والفقهاء ، ومساعدتهم له في القضاء على حركات التمرد ، التي كان عليه مواجهتها ، عند توليه أمر البلاد ، ولكن الحصول على التواريخ الثابتة لهذه الحملة ، والتي يذكر الرازي ، أقرب المؤرخين لعصر الناصر ، أنها بدأت ، اعتبارا من يوم الجمعة ، لتسع خلون من ذي الحجة سنة أربعين وثلاثة مائة ( ٩٥١ ) . ثم « تمادي الطلب ، لهذه الفرقة المسرية ، والاختلاف لهم ، ونخسوف الناس من فتنتهم بقية أيام الناصر » (١٢٧) ، الذي توفي سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م .

إن التفسير الوحيد ، الذي أجده مقنعا ، ولعلني أكون مخطئا ، هو أن الناصر في تلك المرحلة ، كان قد وصل الى سن الشيخوخة ، وبالتالي

(١٢٥) المقري : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ ، ازهار الرياض ، ص ٢٩٥ .

على راضى : الأندلس والناصر ، ص ٥٤ .

عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٢١١ .

(١٢٦) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٣٢٧ .

أسين : ابن حزم القرطبي ، ج ١ ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

Asin Palacios : Abenhazam de Cordoba, 10 136, 137.

(١٢٧) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق شاليتا ، ص ٣٠ .

أصبح ضعيفا، كما أنه، وهو الرجل الذى أنفق ببذخ، على أعمال دنيوية، ربما اعتوره الحنين الى التيام ببعض الأعمال، التى يتقرب بها الى الله، مثل العمل على الحفاظ على السنة ، وحمايتها من البدع .

ومن المناسب فى هذا المجال ، أن نصحح ، اعتمادا على أحدث ما نشر من مقتبس ابن حيان ، بعض ما قاله المستشرقان الأسبانيان الكبيران ، « ميغيل آسين بلاثيوس » ، و « انخيل غونثالث بالينثيا » ، عند الحديث عن « ابن مسرة ومدرسته » ، حيث يقول لنا أولهما : « ان ثلاثة حملوا على عاتقهم مسئولية مقاومة المسرية واضطهادها ، وأكثر هؤلاء الثلاثة مكانه ، بل وأعلاهم من الناحية الوظيفية الرسمية الفقيه محمد ابن بقى ( ٣١٧ - ٣٨١ هـ / ٩٢٩ - ٩٩١ م <sup>(١٢٨)</sup> ) ، وهو فقيه ضالع فى الفقه والتشريع ، تولى قضاء الجماعة فى قرطبة ، بعد وفاة الحكم الثانى . أما الثانى ، فهو اللغوى الشهير ، والأديب الأشبيلي ، أبو بكر ابن الزبيدى ( ٣١٦ - ٣٧٩ هـ / ٩٢٨ - ٩٨٩ م ) <sup>(١٢٩)</sup> ، مؤدب الخليفة هشام الثانى . ولقد كتب الزبيدى كتابا فى الرد على ابن مسرة ، عنوانه « هتاك ستور المحدثين » ، أما الثالث ، فهو المحدث الشهير ، الفقيه أبو عمر بن لوب الظلمكى ( ٣٤٠ - ٤٢٨ هـ / ٩٥١ - ١٠٣٧ م ) <sup>(١٣٠)</sup> ، انذى كتب كتابا ضخما ، يكشف فيه الغورات المستورة لمذهب ابن مسرة . ويرى آسين بلاثيوس ، أن بدء حملة الاضطهاد ضد أتباع ابن مسرة ، كان فى أواخر حكم الخليفة المستنصر بالله ، ذلك الخليفة الذى أنهى زهر سنوات عمره ، وأحس بذنو الموت ، بعد مرضه ، أصبح يستعد للحساب ولقاء الله ، مكفرا عن ذنوبه التى ارتكبها ، حين شجع الفلسفة

(١٢٨) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٩٣ .

الضبى : بغية الملتبس ، ص ١٤٦ .

(١٢٩) الزبيدى : كتاب الواضح ، المقدمة .

الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٤٣ .

العزاوى : نعمة رحيم : أبو بكر الزبيدى الأندلسى ، ص ٥٦ .

وما بعدها .

(١٣٠) الضبى : بغية الملتبس ، ص ١٦٢ ، الحميدى : الجذوة ،

ص ١٠٦ .

ودراستها ، وذلك عن طريق القيام ببعض الأعمال الخيرية ، مثل عتق  
الجواري ، وتوزيع الصدقات ، وتشديد مدارس لتعليم القرآن ،  
وتوصية ابنه هشام بدراسة الكتب الدينية . ولقد مات الحكم بعد  
ذلك ، وتولى أحمد بن بقى قضاء الجماعة ، واستغل منصبه أكبر  
استغلال ، لكي يناهض هذه الموجة المسرية المتقدمة والمنتشرة - ساعده  
على ذلك سياسة العودة الى الدين الصحيح ، التي أوصى بها الحكم ابنه  
هشام ، وبدأ الاتهام يلاحق هذه المجموعة من القرطبيين ، أتباع ابن مسرة ،  
ويختتم آسین هذه الآراء والملاحظات ، بأن «أيا منهم لم يتعرض لعقوبة  
كبرى بسبب معتقده لأنه القاضى لم يتمكن من الوصول الا الى نتائج  
بسيطة لا يعرف مدى خطورتها» (١٣١) . ولقد تابعهما فى القتل ، بأن الحملة  
ضد أتباع ابن مسرة لم تبدأ الا فى أواخر عهد الحكم ، السيد : نعمة  
وحيم العزاوى ، حيث يقول « تعرض ابن مسرة للاضطهاد فى حياته ،  
واشتد الهجوم على أتباع مذهبه ، حين أظهر الحكم فى أخريات أيامه ،  
الرغبة فى التكفير ، عما أبدى من تسامح وميل للفلسفة » (١٣٢) .

لكن الحقيقة ، كما سبق أن بينت هى أن الحملة قد بدأت فى عهد  
عبد الرحمن الناصر ، وتولى حمل لوائها ، صاحب المدينة ، عبد الله  
ابن بدر .

والحقيقة كذلك أن أتباع ابن مسرة قد تعرضوا للامتحان الشديد  
« وجرت لهم خطوط يطول القول فيها » (١٣٣) ، مما يلقي ظلالا ،

(١٣١) آسین بلاثيوس : ابن مسرة ومدرسته ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

Asin Palacios : Ibn Masarra y su Escuela, p. 89, 90.

ونقس الكلام تقريبا ، ذكره غونثالث بالينثيا : تاريخ الادب الاندلسى ،

ص ٢٢٦ .

Gonzalez Palencia : La Literatura Arabigo Espanola,

p. 226 .

(١٣٢) العزاوى : أبو بكر الزبيدى الاندلسى ، ص ٤٤ .

(١٣٣) ابن حبان : المنبر ، تحقيق تاليتا ، ص ٢٤ .

ولو باهتة ، على تسامح الحكم بالذات ، لأنه إذا كانت هذه الحملة قد بدأت في أواخر حكم الناصر ، وكان الحكم يتصرف عن أمر أبيه ، بل كان الحكم هو المسئول الأول عن النواحي العلمية والتعليمية ، فان ذلك يدعو الى التساؤل أكثر من مرة عن الأسباب المباشرة وراء ذلك ، ولكن بما أن ذلك ليس قصد المراد هنا — فلنتترك السؤال لفرصة أخرى قد نستجيب فيها لما في النفس من شكوك ، وأكتفى فقط بعرض نخص كتاب عبد الرحمن الناصر بهذا الخصوص :



## كتاب الخليفة في التنديد بمذهب ابن مسرة وأتباعه

أنفذ الخليفة الناصر لدين الله ، الى آفاق ملكه ، بشأن هؤلاء  
المبتدعة كتابا طويلا قري ، عليهم بأمصارهم من انشاء الوزير الكاتب  
عبد الرحمن بن عبد الله الزجاجي نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فان الله ، تعالى جده وعز ذكره ، جعل دين الاسلام  
أفضل الأديان ، فأظهره وأعلاه ولم يقبل من عباده غيره ، ولا رضى  
منهم سواه ، فقال في محكم تنزيله ( ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن  
يقبل منه ) (١) الآية ، وقضى في محتوم أمره ونفاذ حكمه أن ينسخ به  
الديانات ريختم برسالاته الرسالات ، فبعث محمدا خاتم النبيين وأكرم  
الأكرمين وأعز الخلائق على رب العالمين بأن كتب الصلاة والسلام  
عليه في عرشه قبل أن يخلقه ، واصطفاه لأمانته قبل أن يكونه ،  
وأرسله بأفضل دين سماء حنيفا الى خير أمة اختارها وسطا (٢) .  
لما قال ، عز من قائل ، اذ عرفنا فضل ما هداانا اليه من الدين وكرمنا  
به على سائر الأمم ( كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف  
وتنهون عن المنكر ) (٣) الآية ، فله ، جل جلاله وتقدست أسماؤه ،  
الشكر على خصائص هذه الفضيلة والحمد بالمنة الجليلة ، فقد استنقذ  
من الغواية وهدى فأحسن الهداية ، وأنار فأناب الحجة وكفانا بواضح  
المناهج مؤنة الفكرة ونظم زمان الأمة وجمع وجوه السعادة العاجلة  
والنجاة الآجلة في تأليف الجماعة واجتناب نزعات الفرقة ، حيث يقول  
عز وجهه لنبية ، المخصوص بهداه ، صلى الله عليه وسلم ، تحفيا به

(١) قرآن ، س ٣ ، آية ٨٥ .

(٢) قرآن ، س ٢ ، الآية ١٤٣ .

(٣) قرآن ، س ٣ ، الآية ١٠ .

وبعباده ، ورأفة بسطها على خير خلقه ، واعلاما لهم بتواصل الدين من قبله لأنبيائه وكرامته لاختلافهم بعد رسوله - صلعم - ( شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه ) (١) الآية ، مخوف وحذر ونهى عن تفرق الكلمة و ( نبه ) على البعد ... ونفى الله الخباثت عنها ، وفضلها على سائر البلدان واستقر فيها الدين كهيئته يوم أكمله الله لعباده ، ولما استوسعت الطاعة وشملت النعمة وعم الأقطار بعدل أمير المؤمنين السكون والدعة ، طلعت فرقة لا تبغى خيرا ولا تاتمر رشدا ، من طغام السواد ومن ضعف آرائهم ومن خشونة الأوغاد ... كتبنا لم يعرفوها خلقت فيها حلومهم ، وقصرت عنها علومهم ، وظنوا أنهم فهموا ما جيلوا وتفقهوا غيما لم يدركوا ، واستولى عليهم الخذلان وأحل عليهم بخيله ورجله الشيطان ، فزينوا لمن لا تحصيل لهم ولقوم آمنين لا علم عندهم ، فقالوا بخلق القرآن واستنابوا وآيسوا من روح الله ( ولا يئس من روح الله الا القوم الكافرون ) (٢) ، وأكثروا الجدل في آيات الله ، وحرفوا التأويل في حديث رسول الله - صلعم - فبرئت منهم الذمة بقوله تقديست أسماؤه ( ألم تـ إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون الذين كذبوا بالكتاب ويمارسنا به رسلنا ، فسوف يعلمون ) (٣) - إلى قوله ( اذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون - في الحميم ثم في النار يسجرون ) (٤) ، فهذا أبلغ الوعيد وأفظع النكال ( من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ) (٥) ثانيا عطفه ( ليضل عن سبيل الله ) (٦) إلى قوله ( عذاب الحريق ) (٧) ، ثم تجاوزوا في البيهتان ، وسدوا على أنفسهم

(٤) قرآن ، س ٤٢ ، آية ١٣ .

(٥) قرآن ، س ١٢ ، آية ٨٧ .

(٦) قرآن ، س ٤٠ ، آية ٦٩ ، ٧٠ .

(٧) قرآن ، س ٤٠ ، آية ٧١ ، ٧٢ .

(٨) قرآن ، س ٢٢ ، آية ٨ . أو س ٣١ ، آية ٢٠ .

(٩) قرآن ، س ٢٢ ، آية ٩ .

(١٠) قرآن ، س ٢٢ ، آية ٩ .

أبواب المغفران ، فأكذبوا التوبة وأبطلوا الشفاعة ونالوا محكم التنزيل  
وغامض متشابه التأويل ، بتقدير عقولهم ( فأما الذين في قلوبهم زيغ  
فيتبعون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ) (١١) ، الى قوله  
( وما يذكر الا أولو الألباب ) (١٢) فصاروا بجهل الآثار وسوء حمل  
الأخبار الى القدح في الحديث وترك نهج السبيل ، فأسأؤوا الفهم عن  
العلوم ، وأقدموا بمكروه القول في السلف الصالح ، واستبدلوا على  
ثقله الحديث ، ووضعوا من الكتب أوضاعها وتابعوا شهواتهم فيها ،  
وتتابعوا فيما أويقهم وورطهم ورأوا لتخضع وحشية ، يحثهم لازم  
الضلالة وداعية الهلكة والشذوذ عن مذهب الجماعة من غير نظر نافذ في  
دين ولا رسوخ في علم ، حتى لقد تركوا رد السلام على المسلمين ، وهي  
التحية التي نسخت تحية الجاهليين ، خلافا على أدب الله تعالى وقوله :  
جل جلاله ( واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ) (١٣)  
وقالوا بالاعتزال عن العامة ، وشدوا أزره فأثروه ، وانكشفوا فنكرهم  
( الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ) (١٤) الآية ، فلعوا في جهالتهم ،  
وتأهوا في غيهم ، ونكسوا على رؤوسهم ، حقدا على الأمة الحنيفية ،  
واعتمادا لبغضتها ، واستحلالا لدمائها ، وتذرعا الى انتهاك حرمة  
وسبى ذراريها ( قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفي صدورهم  
أكبر ) (١٥) الآية ، لولا أن سيف أمير المؤمنين من ورائهم ، ونظره محيط  
بهم ، ولما صار غيهم فاشيا وجهلهم شائعا ، واتصل بأمر المؤمنين  
من قدحهم في الديانة ، وصدوقهم عن الجادة ، ما شغل نفسه ، وأقضى  
مضجعه وأسهر ليله ، أغاظ أمير المؤمنين في الأخذ فوق أيديهم (١٦) ،  
وأوعز ايعازا شديدا وإنذارا فظيحا ، وعهد عهدا مؤكدا شافيا كافيا ،

(١١) قرآن ، س ٣ ، آية ٧ .

(١٢) قرآن ، س ٣ ، آية ٧ .

(١٣) قرآن ، س ٤ ، آية ٨٦ .

(١٤) قرآن ، س ٣٩ ، آية ١٨ .

(١٥) قرآن ، س ٣ ، آية ١١٨ .

(١٦) اقتباس من القرآن ، س ٨٤ ، آية ١٠ .

نظر به لوجه ، تبارك اسمه (١٧) ، وقدم فيه بين يدي العقاب الشديد ،  
وأمر بقراءة كتابه هذا على المنبر الأعظم بحضرته ، ليفسر قلب  
الجاهل ، ويفت كيد المستتر الجائر ، وينقض عزم المعاند المعجل ،  
ويضطر الغواة الى الانابة الصحيحة التي تقبلها الله منهم ، أو يكشفه  
عن الأذهان سرائرهم ، فيكون عليهم الشهيد ، و ( انهم آتيهم عذاب  
غير مردود ) (١٨) • ورأى أمير المؤمنين أن يشمل بنظره أقطار كوره ،  
ويرسله في بدوه وحضره ، وأن ينفذ عهوده اليك والى سائر قواده  
وجميع عماله بها ، يقرأ على منابر المسلمين ولا يحرم القاصي بأعم  
الدانى من تطهير هذا الرجز وتمحيصه ، وكفاية المسلمين شبهة وفتنة  
فلهم تحل الديار ، ولا تعفت الآثار ، ولا استحق البلاء على قوم ، ولا أهلك  
الله أمة من الأمم الا بمثل ما انكشف به هذه الطبقة الخبيثة من التبديل  
للسنة والاعتداء في القرآن العظيم وأحاديث الرسول الأمين ، صلوات  
الله عليه وسلم — هذا عند وروده عليك في الجامع قبلك ، وانشره في  
أسماع رعيته ، وتتبع هذه الطائفة بجميع أعمالك ، وابث فيهم عيونك ،  
وطالب فيهم غورهم جهدك ، فمن تجلى بطبقته أن انتسب اليهم ،  
وقامت عليه البيئات بذلك عندك فاكتب الى أمير المؤمنين بأسمائهم  
ومواضعهم وأسماء الشهود عليهم ونصوص شهاداتهم ليعود باستجالاتهم  
الى باب سدته ، لينكلوا بحضرته فيذهب غيظ نفسه ويشفى حر صدره  
ورأيك أن تداهن في أهل الريبة وتتخطاهم الى ذوى السلامة والأخوة  
الصالحة ، فان فرطت في أحد الأمرين أو كليهما فقد برىء الله منك  
وأهل دمك ، فأعمله واعتمله ، ان شاء الله تعالى » •

\*\*\*

ويقول ابن حيان بعد ذلك :

« وتمادى الطلب لهذه الفرقة المسرية ، والاخافة لهم ، وتخوف

(١٧) اقتباس من القرآن ، س ٥٥ ، آية ٧٨ •

(١٨) قرآن ، س ١١ ، آية ٧٦ •

الناس من فتنهم ، بقية أيام الناصر لدين الله » (١٩) \*

\*\*\*

تولى الحكم بن عبد الرحمن الخلافة في قرطبة سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١م ، وعمره حوالي سبعة وأربعين عاما ، وتوفي سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٦م ، أي أنه ظل على عرش الخلافة ستة عشر عاما ، وهي فترة قصيرة جدا نسبيا ، لكنها في تاريخ الأندلس ، من أنصح صفحاته ، اهتماما بالعلم والعلماء ، ولا يختلف في ذلك اثنان ، وليس من الممكن إيراد ما كتب عن الحكم الثاني لأن مجرد الوقوف على ذلك فقط ، عملية صعبة جدا ، بل ومستحيلة ، فهناك كتب كثيرة جدا ، كتبت في المشرق أو الغرب ، قديما أو حديثا ، في تاريخ الأدب ، أو في التاريخ ، أو في الفلسفة ، أو في تاريخ العلوم ، قد خصصت صفحات لهذا الخليفة العظيم ، وإذا كان الحكم قد اعتلى عرش الخلافة هذه المدة القصيرة فقط ، إلا أن تاريخه العلمي يرجع إلى ما وراء ذلك بعشرات السنين ، حينما تحمل عن والده عبء الجانب الثقافي والعلمي والتعليمي في مملكته ، وجعل من دولته بعد ذلك ، امتدادا لنشاطاته وأعماله التي مارسها خلال عهد والده \*

والجدير بالذكر أن الحكم لم يكن خليفة يرعى العلوم ، ويحمي العلماء ويشجع على التعليم فحسب ، ولكنه هو نفسه كان عالما كبيرا ، وسندا يعتمد عليه ، ومرجعا يحتكم إليه ، يقول المستشرق الفرنسي ، ليفي بروفنسال : « علينا أن نبرز في المقام الأول ذلك الاسم الخالد .

(١٩) نشر هذا النص لأول مرة ، المؤرخ المصري محمد عبد الله حسان ، تحت عنوان ( اكتشاف السفر الخامس من المقتبس ) - مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمطرد ، العدد ١٣ ، عام ٦٥ - ١٩٦٦ ، الصفحات ١٢٥ - ١٢٧ .

ابن حيان : المقتبس ، الجزء الخامس ، تحقيق شالميتا ، الصفحات

٢٥ - ٢٠ .

Pedrp Chalmeta : AL-MOQTABAS de Ibn Hayyan, V 25 - 30.

الحكم الثاني عالمسا لا غبار عليه ، راعيا مهيبا عظيما للأدب والعلوم ،  
صديقا للفنون . « (٢٠) »

أما غونثالت بالينثيا فيقول : « ان تسامح الحكم مع العلماء ، لم  
يكن له حدود ، مما دفعهم للالتفاف حول بلاطه ، ولقد قام بحمايتهم  
وتشجيعهم حتى الفلاسفة منهم ، وأعطى الحرية لهم ، لكي يقوم الرياضيون  
والفلكيون بالتدريس علنا لتلاميذهم » (٢١) . وتصفه دائرة المعارف  
الاسلامية ، بأنه كان « راعيا للفنون والعلوم والتربية » (٢٢) .

ولقد تحول مسجد قرطبة في عهد الناصر والمستنصر ، الى جامعة  
حقيقية وليس المجال هنا للافاضة في هذا القول ، لأننى سأتناوله عند  
حديثى عن المساجد ، ولكن ما هو جدير بالاشارة هنا ، أن الحكم ، « قد  
عهد الى أخيه المنذر ، بالاشراف على جامعة قرطبة وأساتذتها » (٢٣) ،  
دون أن يهمل هو رعاية هذا المكان ، بل كان شديد الاهتمام به ، حتى  
وصل عدد طلابه وزواره الى الآلاف (٢٤) .

(٢٠) لينى بروفنسال : تاريخ اسبانيا — النص الأسباني ، ج ٢ ،  
ص ٣٢٥ .

Léve Provencal : Espana Musulmana ; V. 10 325.

الحجى : التاريخ الأندلسى ، ص ٢٩٩ . ولقد أورد ابن الأبار نصا  
طويلا في صفات الحكم العملية في كتابه : الحلة السراء ، انظر ج ١ ،  
ص ٢٠٣ — تحقيق الدكتور حسين مؤنس .

(٢١) غونثالت بالينثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ، النص الأسباني ،  
ص ٢٠ ، و ص ٢٨٣ ، وانظر أيضا الترجمة العربية ، ص ٤٤٨ .  
(٢٢) دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الانجليزية ، ج ٢ ،  
ص ٢٢٣ .

The Encyclopaedia of Islam ; T 2 ; pp. 223.

(٢٣) عبد الله عنان : دولة الاسلام في الأندلس ، العصر الأول ،  
القسم الثانى ، الطبعة الثالثة ، ص ٤٥٧ .

(٢٤) محمد غلاب : الفلسفة الاسلامية ، ص ١٦ ، وانظر أيضا قول  
عبد الملك بن زيادة : « انى اذا احتوشتنى ألف محبرة . . . » ، الحميدى :  
ص ٢٦٦ ، وخوليان ربيرا : فى اهتمام المسلمين بالكتب ، ترجمة  
د. جمال محرز ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد رقم ٥ ،  
ج ١ ( ١٩٥٩ ) ، ص ٧٣ .

ويمكن لنا أن نلخص اهتمام الحكم بالنواحي العلمية والتعليمية في هذه النقاط :

أولاً - استجلاب العلماء من كافة نواحي الأندلس إلى قرطبة ، التراجع على أنه كان يختار أفضل العلماء ، أو من تتوافر لديهم وسماحه لهم بالتعليم في المساجد العامة بقرطبة ، وتدلنا كتب تصوص ليست شائعة عند الناس ، فعلى بن معاذ بن سمعان الرعيني ( المتوفى ٣٨٩هـ / ٩٩٩م ) ، بجاني ، كان لغويا ، منسأبا ، استقدمه الحكم المستنصر بالله ليقبض من علمه ، وكان عنده جميع كتب ابن حبيب وروايته ، وأقام بقرطبة بحومة مسجد سلمة نحو من سنة ، ثم عاد إلى بجانة (٢٥) . وفي تلك الإشارة الخاصة بتحديد جلوس هذا الفقيه « بحومة مسجد سلمة » ما يوحى بشيئين :

(أ) وجود مساجد أخرى في قرطبة لها أهمية : غير المسجد الجامع .

(ب) وجود أماكن خاصة بالاقامة ، ملحقة بالمسجد ، يقيم فيها هذا الفقيه مدة عام ، ثم يعود بعد ذلك إلى وطنه « بجانة » .

وايستقدم المستنصر بالله ، أيضا « محمد بن فرج بن سبعون النحلي ( توفي ٣٦٧هـ / ٩٧٧م ) إلى قرطبة ، فسمع عنه غير واحد » (٢٦) ، وتوفي هذا الرجل في بجانة ، مما يدل على عودته من قرطبة بعد انتهاء مهمته هناك .

---

(٢٥) المراكشي : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .

(٢٦) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ص ٣٧٣ .

وكذلك حدث نفس الشيء مع محمد بن مروان بن زريق  
من أهل بطليوس ، استقدمه الحكم المستنصر بالله ، وكتب  
عنه (٣) .

لهم بل كان هو شخصيا مهتما باستقدامهم الى قرطبة والترحيب  
ثانيا - اتساع رحيل العلماء المشاركة الى الأندلس ، وتكريم المستنصر  
بهم ، واکرام مثواهم ، ورفع منازلهم عنده ، ومن هؤلاء الذين  
وصلوا الى قرطبة على عهد المستنصر بالله « اسماعيل بن عبد  
الرحمن بن علي القرشي ( توفي بعد سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م )  
الذي رحل من مصر الى الأندلس ، فحل يومئذ على الحكم  
المستنصر على الرحب والسعة » (٢٨) . ولقد أورد ليفي بروفنسال  
أسماء عدد كبير من هؤلاء (٢٩) .

ثالثا - احترام الحكم المستنصر للعلماء ، ومكانتهم ، مما جعلهم  
يهتمون بدروسهم وبطابعتهم ، ورفع من قدرهم عند الناس .  
وعند الطلبة ، ولقد وصل بعض هؤلاء الفقهاء والمعلمين الى  
درجة عالية من المهابة ، حتى أنه كان يطلب ولا يرد له طلب .  
وأسوق تلك القصة الطويلة التي حفظها لنا المقرئ عن الفقيه  
ابراهيم بن اسحق - يقول المقرئ :

« كان معظما عند الناصر وابنه الحكم ، وحق لهما أن  
يعظماه ، فقد حكى الفقيه أبو القاسم بن مفرج قال : كنت

(٢٧) نفس المصدر ، ص ٢٥٤ .

(٢٨) الحميدى : جذوة المتقبس ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

المقرئ : نفع الطيب - ج ٤ ، ص ٧٠ .

(٢٩) ليفي بروفنسال : أسبانيا الإسلامية - ج ٢ ، ص ٢١٨ .



اختلاف يوما إلى الغتية أبي إبراهيم — رحمه الله تعالى — فيمن  
يختلف إليه للتفتة والرواية ، فأتى لعنده في أحد الأيام في  
مجلسه بالمسجد المنسوب « لأبي عثمان » الذي كان يحل  
به قرب داره بجوف قرطبة ، والمجلس حافل بجماعة الطلبة ،  
وذلك بين الصلوتين ، إذ دخل عليه خصي من أصحاب الرسائل  
جاء من عند الخليفة الحكم — فوقف وسلم وقال له : يا فقيه ،  
أجب أمير المؤمنين أبقاه الله ، فإن الأمر قد خرج فيك ، وها  
هو قاعد ينتظرك ، وقد أمرت بأعجالك ، فإله الله . فقال له :  
سبعا وطاعة لأمر المؤمنين ، ولا عجلة ، فأرجع إليه وعرفه —  
وفقك الله عني — أنك وجدتني في بيت من بيوت الله تعالى ،  
معى طلاب العلم أسمعيهم حديث ابن عمه رسول الله صلى الله  
عليه وسلم ، فهم يفتيدونه عني ، وليس يمكنني ترك ما أنا فيه  
حتى يتم المجلس المعهود لهم في رضا الله وطاعته ، فذلك أؤكد  
من تسييري إليه الساعة ، فإذا انقضى أمر من اجتمع إلى من  
هؤلاء المحتسبين في ذات الله ، الساعين لمرضاته ، مشيت إليه  
إن شاء الله تعالى ، ثم أقبل على شأنه ، ومضى الخصي يستمر  
متضاجرا من توقفه فلم يك إلا ريثما أدى جوابه ، وعاد به  
ساكن الطيش فقال له : يا فقيه ، أنهيت قولك على نصه أني  
أمير المؤمنين أبقاه الله ، فأصغى إليه ، وهو يقول لك : جزاك  
الله خيرا عن الدين ، وعن أمير المؤمنين ، وجماعة المسلمين  
وأمتهم بك حتى ينقضى شأنك ، وتمضي معي ، فقال له  
حسن جميل ولكني أضعف عن المشي إلى باب السدة

(٣٠) انظر : أبواب التصرف في « نصوص عن الأندلس » ص ١٦٨  
للعسدي . وحسين مؤنس في « وصف جديد لقرطبة الإسلامية »  
ص ١٦٨ .  
وعن باب السدة انظر : « تورييس بالباس » : الأندلس — العدد ٧  
(١٩٥٢) ص ١٦٥ .

Torres Balbas : Bab al Sudda, Al-Andalus XVII.

ويصعب على ركوب دابتي لشيخوختي ، وضعف أعضائي ،  
وباب الصناعة<sup>(٣١)</sup> الذي يقرب الى من أبواب القصر المكرم  
أحوط وأترب وأرفق بي ، فان رأى أمير المؤمنين — أيده الله  
تعالى — أن يأمر بفتحه لأدخل عليه منه ، هون على المشي ،  
وودع جسمي ، وأحب أن تعود اليه ، وتنهي له ذلك حتى  
تعرف رأيي فيه ، وكذلك تعود الى فاني أراك فتى سديدا ،  
فكن على الخير معينا . ودفني عنه الفتى ، ثم رجع بعد حين  
وقال : يا فقيه ، قد أجابك أمير المؤمنين الى ما سألت وأمر  
بفتح باب الصناعة ، وانتزارك من قبله ، ومنه خرجت اليك ،  
وأمرت بملازمتك مذكرا بالنيوض عند فراغك . وجلس الخصى  
جانبا حتى أكمل أبو ابراهيم مجلته بأكمل وأفسح ما جرت  
به عادته غير منزعج ولا قلق ، فلما انفضضنا عنه ، قام الى  
داره فأصلح من شأنه ، ثم مضى الى الخليفة الحكم ، فوصل  
اليه من ذلك الباب ، وقضى حاجته من لقائه ، ثم صرفه على  
ذلك الباب ، فأعيد اغلاقه على أثر خروجه — قال ابن مفرح :  
ولقد تعمدنا في تلك العشية اثر قيامنا عن الشيخ ، المرور بذلك  
الباب المعهود اغلاقه بدبر القصر فوجدناه مفتوحا كما وصف  
الخصي ، وقد حفه الخدم والأعوان منزعجين ما بين كناس  
وفرش ، متأهبين لانتظار أبي ابراهيم فاشتد عجبنا لذلك ،  
وطال تحدثنا عنه ، فهكذا يكون العلماء مع الملوك والملوك مع  
العلماء ، قدس الله تلك الأرواح » (٣٢) .

ويقول الدكتور سالم عن باب السدة انه باب الجنان وهو باب  
السطح الشرقي من أبواب قصر قرطبة فتحه الأمر عيد الرحمن الأوسط  
في سور ممتد من سور قرطبة لافلاق الرصيف وكانت دفتيه من حديد .  
وكان الأمير يشرف من السطح على اعدام الثوار أمام الباب .  
(٣١) أحد الأبواب الشمالية لقصر قرطبة ، وكان مغلقا . وعرف بذلك  
للاصقته لدار الصناعة القريبة من مسجد أبي عثمان . راجع المقرئ —  
ج ١ ، ص ٣٥٤ .

(٣٢) المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٣٥٣ — ٣٥٥ .  
المقرئ : ازهار الرياض ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ — ٢٨٦ .

مظهر آخر من مظاهر اهتمام الحكم بالحياة التعليمية ، هو قيامه بنفسه بزيارة الفقهاء في مجالسهم ، وتفقد أحوالهم ، ورؤية مستواهم العلمي ، فقد قام الحكم المستنصر بزيارة أبي الحسن علي بن محمد الأنطاكي ( المتوفى ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م ) ، حيث عين الفقيه الأنطاكي بعض الطلبة لقراءة القرآن يوم هذه الزيارة ، اختارهم من بين طلبته ، وكان منهم خلف بن حسين ابن مروان ( ٤٢٧ هـ / ١٠٣٦ م ) ، والد المؤرخ الكبير ، ابن حبان ( ٣٧٧ - ٤٦٩ هـ / ٩٨٧ - ١٠٧٧ م ) . تقول المصادر أنه « قرأ القرآن علي أبي الحسن الأنطاكي ، وحكى أنه كان حسن الصوت ، وأحد من عين الأنطاكي للقراءة ، يوم زاره الحكم المستنصر » (٣٣) .

رابعا - انشاء أماكن للتعليم ، ركزها على التعليم الأولى . أي أنه أنشأ مكاتب في مدينة قرطبة لكي يتعلم فيها أولاد الفقراء والضعفاء مجانا ، ثم أنه جعل لمعلميها أوقافا من دخل حوانيت السراجين ، لكي يتقاضوا منها مرتباتهم ، وتجمع كافة المصادر على أن هذه الخطوة تعتبر من أفضل خطوات الحكم المستنصر بالله حيث تقول « ومن مستحسنات فعالة وطييات أعماله ، اتخاذ المؤدين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن ، حوالى المسجد الجامع ، وبكل ربض من أرباض قرطبة ، وأجرى عليهم المرتبات ، وعيد إليهم في الاحتياج والنصح ابتغاء وجه الله العظيم » (٣٤) . وعند الحديث عن عام ٣٣٤ هـ /

(٣٣) ابن الأبار : نكلمة الصلة - ج ١ ، ص ٢٩٥ .

وانظر التعريف الذي خصه به الدكتور محمود مكي في مقدمته

لتحقيقه للسفر الثاني من مقتبس ابن حبان ، ص ٨ - ١٦ .

(٣٤) ابن عذاري : البيان المغرب ، ص ٣٥٨ .

٩٧٤م يقول : « وفيها حبس الحكم المستنصر ، حوانيت السراجين بقرطبة على المعلمين لأولاد الضعفاء » (٢٠) . هذا ولقد أنشأ الحكم المستنصر ، في هذا المجال ، سبعة وعشرين مكتبا ، منها ثلاثة بجوار المسجد والباقي بكل ريف من أرباض المدينة ، وفي هذه المناسبة يقول الشاعر ابن شخيص :

وساحة المسجد الأعلى مكللة

مكاتب الليثامي من نواحيها

لو مكنت سور القرآن من كلم

نادتك ياخير تاليا وواعيا(٣١)

خامسا - اهتمام الحكم المستنصر بالله بتأليف الكتب ، والحصول عليها . وفي هذا المجال ، ارتفع الحكم الى درجة عالية ، لا يكاد يدانيه فيها أحد ، وتتجلى مظاهر اهتمامات الحكم بالكتب وتأليفها ، والحصول عليها فيما يلي :

(أ) تشجيع التأليف ، والاعتناء به ، والاثابة عليه ، واکرام

(٣٥) ابن حيان - المتقيس - تحقيق الحجي ، ص ٢٠٧ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٣٧٠ .

وهناك من يرى أن الحكم المستنصر بالله قد قام بهذه الأعمال في سنة ٣٦٤ ، أي قبل وفاته بعلمين فقط ، بسبب ابتلاه من مرض خطر ألم به ، كما أنه لنفس السبب قد اعتق الكثير من عبيده وجواريه ، ومع موافقتي على هذا الرأي وصحته كثيرا إلا أن ذلك لا يمنع من استخدامه كدليل على اهتمام الحكم بالتعليم والعلمين لأنه كان في وسعه استخدام هذه الأموال في مجالات أخرى كبناء المساجد أو توزيعها على الفقراء دون توجيهها لبناء المكاتب ولمصالح المعلمين .

(٣٦) ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ - طبعة

ليفى برونسسال ، و ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، طبعة صادر في بيروت ، و ص ٣٤٠ ،

٢٤١ ، تحقيق كولان .

العلماء العاملين في هذا المجال خارج حدود الأندلس أو داخله ،  
فمن خارج الأندلس ، «وجه الى الحافظ أبي الفرج الأصبهاني ،  
ألف دينار ، على أن يوجه له نسخة من كتاب الأغاني» (٣٧) .  
هذا ولقد أرسل المؤلف الى الحكم ، نسخة حسنة متفحة ،  
قبل أن يحصل عليه أحد في العراق ، أو ينسخه أحد منهم ،  
وأرسل أبو الفرج أيضا للحكم المستنصر « كتابا ألفه في  
أنساب بني أمية ، يشيد فيه بمجدهم وآثارهم ، فجدد له  
الحكم الحلة الجزيلة » (٣٨) . ولقد فعل المستنصر ذلك أيضا  
مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي ، في شرحه لمختصر ابن  
عبد الحكم ، ومع محمد بن القاسم بن شعبان بمصر ، ومحمد  
بن يوسف الوراق الذي صنف له كتابا ضخما في « مسائل  
أفريقيا وممالكها » ، وأبى عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى  
ابن مفرج (٣٩) .

(ب) أما في داخل الأندلس ، فلقد كان نشاط الحكم في مجال  
التشجيع على التأليف كبيرا جدا . واتخذ في هذا السبيل  
وسائل كثيرة ، منها مثلا :

الاعفاء من الغزو في مقابل تأليف كتاب ، وهذا ما حدث مع  
الفقيه عبد الله بن مغيث ( توفي ٥٣٥٢ / ٩٦٣م ) ، المعروف

(٣٧) المتري : النفع ، ج ٤ ، ص ٧٢ . عبد العزيز سالم : تاريخ  
المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٣١٤ . أوكانيا : الحكم المستنصر بالله  
ص ١٨ .

(٣٨) عنان : دولة الاسلام في الاندلس ، العصر الاول ، القسم  
الثاني ص ٤٥٦ . غوثالبيس : الكتب والمكتبات في اسبانيا الاسلامية ،  
ص ٣٦ .

(٣٩) انطونيا : بلاط الحكم المستنصر ، ص ٤٢ ، عبد العزيز سالم :  
تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٣١٤ . عنان : دولة الاسلام ،  
ص ٤٥٦ .

بابن الصفار ووالد القاضي يونس ، قاضي الجماعة بقرطبة ،  
والذي يحدثنا « أن الحكم المستنصر حينما خرج لغزو الروم  
سنة ٣٥٢هـ / ٩٦٣م ، تقدم الى والدى بالكون في صحبتته ،  
فاعتذر بضعف في جسمه ، وألم لا ينجده فقال له الحكم : ان  
ضمن لى أن يؤلف في أشعار خلفائنا بالمشرق والأندلس مثل  
كتاب الصولى في أشعار خلفاء بنى العباس ، أعفيتها من الغزو ،  
وجازيته أنخل الجزاء » (٤٠) . ويستطرد الضبى في هذه الرواية  
تأثلاً : « وخرج أحمد بن نصر الى الفقيه بذلك فقال : أفعل  
ذلك لأمر المؤمنين ان شاء الله ، قال : فقال المستنصر : ان شاء  
أن يكون تأليفه في منزله فذلك اليه وان شاء أن يكون في دار  
الملك المطلة على النهر فذلك له . فقال : نسأل أن يكون ذلك  
في دار الملك وقال : أنا رجل مورود في منزلى ، وانفرادى في  
دار الملك لهذه الخدمة أقطع لكل شغل ، فأجيب الى ذلك ،  
وكمل الكتاب في مجلد صالح ، وخرج به أحمد بن نصر الى  
الحكم المستنصر ، فلقية بالمجلد في طليطة ، فسر به الحكم » (٤١) .

(ج) تقديم الجوائز الكبرى ، بل واسناد الوظائف المهمة الى  
العلماء الذين يعملون على التأليف مثلما حدث مع أحمد بن  
عبد الملك الأثبيلي ( المتوفى ٤٠١هـ / ١٠١١م ) ، ولقد كان  
« أحفظ الناس لقول مالك وأصحابه ، جمع للحكم أمير المؤمنين  
كتاباً حفيلاً في رأى مالك سماه : كتاب الاستيعاب ، وكان  
جمعه له مع أبى بكر ، محمد بن عبد الله القرشى ، ورفع الى  
الحكم ، فوصلهما بجائزة كبيرة ، وقدمهما للشورى » (٤٢) .

(٤٠) ابن خاتان : مطمح الأنس ، ص ٥٩ .

(٤١) الحميدى : جذوة المتيسر ، ص ٢٣٦ .

الضبى : بفيضة المتيسر ، ص ٣٣٢ - ٣٣٤ .

(٤٢) ابن بشكوال : الصلة - ج ١ ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

ابن قرحون : الديباج المذهب ، ص ١٧٥ - ١٧٧ .

أما أحمد بن فرج الجياني ، وهو العالم ، الشاعر الأديب ، فلقد ألف للحكم المستنصر كتاب « الحقائق عارض فيه كتاب أنزيرة لأبي بكر محمد بن داود الأسيهاني . الا أن أبا بكر إنما ذكر مائة باب في كل باب مائة بيت ، وأبو عمر أورد مائتي باب في كل باب مائتين بيت ، ليس منها باب متكرر اسمه لأبي بكر ، ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئاً (١٦) . ومحمد بن عبد الله بن سيد ، من أهل بجاعة ( المتوفى ٣٦٣هـ / ٩٧٤م ) كان فقيها ، حافظا للأسانيل ، وبزب « المستخرجة » للحكم المستنصر بالله (١٧) .

أما ما هو مشير للاقتباه حقا ، وجدير بالملاحظة ، فهو تلك الروح العلمية الحقبة للحكم المستنصر بالله ، ومعرفته لشروط تأليف الكتب ، من تهيئة المراجع واعداد المكان ، ومتابعة العاملين ، فالحكم لم يكتف بالمساعدات المالية ، بل ساعد أيضا في الناحية العلمية بامداد انعلماء بما يحتاجون اليه من مصادر . فقد أرسل الى الكاتب المصري أبي سعيد عبد الرحمن بن يونس صاحب كتاب ( تاريخ مصر والمغرب ) كتابا استعان به هذا المؤرخ في تصنيف كتابه فيما يخص الأندلس (١٨) .

وكذلك أمر الحكم المستنصر بالله ، محمد بن الحسين ، وابنه سيد ، وأبا علي النقالى ، بمقابلة كتاب « العين » للخليل بن أحمد ، في دار الملك التي يقصر قرطبة . وأحضر من الكتاب نسخا كثيرة في جعلتها نسخة القاضي منذر بن سعيد ، التي رواها بمصر عن ابن ولاد ، « غمر لنا صور من الكتاب بالمقابلة .

(٤٣) الضبي : بغية المتيسر ، ص ١٥١ .

(٤٤) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ص ٣٦٨ .

(٤٥) عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ،

فدخل علينا الحكم في بعض الأيام فسألنا عن الشيخ « (٤٦) » ،  
وتمضى القصة طويلة بعد ذلك فيما لا يهمنا ولا يعنيننا ، ولكننا  
يجب أن نتوقف أمام هذه الأفكار العلمية السليمة في القيام  
بتحقيق النصوص تحقيقا سليما ، وذلك بالتزود بكل ما هو  
مطلوب لذلك من الحصول على كافة النسخ ، ثم ايجاد المكان  
انصالح للعمل كما هو الحال في أيامنا هذه .

سادسا - وجه الحكم عناية خاصة الى المكتبات ، حتى استطاع أن  
يجمع في قصره مكتبة يصل عدد مجلداتها الى ٤٠٠٠٠٠ مجلد ،  
وان فهارسها شغلت أربعة وأربعين مجلدا ، وليس هنا المكان  
المناسب لمناقشة صحة هذا الرقم ، ولكن جميع المصادر ،  
قديمها وحديثها ، العربية منها وغير العربية ، تؤكد هذا الرقم  
وتردده . وهناك في هذا المجال دلائل صحة ، وعلامات شك .  
فمن علامات الشك التي راودتني في هذا الموضوع ، ما أثاره  
الدكتور ميكيل دى ابالسا ( أستاذ تاريخ اسلامى بجامعة  
كومباس اللاهوتية بمدريد ) ، في المناقشة التي تبعت محاضرتي  
عن « تدخل الدولة في التعليم في الأندلس » (٤٧) ، حول ضخامة  
هذا الرقم واستحالته ، وخاصة اذا تمت مقارنته ببعض  
الاحتياات الكبرى في العالم اليوم ، مع اختلاف العصر . ولقد  
فكرت في ذلك أيضا بعد ذلك ، ووجدتني أمام عبارة أخرى  
ترددتها الكتب التي تتحدث عن هذه المكتبة مفادها : « أن  
فهارس هذه المكتبة كانت أربعة وأربعين مجلدا ، في كل واحد

---

(٤٦) الحميدى : جذوة القتبس ، ص ٤٧ - ٤٩ .  
(٤٧) محاضرة ألقيتها بدعوة من المعهد الأسباني المبرسي للثقافة في



منها عشرون ورقة<sup>(٤٨)</sup> \* ومعنى ذلك أن هناك ٤٤ مجلد  $\times ٢٠$   
ورقة = ٨٨٠ ورقة  $\times$  صفحتين لكل ورقة = ١٧٦٠ صفحة \*  
فإذا افترضنا أن أقصى حمولة لعمود الصفحة الواحدة ٣٠  
سطرا ، فإن الأجمالي في هذه الحالة سيكون ٥٢٨٠٠ عنوان \*  
صحيح من الممكن أن يكون هناك من بعض العناوين عشرات  
النسخ ، أو أن بعض الكتب تتكون من عشرات الأجزاء  
والمجلدات ، ولكن مع ذلك يبدو الفارق واسعا والبون شاسعا ،  
حتى إذا أخذنا بقول ابن حزم في الجمهرة ، بأن كل مجلد  
من الفهرس يحتوى على خمسين ورقة<sup>(٤٩)</sup> ، وقمنا بالعملية  
الحسابية المذكورة فإن الرقم يصل الى ١٣٢٠٠٠ عنوان فقط ،  
ولكن هذا الرقم الأخير قد يقترب بى الى تصديق الرقم الكلى  
للمكتبة الذى أورده كثير من المؤرخين ، وخاصة اذا ما علمنا  
أن « القرطبيين جميعا كانوا في هذه الفترة يعيشون الكتب ،  
وأنة في الربض الغربى من المدينة ، كان حوالى مائة وسبعون  
امراة يكسبن رزقهن من نسخ الكتب »<sup>(٥٠)</sup> \* ويشك الدكتور  
غلاب في هذا الرقم ، مرجعا ذلك الى الاسراف الذى كان  
يلجأ اليه المؤلفون المسلمون عادة عند ذكر الأرقام »<sup>(٥١)</sup> \*

- 
- (٤٨) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ص ١٨١ .  
ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ .  
سالم : تاريخ المسلمين ، ص ٣١٤ .  
(٤٩) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص ٢٢ .  
ليفى بروفنسال : تاريخ إسبانيا ، ج ٢ ، ص ٣١٩ .  
ابن الأبار : الحلة السراء - ج ١ ، ص ٢٠٣ - تحقيق د. حسين  
مؤنس \*  
(٥٠) سانشيث البرنوث : اسبانيا الإسلامية ، ج ١ ، ص ٤١٥ .  
Sanchez Al-bornoz : La Espana Musulmana ; 1 : 415  
مانويل ريو : محاضرات في تاريخ العصور الوسطى ، ص ١٩٦ .  
Rie ; Manuel : Lecciones de Ho Medieval ; 196  
(٥١) محمد غلاب : الفلسفة الإسلامية ، ص ١٥ .

ولكى يصل الحكم الى هذا المستوى في جمع الكتب ،  
فانه لجأ الى عدة أساليب ناجحة منها : -

( أ ) أنه وجه رسلا الى بلاد المشرق ، وخاصة الى بغداد  
ودمشق والقاهرة ، لشراء الكتب ، باذلا في سبيلها أحسن  
الأثمان \* ولعل أجمل وصف لذلك ، ما يقوله ابن الأبار عن  
الحكم المستنصر من أنه « كان شغوفا بالعلوم ، حريصا على  
اقتناء دواوينها ، يبعث فيها الى الأقطار والبلدان ويبدل  
في أعلاتها ودناتها أحسن الأثمان ، ونفق ذلك لديه ، فحملت  
من كل جهة اليه ، والملك يوق ، ما نفق فيها ، جلب اليه ، حتى  
غصت بها بيوته ، وضاحت عنها خزائنه » (٥٢) \*

ولقد جعل الحكم ، في هذه البلاد ، مندوبين دائمين له ،  
لترقب هذه الكتب ، وتواقيه بها ، ويذكر لنا التاريخ أن من  
« وراقبه ببغداد محمد بن طرخان ، ومن أهل المشرق  
والأندلس جماعة » (٥٣) \*

( ب ) استخدام الحكم عددا كبيرا من النساخ في منزله يتولون  
نسخ الكتب النادرة ، بل انه أقام صناعة متكاملة في داره ،  
تضم النساخين والمجلدين ، والضابطين ، يقول لنا ابن خلدون  
« أن الحكم جمع - بداره الحذاق في صناعة النسخ ، والمهرة  
في الضبط ، والاجادة في التحليد ، فأوعى من ذلك كله » (٥٤) \*  
كما أن عباس بن عمر بن حرون الكتابي (توفي ٥٣٧هـ / ٩٨٩م) ،  
من أهل صفية « قد خرج الى الأندلس ، فقدمها عام ٥٣٣هـ ،

(٥٢) ابن الأبار : الحلة السراء - ج ١ ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

ابن سميعة : المغرب في طي المغرب ، ص ١٨١ .

المقري : نفع الطيب - ج ١ ، ص ٣٧١ ، ٣٧٢ .

(٥٣) نفس المصدر ، ص ٢٠٢ .

شواليبس : الكتب والمكتبات ، ص ٣٥ - ٣٦ .

(٥٤) ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ١٤٦ .

واتصل بولى العهد ، الحكيم بن عبد الرحمن ، رحمه الله ،  
« فتوسع له فى الورق ، وصار فى جملة الوراقين » (٥٥) .  
(ج) مساهمته فى جعل الأندلس أكبر أسواق الأدب والعلم ،  
فكان المؤلفون يؤمنونها من جميع البقاع ، حاملين انتاجهم  
فاذا مثلوا فيها ، اشترى منهم الخليفة هذه المنتجات بأثمان  
حرية بتشجيعهم ، ويحيلهم على العودة بأضعاف ما كان معهم .  
ويقول الدكتور غلاب « ان التاريخ يحدثنا أن الحكم الثانى  
كان له فضل التفوق فى جمع هذه الثروة العظيمة التى كان  
لها فيما بعد أثرها البارز فى بناء صرح المدنية الانسانية ، بما  
أحدثته من انقلاب فى الأفكار الأوروبية فى أواخر القرون  
الوسطى ، مما كان أحد الأسباب القوية والمباشرة للنهضة  
الأوروبية » (٥٦) .

وكما أشرت من قبل ، لقد ساعد على ذلك أن الحكم لم  
يكن راعيا للعلوم والآداب فحسب ، بل كان عالما ، يعرف  
قيمة العلماء ويعرف قيمة الكتاب ، ومع التسليم بمبالغة الكتاب  
والمؤلفين فى أضفاء الألقاب والأوصاف الا أنه لا شك فى أن  
لذلك ظلا من الحقيقة ولو نوعا ما ، فيقول ابن الأبار واصفا  
الحكم المستنصر « كان مع هذا كثير التهمم بكتبه والتصحيح  
لها والمطالعة لفوائدها ، وقلمما تجد له كتابا كان فى خزائنه  
الا وله فيه قراءة ونظر ، من أى فن كان من فنون العلم ،  
يقرؤه ، ويكتب فيه بخطه ، اما فى أوله أو فى آخره ، أو فى  
تضاعيفه ، وفى نسب المؤلف ووفاته والتعريف به ، ويذكر أنساب  
الرواق له ، ويأتى من ذلك بغرائب لا تكاد توجد الا عنده ،  
لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن ، وكان موثوقا به مأمونا

(٥٥) ابن الفرقاني : علماء الأندلس ، ص ٢٤٧ .

(٥٦) غلاب : الفلسفة الإسلامية ، ص ١٤ .

عليه ، حار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم ،  
ينقلونه من خطه ، ويحاضرون به » (٥٧) .

والحميدى يؤكد أنه رأى بنفسه خط الحكم المستنصر  
على كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه ، حيث قيد الحكم  
تاريخ ميلاد ابن عبد ربه ( ٨٢٤٦ / ٨٦٠م ) ، وتاريخ وفاته  
( ٨٣٣٨ / ٩٣٩م ) ويقول : هذا آخر ما رأيت بخط الحكم  
المستنصر ، وخطه حجة عند أهل العلم عندنا ، لأنه كان عالما  
ثبتا (٥٨) . كما أن القاضي عياض يقول عنه « وكان الحكم ممن  
طالع الكتب ، ونقر عن أخبار الرجال تنقيرا لم يبلغ فيه شأوه  
كثير من أهل العلم » (٥٩) .

لقد أطلت الكلام عن الحكم المستنصر بالله ، أو أن شئت  
أطلت الكلام عن فترة الخلافة ، لأنها « العصر الذهبي » (٦٠)  
لأسبانيا الإسلامية في كافة المجالات ، ولأنها الفترة التي ألح  
فيها أستاذى الدكتور « لويس سواريث فرنانديث » ، في  
أكثر من مرة تحدثنا فيها ، على أنها أكثر فترات تاريخ أسبانيا  
الإسلامية تحديدا للذات ، ونضوجا للشخصية . هذا ولقد كتب  
المستشرق الأسباني « ميانشور مارتينيث أنطونيا » عن  
بلاط الحكم المستنصر العلمى مقالا وافيا ، فيه الفناء لمن

(٥٧) ابن الأبار : الحلة السراء ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

(٥٨) الضبى : بغية الملتبس ، ص ١٤٨ .

ليفى بروفنسال : أسبانيا الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٣١٧ .

Léve Provencal : Espana Musulmana, 2 : 317.

(٥٩) اليحصبى : ترتيب المدارك ، ج ١ ، ص ٢٢ .

(٦٠) ريبوبيسى ، خوسيه : تاريخ أسبانيا - ج ٢ ، ص ١٢٩ .

Repollés Aguilar ; J. Ho de Espana, 2 : 129.

يريد الاطلاع على المزيد (٦١) \*

ولكن الى اى مدى يمكن لنا الانطلاق فى الحديث عن رعاية الحكم المستنصر للعلوم والآداب ؟ كما قلت سابقا . لم يكن هذا هو المجال للحديث تطويلا عن الاهتمامات العلمية للحكم ، ولذلك لم أستوف كثيرا مما تحت يدي مما قيل فى حق هذا الخليفة العظيم ، وأقول مرة أخرى ليس هنا المجال المناسب تماما ، لتبيان الى اى مدى كانت هذه الرعاية والعناية ، فقط أود أن أشير الى بعض الملاحظات التى يمكن أن تلقى ظلالا ، ولو باهتة ، على اندفاع كل من يكتب فى الثناء على الحكم المستنصر \*

ان ما حدث من اضطهاد لاتباع ابن مسرة على عهد والده ، عبد الرحمن الناصر ، والتاريخ المحدد الذى بدأت فيه هذه الحملة ، يؤكد أن الحكم فى تلك الفترة ، كان يناهز الأربعين من عمره ، كما أنه كان يتمتع بسلطة حقيقية ، ولكننا لم نسمع له صوتا فى حماية هؤلاء مما أوقع بهم من عذاب ، بل ان نهايات حكم الحكم قد شهدت أيضا محاولات لتتبع الفلاسفة وعقائهم ، وأرجع كثير من المؤرخين ذلك ، الى ضعف الحكم وشيخوخته ، ورغبته فى التكفير عن خطاياه ، بالتسامح مع الفلاسفة خلال حكمه (٦٢) \*

---

(٦١) انطونيا : بلاط الحكم المستنصر العلمى ، نشر بمجلة الآباء الاغسطوسيين بمكتبة الاسكوريال عام ١٩٢٩ .  
Antuna. M.M. : La Corte Literaria de Alhaquem II en Cordoba ; en Religión y Cultura ; Revista de los P.A., 1929.

(٦٢) آسبن بلايوس : ابن مسرة ومدرسته ، ص ٩٠ .

علاوة على ذلك ، فان تربية الحكم كانت تربية دينية تقليدية ، مما قد يجعل من الصعب عليه الانطلاق الى حدود بعيدة في مسألة التسامح ، واعطاء الحرية لتبادل العلوم ، وينقل لنا القاضي عياض رأى الحكم المستنصر في كل من هو على غير المذهب المالكي ، ومن ذلك الرأى يمكن لنا أن نقف ، ولو قليلا ، أمام ذلك الاندفاع الهائل في تقييم الحكم المستنصر ونص القاضي عياض كالتالى :

«وفى كتاب الحكم المستنصر الى الفقيه أبى ابراهيم (٦٣) ، وكان الحكم ممن طالع الكتب ، ونقر عن أخبار الرجال تنقيرا لم يبلغ فيه شأوه كثير من أهل العلم ، فقال فى كتابه :

وكل من زاغ عن مذهب مالك ، فانه ممن رين على قلبه وزين له سوء عمله » (٦٤) .

---

(٦٣) انظر العلاقة التى تربط الحكم بالفقيه أبى ابراهيم من خلال القصة الواردة فى هذه الأطروحة ، ص ٧٥ - ٧٧ .  
(٦٤) البيهقي : ترتيب المدارك ، ج ١ ، ص ٢٢ .

### (هـ) الدولة العامرية :

الحديث عن الدولة العامرية ، ليس الا امتدادا للحديث عن فترة الخلافة في الأندلس ، ولكن أغلب المؤرخين يميل الى اطلاق هذا الاسم على حكم المنصور بن أبى عامر وولديه عبد الرحمن وعبد الملك ، حيث أنيم قد استولوا على السلطة الحقيقية في الأندلس ، ولم يتركوا للخليفة « هشام الثانى » الذى حكم من ( ٣٦٦ - ٣٩٩ هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٩ م ) ، الا السلطة الاسمية .

وأورد هنا ما كتبه المستشرق الفرنسى الكبير «ليفى يروفسال» عن التغير السياسى ، الذى وقع فى هذه الفترة :

« بدأت أسبانيا الاسلامية ، بعد وفاة الحكم الثانى ، فترة جديدة تعرضت فيها سلطة الخلافة لضربة قوية لم يكن لها سابق أو نذير ، حيث أن الخليفة الجديد ، علاوة على كونه حدثا صغير السن . كان أيضا أضعف من أن يمارس بنفسه مهام الخلافة ، وأضعف من أن يطالب بذلك حتى بعد أن صار شابا أو رجلا كبيرا ، لقد انتقلت هذه المهام ، وتلك المسؤوليات الى يد ديكتاتور حقيقى ، أو انى «الحاجب» الذى كان رجلا شهما ، غير هياب أو متردد . انتقلت هذه المسؤوليات الى يد عامل أو موظف ، لم يعرف لطموحاته حدود ، ارادته من حديد ، ذو قدرة سياسية فائقة ومقدرة حربية لا يناع عليها ، ومهارة لانخطف فى اقتناص واستغلال الفرص ، مما مكنه من الصعود الى أعلى مراتب الشرف والرياسة فى ذلك الوقت ، لقد كان يكفى مرور عدة أعوام ، تمكن فيها من القضاء على كافة منافسيه ، ليحدث ما يمكن أن نطلق عليه « انقلابا » وليوضع بين يديه ، دون منازعة ، سلطة الحكم فى الأندلس ، ومن ذلك الحين ، سيمعد هذا الشاب طريقا مكللا بالنار ، مؤكدا أنه ، ربما أكثر مما كان عبد الرحمن الناصر ، فارسى ويظل مجد الاسلام على شبه الجزيرة الأيبيرية دون منازع ،

وأنة قد سجل في سجلات تاريخ الامبراطورية الأسبانية الإسلامية ( الأندلس ) أعظم انتصاراتها زنيئا ودويا ، فقد أخضع بيد حازمة ، ثورات السكان ، وتمردات المدن ، وقضى على نفوذ الارستقراطية العربية ، وسلطة الصقالبة وأعاد تنظيم الجيش ضاماً اليه قوات تدين له بالولاء والطاعة العمياء . لقد كان هذا الرجل ، على مدى أكثر من عشرين عاماً ، الحاكم الأوحده ، والسلطان المطلق في الأندلس . بينما لم يكن للخليفة الحقيقي إلا اللقب ، والمراسم المظهرية « (٦٥) » .

لقد قلت في أول هذا الباب ، أن السياسة لا يمكن أن تنفصل عن التعليم أو عن رعاية العلوم والآداب ، وأن العامل السياسي ، يتدخل دائماً ، لكي يجعل من العامل التعليمي أداة لخدمة السياسة ، والمنال الحالي للمندسور بن أبي عامر ، مثال حي على محاولات التقرب . ولو ظاهرياً لمشاعر العامة ، واستمالة رجال الدين ، ويصف لنا صاعد الطبقي المتوفى ( ٤٦٣هـ / ١٠٦٩م ) ما حدث بقوله « تولى هشام وهو غلام لا يحتلم بعد فتغلب على تدبير ملكه بالأندلس . حاجبه أبو عامر محمد بن عبد الله وعمد أول تغلبه عليه إلى خزائن أبيه « الحكم » الجامعة للكتب المذكورة وغيرها ، وأبرز ما فيها من ضروب التأليف بمحضر من خواص أهل العلم بالدين ، وأمرهم باخراج ما في جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة في علوم المنطق ، وعلوم النجوم ، وغير ذلك من علوم الأوائل ، حاشا كتب الطب والحساب . فلما تميزت من سائر الكتب المؤلفة في اللغة والنحو ، والأشعار ، والأخبار ، والطب

(٦٥) ليفي بروفنسال : اسبانيا الإسلامية ، ج ١ ، ص ٢٩٧ .  
وانظر أيضاً في هذا المجال : كارل غريمبيرج : العصور الوسطى ، ص ١٢٤ - ١٢٨ . واميليو متر : اسبانيا العصور الوسطى ، ص ٩٣ ، ٩٤ .

Léve Provençal : Espana Musulmana ; 1 : 497.

Grimberg ; Carl : La Edad Media : 134 - 138.

Mitre ; Emilio : La Espana Medieval, 93 - 94.



والفقه ، والحديث ، وغير ذلك ، من العلوم المباحة عند أهل الأندلس ،  
إلا ما أفلت منها ، وذلك أقلها ، أمر بإحراقها وأمسادها ، فأحرق  
بعضها ، وطرح بعضها في آبار القصر ، وحيل عليها التراب والحجارة ،  
وعُبرت بضروب من التخابير ، وفعل ذلك تحبياً إلى عوام الأندلس  
وتقبيحاً لذهب الخليفة الحكم عندهم ، إذ كانت تلك العلوم مهجورة  
عند أسلافهم ، مذمومة بالسنة رؤسائهم ، وكان كل من قرأها منهما  
عندهم بالخروج عن الملة ومظنوناً به الإلحاد في الشريعة ، فسكن  
أكثر من كان تحرك للحكمة عند ذلك ، وخملت نفوسهم وتشتتوا بما  
كان عندهم من تلك العلوم ، ولم يزل أولو النباهة من ذلك الوقت  
يكتُمون ما يعرفونه منها ، ويظهرون ما تجوز لهم فيه من الحساب  
والفرائض والطب ، وما أشبه ذلك ، إلى أن انقرضت دولة بني أمية ،  
من الأندلس » (٦٦) .

ومن ناحية أخرى ، شهدت فترة المنصور ، اضطهاداً حقيقياً لاتباع  
ابن مسرة ، وتولى القاضي محمد بيقى بن زرب — على ما بينت سابقاً —  
مسألة الرد عليهم ، كما أنه تولى إحراق كتب ومؤلفات كل من كان يشك  
في أنه من أتباع ابن مسرة ، أمام المسجد الجامع بقرطبة ، وعلى مرأى  
جمع غفير من الناس ، من بينهم أصحاب هذه المؤلفات — أورد ذلك  
النباهي ( توفي قبل عام ٨٠٠ هـ / ١٣٩٨ م ) ، ولكن النباهي أخطأ في  
تحديد عام ٨٣٥٠ هـ / ٩٦١ م ، كسنة إحراق كتب أتباع ابن مسرة ، وتتابعه  
على ذلك الخطأ الدكتور جودة عبد الرحمن في مقالته المنشورة عن  
القاضي أبي الوليد الباجي (٦٧) ، يقول النباهي : « اعتنى القاضي  
ابن زرب بطلب أصحاب ابن مسرة ، والكشف عنهم ، واستنابة من  
علم أنه يعتقد مذهبهم ، وأظهر للناس كتاباً حسناً وضعه في الرد على

(٦٦) صاعد الطبقى : طبقات الأمم ، ص ٨٨ ، ٨٩ .

(٦٧) جودة عبد الرحمن : وصية القاضي أبي الوليد الباجي ،

ابن مسرة ، قرىء عليه وأخذ عنه ، وفي سنة ٣٥٠ ( ٩٦١ ) ، استتاب جملة من الناس ، جرى بهم اليه ، من أتباع ابن مسرة ، ثم خرج الى جانب المسجد الجامع الشرقي ، وقعد هناك ، فأحرق بين يديه ما وجد عندهم من كتبه وأوضاعه ، وهم ينظرون اليه في سائر الحاضرين « (٦٨) » .

والخطأ في تحديد التاريخ هنا ، حيث كان منذر بن سعيد البلوطي هو قاضي الجماعة في قرطبة حتى وفاته في عام ٣٥٥ هـ / ٩٦٧ م ، وتبعه القاضي محمد بن السليم (٦٩) ، وتولى ابن يقي القضاء بعد وفاة محمد بن السليم في سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، وعند ذلك ، تولى تعقب أتباع ابن مسرة (٧٠) ، ويبدو أن النباهي لا يعول عليه كثيرا في التواريخ ، والدليل على ذلك ، ذكره عند الحديث عن القاضي منذر ، أنه « ظل قاضيا الى أن توفي في عقب ذي القعدة سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م » (٧١) ، ثم ذكره لنص كتاب الحكم المستنصر بالله ، في تولية محمد بن السليم القضاء ، وأن هذا الكتاب قد صدر في سنة ٣٥٣ هـ / ٩٦٤ م (٧٢) . والصحيح أنه تولى سنة ٣٥٦ .

سمة ثالثة ، يمكن أن نلاحظها على التداخل بين السياسة والطب ، حيث أن المنصور بن أبي عامر ، لم يواصل إكرام بعض العلماء الذين اعتبرهم صنائع الحكم المستنصر ، ونستدل على ذلك مما يقوله ابن فرجون عند حديثه عن محمد بن حارث الخشني (توفي ٣٧١ هـ / ٩٨١ م)

(٦٨) النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٧٨ .

(٦٩) الحميدى : حذوة المقتبس ، ص ٤٠ .

النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٧٥ . المعجب في تلخيص أخبار

المغرب ، ط ٧ ، ص ٢٧ .

(٧٠) أنظر ما قاله آسرين بلاثيوس في : ابن مسرة ومدرسته ،

ص ٨٩ - ٩٠ .

بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٢١٦ .

(٧١) النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٧٥ .

(٧٢) نفس المصدر : ص ٧٦ . وانظر التاريخ الصحيح عند

ابن النرضي ، ص ٣٧٢ .

من أنه « قد آلت به الحال بعد موت الحكم ، وتقصير ابن أبي عامر بصنائع الحكم ، إلى الجلوس في خانوت لبيع الأندلس » (٧٣) .

ومن ناحية أخرى ، كان للمنصور اهتماماته العلمية ، وجهوده في الوصول بالآندلس من الناحية الثقافية إلى مستوى أرفع مما كانت عليه خلال فترة الخلافة على عهد عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني ، فقد نهض على نفس الأساليب تقريبا في تشجيع العلم والعلماء ، ويمكن تلخيص جهوده في ذلك المجال في النقاط التالية :

أولا - الحث على تأليف الكتب : وتقديم العطايا الخشمة لمن يقومون بها ، فقد دفع لصاعد الطبقى خمسة آلاف دينار ثمنا لكتابه « الفصوص » (٧٤) ، كما أن « أبو مروان القرشي الميعطي ، جمع في أقاويل مالك بن أنس وروايات أصحابه عنه كتابا ، اجتمع على جمعه مع الفقيه أبي عمر أحمد بن عبد الملك ، المعروف بابن المكوي ، بأمر المنصور بن أبي عامر » (٧٥) .

كما أن حسان بن مالك بن أبي عبده ، حينما رأى المنصور بن أبي عامر مهتما بكتاب كتب « في أيام الرشيد » ، فقام بتأليف كتاب للمنصور على مثال هذا الكتاب ويقول الضبي أن « سبب تأليفه إياه ، أنه دخل على المنصور وبين يديه كتاب أبي السرى يعجب به ، فخرج من عنده ، وعمل هذا الكتاب وفرغ منه تأليفا ونسخا ، وتصويرا ، وجاء به في مثل ذلك اليوم من الجمعة الأخرى وأراه إياه ، فسر به ، ووصله عليه » (٧٦) .

- 
- (٧٣) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .  
 (٧٤) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٢٣٨ .  
 عنان : دولة الاسلام في الآندلس - العصر الأول - القسم الثاني ، ص ٥٢٧ .  
 (٧٥) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٣٧٧ .  
 الضبي : بغية اللتمس ، ص ٥١٤ .  
 (٧٦) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ١٨٣ .  
 الضبي : بغية اللتمس ، ص ٢٧١ .

ثانياً — أن المنصور قد شجع أيضاً قدوم العلماء المشارقة إلى الأندلس ، وأعطاهم نفس الفرصة في احضار المزيد من الكتب الشرقية إلى قرطبة، واداعتها بين الناس، كما أنه حثهم على تأليف كتب جديدة، ربما لا تقل في أهميتها عن الكتب التي ألقت على عهد عبد الرحمن الناصر أو الحكم المستنصر ، ومن أشهر الواقفين على المنصور ، أبو العلاء صاعد بن الحسن الربعي ، اللغوي ( المتوفى ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م ) ، وألف للمنصور مجموعة كتب أوردها الحميدى الذى يقول أن المنصور كان كثير الشغف بأحدها — كتاب النحواس — « حتى رتب له من يخرج به أمامه في كل ليلة » (٧٧) \*

ثالثاً — اتخذ المنصور مجلساً علمياً خاصاً كل أسبوع كان يلتقى فيه مع العلماء والأدباء ، مما أثار حماس الحركة الأدبية على عصره ، وجعل التنافس بين العلماء يزداد ، وخاصة في المجالات اللغوية والشعر ، وتجمع الكتب تقريباً على أن المنصور « كان محبا للعلم ، مؤثرا لأهل الأدب ، مفرطاً في إكرام من ينتسب إليهما ويفد عليه متوسلاً بهما بحسب حظه منهما ، وطلبه لهما ومشاركته فيهما ، وكان له مجلس معروفة في الأسبوع ، يجتمع فيه من أهل العلوم ، للكلام فيها بحضوره ، من كان مقيماً في قرطبة » (٧٨) \*

رابعاً — اهتم المنصور اهتماماً كبيراً بالشعراء ، حتى وصل به الأمر إلى انشاء ديوان خاص بالشعراء جعل له رئيساً مسئولاً عنه هو « عبد الله بن محمد بن مسلمة » ، وتحدثنا كتب التاجم عن هذا

(٧٧) الحميدى : جذوة المتقنين ، ص ٢٢٣ — ٢٢٧ .  
الزيسى : البقية ، ص ٣١٩ — ٣٢٣ .  
المراكشى (عبدالواحد) : المعجب ، الطبعة السابعة ، ص ٦٠-٥٠ .  
Pons Boigues : Bio Bibliografico, PP. p. 122.

(٧٨) الحميدى : جذوة المتقنين ، ص ٧٢ ، ٧٣ .  
المراكشى : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٣١ و ص ٢٨ .  
ابن الأثير : الكامل ، ص ٩٠ ، ص ٦١ .  
عسلى : المصدر المذكور ، ص ٥٢٥ — ٥٢٧ .

الرجل بأنه كان من أهل العلم والأدب ، ناقدا من نقاد الشعر ، كان رئيسا جليلا في أيام المنصور بن أبي عامر ، وفي ديوانه كان زمام الشعر في تلك الدولة ، وعلى يديه كانت تخرج صلاتهم ورسومهم وعلى تربيته كانت تجري أمورهم (٧٩) .

وفي هذا الديوان ، كان يسجل كبار الشعراء وتصرف لهم رواتبهم حسب مكانتهم الأدبية ، وسلكتهم الشعرية ، ووردت أخبار هذا الديوان في معظم كتب التراجم وكتب الأدب وكتب التاريخ ، ووردت أخبار هذا الديوان كثيرا مع ترجمة « أحمد بن محمد بن دراج القسطلی ( المتوفى ٤٢١ هـ / ١٠٢٧ م ) » (٨٠) .

خامسا - قام المنصور بنفسه باختيار العلماء ، سواء القادمون عليه من المشرق أو ممن كانوا من أهل الأندلس ، وكان يعقد لهم مجلسا للمناظرة يحضره كبار العلماء والأدباء والشعراء ، وإذا ما أثبت الممتحن قوته وبراعته ، ونجاحه في الأخبار ، فإن المنصور كان يهديه «دية» ، ويقدم له مئلا من المال كبيرا ، وأورد هنا حادثتين للدلالة على ذلك ، أولاها مع الشاعر « ابن دراج القسطلی » المذكور آنفا ، الذي « سعى به إلى المنصور ، وأنه منتحل . سارق لا يستحق أن يثبت في ديوان العلماء » ، فاستحضره المنصور واختبره ، واقترح

- 
- (٧٩) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٢٣٩ .  
 الضبى : البغية ، ص ٣٢٣-٣٢٤ « طبعة مدريد » ، و ص ٣٢٦ - ٣٢٧ « طبعة القاهرة » .  
 (٨٠) الحميدى : الجذوة ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .  
 الضبى ، بغية الملتبس ، ص ١٥٨ - ١٦١ « طبعة القاهرة » ،  
 و ص ١٤٩ ، ٥٠ « طبعة مدريد » .  
 ابن بشكوال : الصلة ، ص ١٠ .  
 محمود على مكى : ديوان ابن دراج القسطلی ، المقدمة .

عليه ، فبرز ، وسبق وزالت التهمة عنه فوصله بمائة دينار ، وأجرى عليه الرزق ، وأثبتته في جملة الشعراء » (٨١) .

أما الحادثة الثانية ، فقد حدثت مع صاعد البغدادى ، الذى كان حاضرا مجلس المنصور يوما فأحضرت له وردة في غير وقتها لم يستتم فتحها فأنشد صاعد بديهة بيتين جميلين من الشعر ، أعجب بهما المنصور أيما أعجاب ، فقصده على ذلك « ابن العريف » وقال لابن أبى عامر : هذان البيتان الغيرة ، وقد أنشدنيهما بغض البغداديين انفسه بمصر وهما عندي على ظهر كتاب يخطه . نقل المنصور : أرنيه ، فخرج الرجل وذهب الى صديق له « ابن بدر » ، وحكى له القصة ، فأنشد له أبياتا على نفس الوزن والقافية ، وضمن هذه الأبيات بيتي صاعد . وأخذ « ابن العريف » هذه الأبيات ، وعاشها على ظهر كتاب بخط مصرى ، وممداد أشقر ، ودخل بها على المنصور ، فلما رآها ، اشتد غيظه على صاعد ، وقال لمُحاضرين ، « غدا أمتحنه » فان فضحه الامتحان ، أخرجته من البلاد ، ولم يبق في موضع ، لى عليه سلطان .

فلما أصبح وجه اليه فأحضر ، وأحضر جميع الندماء فدخل بهم الى مجلس محفل قد أعد فيه طبقا عظيما فيه سقائف مصنوعة من جميع النواوير ، ووضع على السقائف لعب من الياسمين في شكل الجوارى ، وتحت السقائف بركة ماء قد ألقى فيها النألى ، مثل الحمباء ، وفي البركة حية تسبح ، فلما دخل صاعد ورأى الطبق قال له المنصور : ان هذا اليوم اما أن تسعد فيه معنا واما أن تشقى بالخذ عندنا ، لأن قوما قد زعموا أن كل ما تأتى به دعوى ، وقد وقفت من ذلك على حقيقة ، وهذا طبق ما توهمت أنه حضر بين يدي ملك قبلى شكله ،

(٨١) انظر المراجع المذكورة في الملاحظة السابقة ، كما ان النصّة كملّة وارّدة في عدد كبير من كتب الادب الاندلسى التى تحدّثت عن « ابن دراج القسطلى » ، كما اُشار الى ذلك الدكتور « أحمد هيكى » في محاضرة له بالمعهد الأسباني العربى للثقافة بمدريد .

فصفه بجميع ما فيه ، « فأنشد صاعد قصيدة رائعة في ذلك ، تفوق بها على الجميع ، وأمر له المنصور بألف دينار ، ومائة ثوب ، ورتب له في كل شهر ثلاثين ديناراً ، والحقه بالندماء » (٨٢) .

وهذا الاختبار الذي تعرض له صاعد اللغوى ، ليس الأول من نوعه ، بل لقد عقد له امتحان آخر عند وصوله ، ووردت تفاصيله أيضاً في « نفح الطيب » ، حيث يقول : ومن غريب ما جرى لصاعد أن المنصور جلس يوماً ، وعنده أعيان ممنكته ودولته من أهل العلم ، كالزبيدي والعاص ، وابن العريف ، فقال لهم المنصور : هذا الرجل النوافذ علينا ، يزعم أنه متقدم في هذه العلوم ، وأحب أن يمتحن . فوجه إليه ، فلما مثل بين يديه والمجلس قد احتفل ، أخجل ، خرغع المنصور محله وأقبل عليه ، وسأله عن « أبى سعيد البيرافى » فزعم أنه لقيه وقرأ عليه كتاب « سيبويه » فبادره العاص بالسؤال عن مسألة من الكتاب ، فلم يحضره جوابها ، واعتذر بأن النحو ليس من صناعته . فقال الزبيدي : « صاحبكم ممزق » ( أى كاذب ومموه ) فقال صاعد : أخال الشيخ صناعته الأبنية ؟ ، قال الزبيدي : أجل . قال صاعد : وبصاغنى أنا حفظ الأتعار ، ورواية الأخبار وفق المعتمى ، وعلم الموسيقى ... (٨٣) .

ويبدو أن ابن المنصور ، الذى ولى الحجابة بعثده ، المظفر عبد الملك ، قد واصل سياسة الاهتمام بالعلم والعلماء ، فعلى الرغم من فترة حكمه القصيرة ، والمشاكل العسكرية التى خاضها ، إلا أننا نراه

(٨٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٢٢٧ .

ابن بسام : الذخيرة ، القسم الرابع ، ج ١ ، الصفحات ١٤ - ١٩ (طبعة احسان عباس) .

المقري : نفح الطيب ، ص ٧٩ - ٨١ .

(٨٣) المقري : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٧٨ .

يقوم بزيارة لبعض الفقهاء في أماكن تدريسه ليتحدث معه ، ويطلب منه الدعاء له (١٤) .

كما أنه قد قام بنقل العالم أبي محمد مكي بن أبي طالب القرى ( المنوفى ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م ) « الى جامع الزاهرة ، فقرأ فيه حتى انصرفت دولة آل عامر » فنقله محمد بن هشام المهدي الى المسجد الجامع بقرطبة ، وأقرأ فيه الفتنة كلها » (١٥) .

وسقطت الدولة العامرية ، وتعرضت الأندلس للفتنة الكبرى ، ويحدثنا ابن حيان عن مقتل أكثر من مئتين مؤدياً في مدينة قرطبة وحدها ، مما يدل على كثرة انتشار دوائر التعقيم في قرطبة في هذه الفترة . ولقد قتل الينا ابن بسام نص أبي حيان قائلاً : « قال أبو حيان : وأصيب في تلك الواقعة من المؤيدين خاصة ، نيف وستون ، سريت سفائنهم في غداة واحدة منهم ، وتعطل صبيانهم ، لعدمهم » (١٦) .

وعلى الرغم من الفتنة العنيفة التي أحاطت بقرطبة ، والظروف السياسية السيئة ، وتقلب الأمراء عليها ، إلا أننا لا نعدم بعضهم ممن يهتم بالعلم والعلماء ، بل ويجعل من ضمن الوظائف الكبرى في قصره ، خدمة خزانة الطب والحكمة ، فالخليفة عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر لدين الله ، الذي تولى في عشر من شهر رمضان سنة ٤١٤ هـ ، ديسمبر ١٠٢٣ م ، والمقب بالمستظير بالله ، اتخذ بعد توليته ، قراراً ببعض الوظائف ، وأوردنا ابن حيان على النحو التالي :

(٨٤) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ص ٨٤ .

(٨٥) ابن بشكوال : الحلة ، ج ٢ ، ص ٦٢١ - ٦٢٢ .

عجيل حسن : الحياة العلمية في مدينة بلنسية ، ص ٢٠٩ .

(٨٦) ابن بسام : الذخيرة ، م ١ ، ج ١ ، ص ٢١ ، وطبعة احسان

مبلس ، ج ١ ، ص ٤٤ .

عبد الله جمال الدين : رسالته للدكتوراه ، ص ٧ .



خدمة المدينتين ، والزاهرة ، وخدمة كتابة استعقب والمحاسبة ،  
 وخدمة الحشم ، وخدمة القطع بالناضي وانطعام ، وخدمة مواريث  
 الخاصة وخدمة الطراز ، وخدمة المبانى ، وخدمة الأسلحة وما يجرى  
 مجراها ، وخدمة الهواية والقنص والدفع ، وخدمة الوثائق ورفع كتب  
 المظالم ، وخدمة خزانة الطب والحكمة ، وخدمة الأنزال والنزائل ،  
 وخدمة أحكام السوق (١) .

#### قرطبة الخلافة :

اتخذ المسلمون مدينة قرطبة عاصمة لهم ، لأول مرة ، في عام  
 ٩٩ هـ / ٧١٩ م ، وحظيت بنصيب كبير من عناية ولادة الأندلس منذ ذلك  
 التاريخ ، والتغير الكبير الذى طرأ على المدينة بدأ مع بداية عهد  
 عبد الرحمن الداخل الذى عمد الى « تجديد ما طمس لبنى أمية بالمشرق  
 من معالم الحضرة وأثارها ، فشيّد الدور وأقام القصور » (٢) .

ويقول المقري عن عبد الرحمن الداخل « انه لما تسهت ملكه شرع

---

(٨٧) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ،  
 ص ٣٦ ، ٣٧ ، طبعة احسان عباس ، ج ١ ، ص ٥١ .  
 عبد الله عنان : دولة الاسلام في الأندلس ، العصر الأول ، القسم  
 الثانى ، ص ٦١٦ .

عبد الله جمال الدين : رسالة للدكتوراه ، ص ١٤ .  
 وقد شن الأستاذ الدكتور عبد العزيز سالم هجوما عنيفا على هذه  
 الملاحظة قائلا : ليس في هذا ما يدل على الاهتمام بالسلم والعلماء ،  
 فبعد تبديد خزانة القصر ، وتدمير الزهراء والزاهرة وقرطبة والرسامة  
 وقتل المؤدبين والاطاحة بالشعراء وتفريقهم الى شرق الأندلس نتحدث  
 عن اهتمام بالسلم والعلماء على أساس أقوال لا قيمة لها ، نفس  
 ابن حيان بعلق عليها بقوله : « هذا زخرف من التشطير وضع على غير  
 حاصل ، ومراتب نصبت لغير طائل .... » فلا شك على هذا  
 التصحيح .

(٨٨) عبد العزيز سالم : المساجد والقصور ، ص ٦ ، قرطبة  
 خاتمة الخلافة في الأندلس ، ص ٤٦ .

في تعظيم قرطبة ، فجدد مغانيها ، وشيد مبانيها ، وحصنها بالسور ،  
وابنتى مدينة قصر الامارة ، والمسجد الجامع ، ووسع فناءه ، واصنع  
مساجد الكور ، ثم ابنتى مدينة الرصافة متنزها له ، واتخذ بها قصرا  
حسنا ، وجنانا واسعة ، نقل اليها غرائب العرائس ، وكرائم الشجر  
من بلاد الشام ، وغيرها من الاقطار . \* كما انه يعود الى انقول في موضع  
آخر : « ان عبد الرحمن الداخل لما استقر امره ، وعظم ، وبني القصر  
بقرطبة ، وبني المسجد الجامع واتفق عليه ثمانين ألف دينار ، وبني  
بقرطبة الرصافة ، تشبها برصافة جده هشام » (٨٩) .

كما ان عبد الرحمن الداخل قد بدأ في بناء المسجد الجامع - ذلك  
المسجد الذي تطور فيما بعد لى يصبح أكبر مسجد في غرب الاسلام  
على الاطلاق ، وواحدا من أكبر المساجد ، في العالم الاسلامي بأكمله .

وشهدت قرطبة تطورا كبيرا على عهد الأمير هشام « الذي زاد في  
مسجد أبيه ، وشيد غيره من المساجد في أنحاء البلاد ، وعنى بنشر  
اللغة العربية وتدريسها حتى أصبحت تدرس في مدارس اليهود ، كما  
جمل مدينة قرطبة ، وزينها بالحدائق والبساتين ، والمباني الجميلة .  
وكثيرا ما كان هشام يشاهد متجولا في طرقات قرطبة ، يخالط الناس ،  
ويشاركهم أفراحهم وأتراحهم » (٩٠) .

أما عصر عبد الرحمن الثاني فقد شهد ما يمكن أن نطلق عليه انقلابا  
اجتماعيا كبيرا ، حيث شهدت المدينة سيلا من التأثيرات المشرقية عامة  
والعراقية خاصة ، ساهمت في تطوير المستوى الاجتماعي والأدبي ، والفني  
بالمدينة . ساعد على ذلك كون الأمير عالما متبحرا في علوم  
الشريعة والفلسفة (٩١) ، علاوة على كونه شاعرا مطبوعا ، ذا همة عالية ،

(٨٩) المقري : فتح الطيب ، ج ٢ ، ص ٨٣ .

(٩٠) عبد الشافي غنيم : محاضرات في التاريخ الأندلسي : عصر  
الامارة .

(٩١) ابن خلدون : التاريخ ، ج ٤ ، ص ١٣٠ .

المقري : فتح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .

احتضن العلماء والأدباء ، ورفع قدر رجال العلم والأدب والفن ، ممن ضاق المشرق بمواهبهم ، فأحسن استقبالهم ، وأكرم وفادتهم •

ويرى الدكتور عبد العزيز سالم « أن المجتمع القرطبي قد تأثر في عصر عبد الرحمن الثاني ، بالتقاليد العراقية التي أخذت تغزو الأندلس ، وتمتزج بالتقاليد الشامية ، وتؤلف فيما بعد طابعا أندلسيا أصيلا تميزت به الأندلس منذ خلافة عبد الرحمن الناصر لدين الله حتى سقوط مملكة غرناطة » (٩٢) •

وعلاوة على ذلك ، فإن عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط قد شهد قدوم الموسيقى ، الفنان الشهير الحسن بن علي بن نافع المعروف بزرياب والذي سبقت الإشارة إليه قبلا ، ويعتبر زرياب ، بلا شك ، بداية عصر اجتماعي جديد . لا في مجال الموسيقى والغناء فحسب ، ولكن في مجالات الحياة الاجتماعية حيث عمل على تطعيم هذه الحياة بكثير من التقاليد العراقية والفارسية ، وإذا كان وصول زرياب وما قدمه لصالح الآداب الاجتماعية القرطبية ، يعتبر نقطة حاسمة ، فإن النضل في ذلك يرجع أيضا الى الأمير الأندلسي « الذي جرى على سنن الخلفاء في الرينة والشكل وترتيب الخدمة » (٩٣) •

ويرى المستشرق الأسباني أنخيل غونثاليث بالنسيا أن زرياب « لم يستهو أمثلة أهل قرطبة بصوته وجمال أغانيه فحسب ، بل بأدابه الاجتماعية وملابسه وطريقته في إرسال شعره ، وولائمه البديعة التي كان يتفنن في ترتيبيها ، فأخذ الناس عنه ذلك كله ، وأصبح ذوقه مقياس الذوق لأهل قرطبة ، وأصبحت ملابسه النموذج الذي يحتذيه القرطبيون

---

(٩٢) عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، ج ١ ،

ص ٥٦ •

(٩٣) ابن سعيد : المغرب في طلي المغرب ، ج ١ ، ص ٤٦ •

ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٣٦ •

في أعداد ملاسليم ، ومن ذلك الحين ، جدد حكام الأندلس ، في ان يكون  
تصورهم مجد أدبي يخاض ما كان لقصور خلفاء المشرق « فاهتموا  
برعايه الآداب والعلم والفنون ، حتى تصل قرطبة الى مستوى  
يخاض ما وصلت اليه دمشق وبغداد » (٩٠) .

ولقد كانت قرطبة في مبدأ نهضتها ، تتخذ من بغداد مثلا اعلى ،  
تسير على نمودجه ، وتنسج على منواله في كل شيء ، « في الآداب  
والعلم ، وفي الموسيقى والفن ، وفي الطب والكيمياء ، وفي العلم  
والحكمة ، وفي الاخلاق والسياسة ، وبالأجمال في كل نواحي الحياة  
الثقافية » (٩١) ، وهذا صحيح نوعا ما ، ولكي الحال لم يبق كذلك دائما ،  
لان تربيته على عهد عبد الرحمن الثالث ، والحكم المستنصر ، والخليفة  
هشام الثاني ( فترة المنصور بن ابي عامر ) ، قد شهدت تطورا عموما  
وعلميا واجتماعيا ، جعلها من أعظم المراكز في الغرب ، ان لم تكن  
أحسنها في العالم كله ، وتركزت قرطبة اثرها الخالد على كافة الكتاب  
والمؤلفين في الشرق والغرب ، واعترف العالم كله بعظمتها وجلالها ،  
ويذكر ان سفي بن نصر على ما قلناه في حقها بعض المؤلفين العرب والاسبان  
نسى تصل الى تصور حقيقي لهذه المدينة :

« ... أما قرطبة فهي قاعدة الأندلس وتبليها وقطارها الأعظم  
وأم مدائنها ومساكنها ، ومستقر الخلفاء ، ودار السلطة في انصرافية  
والاسلام » (٩٢) ، ومدينة العلم ومقر السنة والجماعة ، ترنبا فيما

- 
- (٩٤) غونثالت بالنسيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٤٨ - ٥٠ .  
عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة - ج ١ ، ص ٥٨٠٥٧ .  
(٩٥) غلاب : الفلسفة الإسلامية ، ص ١٢ .

(٩٦) في هذه الجملة نوع من المبالغة ، لان قرطبة لم تكن يوما  
دار المملكة في النصرانية فقبل فتح المسلمين للأندلس ، كانت طليطلة ،  
أما أثناء حرب الاسترداد وبغدها فلقد اتخذت أكثر من مدينة في  
اسبانيا ، عاصمة لاسبانيا ، كما ان اسبانيا في ذلك الوقت كانت متسمة  
الى ممالك عدة ، لكل منها عاصمة ، وحين توحدت اسبانيا على يد الملكين  
الكاثوليكين كانت عاصمة اسبانيا هي المدينة التي يوجد بها البرلمان  
الاسباني ، ثم اتخذ فيليب الثاني مدريد عاصمة له في عام ١٥٦١ م .

نزل جل من الصحابة ، وجملة من التابعين ، رضى الله عنهم  
أجمعين » (٩٧) .

ويزيد الإدريسي ( ٥٥٦٠ / ١١٦٤ م ) (٩٨) في وصف المدينة فيقول :

« ومدينة قرطبة ، قاعدة بلاد الأندلس ، وأم مدائنها ودار الخلافة  
الإسلامية ، وفصائل أهل قرطبة أكثر وأشهر من أن تذكر ، ومناتهم  
أظهر من أن تستر ، واليهم الانتهاء في السناء والبهاء ، بل هم أعلام  
البلاد ، وأعيان العباد ، ذكروا بصحة المذهب ، وطيب المكسب ، وحسن  
الزى في الملابس والراكب ، وعلو الهمة في المجالس والراتب ، وجماء  
التخصص في المطاعم والمشارب مع جميل الخلائق ، وحديد الطرائق ،  
ولم تخل قرطبة من أعلام العلماء ، وسادات الفضلاء ، وتجارها مياسير ،  
لهم أموال كثيرة ، وأحوال واسعة ، ولهم مراكب ، وهم عليّة ، وهى فى  
ذاتها خمس مدن يتلو بعضها بعضاً ، وبين المدينة والمدينة سور حاجز ،  
وفى كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر  
الصناعات » (٩٩) . وفى طولها من غربها الى شرقها ٣ أميال ، وكذلك  
عرضها من باب القنطرة الى باب اليهود بشمالها ميل واحد ، وهى فى  
سفح جبل مطل عليها ، يسمى جبل العروس ، ومدينتها الوسطى هى

(٩٧) مجهول : جغرافية الأندلس وتاريخها ، المخطوط رقم ٣٦ ،  
بالمعهد المصرى للدراسات الإسلامية بحدريد ، ص ١١ ، ١٢ .  
د. حسين مؤنس : وصف جديد لقرطبة الإسلامية ، مجلة المعهد  
المصرى ، العدد ١٣ ، ص ١٦٤ .

(٩٨) انظر : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس من  
ص ١٦٥ الى ص ٢٨٠ .

(٩٩) يورد الدكتور حسين مؤنس تفسيراً لهذه العبارة ، عند حديثه  
عن « طبوغرافية قرطبة » ، مناده انقسام قرطبة الى خمسة اقسام  
رئيسية يتولى مسئولية الحراسة فى كل منها عريف ، أو أن الدينية  
خلال زيارة الأديسى لها لم تعد رئيسية واحدة ، وإنما خمس مدائن  
متجاورة يترقب على الأمن فى كل منها عريف مستعينا بعدد من الخراس  
أو أن ذلك هو التقسيم الذى أقامه المرابطون فى الأندلس ، انظر فى ذلك  
« تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس » ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٤ .

التي فيها باب القنطرة (١٠٠) ، وفيها المسجد الجامع الذي ليس بمساجد المسلمين مثله ، بنية وتنميته ، طولاً وعرضاً » (١٠١) .

أما القرى ، فقد خصص صفحات طويلة للحديث عن قرطبة ، والاشادة بجمالها وعظمتها ولا أجد داعياً لذكرها هنا لطولها ، ولكن سأورد ما نقله عن الحجارى ( المتوفى ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م ) :

« حضرة قرطبة منذ افتتحت الجزيرة ، كانت منتهى الغاية ، ومركز الراية ، وأم القرى ، وقرارة أولى الفضل والتقى ، ووطن أولى العلم والنهى ، وقلب الاقليم ، وينبوع متفجر العلوم ، وقبة الاسلام ، وحضرة الامام ، ودار صوب العقول ، وبستان ثمر الخواطر ، وبحر درر القرائح ، ومن أفتقها طلعت نجوم الأرض ، وأعلام العصر ، وفرسان النظم والنثر ، وبها أنشئت التأليفات الرائعة ، وصنفت التصنيفات ، الفائقة » .

والسبب في تمييز القوم حديثاً وقديماً على من سواهم ، أن أفقهم القرطبي لم يشتمل قط ، الا على البحث والطلب ، لأنواع الفنون والأدب » (١٠٢) .

(١٠٠) بالنسبة للمدينة الوسطى — انظر الدكتور عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة الاسلامية ، ج ١ ، ص ١٧٥ ، وعن القنطرة ، ج ١ ، ص ١٩٧ .

واميليو غارثيا غومث في : ملاحظات حول طبوغرافية قرطبة ، مجلة الأندلس ، العدد ٣٠ ، ص ٣١٩ — ٣٨١ .

Garcia Gomez : Notas Sobre la Topografia Cordibesa en Los «Anales de al Hakam II» por Isa al Razi. Al Andalus XXX ; 319.

(١٠١) الادريسي : نزهة المشتاق ، ص ٢٠٨ .

(١٠٢) القرى : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٩ .

وانظر أيضاً في نفس الجزء الصفحات ٨ ، ١٠ ، ١١ ، و ج ١ ،

ص ١٤٧ .

أما عن الكتاب الغربيين عامة ، والأسببان خاصة ، فقد أعطوا المدينة حقها من الوصف والتقدير ، وسنشير باختصار الى بعض أقوالهم :

« كما كان القرن العاشر الميلادي قرن الكمال بالنسبة للخلافة ، فهو أيضا كذلك بالنسبة لقرطبة ، تلك المدينة الواقعة بين الشرق والغرب ، كانت مثل بيزنطة ، ملتحقة للتيارين . وعلى عهد عبد الرحمن الناصر ، وصلت مساجدها الى ألف وستمئة مسجد وحماماتها لا يحصىها عدد . ازدانت المدينة بالقصور الفخمة ، والعلماء الأجلاء ، الذين من أجلهم جمع الحكم الثاني مكتبته الشهيرة ذات الأربعمئة ألف مجلد » (١٦) .

« قرطبة ، العاصمة الخلافية ، وصلت الى قمة لمعانها ، الى أن تصبح أكثر مدن عصرها ازدهارا وجمالا » (١٧) .

« ما أسرع ما وصلت قرطبة الى أن تكون مدينة رائعة مأهولة مثل بغداد ذاتها ، لقد وصل تعدادها الى أكثر من نصف مليون ساكن ، كانت عامرة بالقصور الفخمة ، والمساجد الشامخة ، والمكتبات الوافرة ، والمدارس الشهيرة ، حيث علم أعظم الرجال علما في ذلك الوقت » (١٨) .

« لقد ترك العرب أسمهم لخالدا على هذه المدينة ، أن أكثر من خمسمئة عام من الحكم العربي للمدينة ، قد جعل من قرطبة ، مدينة

(١٣) سواريث فرنانديث : مجمل التاريخ العالمى ، ج ٣ ،  
العصور الوسطى ، ص ٢٦٩ .  
وانظر أيضا كتابه « تاريخ أسبانيا فى العصور الوسطى » ،  
ص ١١٦ ، ١١٧ .

(١٤) سانثيا ماريا : تاريخ أسبانيا العالمى ، ص ١٠٧ .  
Santamaria A. : Ho Universal de Espana 107.

(١٥) خوسيه أجيلار : تاريخ أسبانيا ، ج ١ ، ص ١٢٨ .  
Repolles Aguilar : Ho de Espana. 1 : 128.

خاصة بهم ، بما قاموا به فيها » نعم ، لقد كانت خضارتهم أصيلة  
تطعمت بما حصلوا عليه من لقاءهم مع العناصر القديمة للثقافة الإسبانية  
الرومانية « (١٠٦) »

ويقول في مكان آخر من نفس الكتاب متحدثا عن القرن العاشر :

« انه قرن العظيمة في قرطبة ، فاليها جاءت سفارات كل الأمم :  
خوان جورتر Juan de Gortz ( ٩٥٣م ) قدمها سفيرا باسم  
الإمبراطور الألماني « أتون العظيم » Otón el Grande ، وقد  
ترك لنا هذا السير ، وصفا رائعا وشيئا لهذه المرحلة ، ومن قبله كان  
قد وصل إلى قرطبة سفراء القسطنطينية ، وادبرادورها البيزنطي » (١٠٧) »

« على عهد الخلافة في قرطبة ، نمت كل عناصر العظمة ، تلك  
العناصر التي غرست على عهد الامارة ، فوصلت قرطبة الى نصف  
مليون نسمة ، واحتوت على ثلاثة آلاف مسجد ، ومائة وثلاثة عشر  
ألف منزل ، بالإضافة الى مئات حمام » (١٠٨) »

أما المستشرق الألمانية « زيمريد هوتكه » فتقول عنيا :

« تجتذب قرطبة طلاب العلم من كل أنحاء الشرق ، بل والغرب  
أيضا . تجذبهم بمدارسها العليا ، ومكتبتها العظيمة التي جمع لها الخليفة

---

(١٠٦) انطونيو خاتن : تاريخ مدينة قرطبة ، ص ١٢ .  
Jaen, Antonio : Ho de la ciudad de Cordoba p. 120.

(١٠٧) نفس المصدر ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٦ ، ص ٦٢ ، ٦٣ .  
وانظر أيضا ما يقوله سانشيت البرنوس في كتابه الجديد « صفحات  
جديدة من ماضي اسبانيا » ، ص ٧٢ وما بعدها .

Sanchez Albornos :

Neuvas Páginas sobre el pasado de Espana ; pp.

71-107, Madrid, 1979.

(١٠٨) بوليكايريو : تاريخ اسبانيا ، ص ٧٨ .

Policarpo Mingot : Historia de Espana ; p. 78.



الحكم الثانى ، وهو من أشهر علماء عصره ، نصف مليون من الكتب تقريبا ، جمعها له عشرات من رجاله ، وعلق الخليفة بنفسه على هوامش عدد كبير منها قبل وفاته التى حدثت قبل نهاية القرن العاشر بأربعة وعشرين عاما » (١٠٩) .

وعلى الرغم من اعترافنا بالمبالغة التى يلجأ اليها المؤرخون والجغرافيون العرب فى إعطائهم الأرقام ، الا أن الحقيقة التى لا جدال فيها هى أن هذه الأرقام ، رغم ما فيها من مبالغة ، ليست إلا تعبيرا عن عظمة هذه المدينة ، التى وصل عدد سكانها فى هذه الفترة لأكثر من نصف مليون نسمة ، وامتدت مساحتها الى مسافات بعيدة ، تصورنا لنا المخطوطة الخاصة بجغرافية الأندلس قائلة :

واتصلت العمارة بها أيام بنى أمية ثمانية فراسخ طولا ، وفى عرضها فرسخين وذلك بالأميال أربعة وعشرون ميلا فى الطول ، وستة أميال فى العرض (١١٠) ، كل ذلك ديار ، وقصور ، وبساتين ، ومساجد ، وقبسات ، وخانات ، وأسواق وحمامات بطول ضفة الوادىسمى بالوادى الكبير .

وتواصل المخطوطة الحديث عن أبواب قرطبة ، وسورها ، وخصرها وأبوابه الرئيسية ، وأرباضها البالغة واحدا وعشرين ربعا ، ثم يورد أسماء هذه الأحياء بالأسم الى أن يصل الى القول :

« وأحصيت دور قرطبة التى بها وبأرباضها ، فى أيام الحاجب المنصور »

(١٠٩) زيفريد هوتكة : تيسر العرب تسطع على الغرب « الترجمة العربية » ، ص ٣٥٣ .

(١١٠) يرى الدكتور حسين مؤنس أن ذلك مقبول ، اذا كان المتصور المدينة وما يتبعها اداريا وماليا من القرى والأراضي ( انظر تحتته لهذا الجزء المنشور بمجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية ، العدد ١٣ ، ص ١٦٦ ، التعليق رقم ٥ ) .

محمد بن أبى عامر ، فكانت مائة ألف دار ( هنا سقطت كلمة من المخطوطة يعتقد الدكتور مؤنس أنها « أو مائتين » ) ، وثلاث عشر ألف دار ، وسبعة وسبعين دارا ، وهذه دور الرعية ؟ أما دور الأمراء والأكابر والوزراء ، والرؤساء ، والقواد ، والكتاب ، والأجناد ، وخاصة الملك ، فستون ألف دار وثلاثمائة دار ، سوى مزارى الكراء والحمامات والخانات .

وكان بها من المساجد ثلاثة عشر ألف مسجد وثمانمائة مسجد ، ونيف وسبعون مسجدا ، وكان بربض ثقتندة خاصة ثمانمائة مسجد ( هنا يلاحظ الدكتور مؤنس أن المؤلف قد خلط بين عدد الدور وعدد المساجد ، ويبين أن الرقم قد ورد عند المقرئ ج ٣ ص ٧٩ ، ٣٨٧٧ مسجدا ، ويعيد التذكير بأن الكثيرين من المؤلفين القدامى لم يكن لديهم تصور سليم عن الأرقام — انظر ص ١٦٩ — التعليق ٩ ) .

وكان عدد حماماتها ثلاثة آلاف حمام ، وسبعمائة حمام وأحد عشر حماما وكان بها من الفنادق والخانات ألف وستمائة فندق لسكنى التجار والمسافرين والعزّاب والغرباء وغيرهم .

وكان بها من الحوانيت ثلاثون ألف حانوت ، وأربعمائة واثنتان وخمسون حانوتا .

وانتهت دور قصرها الكبير الذى ينزله الخلفاء والملوك الى أربعمائة دار ونيف وثلاثين دارا ، كلها للملك وحرمة وفتياته » ( ١١١ ) .

ولا يكتمل الحديث عن عظمة مدينة قرطبة على عصر الخلافة ، إلا بالحديث عن مدينتى الزهراء والزاهرة ، والمسجد الجامع وقنطرة الوادى .

---

( ١١١ ) مجهول : جغرافية الأندلس ، تحقيق د. حسين مؤنس ، ص ١٦٦ — ١٧٠ .

ومدينة الزهراء تمثل عظمة الخلافة على عهد عبد الرحمن الناصر، ويحيط بدوانع انشائها وبنائها أساطير كثيرة، وحكايات خيالية جامعة وتقع شمالى غربى مدينة قرطبة على مسافة ١٠ كيلو مترات تقريبا، وشرع فى بنائها عام ٣٣٥ هـ، الموافق ٩٣٦ م، وعهد الناصر الى ولده الحكم المستنصر بالأشراف على بناء المدينة، وحشد لها أمهر المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأنحاء، وكتب التاريخ والآثار حافلة بالأرقام الخاصة بعدد العمال والرواتب وتكاليف ذلك بالدنانير والدراهم، وأسعار شراء الرخام من القسطنطينية ومن قرطاجنة وأفريقية، وتونس ومن سائر بلاد الأندلس، مما لا أجد داعيا للإشارة اليه هنا (١١٢) .

ومنذ تأسيس قصرها الرئيسى ومسجدها، اتخذت مقرا للخلافة، ونقل إليها بيت مال المسلمين، والديوان والمطبخ والخزائن (١١٣) و « أمر مناديه بالنداء فى جميع أقطار الأندلس ألا من بيتنى دارا

(١١٢) للحصول على تنصيلات وانية عن مدينة الزهراء، يمكن الاطلاع على بعض الأعمال التالية :

المقرى : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ١٠١ - ١٠٤ . وأزهار الرياض ج ٢ ، ص ٢٦٧ - ٢٧٢ .

الأدريسي : نزهة المشتاق ، ص ٢٦٢ .

مجهول : جغرافية الأندلس ، ص ١٧٠ .

العذرى : نصوص عن الأندلس ، ص ١٢٢ .

ابن حوقل : كتاب المسالك والممالك ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص ٣١ - ٣٣ .

عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ، ج ١ ، ص ٢٢٩ - ٢٥٨ .

تاريخ المسلمين وآثارهم ، ص ٤٠٧ - ٤١١ .

عبد الله عنسان : دولة الاسلام فى الأندلس ، العصر الأول ، القسم

الثانى ، ص ٣٩٥ - ٤٠٥ . الآثار الأندلسية الباقية فى إسبانيا والبرتغال،

ص ٣٥ وما بعدها .

Terres Balbas; Ciudades Hisano Musulmanes. 1 : 63.

(١١٣) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٠٨ .

أو أن يتخذ مسكنا بجوار السلطان فله من المعونة أربع مائة درهم .  
فتسارع الناس الى العمارة ، وتكاثفت الأبنية ، وتزايدت فيها  
الرغبة » (١١٤) ، وتوفي عبد الرحمن الثالث بمدينة الزهراء في عام ٣٣٥ هـ /  
٩٦١ م ، وواصل الحكم المستمر من بعده العناية بالمدينة حتى  
وفاته ، ولقد وضعت وفاة الحكم وانشاء المنصور لمدينته الجديدة  
الزاهرة ، حدا لتوسع الزهراء بل والبداية للفناء عليها .

أما عن مدينة الزاهرة ، فلقد كان المنصور بن أبي عامر يهدف الى  
أن يثبت أنه لا يقل عظمة وسلطانا عن الخليفين الناصر والمستنصر .  
فشرع في بنائها في عام ٣٣٨ هـ / ٩٧٨ م ، « وشحنها بجميع أسلحته  
وأمواله وأمتعته واتخذ فيها الدواوين ، وعمل في داخلها الأهراء  
وأطاق بساحتها الأرجاء ، ثم أقطع ما حوالها لوزرائه وكتابه ، وقوادمه  
وحجابه ، فابتثروا بها كبار الدور وجليات القصور ، واتخذوا خلالها  
المستعلات المفيدة ، والناظر المفيدة ، وقامت بها الأسواق ، وكثر فيها  
الارتفاق ، وتنافس الناس بالنزول بأكنافها ، والحلول بأطرافها .  
للدخو من صاحب الدولة ، وتناهى الغلو في البناء حوله ، حتى اتصلت  
أرباضها بأرباض قرطبة » (١١٥) .

(١١٤) نفس المصدر ، ص ١٠٧ .

(١١٥) ابن عذاري : ج ٢ ، ص ٤١٢ .

المقري : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ١٢٢ .

عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ، ص ٢٥٨-٢٦٢ .

عنان : دولة الاسلام في الأندلس - العصر الاول ، القسم الثاني

ص ٥٢٢ . علاوة على ان معظم المصادر المشار اليها عند الحديث عن مدينة

الزهراء وعن مدينة قرطبة ، تعد تناولت ايضا مدينة الزاهرة .

انظر :

Torres Balbas : Madina al Zahira

la Ciudad de Almanzor, Al Andalus V. XXI (1956)

p. 254.

Ciudades Hispano — Musulmanes : 1 : 66.

أما المسجد الجامع الذي امتازت به مدينة قرطبة عن باقي مدن الأندلس بكاملها فسوف تأتي الإشارة إليه عند الحديث عن المؤسسات التعليمية في الأندلس ، ولهذا لا أجد داعيا لذكره في هذا المجال .  
أما قنطرة قرطبة ، فعلى الرغم من كونها معلما رئيسيا من معالم مدينة قرطبة ، حتى تعد أولى أربع مظاهر تتميز بها مدينة الخلفاء ، ويجمع أحد الشعراء هذه المزايا في بيتين هما :

بأربع فاقت الأمصار قرطبة

منهن قنطرة الوادي وجامعها

هاتان شتان والزهاء ثالثة

والعلم أعظم شئ وهو رابعها (١١٦) \*

ولم يكن قصدي من ذلك الذي عرضته عن قرطبة وأرباضها وضواحيها أن أقدم وصفا تاريخيا أو وصفا للمدينة ، لأن ذلك موضوع يحتاج الى مجلدات كاملة ، وهناك بالفعل عشرات المجلدات تناولت هذه المدينة عمرانيا ، وحضاريا واجتماعيا وفنيا ، ومن الصعب على دارس في غير هذه التخصصات ، أن يلم بكل ما كتب عن هذه المدينة العظيمة ، وإنما قصدت مما كتبت عنها ، إعلاء صورة عن الحياة الحضارية للمدينة ، يمكن أن تتوعدنا الى تصور الحياة التعليمية والتعليمية التي تخللت هذه الأحياء الواسعة ، وعمرت بها تلك المساجد الكثيرة ، وحفلت بها المكاتب ، والمجالس ، أردت أن أصل الى الحقيقة التي عبر عنها عبقرية زمانه ، فيلسوف التاريخ ، وأشهر وأبرز علماء الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون ، الذي صاغ أفضل معادلة بين الحضارة والتعليم ، حين قرر أن « التعليم للعلم من

(١١٦) عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ، ص ٣١٠ .  
Gayangos : The History of the Mohammedan Dynasties in Spain ; 1 : 327.

جملة الصنائع» (١١٧) ، ضاربا الأمثلة الحية بالوقائع التاريخية التي مر بها عالم المغرب الاسلامي فقال : « اعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد أن ينقطع عن أهل المغرب ، باختلال عمرانهم ، وتناقص الدول فيه ، وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها كما مر ، وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والأندلس ، واستبحر عمرانهما ، وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة ، وبحور زاخرة ، ورسخ فيهما التعليم ، لاهتداد عصورهما ، وما كان فيهما من الحضارة ، فلما خرجتا ، انقطع التعليم من المغرب ، الا قليلا » (١١٨) .

ويعود ابن خلدون لتأكيد فكرته ، مبينا أن انقطاع التعليم بالأندلس سببه تناقص العمران ، وأن استمراره بالشرق يرجع الى اتصال العمران فيقول :

« وأما أهل الأندلس ، فذهب رسم التعليم من بينهم ، وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مؤين السنين . »

وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه ، بل أسواقه نافقة ، وبحوره زاخرة لاتصال العمران الوفور ، واتصال السند فيه » (١١٩) .

« فاعلم من جملة الصنائع ، والصنائع تكثر في الأمصار ، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة . » الخ » (١٢٠) .

وأجد أيضا في ذلك المجال ، أن أستاذي ، الدكتور لويس سواريث

(١١٧) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٨٥ .

(١١٨) نفس المصدر ، ص ٩٨٦ .

(١١٩) نفس المصدر ، ص ٩٨٨ .

(١٢٠) نفس المصدر ، ص ٩٩٠ - ٩٩١ .

وانظر أيضا عجيل حسن : الحياة العلمية في مدينة بلنسية ،

ص ١٧٦ .

هرنانديث ، على حق في تصوره لقرطبة في القرن العاشر الميلادي ، وكان كل شارع منها ، وكل ركن من المدينة حافلان بالذئابة والعلمين ، من كل الطبقات والأديان ، كل منهم يسعى الى علم معين ، أو الى أستاذ معين وليس غريبا أن تتطابق تلك الصورة التي يرسمها الدكتور سواريث وهو المؤرخ الوسيط ، الذي يركز معظم اهتماماته على دراسة تاريخ أسبانيا المسيحية مع ما يقوله الدكتور حسين مؤنس المؤرخ المصري ، المتعمق في الدراسات الأندلسية ، حين يصف مناخ قرطبة خلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، بقوله :

« يمكن أن نتصور البيئة العلمية الأندلسية ، في ذلك العصر بيئة تأليف وترجمة ، وتجديد ، ودأب للعلم والمعرفة ، مما جعل قرطبة خلال القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي ، مركزا من مراكز القيادة والاشعاع للحضارة في العالم كله » (١٢١) .

---

(١٢١) مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ،

ص ٥٦ .

هذا وقد تعرض هذا الجزء من الرسالة لنتد عنيف من الدكتور عبد العزيز سالم على أساس تركيزه على مدينة قرطبة فقط وعدم الإهتمام بالحواضر الأندلسية الكبرى . ووصفه بأنه خارج عن موضوع الرسالة ، ومع تسليمي بصحة رأي سيادته في أنه قد يبتعد بالقارئ عن الموضوع الأصلي إلا أنني رأيت التركيز عن قرطبة ، على أساس أنها العاصمة ، وبوصفها مثالا للمستوى الاجتماعي الذي شهدته المدن الأخرى ، ولم أرغب في الخروج عن الموضوع أكثر من ذلك .

## الفصل الثاني

### منذ سقوط الدولة الأموية الى سقوط غرناطة

#### (١) عصر الطوائف :

تعرضت الأندلس لفترة من التمزق السياسي ، وذلك بانقسامها الى ممالك صغيرة متنازعة فيما بينها ، وتعتبر هذه الفترة من أسوأ عهود الأندلس سياسيا ولكنها على العكس من ذلك ، كانت فترة ثقافية لامعة حيث أعطت فترة الاستقرار السابقة ثمارها خلال عصر الطوائف ، فبرز كثير من العلماء والأدباء والشعراء \* ولقد حاول ملوك الطوائف الاحتواء على أكبر عدد من هؤلاء في ممالكهم الصغيرة ، مما أشعل روح التنافس العلمي والثقافي \* وينقل المقرئ قول الشقندي : وكان في تفرقهم اجتماع على النعم لفضلاء العباد ، اذ نفقوا سوق العلوم ، وتباروا في المثوبة على المنثور المنظوم ، فما كان أعظم مباهاتهم الا قول : العالم الفلاني عند الملك الفلاني ، والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني (١) \* .

ولقد عرفت كثير من هذه الممالك بتشجيعها لمجالات أدبية معينة على ما مالت اليه مشارب الحكام ، ففي أشبيلية ، ازدهر الشعر على أيام ابن عباد ، لان الأمير نفسه كان شاعرا واتخذ وزاره وكتابه من الشعراء ، بينما لم يجد الشعراء عند صاحب دانية مجالا واسعا رغم اهتمامه بالعلوم والأدب اهتماما كبيرا جدا \* ويصف ابن حيان مجاهد العامري صاحب دانية بقوله : كان مجاهد فتى أمراء دهره ، وأديب ملوك عصره ، لمشاركته في علم اللسان ، ونفوذه في علم القرآن — عني بذلك من صباه ، وابتداء حالة التي حين اكتماله ، ولم يشغله عن

(١) المقرئ : نفع الطيب ، ج ٤ ، ص ١٧٦ .  
خناجة : قصة الأدب في الأندلس ، ص ٦٧ — ٧٠ .  
عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الاسلامية ، ص ١٧٤ .  
الركابي : في الأدب الأندلسي ، ص ٢٥ .



التريد عظيم ما مارس من الحروب برا وبحرا ، حتى صار في المعرفة  
تسيج وحده وجمع من دفاتر العلوم خزائن جمة ، وكانت دولته أكثر  
الدول خاصة وأسراها صحابة ، لانتحاله العلم والفهم ، فأمه جملة  
العلماء ، وأنسوا بمكانه ، وخيموا في ظل سلطانه ، واجتمع عنده  
من طبقات علماء أهل قرطبة وغيرها ، جملة وافرة وحلبة ظاهرة ، على  
أنه كان فيما بلغني مع أدبه من أزهد الناس في الشعر ، وأحرمهم  
لأهله ، وأنكرهم على منشده لا يزال يتعقبه عليه كلمة كلمة ، كأنها  
لما زاغ فيه من لفظة وسرقة ، فلا تسلم على نقده قافية ، ثم لا يفوز  
المتخلص من منماره على الجهد لديه بطائل ، ولا يحظى منه ببائيل ،  
تأقصر الشعراء لذلك عن مدحه ، وخلا الشعر من ذكره (١) .

ولن استطرد في الحديث كثيرا عن اهتمامات مجاهد حاكم دانية ،  
لأن ذلك موضوع طويل (٢) ، ولكن تكفي الإشارة إلى أنه حاول أن يدفع  
١٠٠٠ دينار لأبى غالب ، المعروف بابن التبان المرسى ، على أن يزيد في  
ترجمة كتابه « الموعب » أنه ألفه لأبى الجيش مجاهد ، فرد الفقيه  
المسال ، وأنف من ذلك قائلا : والله لو بذلت لى الدنيا على ذلك ما  
عملت ، ولا استجزت الكذب ، فاني لم أجمعه لك خاصة ، وإنما جمعته ،  
لكل طالب غم عامة (٣) .

أما في دولة بنى المظفر أمراء بطليوس ، فكانت أيامهم في غرب

(٢) ابن بسام : الذخيرة — القسم الثالث — ج ١ ، ص ٢٣ ، تحقيق  
أحسن عباس .

عنان : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، ط ١ ،  
ص ١٩٢ — ١٩٤ .

(٣) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ١١٠ .

أنظر مختار العبادي : الصغالية في إسبانيا ، ص ٢٢ — ٢٣ .

(٤) مختار العبادي : الصغالية في إسبانيا ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

عنان : دول الطوائف ، ص ١٩٤ .

الأندلس أعيادا ومواسم ، وكانوا ملجأ لأهل الأدب ، وكان المظفر يحيى ابن منصور المتوفى ١٠٩٧/٥٤٦٠ م ، أحرص الناس على جمع علوم الأدب ، خاصة من النحو والشعر ، ونوادر الأخبار وعيون التاريخ ، انتخب مما اجتمع له من ذلك كتابا كبيرا ترجمه باسمه « (٥) » . كما كانت بطليموس زمن المتوكل ، دار أدب وشعر ونحو وعلم ، وأحاط به مجموعة جمعة من كبار الشعراء .

أما عن أبي القاسم بن عباد المعتمد على الله ، فلقد اجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ، ما لم يجتمع لك قبله من ملوك الأندلس ، وكان « مقتصر من العلوم ، على علم الأدب ، وما يتعلق وينضم إليه » (٦) .

وازدهرت الحياة الأدبية والعلمية في باقى أقاليم الأندلس الأخرى ، مثل بلنسية (٧) ، سرقسطة (٨) ، وملقة (٩) ، والمرية (١٠) ، وقرطبة (١١) . ولقد سبق القول أن « السلطان سوق ، يجلب إليه ما

(٥) المراكشي : المعجب ، ص ١١١ .

وعن بطليموس وبنى الأندلس . انظر كتاب مانويل تورون : « أرض بنى الأندلس » .

(٦) نفس المصدر ، ص ١٤٩ .

وانظر أيضا : صلاح خالص : اشبيلية في القرن الخامس .

(٧) عجيل حسن : الحياة العلمية في مدينة بلنسية .

(٨) ترك : مملكة سرقسطة في القرن الحادى عشر الميلادى .  
Afif Turk : Reino de Zaragoza en S. XI.

(٩) روبلس : تاريخ مملكة الاسلامية .

Guillen Robles : Malaga Musulmana.

(١٠) عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الاسلامية ، ص ١٧٤ .

١٨٥ .

محمد أبو الفضل : تاريخ مدينة المرية ( رسالة ماجستير بجامعة الاسكندرية ) .

(١١) خالد الصوفى : بنو جهور في قرطبة .

Khalid Soufi : Los Banu Gahwar en Cordoba.

ينفق لديه « (١٢) » .

ونقد برز في تلك الفترة ، عدد كبير من العلماء والأدباء والفقهاء ،  
والشعراء ، والمؤرخين ، أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :

ابن حيان ( المتوفى ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م ) ، وهو من أشهر مؤرخي  
المسلمين في العصور الوسطى (١٣) ، وصاعد الطبقي ( المتوفى ٤٦٢ هـ /  
١٠٦٩ م ) ، وصاحب كتاب « طبقات الأمم » (١٤) ، وأبو الوليد الباجي ،  
الذي أدخل الأندلس علوما كثيرة وتناظر مع ابن حزم ( المتوفى ٤٧٤ هـ /  
١٠٨١ م ) (١٥) ، وابن حزم الظاهري ( المتوفى ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م ) (١٦) ،  
الذي يعتبر قمة من قمم الفكر الانساني .

ومن الشعراء الذين برزوا في تلك الفترة يمكن الإشارة الى ابن  
دراج القسطلي ، وابن زيدون ، وابن عمار ، وابن شهيد . وحتى  
لا أكثر من الأسماء الالامعة في مجال الأدب ، فانني أثير على القارئ  
المتعطش أن يلقى نظرة على ذخيرة ابن بسام الششتريين ، التي أعاد  
تحقيقها واستكملها مؤخرًا ، الدكتور احسان عباس (١٧) .

(١٢) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ، ج ١ - تحقيق : لطفي  
عبد البديع ، ص ٤ .  
وبصورة عامة انظر : عبد الله عنان : ملوك الطوائف .  
(١٣) انظر ترجمة ابن حيان : المقدمة التي كتبها الدكتور محمود علي  
مكي ، لتحقيقه للجزء الثاني من المقتبس ورسالة دكتوراه عبد الله  
جمال الدين .  
(١٤) طبع الكتاب أكثر من مرة في القاهرة وغيرها من بلدان العالم .  
ابن حيان : نصوص من كتاب الآتين : أعداد عبد الله جمال الدين .  
(١٥)

(15) Turki, A. : Polemiques Entre Ibn Hazem et Bayi....  
Asin Palacica : Abenhazam de Cordoba y su Historia....

ابن بسام : الذخيرة ، الجزء الثالث ، القسم الاول ، ص ٩٠ ( طبعة  
بيروت ) .

(١٦) الظاهر مكي : دراسات عن ابن حزم وكتابه ( طوق الحمامة ) .  
خفاجة : قصة الأدب في الأندلس ، ص ١٦١ - ١٦٧ و ص ٢٠٢ .  
(١٧) ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق احسان  
عباس - ٨ أجزاء - بيروت - ١٩٧٥ .

ولم تخل الفترة أيضا من بعض الاضطهاد للعلماء وخاصة ما تعرض له ابن حزم من مطاردة من مكان الى آخر ، حيث استقر به المقام في قرية صغيرة لا يؤمه فيها الا صغار الطلبة ، وأحرقت كتبه في أشبيلية ويقتول ابن حيان عنه :

طلق الملوك يقصونه عن قربهم ، ويسيرونه عن بلادهم ، الى أن انتحوا الى منقطع أثره تربية بلدة من بادية لبلة ، وبها توفي رحمه الله ٤٥٦ هـ ، وهو في ذلك غير مرتدع ، ولا راجع الى ما أرادوا به ، بث علمه فيمن ينتابه من بادية بلده من عامة المقتبسين منهم ، من أصاغره الطلبة (١٨) .

#### (ب) المرابطون والموحدون :

قابل تدهور الأمور السياسية في الأندلس ، ازدياد قرة أسبانيا المسيحية ، وخاصة مملكة قشتالة ، التي تمكنت من فرض حمايتها على الدويلات الإسلامية ، وطمعت في السيطرة عليها واحدة بعد الأخرى .

كما أن تلك الفترة شهدت ظهور دولة جديدة على الجانب المقابل للأندلس من البحر المتوسط ، أي في المغرب الأقصى ، هي دولة المرابطين (١٩) التي وصلت الى قمة عظمتها وقوتها على عهد أميرها

---

(١٨) انظر المراجع المذكورة عالياه — وراجع ايضا : الحموي : معجم الادباء ، ج ١٢ ، ص ٢٤٨ ، طبع لريد الرضاى .  
ابو زهرة : ابن حزم ، ص ٧ ، و ص ٥٤ ، ٥٥ .  
ومن النقاط التي اثار نقاشا في هذه الرسالة هي التلويل والتركيز على مدينة قرطبة والاهمال أو شبه الاهمال لباقي حواضر الأندلس الكبرى وعذرى في ذلك أن قرطبة هي قصبة الملك هناك ومجتمعها يمثل المجتمع الأندلسي كله دون أن أقصد الاقلال من أهمية المدن الأخرى . المؤلف .  
(١٩) انظر في تاريخ الدولة المرابطية بعض الأعمال التاريخية التالية : ابن ابر زرع : روض القرطاس ، ج ٢ ، ص ٣ . المراكشي : المعجب ص ١٩٢ — ٢٦٠ .

حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ . عنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس (التسم الثاني) القاهرة ١٩٦٢ . =

يوسف بن تاشفين ( ٤٥٣ - ٥٠٠ هـ / ١٠٦١ - ١١٠٧ م ) وابنه الأمير  
على بن يوسف .

هذه الظروف مجتمعة دفعت بملوك الطوائف الى الاستعانة  
بالمرابطين ضد أسبانيا المسيحية ، ولكن المسألة انتهت بعد فترة من الزمن  
بالقضاء على ملوك الطوائف ، واستيلاء المرابطين على ممالكهم . ودخول  
الأندلس ضمن الدولة المرابطية ، واستمرت كذلك الى أن سقطت الدولة  
المرابطية ، وحلت محلها الدولة الموحدية (٢٠) .

وغير من المؤرخين الأسبان ، وخاصة غير المستشرقين ، يصفون  
فترة المرابطين والموحدين ، بحكم الأسرات الأفريقية ، وبعضهم يرى  
أنها فترة احتلال أجنبي ، ويرى الدكتور لويس سواريث ، في نقاشاته  
مع أن أسبانيا الإسلامية ، كأسبانيا الأسبانية . تجلت ذاتها في مرتين  
فقط : الأولى في فترة الخلافة الأموية في قرطبة ، والثانية في دولة بني  
نصر في غرناطة ، ولذا كان رؤية التركيز على مائتي الفترتين في هذه  
الدراسة ، ولقد كنت أرى باستمرار ، ومازال رأيي كذلك ، أن تاريخ

= وتاريخ الأندلس على عهد المرابطين والموحدين ( ترجمة عنان ، القاهرة  
١٩٥١ ) . ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٤ ، تحقيق احسان عباس  
بيروت ١٩٦٧ .

( ١٩٥١ ) . ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٤ ، تحقيق احسان عباس .  
( ٢٠ ) أنظر في تاريخ الموحدين بعض الأعمال التاريخية التالية :  
ابن عذاري : البيان المغرب ، الجزء الثالث ، تحقيق هويسى ميراندا ،  
« الحل الموشية » المنسوب خطأ لابن الخطيب ، تحقيق البشير النورني ،  
تونس ، ص ٧٨ وما بعدها روض القرطاس ، ج ٢ ، ص ١٠٠ . نظم  
الجمان ، ص ١٠٢ . والتاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية للمستشرق  
الاسباني « هويسى ميراندا ، جزءان » تطوان ١٩٥٦ .

Huici Miranda, A. : Historia politica del Imperio  
Almohade... 2 tomos, Tetuan, 1956.

ابن صاحب الصلاة : كتاب المن بالامامة ( تحقيق عبد الهادي  
التازي ) .  
عبد الله غلام : الدولة الموحدية بالمغرب .

المغرب والأندلس يتصل ببعضه صلة قوية ، إلى درجة يستحيل معها الفصل ، بل ما هو أكثر من ذلك ، أن تاريخ الأقاليم الإسلامية الكبرى ومنها إقليم غرب العالم الإسلامي ، يرتبط ببعضه ، وأن محاولات التقسيم الجغرافي ، محاولات مبسرة ، وتجزئة غير سليمة ، ولعل لا أبعد كثيرا إذا قلت أن تاريخ العالم الإسلامي يأكمله خلال العصور الوسطى متشابك ، ومتصل ومتقارب ، وإذا كانت الصورة غير واضحة أو مختلفة في المجالات السياسية ، فهي ولا شك حية قوية واضحة في المجالات الثقافية والاجتماعية ، ولست أقصد من ذلك القول بصورة واحدة تماما وإنما أقول أن لكل منطقة ، علاوة على السمات العامة التي تربطها بغيرها من مناطق الإسلام ، لها سماتها الخاصة ، ومميزاتها النوعية .

ولقد شرحت وجهة نظري لأستاذي ، باستحالة فصل الفترة التاريخية للمرابطين والموحدين عن مسار التاريخ العام للأندلس ، وخاصة في مجال التعليم ، حيث أن المؤسسات التعليمية كانت قد استقرت أسسها منذ فترة طويلة ، وواصلت عملها رغم التغيرات السياسية التي طرأت على الأندلس .

لقد شهدت فترة المرابطين اهتماما نوعيا بالعلوم ، فلقد كان لها فكرها الخاص الذي طبع التعليم في الأندلس ، ونتيجة لتعصبهم الديني ، ازدهرت علوم واضمحلت علوم أخرى ، فهم قد اهتموا اهتماما كبيرا بالمذهب المالكي ، وأهملوا ما عدا ذلك ، واضطهدوا علماء الكلام ، مما طبع عصرهم بطابع معين من الدراسات ، يقول المراكشي حين يتحدث عن الأمير يوسف بن تاشفين :

« واشتد ايثاره لأهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان إذا ولي أحدا من قضائته ، كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمرا ولا بيت في صغير من الأمور أو كبير ، إلا بمحضر من أربعة من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس . »

ولم يزل الفقهاء على ذلك ، وأمور المسلمين راجعة اليهم ،  
وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم ، طول مدته ، فعظم أمر  
الفقهاء كما ذكرنا ، وانصرفت وجوه الناس اليهم ، فكثرت لذلك  
أموالهم ، واتسعت مكاسبهم » (٢١) .

ويقول في موضع آخر :

« ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده ، الا من علم علم  
الفروع ، أعنى فروع مذهب مالك ، فنفتت في ذلك الزمان كتب المذهب ،  
وعمل بمقتضاها ، وبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب  
الله ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن أحد من  
مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء ودان أهل ذلك الزمان  
بتفكير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام . وقررا  
الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام ، وكراهة السلف له ،  
وهجرهم من ظهر عليه شيء منه ، وأنه بدعة في الدين ، وربما أدى أكثره  
إلى اختلال في العقائد ، في أشباه لهذه الأقوال ، حتى استحکم في نفسه  
بعض علم الكلام وأهله ، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد  
في تَبْذِ الخوض في شيء منه ، وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه ،  
ولما حُلت كتب أبي حامد الغزالي رحمه الله (المتوفى ٥٠٥ هـ / ١١١٢ م)  
المغرب ، أمر أمير المسلمين باحراقها وتقديم بالوعيد الشديد - من سفك  
الدم واستئصال المال - إلى من وجد عنده شيء منها ، واشتد  
الأمر في ذلك » (٢٢) .

(٢١) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٢٥٢ ،  
والطبعة القديمة ص ١٧٧ .  
(٢٢) نفس المصدر ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ . ابن القطان : نظم الجمان ،  
ص ١٤ ، ١٥ .

الناصرى : الاستقما لأخبار المغرب الأقصى ، ص ٦٧ ، ج ٢ .  
عُنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس ، ط ١٩٦٤ ،

وأُسرف الأمير يوسف بن ناشفين في تقريب الفقهاء ورعايتهم ، وكان محبا لهم والعلماء والصلحاء ، مقربا لهم ، مكرما لهم ، أجرى بينهم الأرزاق من بيت المال طوال أيامه (٣٣) . أما ابنه علي ، فقد جعل من بلاطه في مراحس مركزا للكثير من رجال الأدب والعلم ، حيث قصد هناك أبو بكر بن الجد وابن القبطرنة وابن عبدون وابن أبي الخصال .

ولعل قصر فترة المرابطين ، وانشغالهم بالحروب الكثيرة في تثبيت دعائم دولتهم ثم في المحافظة عليها ، قد صبح هذه الدولة بالخاسع العسكري ، ولم يعطها الفرصة الكبيرة لازدهار علوم أخرى كثيرة ، أو حجب الأنشطة العلمية ، فلم يصل إلينا الكثير من المعلومات عنها .

وعلى العكس من قلة المعلومات التي نجدها بين أيدينا ، عن دولة المرابطين فإننا نتمتع ببيانات وافرة ووثائق كثيرة عن الموحدين ، ولست أدري السبب في ذلك ولكن من المحتمل أن يكون كما سبق لي القول ، قصر فترة المرابطين ثم امتداد حكم الموحدين لفترة طويلة جدا ، مما منع المؤرخين على عصرهما من التأريخ للفترة السابقة .

هذا ولقد أبدت الدولة الموحدية بالتعليم اهتماما كبيرا جدا ، وذلك لقيامها على عقيدة دينية ، مما حتم ضرورة الاهتمام بنوعية التعليم حتى يمكن اقتناع الناس بهذه العقيدة ، وحملهم على دراسة مؤلفات مؤسس هذه الدولة محمد بن تومرت (٣٤) ، ولقد وضع الموحدون لذلك برنامجا إجباريا أنقله هنا عن كتاب العلوم والفنون على عهد الموحدين ( ٤٨٧ — ٥٥٨ هـ / ١٠٩٤ — ١١٦٣ م م ) (٣٥) .

- 
- (٢٣) ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص ٣٨ .  
 (٢٤) عن الشيخ ابن تومرت ، انظر : ابن القطان : نظم الجيوش الصنهاجي : أبو بكر بن علي المكنى بالبيدق : وكذلك أخبار البيهقي ابن تومرت ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، الجزائر .  
 المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٣٦٢ — ٣٨٧ .  
 (٢٥) محمد المنوني : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ، تطوان ١٩٥٠ .



وضع هذا النظام للتعليم الاجبارى عبد المؤمن بن على ، ويقوم هذا البرنامج على أنه يجب على كل من انضوى تحت راية الموحدين ان يتعلم الضرورى من العقائد وما يتعلق بالاصالة ، ولقد بالغ في هذا الأمر ، فجعله حتما لازما على كل مكلف — الرجال والنساء ، والأحرار والعبيد — ورخص لمن يفهم اللسان البربرى دون العربى أن يقرأ بلسانهم ، عقيدة ابن تومرت — التوحيد — البربرية — أما الذين يقيمون العربية ، فكان لازما عليهم أن يقرأوا عقيدة ابن تومرت العربية — المرشدة — وأكد على الجميع في حفظ ذلك وتدبره وملازمة قراءته ، وتعااهده ، كما أكد على العوام ، ومن في انديار في حفظ أم القرآن ، وما تيسر من القرآن ، وألزم نوابه أن يقيموا علماء أمناء من قبلهم ليعلموا الناس ما ذكر .

وزيادة في الاهتمام ، نرى عبد المؤمن يشرف بنفسه على مباشرة هذا النوع من التعليم في مراكش وناحيتها ، ويكتب الى نواحي المملكة الأخرى يقص عليهم عمله هذا ، ويأمرها بأن تحتذى حذوه ، وتتوهم بدورها بتطبيق هذا المنهج .

ويلحق بكتابى المهدى المقربين ، مجموع أحاديث الجهاد ، الذى أمر يوسف (٢٦) بتدوينه ليملى على الموحدين ليدرسوه ، فكان يلقى على الناس بنفسه ، وكان كل واحد من الموحدين والسادة يجيى بأورج يكتب فيه الاملاء .

(٢٦) بالنسبة لجهودات كل خليفة موحدى على حدة سوف نتولانا لاحقا ضمن هذه الرسالة في تناولنا لبعض المجالات المحددة من السبل على من يرغب الاستزادة مراجعة مجموعة المصادر المذكورة في تاريخ دولتي الرابطين والموحدين وأخبار المهدى بن تومرت ، وفي هذا المجال بالذات يمكن مراجعة كتاب العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين للمنونى ، وكتاب تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى للأستاذ غنيمه .

وكذا مجموع أحاديث الصلاة وما يتعلق بها ، الذي جمعه بأمر يعقوب طائفة من العلماء ، فكان يمايه بنفسه على الناس ، ويأمرهم بحفظه ، وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب ، وحفظه الناس من العوام والخاصة ، فكان يجعل لمن حفظه الجعل السنني من الكسا والأموال (٣٧) .

ولقد كان عبد المؤمن مؤثرا لأهل العلم ، محبا لهم ، محسنا اليهم ، يستندعيهم من البلاد الى السكن بجواره ، والجوار بحضرته ، ويجري عليهم الأرزاق الواسعة ، ويظهر التنوية بهم ، والاعظام لهم (٣٨) .

ولقد اتخذت الدولة الموحدية مواقف محددة لصبغ التعليم في بلادها بصبغة جديدة ، وخاصة القضاء على المذهب المالكي ، ودراسات الفروع ، والعردة الى دراسة الحديث والمدرسة الظاهرية ، فالأمير عبد المؤمن قد أمر في سنة ٥٥٥٠ هـ / ١١٢٤ م ، بإصلاح المساجد وبنائها في جميع بلاده ، وتغيير المنكر وتحريق كتب الفروع ، ورد الناس الى قراءة الحديث ، وكتب بذلك الى جميع طلبة المغرب والعدوة (٣٩) .

وهناك من يتحدث عن حرية كبيرة سادت عصر الموحدين حيث يقول الأستاذ عبد الهادي التازي بأنه « كان من رأى الموحدين — على العموم — أن لا يجبروا على الناس في تفكيرهم ، ولذلك فقد ازدهرت الفلسفة ، وارتفعت رهوس المفكرين في كل زاوية ، بل ان أفقهم كان لا يضيق عن سماع النقد ، وهم مع هذا يحرصون كل الحرص على أن يجلوأ رجال الفكر والعلم ، يستقبلونهم في صدر ما يستقبلون ويؤثرونهم على غيرهم في الولايات والتكريمات ، والمظاهر النمامية » (٤٠) .

- 
- (٢٧) العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ، ص ٢٧ ، ٢٨ .  
 المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٢٩٣ .  
 (٢٨) نفس المصدر ، ص ٢٩٣ .  
 (٢٩) ابن أبي زرع : الأيس المطرب ، ص ١٥٤ .  
 (٣٠) عبد الهادي التازي : مقدمة كتاب المن بالامانة ، ص ٦٢ .

لكن من الصعب التعميق بذلك ، حيث أن الموحدين تعصبوا كثيرا ضد المذهب المالكي ، ولعل في قصة الفقيه محمد بن عبد الله بن خيرة القرطبي ، المالكي ( المتوفى ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م ) ، ما ينفى تلك التحرية التي تطلق على الموحدين ، فلو كان من مجلة العلماء الحفاظ ، متفننا في المعارف كلها ، جامعا لها ، كثير الرواية ، واسع المعرفة ، حافل الأدب .

كان من كبار فتياء المالكية ، يتصرف في علوم شتى ، وانتفع به أهل قرطبة في الفقه والأصول ، وقدم مصر هاربا من بني عبد المؤمن ودولته ( الموحدون ) ، لما ظهر بالمغرب ، ثم خاف أن يستولى على مصر ، فقدم الحجاز ، فخاف أن يحججه فدخل اليمن (٢١) .

أما على عهد أبي يوسف يعقوب ( ٥٨٠ — ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ — ١١٩٩ م ) ، فقد انقطع علم الفروع ، وخافه الفقهاء ، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يخرجوا منها ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم ، ففعل ذلك ، فأحرق منها جملة في سائر أنبلاذ كمدونة سحنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادير ابن أبي زيد ومختصره ، وكتاب التهذيب للبرادعي ، وواضحة ابن حبيب ، وما جانس هذه الكتب ونحوها ، ولقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس ، يؤتى منها بالأحمال فتوضع ، ويطلق فيها النار ، وتقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي ، والخوض في شيء منه ، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة (٢٢) .

صحيح أن الفلسفة قد شهدت على عهد الموحدين ازدهارا كبيرا ، وخاصة على يدى ابن طفيل وابن رشد ، وأن بعض الأمراء الموحدين كانوا متضلعين في تلك المادة ، ولكن ذلك لم يمنع من أن يتعرض

(٢١) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٦٠ .

ابن نرحون : الديباج ، ج ٢ ، ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

(٢٢) المراكشي : المعجب ، ص ٤٠٠ .

ابن رشد للإبذاء ، وأن يكتب أمير المؤمنين أبو يوسف يعقوب « بالتقدم الى الناس في ترك هذه العلوم جملة - أى الفلسفة - وبحراق كتب الفلسفة كلها الا ما كان من الطب والحساب وما يتوصل به من علم النجوم الى معرفة أوقات الليل والنهار ، وأخذ سمت القبلة فانتشرت هذه الكتب في سائر البلاد ، وعمل بمقتضاها » (٣٣) ، وسوف أتناول ذلك تفصيلا عند الحديث عن الفلسفة ، وغيرها من العلوم المنتشرة في الأندلس .

هناك جانب آخر من جوانب الاهتمام بالتعليم يعزى الى الدولة الموحدية ، ألا وهو انشاء المدارس في مناطق كثيرة من الامبراطورية الموحدية بشطريها الأفريقي والأندلسي ، وبما أننى سوف أتناول مسألة المدارس في الأندلس في فصل خاص ، فسأترك ذلك الموضوع ، لمعالجته هناك .

#### (ج) الدولة النصرية :

بعد فترة من الازدهار السياسى ، والعسكرى ، والثقافى ، أصاب دولة الموحدين التدهور السريع ، وخاصة بعد معركة العقاب ( ١٥ صفر ٦٠٩ هـ - ١٦ يولية ١٢١٢ م ) (٣٤) . ويرى ابن عذارى ، أنها كانت السبب في هلاك الأندلس الى الآن (٣٥) ( أى الى عهد المؤلف ) وقامت في

(٣٢) المراكشى : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٤٣٧ .

(٣٤) انظر عن معركة العقاب بعض الأعمال التاريخية مثل :

هويسى ميراندا : من الأرك الى العقاب ، معارك الاسترداد الكبرى .

Huici Mirande : las Grandes Batallas de La Reconquista ....

اجوادى بلاى : مجمل تاريخ إسبانيا ، ج ١ ، ص ٦٤٥ .

Aguado pleye : Manual de Historia de Espana 1. 645.

(٣٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، تحقيق هويسى ميراندا ،

ج ٣ ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

الأندلس عدة ثورات محلية منفصلة عن الدولة الموحدية ، وعادت الأندلس الى فترة تشبه فترة ملوك الطوائف ، وتقدمت الجيوش الأسبانية المسيحية ، تسترد المدن والقواعد الأندلسية الكبرى ، وخيم على الأندلس شبح النهاية المحتومة للدولة الإسلامية هناك ، وخلال هذا الظلام والغبار تمكن أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي الأنصاري ( ٥٩٥ هـ - ٥٩٧١ / ١١٩٨ - ١٢٧٢م ) ، من أن يؤسس له إمارة ، ما لبثت بعد دخوله غرناطة في عام ٥٩٣٥ هـ / ١٢٣٨م واتخاذها عاصمة له ، أن نهت وتطورت ، وأصبحت دولة صمدت للتيارات السياسية ولحركة الاسترداد الأسبانية مدة تزيد على مائتين وخمسين عاما ، ولقد عرفت هذه الدولة في التاريخ باسم الدولة النصرية ، أو دولة بني الأحمر ، وتتميز بأنها صورة مصغرة لدولة الأندلس الكبرى على عهد الخلافة فعلى عهدها لم تعد غرناطة أو لم يعد الأندلس جزءا تابعا لامبراطورية شمال أفريقية ، دون أن يعنى ذلك انقطاع الصلة مع هذه المنطقة من العالم .

هذا ولقد شهدت الدولة النصرية في غرناطة مراحل من القوة والضعف ودورات من الانتصارات والهزائم ، وسلسلة من التحالفات والمعاهدات مع ممالك أسبانيا المسيحية وخاصة قشتالة وأراجون ومع ممالك العالم الإسلامي الأخرى ، وليس هذا هو مجال التطويل في هذه الموضوعات التي سبقنى غيرى من الأساتذة والباحثين الى دراستها (٣٦) .

(٣٦) الدراسات الخاصة بمملكة غرناطة كثيرة جدا ومتنوعة ومن الصعب حصرها وتكنى الإشارة الى بعض الكتب التاريخية مثل :  
ابن الخطيب : الاحاطة في أخبار غرناطة ، وأعمال ابن الخطيب الأخرى .

الطوحى ( أحمد محمد محمود ) : مناظر الحضارة في ملكة غرناطة .  
نسيابة ( محمد كمال ) : يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة .  
العبدى ( أحمد مختار ) : مملكة غرناطة على عهد ملوكها محمد الخامس .

هذا ولقد أسرفت كتب التاريخ والرحلات والجغرافية في وصف  
غرناطة وابرار محاسنها ، فيقول عنها المقرئ « غرناطة من أحسن  
بلاد الأندلس ، وتسمى بدمشق الأندلس ، لأنها أشبه شيء بها  
ويتسقا نهر حدرة ، ويطل عليها الجبل المسمى بشلير ، الذي لا يزول  
الثلج عنه ثناء وصيفا ، ويجمد عليه حتى يصير كالبحر الصلد ، وفي  
أعلاه الأراهر الكثيرة ، وأجانب الأفويه الرفيعة » (٣٧) .

وينقل المقرئ وصف ابن بطوطة لغرناطة بأنها « قاعدة بلاد  
الأندلس ، وعروس مدنها وخارجها لا نظير له في الدنيا ، وهو مسيرة  
أربعين ميلا ، يخترقها نهر شليل المشهور ، وسواه من الأنهار الكثيرة،  
والبساتين الجليلة ، والجنات والرياضات والقصور ، والكروم محدقة  
بها من كل جهة ... » (٣٨) . أما عن الرحالة المصري عبد الباسط ،  
فقد زار غرناطة قبل سقوطها بحوالى خمسة وعشرين عاما ، ووصفها  
لنا قائلا :

« ورأيت غرناطة ، فإذا بها بلدة نزهة عظيمة ، من أعظم بلاد  
الأندلس وهى قاعدة ملك الاسلام بالأندلس ، وتخت السلطنة بها .  
غربية الوضع ، حسنة الأبنية ظريفة ، أنيقة ، بديعة الوضع ، بها سائر  
أرباب الصنائع ، وهى كدمشق الشام ، وبها المياه الجارية والبساتين  
والأجنة والكرم ، وهى مجتمع الفضلاء والعلماء والأعيان والشعراء ،

- 
- Prieto Vivos ; A. : Formacion del R. de Granada. =  
Simonet ; F. : Descripcion del R. de Graada .... Lafuente  
Alcantra : Historia de Granada.  
Gallego Burin : Los Moriscos del R. de Granada Segun  
el rienado de Guadix.  
Caro Barojs ; A. ; los Moriscos del R. de Grana da Granada.  
Ladero Quesado : Granada Historia de un Pais  
Islamico (1232—1561).

(٣٧) المقرئ : فتح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٦ .

(٣٨) المقرئ : فتح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٦ .

وأرباب الفنون والكدالات ، وبها بقيت الناس ، والآثار العظيمة والأمكنة للنزعة . . . الخ » (٢٦) . ويستطرد الرحالة المصري بعد ذلك :  
متحدثا عن علماء غرناطة ومشايعها ورجال الأدب والفكر فيها مما يدل على مدى التقدم الثقافي الذي وصلت اليه هذه المملكة على الرغم من انهيارها السياسي والعسكري والصراع الأسرى الذي أوقعها خريسة سبلة على يد الملكين الكاثوليكين ، سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٣ م (٢٧) .

بدأ الازدهار الثقافي في ملكة غرناطة على عهد ثاني أمراءها أبى عبد الله محمد ، الملقب « بالفتي » ، لما انتخب به من العلم والفقه ، ولقد ولد هذا الأمير بغرناطة عام ٦٣٣ هـ — ١٢٣٥ م . ويقول ابن الخديب أنه يؤثر عنه « تنظيم دراهين المملكة ، وتنشيد النشيد ، وترتيب رسوم الملك والألقاب على خدمتها ، وعرف ببراعته في السبحة وسبعة أفتة ، وتوضوه على المريد من اخلال الفاضلة ، بالاضافة الى العلم ، وممارسة الشعر ، وإيثاره مجالس الأدباء والفقهاء » (٢٨) . ومن المصادفات الغريبة ، معاصرته للملك القشتالي ألفونسو العاشر ، الملقب بالعالم ، مما قد يوحى بنوع من التأثير في اتخاذ الألقاب . وإن قال ابن خلدون إنه عرف باسم الفقيه ، لانتقاله طلب العلم أيام أبيه ولاشغاله بالفقه زمنا في صباه (٢٩) ، وتوفي هذا الأمير عام ٧٠١ هـ — ١٣٠٢ م .

(٣٩) ملكة غرناطة ، عام ١٤٦٥ ، ١٩٦٦ م ، مذكرات رحلة مصري .  
الأندلس ، المجلد الأول ، ص ٢١٢ — ٢١٤ .  
Levi Della Vida : EL Regno Granata, Nel 1465—1466 ;  
Nel Ricorde di un Viaggiatore Egiziano. ( al Andalus 1.  
1933 : 307.

(٤٠) سواريث غرناديث : تاريخ أسبانيا ( غزو ملكة غرناطة ) ، ص ٥٩٦ ٦٠٤ .

(٤١) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ . ص ٥٦٥ .

سبابة : يوسف الأول ، ص ٢٧ .

الطوخى : مظاهر الحصار في غرناطة ، ص ٦ .

(٤٢) الطوخى : الرسالة المذكورة ، ص ٦ .

ولقد عمل هذا السلطان على احضار العلماء من المدن الأندلسية الى غرناطة ، يقول ابن الخطيب عند الحديث عن محمد بن ابراهيم ابن محمد الأوسى (توفي ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م) ، أنه من أهل مرسية ، وأنه أقرأ التعاليم والطب والأصول بغرناطة ، لما استقدمه السلطان ثانى الملوك من بنى نصر من مدينة بجاية فانفتح الناس به (٤٢) ، كما أن الفقيه الكبير أحمد بن ابراهيم بن الزبير بن محمد ( المتوفى ٧٠٨ هـ / ١٣٠٩ م ) والذي انتهت اليه الرياسة بالأندلس في صناعة العربية وتجويد القرآن ، ورواية الحديث ، حين نشأت بينه وبين المتغلب على مالقة وحشة ، أكتفى بعاية ، وكبس منزله في حينه ، واستولت الأيدي على ذخائره وكتبه ، وفوائد تقييده عن شيوخه ، لحق بغرناطة ، آوياً الى كنف سلطانها الأمير أبى عبد الله بن الأمير الغالب بالله بن نصر ، فأكرم مثواه وعرف حقه (٤٣) .

ويعد هذا من أكبر مظاهر اهتمام الأسرة النصرية بالعلماء والمعلمين حيث أننا نجد جميع أمراء هذه الأسرة يواصلون هذه السياسة ، وساعدهم وزراؤهم في ذلك ، فنجد الوزير ابن الحكيم يهش لقدوم الفقيه محمد بن خميس ( المتوفى عام ٧٠٨ هـ / ١٣٠٩ م ) الى غرناطة في عام ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م ، ويمت اليه بالوسيلة العلمية واجتذبه بخطبة التلميذ ، واستفزه بتأنيسه وبره ، وأقعهده للاقراء بجواره (٤٥) .

ولا شك أن أكبر عناية بالمعلمين والتعليم قد شهدتها غرناطة على يدى ملكيها الكبيرين يوسف الأول (٤٦) ، ومحمد الخامس (٤٧) ، حيث أجريا الجراية على العلماء والمعلمين وأوليا اليهم وظائف كثيرة ،

(٤٣) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٤٤) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٨٨ — ١٩٢ .

(٤٥) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ — ٥٦٢ .

(٤٦) شبانة : يوسف الأول ملك غرناطة .

(٤٧) العبادى : مملكة غرناطة ، على عهد محمد الخامس .



وأوكلا اليهم أعمالا يتقاضون منها جراية ، ثم لكى يقدموا فى نفس الوقت بالتدريس وتعليم الناس ، فالفقيه محمد بن محمد النمرى النضرير ( المتوفى ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م ) كان حافظا للقرآن أستاذًا ، يقوم على العربية خير قيام « توفى بغرناطة تحت جراية من أمرائها ، لاختصاصه بقراءة القرآن على قبورهم » (٤٨) .

ولقد قام الوزير ابن الخطيب بنقل الفقيه محمد بن محمد العبدرى من سبتة الى غرناطة ، حيث قعد للاقراء ، الى أن توفى عام ٥٧٣ / ١٣٥٢م (٤٩) .

كما أن ابن الخطيب يقول فى ترجمة محمد بن عبد الولي الرعيني ( المتوفى ٥٧٥٠ / ١٣٤٩م ) بأنه « طلب الى التصدر للاقراء ، فأبى لشدة انقباضه فنيهت بالباب السلطاني على وجوب نصبه للناس ، فكان ذلك فى شهر شعبان من عام وفاته » (٥٠) .

أما الوزير أبو عبد الله المحروق فقد اختص بالفقيه محمد بن أحمد ابن فتوح بن شقرال ( المتوفى ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ م ) ، ورتب له بالحمراء جراية وقلده نظر خزانة الكتب السلطانية (٥١) .

وعلى عهد السلطان يوسف الأول شهدت غرناطة حدثا تاريخيا فيما يتعلق بالعملية التعليمية ، أقصد بذلك تأسيس المدرسة النصرية فى غرناطة ، كما أن هناك ما قد يبين تأسيس مدارس أخرى على عهد الملك محمد الخامس . وسوف أتناول هذه النقطة بالتفصيل ، فى الفصل الخاص بالمدارس فى الأندلس .

---

(٤٨) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٣١ — ٣٣ .

(٤٩) نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٢٧ — ٢٨ .

(٥٠) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٢٣ — ٢٥ .

(٥١) نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٢٢ — ٢٥ .

ولقد كان لستوط المدن الأندلسية الكبرى ، قرطبة وبلنسية وأشبيلية ومورسية وغيرها : وهجرة كثير من علمائها الى غرناطة ، اثره الكبير فى ارتفاع المستوى الثقافى لهذه المملكة الى درجة تعيد الى الأذهان الفترة التى كانت عليها قرطبة على عهد الحكم المستنصر بالله .

ولقد لعت أسماء كثيرة جدا فى المجالات العلمية والأدبية ولا أجد داعيا للإشارة الى بعضها لأن ذلك قد يوحى بعكس ما أريد ، ولكن من يلقى نظرة متعجلة على مؤلفات ابن الخطيب أو على مؤلفات أبى الوليد بن الأحمر ( المتوفى ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م ) (٥٢) ، وغير ذلك من الكتب يمكنه أن يقدر اهتمام الدولة النصرية بالعلم والعلماء .

وأود أن أشير الى أن هذه الحركة الفكرية الكبيرة لم تقتصر على مدينة غرناطة ، وانما نافستها مدينة مالقة ، ومدينة وادى آس حيث كان لجلس الاقراء بالمسجد الجامع بمالقة شهرة علمية كبيرة ، وعاش فى المدينة عدد كبير من العلماء اللامعين ، والمعلمين المعروفين .

ويقول روبلس فى كتابه عن تاريخ مالقة :

« ان الحركة الأدبية والعلمية فى مالقة كانت تتمتع بمستوى عال ومكانة مرموقة خلال الفترة التى أركز فيها هذه الدراسة ، وتزداد وضوحا أمامى كلما ركزت انتباهى على مجال من المجالات . لقد وجدت فيها أكاديمية ، وبمساجدها مكتبات تنمو وتزداد ، من هبات العلماء » (٥٣) .

(٥٢) انظر مثلا : زمالة ( عبد القادر ) : أبو الوليد بن الأحمر .

(٥٣) Gullen Robles : Malaga Musulmana, p. 391. (53)

## الفصل الثالث

### بعض مظاهر تدخل الدولة في التعليم

#### في الأندلس

تدخل الدولة في التعليم في الأندلس ، مسألة اختلف حولها الباحثون والدارسون كثيرا باختلاف الفترة الزمنية ، وباختلاف مفهومهم لمعنى تدخل الدولة في التعليم - فهناك من ركز آراءه حول مسألة انشاء المراكز التعليمية ، ومن اعتمد على العملية التدريسية ذاتها ، ومن انطلق في آرائه على نظام التعليم . وفي كل نقطة من هذه النقاط ، تعارضت الآراء وتباينت ، واختلفت التعبيرات ، ولنتناول أن نلقى نظرة سريعة على هذه الآراء ، لنوضح مدى الفرق في اختلاف وجهات النظر .

ومن الممكن تصنيف هذه الآراء الى مجموعتين ، أولاها تميل الى الرأي القائل بالتدخل المباشر والواضح للدولة في نظام التعليم ، وتشكل هذه المجموعة من عدد لا بأس به من المؤرخين العرب والمتخصصين في الدراسات العربية والاسلامية من غير العرب ، وينسب هؤلاء الى بنى أمية في الأندلس قيامهم بتأسيس مجمع للعلوم في قرطبة حيث كانوا يعملون على الطريقة الشرقية ، علوم الكلام والفقه ... الخ ، ونستعرض فيما يلي بعض هذه الآراء :

يرى الدكتور عبد الغنى عبود أن الدولة في الاسلام تتدخل في التعليم بوصفها ممثلا للجماعة الاسلامية ، عندما تحس قصورا أو عجز في بعض المجالات أو الاتجاهات (١) .

ويقول الأستاذ أحمد أنور الجندى : «لقد كان الملك الاسلامي ملوئا

(١) عبد الغنى عبود : في التربية الاسلامية ، ص ١١٦ .

بالمدارس والكتبات ، وكانوا يكفون التلاميذ الفقراء مؤونة دفع أجر التعليم ، ويعطون الأساتذة مرتباتهم بكرم وسماحة » (٣) .  
ويقول الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجة في كتابه عن قصة الأدب في الأندلس « لم يلبث العرب بعد قليل من مقامهم في الأندلس أن بنوا القصور ، وأنشأوا الجامعات ، وأقاموا المكتبات » (٤) .

وفي موضع آخر يصف مدينة قرطبة بأنها « كانت من أشهر مدن الأندلس الاسلامية وعاصمة الدولة الأموية أكثر من قرنين ونصف قرن ، وبها ازدهرت علوم العرب وآدابهم ، واشتهرت بمبانيها العظيمة ومساجدها التي أشهرها مسجد قرطبة الكبير ، وقد كان من أكثر جامعات العلوم الاسلامية ، تخرج منه العلماء والفلاسفة » (٥) .

ويقول الدكتور غلاب « أن الحكم الثاني كان شديد العناية بمهده قرطبة الذي كانوا يعدون طلبة بالآلاف ، وأنه أعلن التسامح الديني الذي أمر به الاسلام ، وأباح حرية الجدل والنقاش في جميع المسائل الحيوية » (٦) .

أما الأستاذ محمد يوسف ، فيرى أن بنى أمية قد قاموا بتأسيس مجمع للعلوم في قرطبة حيث كانوا يعلمون على الطريقة الشرقية علم الكلام والفقه والفلسفة (٦) . ويميل الى هذا الرأي أيضا المؤرخ المصري محمد عبد الله عنان (٧) .

أما الدكتور حسين مؤنس ، فانه يصوغ العلاقة بين الدولة وبين

(٢) احمد انور الجندي : مجلة دعوة الحق ، العدد ١٠٢٩ ، ص ٤٠ .

(٣) خفاجة : قصة الأدب في الأندلس ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٤) خفاجة : نفس المصدر ، ص ٨ .

(٥) غلاب : الفلسفة الاسلامية ، ص ١٦ .

(٦) محمد يوسف موسى : بين الدين والفلسفة في رأى ابن راشدة

وفلاسفة العصور الوسطى ، ص ٨ .

(٧) محمد عبد الله عنان : دراية الاسلام في الأندلس ، العصر الاول ،

القسم الثاني ، ص ٤٥٧ .

الفقهاء على أساس أنها أولا علاقة مصلحة وبحث من جانب الدولة على التأييد الشرعي من جانب الفقهاء (٨) .

ولم يقف الأمر على الباحثين والدارسين العرب فقط ، وإنما شاركهم الرأي عدد من المستشرقين المتخصصين في الدراسات العربية والاسلامية ، ومن هؤلاء مثلا :

يقول انخيل غونثالث بالنسيا : « كان من نتائج نيابة التسامح ، ورعاية الثقافة التي بدأها الحكم المستنصر أن ظهرت المدارس ، واجتمع المشتغلون بكل علم من العلوم ، بعضهم الى بعض » (٩) .

ويتحدث خوسيه انطونيو كوندى عن ذهاب الأميرين هشام وسليمان ابني عبد الرحمن بأنهما كانا يحتفلان بعيد ميلاد والدهما ويقدمان هدايا عظيمة الى الرجال المثقفين الذين يتوافدون على الأكاديمية والتي كانت تحتفل بهذه المناسبة (١٠) .

أما المستشرق الفرنسي الكبير ليفي بروفنسال ، فإنه يشير الى هذه المسألة عند حديثه عن انتشار المذهب المالكي في الأندلس ، قائلا عن مجموعة الفقهاء الذين تتلمذوا على يد مالك بن أنس بأنهم « عند عودتهم الى وطنهم قاموا بالدعاية في قرطبة وفي المدن الكبرى بالأندلس للمذهب المالكي ، وذلك بالموافقة انصريحة للأهيريين هشام والحكم » (١١) .

ويقول نفس المستشرق الفرنسي في موضع آخر « ان هشاما بالإضافة الى تقواه وامتداد ثقافته ، كان يميل دائما الى ما يقوله الأساتذة القرطبيون ، والذين أتاحت لهم فرصة الحج وزيارة الأماكن المقدسة الاسلامية ، وخلال حكمه فضل على قدر الامكان ، هؤلاء

(٨) انظر حسين مؤنس : شيوخ العصر في الأندلس ، ص ٢٥٧ .

(٩) غونثالث بالنسيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ،

ص ٤٤٨ .

(١٠) كوندى : تاريخ الحكم العربي في اسبانيا ، ص ٥٥ ، ط ١٨٧٤م .

(١١) ليفي بروفنسال : تاريخ اسبانيا الاسلامية ، النص الإسباني ،

ج ١ ، ص ٩٨ .

الحجاج من رعاياه ، واهتم اهتماما شخيا بكل ما أحضروه الى أسبانيا من بيانات ومعلومات ، عن تطور العلوم الإسلامية في المشرق » (١٢) .

ولم يقتصر الأمر على الباحثين المتخصصين في الدراسات العربية والإسلامية فحسب ، ولكنه انتقل أيضا الى بعض مؤرخي العصور الوسطى الأسبان مثل سانشيث البرنوس ، وأجواد وبلاي - وأنقل ما يقوله أجواد وبلاي عن الحكم المستنصر :

« لقد كان الحكم متحررا مع الكتاب والعلماء على عصره ، حمى التعليم وأسس في قرطبة ٢٧ مدرسة مجانية ، أما عن جامعة قرطبة فلقد كانت صاحبة الصدى الشديد والرنين الطنان في العالم كله على عهدها ، ففيها علم أبو بكر الرواني القرشي الذي كان يشرح السنة ، وأبو على القالي البغدادي الذي أعطى دروسه في اللغة والشعر ، وابن القوطية ، ذلك الذي كان موضع تقدير القالي ورأى فيه أنه أكثر علماء الأندلس علما بقواعد العربية ، ولقد كان هناك للعلوم الأخرى أساتذة لا يقلون بريقا ولعانا ، أما غالبية الدارسين ، فلقد كانوا يدرسون الفقه ، أي علم اللاهوت والقانون الإسلامي ، ذلك العلم الذي يمكن دارسه من ارتقاء أعلى المناصب » (١٣) .

وانتقلت هذه الآراء الى الكتب العامة ورددها بعض من كتب في تاريخ أسبانيا ، ولا أجد داعيا للاستطراد فيما تفصه هذه الكتب عن مدينة قرطبة وعن قصورها الشامخة ، ومساجدها العلية ، ومدارسها الشهيرة التي أنجبت أكثر علماء العصر علما ، لقد أسس الحكم في كل البلاد المدارس المجانية وجعل التعليم العام بطريقة تسمح بالقول بأنه قليلا جدا أو نادرا ما نجد في الأندلس من لا يعرف القراءة والكتابة » (١٤) .

---

(١٢) نفس المصدر ، ص ٩٧ .

(١٣) أجواد وبلاي : تاريخ أسبانيا ، ج ١ ، ص ٣٢ .

(١٤) أجيلرا : تاريخ أسبانيا ، ج ٢ ، ص ١٢٩ .

أما المجموعة الأخرى من الباحثين والأساتذة ، فهي التي ترفض رفضاً باتاً أن يكون للدولة دور مباشر في العملية التعليمية ، ومثلها مثل المجموعة الأولى تضم عدداً من الباحثين العرب والمستشرقين على حد سواء ، ولا بد لنا من الوقوف ، لعرض بعض آراء هذه المجموعة ، حتى يمكن أن نتبين مدى الفرق الكبير بين آراء كل منهما .

يقول الدكتور الأهواني عند حديثه عن التعليم الأولي والكتاب :

« يقوم بالتعليم في هذا المكتب معلم ، هو الذي يستأجر الكتاب ، ويتخذ مكاناً للتعليم ، وقد يشترك معلمان أو أكثر في التعليم بالكتاب ، إذا كان عدد الصبيان كثيراً ، ولكن الغالب أنه معلم واحد ، وليس للحاكم سلطان على هذه الكتابات ، فهو لا ينشئها ، ولا يشرف على سير التعليم فيها ، ولا شأن له بها وإنما يفتتح المعلمون الكتاب من تلقاء أنفسهم » (١٥) .

أما الدكتور محمد أسعد طلس فهو يقرر « أن الحكومة لم تكن تشرف في صدر المسألة الإسلامية ، على المعلمين وكتاتبيهم ، وإنما كانت الرقابة متروكة لدين المعلم ووجدانه وخلقه » (١٦) .

أما الدكتور أحمد شلبي ، فقد تطرف كثيراً في هذه الحرية ، فيقول ضمن حديثه عن العلاقة بين الحكومة والمدرسين ، أنهم كانوا « يقصدون المساجد ليؤدوا هذا العمل — القيام بالتدريس — دون انتظار من يحثهم على الذهاب ، وظل الناس يلتفون حولهم ، ويأخذون عنهم ، من غير أن تتدخل الحكومات في ذلك ، فقد كان هذا العمل غير داخل في دائرة سلطانتها ، فما دام المعلم غير معين منها ، وما دام لا يتقاضى من الدولة على عمله أجراً ، فقد ترك له أن يدرس ما شاء وقتما شاء » (١٧) .

(١٥) أحمد فؤاد الأهواني : التربية الإسلامية ، ص ٦٤ .

(١٦) محمد أسعد طلس : التربية والتعليم في الإسلام ، ص ٧٠ .

(١٧) أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ، ص ٣١٣ .

أما عن الأساتذة الأسبان اغناثيو باورو<sup>(١٨)</sup>، وغاليرمو غوثاليس<sup>(١٩)</sup>، وانطونيو بايسترى<sup>(٢٠)</sup> ، فانهم يذهبون الى الحرية المطلقة ، وحيث أن ثلاثتهم يعتمدون كليا على آراء المستشرق الأسباني الكبير خوليان ريبيرا ، فأركز على آرائه باعتباره أفضل من تناول تاريخ التعليم في الأندلس بالدراسة والبحث — يقول خوليان ريبيرا :

« ماذا علينا أن نقول لكي ننفي التأكيد بأن هشام الأول أنشأ مدرسة حسب ما يقول « كوندى » وما يردده الكثيرون ممن تابعوه ونقلوا منه ، أو أن بنى أمية أسسوا أكاديمية تعلم فيها الفنون والعلوم ، على ما يقول « دوجات » . انى لا يمكننى الاجابة بطريقة أخرى غير القول بأننا لم نجد آثارا أو بقايا لما يقال فى أى مدونة جديرة بالاحترام ، بل على العكس ، فان كل المعلمين فى الأزمنة الباكورة لم يكونوا ملحقين بأية منظمة تعليمية ، وأن تعليمهم كان خاصا بصورة محضة . أقصد أن أقول ، ان المعلمين والطلبة ، كانوا مستقلين تماما عن السلطة العامة »<sup>(٢١)</sup> .

واذا عاد المستشرق الأسباني ، ليتأمل فى بعض أعمال الحكم الثانى ، واجدا فيها بعض الشك ، فانه يعود وينفى عنه تماما أى تدخل فى التعليم ، وأنقل ما يقول :

« حقق الحكم الثانى بعض الأعمال التى يمكن أن تفسح مجالا للتمتع فى هذه المسألة — ويسرد هذه الأعمال ثم يحكم عليها بعد ذلك

(١٨) اغناثيو باورو : عن تاريخ التعليم الأسباني الاسلامى فى العصور الوسطى ( محاضرة باللغة الأسبانية ، نشرت ١٩٣٤ ) .  
(١٩) غاليرمو غوثاليس :

La Enseñanza en la España Musulmana

(٢٠) بايسترى ( انطونيو ) : تاريخ اسبانيا وتأثيرها على التاريخ العالمى ، ص ١٥٠ .

Ballesteros : Ho de Espana y su influencia sobre la  
Ho Universal. p. 150.

(٢١) خوليان ريبيرا : تاريخ التعليم بين المسلمين الأسبان ،

ص ١١ - ١٢ .



قائلا : « ولكن النظرة المتهمة تبين لنا أن هذه الأعمال لا تكفى لكي تعطينا الاحساس بأن السلطان كان مكلفا ، كمسئول عن الدولة ، بتعليم وتنشيط رعاياه » (٢٢) \*

ويصدر الأستاذ حكما فاصلا تماما في هذا الأمر حين يتوليا صراحة : من المناسب منذ اللحظة الأولى تأكيد ما ساد بصفة رئيسية خلال هذه الفترة ، وبالتالي في كل الموضوعات التي تدرسها في هذا المجال ، ألا وهو وضوح عدم تدخل الدولة المباشر في شؤون التعليم (٢٣) . ويستطرد إلى أن يصل إلى القول : باختصار شديد ، لقد جرت أيام حكم العرب لاسبانيا دون أن يبدو تدخل مباشر للسلطة العامة في التعليم . ما عدا في نهايات هذا الحكم (٢٤) \*

إلى أين نمضي بين تلك الآراء المتضاربة تماما ؟ لا شك أن لكل من هذه الآراء وجهة نظر خاصة يعتمد عليها ، وينطلق منها في إصدار أحكامه وآرائه \* وحتى يمكن لنا أن ندخل الأمر تحليلا علميا ، لأبد لنا أيضا من وضع تعريف محدد لمعنى تدخل الدولة في التعليم ، حتى يمكن أن ننطلق منه لعرض ما نراه مناسبا ، ولأبد من وضع قواعد محددة نستهدي بها طريقنا في التعرض لمشكلة غامضة تتخارب حولها الآراء تضاربا حقيقيا ، وما أريد قوله هو : ماذا نقصد بتدخل الدولة في التعليم ؟ \*

١ - هل نقصد بذلك قيام الدولة بإنشاء هيئة تنظيمية تتولى الإشراف على المعلمين وأماكن التعليم والطلبة ... الخ ؟ \*

٢ - هل نقصد قيام الدولة ببناء المدارس والانفاق عليها ؟ \*

(٢٢) نفس المصدر ، ص ١٢ .

(٢٣) نفس المصدر ، ص ١١ .

(٢٤) نفس المصدر ، ص ٢١ - ٢٢ .

٣ - هل نقصد تولى الدولة وضع المنهج والمحتوى التعليمي وتوجيهه في اطار يتفق وسياسة الدولة ؟ \*

٤ - أم نقصد انفاق الدولة على المعلمين ، واعطاءهم مرتبات شهرية ؟ \*

٥ - أم نقصد قيام الدولة بذلك كله ؟ \*

المشكلة الحقيقية التي تواجه الباحث في هذا المجال هي محاولات تطبيق مفاهيم ومعايير معاصرة على فترة زمنية يفصل بيننا وبينها أكثر من ألف عام في بعض فتراتنا ، وأقل من خمسمائة عام في بعضها الآخر ، ونتيجة لاتساع المفهوم الخاص بتدخل الدولة أو مدى الحرية ، غابنى أرى أن للجانب الذى يقول بعدم وجود تدخل للدولة في التعليم بعض الحق ، اذا كان قصدهم عدم وجود هيئة رسمية تحمل اسم الاشراف على التعليم \*

كما أن للدكتور ريبيرا الحق في الاعتماد على ابن سعيد القائل بأن أهل الأندلس لم يكن عندهم مدارس ، تمولها الدولة \*

اننى شخصيا أعتقد بممارسة الدولة لنوع من التدخل في التعليم في الأندلس وأن ذلك التدخل قد شمل كافة النقاط التي بينتها ، وان كان ذلك يتباين من فترة الى أخرى ومن عصر الى عصر ، ولنستعرض معا بعض ما يثبت هذا الرأي ، على الأقل من وجهة نظرى \*

لقد أشرت في بداية هذا الباب الى التكليف الديني الخاص بتحمل الحاكم مسئولية تعليم الناس الدين الجديد ، وخاصة في البلاد المفتوحة ، ودور الولاة وأمراء بنى أمية في نشر الدين واللغة العربية ، كما بينت الأهمية في عبور عدد من التابعين الى الأندلس ، وكيف أن مهمتهم الرئيسية هي تعليم البربر وأهل الأندلس ، قواعد الدين ، وأصول اللغة العربية ، كما أننى استعرضت الاهتمام الذى بذله حكام

الأندلس بالعلم والعلماء ، وأثر ذلك على تطور المستوى الثقافي ووصر  
الى درجة عالية ، مبينا مظاهر اهتمامهم نقطة نقطة .

#### أولا - التدخل في المنهج التعليمي :

١ - ينقل لنا ابن القوطية (٢٥) ( القرن الرابع الهجري / العاشر  
الميلادي ) ، نصا لطيفا ، ولكنه يحمل معنى كبيرا وذلك عند حديثه عن  
الحميل بن حاتم فيقول « ومن أخبار الحميل ، أنه خطر يوما بمؤدب  
يؤدب الصبيان وهو يقرأ « وتلك الأيام نداولها بين الناس » (٢٦) ،  
فقال الحميل نداولها بين العرب ، فقال المؤدب : بين الناس ، فقال  
الحميل : وهكذا نزلت الآية ؟ قال : نعم هكذا نزلت . قال الحميل :  
والله انى أرى هذا الأمر سيشركنا فيه العبيد والسفال والأراذل » (٢٧) .

ويرى المستشرق الاسباني خوليان ريبيرا في هذا الموقف الفرق  
بين رجل السياسة ورجل الدين ، فالأول يسعى لتركيز السلطة في يده  
عن طريق السيف أو غيره بينما الثاني بما يمتلكه من حماس ديني  
يسعى لنشر الدين بين الأسباب الجدد (٢٨) ، لكن النظرة المتأنية لينا  
النص قد توحي بما هو أكثر من ذلك ، أولا وقبل كل شيء الشك في  
صحة هذا الخبر ، واحتمال أنه خبر موضوع للتهجم على العرب ونقدهم ،  
وخاصة أن كاتبه « ابن القوطية » من أصل أسباني ، وأن المولدين كانوا  
قد أحسوا بشخصيتهم ونفوذهم ، وأنهم قد قاموا بأكبر الثورات  
ضد قرطبة على يد عمرو بن حفصون . وعوامل الشك هي : أولا أن  
الفترة الزمنية الفاصلة بين الحديث وروايه ، حوالي مائتين عام تقريبا ،

(٢٥) ابن الفرغ : علماء الأندلس - ج ٢ ، ص ٧٦ .

الحميدى : جذوة الأقبس ، ص ٣٦٩ .

الضير : نعمة اللتمس ، ص ١١٢ .

الحصى : التاريخ الأندلسي ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٢٦) القرآن الكريم : السورة الثالثة ، الآية ١٣٩ .

(٢٧) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ٤٠ - ٤١ .

(٢٨) ريبيرا : التطعيم بين الأسباب المسلمين ، ص ٢٣ .

وهى فترة طويلة نسبيا ان لم يكن الخبر مدونا \* وثانيا ، ذلك التصادف الغريب بين مرور الحميل وقراءة هذه الآية بالذات \*

من ناحية أخرى هناك من العوامل ما يدفع الى قبول هذا النص منها مثلا أن ابن القوطية على الرغم من أصله الأسباني ، الا أنه لايتطرق أى شك فى ايمانه ، ولقد احتل مكانه بارزة على عهد عبد الرحمن الناصر بل كان أفضل الأندلسيين علما باللغة العربية وذلك بشهادة أبى على القالى<sup>(٢٩)</sup> ، كما أن الفترة التى عاش فيها ، عصر عبد الرحمن الناصر لم تكن تسمح له بايراد شئ ضد العرب ، ان لم يكن له أصل من الحقيقة ، علاوة على ذلك فقد قبلها وسجلها كافة المؤرخين سواء من العرب أم من غيرهم \*

وإذا قبلنا هذه الرواية ، مثلما قبلها الجميع ، فاننى أستشف منها معانى كثيرة منها : وجود مكان لتعليم الأطفال ، وأن هذا المكان يمكن المرور عليه ، ورؤيته ، وسماع مايدور فيه \* ومنها أيضا أن المسؤولين كانوا يتفقدون هذه الأماكن التعليمية ليطالعوا على ما يقوم به المؤدب ، ومنها ما هو أكثر احتمالا، وهو قيام هؤلاء المسؤولين بمحاولة فرض منهج تعليمى محدد يتماشى وسياسة هؤلاء الحكام \*

٢ — ملاحظة أخرى ينقلها اليينا ابن القوطية أيضا ، تبدو أكثر وضوحا ودلالة، عند حديثه عن القاضى أمية بن عيسى، أحد وزراء الأمير محمد الذى حكم خلال الفترة من عام ٢٣٨ الى ٢٧٣ هـ (١٥٢-١٨٦ م) ، يقول : لقد خطر يوما بدار الرهائن المجاورة لباب القنطرة<sup>(٣٠)</sup> ، ورهائن بنى قيس ينشدون شعر عنترة<sup>(٣١)</sup> ، فقال لبعض الأعوان : اثنتى بالمؤدب ، فلما نزل الى فراش المدينة ، وأتاه المؤدب ، قال له :

(٢٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان — ج ٤ ، ص ٤ .  
(٣٠) عن دار الرهائن وباب القنطرة ، انظر غارثيا غومث : ملاحظات حول طبوغرافية قرطبة ، الأندلس — العدد ٣٠ — ١٩٦٥ ، و ٣٤٦ .  
(٣١) الشاعر الجاهلى المشهور عنترة بن شداد ، شاعر قبيلة عيس .

لولا أنى أعذرك بالجهل لأدبتك ، تعتمد الى شياطين شجي ، بجم الخلفاء  
فترويهم الشعر الذى يزيدهم بصيرة فى الشجاعة ، كف عن هذا ،  
ولا ترزهم الا خمريات الحسن بن هانى وشبهها من الأهزال (٢٢) .

وفى هذا النص نجد أيضا أن معلما تعينه الدولة ، ويهتم — حتى  
ولو بطريقة غير مباشرة — بوضع منهج خاص يتلاءم وظروفهم  
الخاصة .

٣ — قبول المذهب المالكي كمذهب رسمى للدولة ، مما صبغ  
التعليم كله خلال كافة مراحلها بصبغة هذا المذهب ، وإذا كان الخلاف  
بين الباحثين والمؤرخين حول اسم أول أمير أندلسي ، قام بفرض هذا  
المذهب ، وإذا كانوا قد انقسموا فى أقوالهم بأنه الأمير هشام الأول  
أو الحكم الربضى ، أو أنه عبد الرحمن الأوسط ، فليس ذلك مما يعنينى  
كثيرا ، لكن المهم أن هذا المذهب قد عرف فى الأندلس ، على أنه المذهب  
الرسمى الوحيد (٢٣) ، وأنه لقي مساندة واضحة من الأمراء ، وهى  
بالتالى مساندة لنوع معين من التعليم فى بلادهم ، وقصرهم الوظائف  
العامة على من يتبع ذلك النوع من التعليم ، وما هو أكثر دلالة قيامهم  
بمعاربة ومطاردة كل من يخالف هذا المذهب ، مثلما هو الحال فى  
مطاردتهم لكل المذاهب الدينية الأخرى كالشيعة والمعتزلة والخوارج  
... الخ ، وكذلك مقاومتهم الشديدة والقاسية أحيانا لمن يتعاطى  
الفلسفة ، مثلما حدث مع ابن مسرة القرطبي ، وليس الأمر كما يحاول أن  
يصوره بعض الباحثين ، على أنه استرضاء للعامة ، وخضوع للفقهاء ،  
لأننا نرى أن الخلفاء يتدخلون لحماية بعض العلماء على الرغم من  
معارضة الفقهاء لهم ، مثلما حدث مع بقى بن مخلد ومحمد بن عبد  
السلام الأخشني وغيرهم .

(٢٢) ابن قرطبة : نفس المصدر ، ص ٩٤ .

(٢٣) بن عبود ( محمد ) : التاريخ السياسى والاجتماعى لأشبيلية  
على عهد بنى عباد ( نظام أشبيلية القضائى ) — رسالة دكتوراد —  
لم تطبع بعد .

٤ - شهد العصر الرابطي والموحدي تدخلا سافرا لفرض مناهج تعليمية معينة ، تتناسب والعقيدة التي تقوم عليها الدولة ، فبينما نجد أن الرابطين يهتمون بأهل الفقه والدين ، حتى بلغ الفقهاء في أيامهم مبلغا عظيما ، لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس ، ويصف المراكشي هذه الحالة بقوله : فعظم أمر الفقهاء وانصرفت وجوه الناس اليهم ، فكثر لذلك أموالهم ، واتسعت مكاسبهم<sup>(٣٤)</sup> ، نجد أن الموحدين يميلون إلى المذهب الظاهري ، « ويأمرون بقطع علم الفروع ، وأن الأمير أبا يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن » ، « تقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه ، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة ، وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة في الصلاة ، وما يتعلق بها على نحو الأحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة ، فأجابوه إلى ذلك وجمعوا ما أمرهم بجمعه ، فكان يمليه على الناس بنفسه ، ويأخذهم بحفظه ، وانتشر هذا المجموع ، في جميع المغرب ، وحفظه الناس ، من العوام والخواص ، فكان يحمل لمن حفظه الجعل السنوي ، من الكسا والأموال . وكان قصده في الجملة ، هو محو مذهب مالك ، وأزالته من المغرب مرة واحدة ، وجعل الناس على الظاهر من القرآن والحديث<sup>(٣٥)</sup> ، ويؤكد ابن فرحون ذلك حين يترجم لـ محمد بن أبي عبد الله محمد بن سعيد بن زرقون الأشبيلي ( المتوفى ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م ) فيقول بأنه « شيخ المالكية ، وكان من كبار المتعصبين للمذهب ، فأوذى من جهة بني عبد المؤمن ، ولما أبطلوا القياس وألزموا الناس بالأثر والظاهر ، صنف كتاب « المحلى في الرد على المحلى » لابن حزم »<sup>(٣٦)</sup> .

وبينما نجد أن الرابطين يحاربون محاربة شديدة كل من له صلة

(٣٤) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٢٥٣ .  
عنان : عصر الرابطين والموحدين ، ص ١٧١ .  
(٣٥) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٤٠٠ -

٤٠٢ .  
عنان : عصر الرابطين والموحدين ، ص ٢٠٣ .  
(٣٦) ابن فرحون : الديباج - ج ٢ ، ص ٢٦٠ .

يعلم الكلام ، وأن أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ( ٥٠٠ - ٥٣٧ / ١١٠٧ - ١١٤٣ م ) قد « استحكم في نفسه بغض علم الكلام وأهله وكان يكتب عنه في كل وقت للبلاد بالتشديد في نفي الخوض في شيء منه ، وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه ، ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي - رحمه الله - المغرب ، أمر أمير المسلمين بحرقها ، وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدم ، واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها ، واشتد الأمر في ذلك » (٢٧) ، نجد أن الفلسفة تزدهر على عهد الموحدين ، وأنه قد ظهر على أيامهم عدد من الفلاسفة ، مثل أبي بكر محمد بن طفيل ( المتوفى ٥٨١ / ١١٨٥ م ) وأبي الوليد محمد بن رشد ( المتوفى ٥٨٥ / ١١٨٩ م ) ، ولقد كان أمير المؤمنين أبو يعقوب ( ٨٥٨ - ٥٨٠ / ١١٦٣ - ١١٨٤ م ) شديد الشغف بابن طفيل إلى درجة أن ابن طفيل كان يقيم في القصر أياما ليلا ونهارا لا يظهر ، ويقول المراكشي : ولم يزل أبو بكر هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار ، وينبئهم عليهم ، ويحضه على إكرامهم ، والتنبؤ بهم ، وهو الذي غيبه على أبي الوليد محمد بن رشد ، فمن حينئذ عرفوه ، ونبه قدره عندهم (٢٨) .

#### ثانيا- التدخل في شؤون المعلمين :

في هذا المجال ، أخذ تدخل الدولة عدة أشكال منها :  
١ - نقل المعلمين من القرى والمدن الإقليمية إلى العاصمة لكي يقوموا بالتدريس بها ، وبين أيدينا حالات كثيرة جدا ، لا أجد داعيا لذكرها لتوقي الاطالة - ومن أمثلتهم ، على سبيل المثال :  
محمد بن مروان بن زريق من أهل بطليوس كان « شيخا عاقلا حليما وسيما ، وكان تاجرا ، استقدمه الحكم المستنصر بالله ، رحمه الله ،

(٢٧) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٢٥٥ .

ابن النطان : نظم الجمان ، ص ١٤ - ١٥ .

(٢٨) أنظر اهتمام هذا الخليفة الموحد بالفلسفة في :

المراكشي : المعجب ، ص ٣٤٧ - ٣٥٤ .

وكتب عنه « (٣٩) » .

محمد بن فرج بن سبيعون النحلى ( ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ) ، من أهل بجانة استقدمه الحكم المستنصر الى قرطبة فسمع منه غير واحد (٤٠) .

وهبة بن مسرة بن مفرح الحجارى ( توفى ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م ) ، استقدم الى قرطبة بكتبه ، وأخرجت اليه أصول بن وضاح التى سمع فيها فسمعت عليه وسمع منه علم كثير ثم انصرف الى بلده (٤١) .

واستمرت حركة نقل المعلمين من القرى الى العاصمة ، على مدار فترة الوجود الاسلامى فى الأندلس ، ونجد أمثلة كثيرة خلال العصر الناصرى بغرناطة وخاصة فترة الأمير محمد الفقيه ثم عهد أبى الحجاج يوسف وابنه محمد الغنى بالله ، وتكفى هنا الإشارة الى :

محمد بن ابراهيم بن محمد الأوسى ( ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م ) ، من أهل مرسية ، أقرأ التعاليم والطب والأصول بغرناطة ، لما استقدمه السلطان ثانى الملوك من بنى نصر . من مدينة بجاية ، فانتفع الناس به (٤٢) .

على بن عمر بن ابراهيم بن عبد الله الكنانى القيحاوى ( المتوفى ٥٧٣ هـ / ١١٣٠ م ) كان أوحده زمانه علما وتاخا وتواضعا وتفننا ، ورد غرناطة مستدعى عام ٥٧١٢ هـ / ١١٧٣ م ، وقعد بمسجدها الأعظم ، يقرئ فنونا من العلم ، من قراءات وفقه وعربية وأدب (٤٣) .

ولقد قام الوزير ابن الخطيب بمجهود كبير فى البحث عن العلماء

---

(٣٩) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ص ٣٥٤ .

(٤٠) نفس المصدر ، ص ٣٧٣ .

(٤١) ابن فرحون : الديباج — ج ٢ ، ص ٣٥ .

حنوة المتبس ، ص ٣٣٨ .

(٤٢) ابن الخطيب : الإحاطة — ج ٣ ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٤٣) المقرئ : نوح الطيب — ج ٨ ، ص ٢٢ .



والتبنيه عندهم ونقلهم الى غرناطة (٤٤) ، يقول ابن الخطيب عند ترجمته  
لابي جعفر أحمد بن ابراهيم بن أحمد بن صفوان القيسي :

« الى أن نظرت في أمور الملك ، فانتشلت من مهواه ، ودلت البر  
على مثواه ، وأسנית له الجراية ، ونشرت من تعظيمه الراية » (٤٥) .

ويقول عند ترجمته لمحمد بن الولي الرعيني ( المتوفى ٥٧٥٠ هـ /  
١٣٤٩ م ) ، « بأنه طلب للتصدير للاقراء فأبى لشدة انقباضه فنبهت  
بالباب السلطاني على وجوب نصبه للناس ، فكان ذلك في شهر شعبان  
من عام وفاته » (٤٦) .

ويقول ابن الخطيب في رسالة على لسان سلطانه انه كان « يندب  
الناس الى تعليم القرآن لحبيانهم ، فذلك أصل أديانهم » (٤٧) .

ومما يدل على أن الاقراء في الجامع كان يتم بمشاورة الخليفة ،  
ان لم يكن بأمر مباشر منه ما يرويه القاضي عياض ، نقلا عن ابن عبد  
البر ، في ترجمته لأحمد بن خالد ( المتوفى ٥٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م ) ، من أنه كان  
يقعد للناس في مجلسه حيث انتهى به المجلس ولا يتسم « وعزم عليه  
آخر في الانتقال الى الجامع بأمر أمير المؤمنين ، بما لم يجد منه بد ،  
وعمارته ، بنشر العلم ، بعد موت محمد بن لبابة ( ٥٣١٤ هـ / ٩٢٦ م ) ،  
فأجاب الى ذلك بعد اباية شديدة » (٤٨) .

وما يروى عن سعيد بن عمير بن عبد الرحمن ( المتوفى ٣٠١ هـ /  
٩١٣ م ) من أنه كان يسكن بلاط مغيث ، فنقله الأمير عبدالله الى المدينة

(٤٤) انظر : الاحاطة - ج ٢ ، ص ٢٧ و ص ٣٣ - ٣٥ .

(٤٥) ابن الخطيب : الكتيبة الكامنة ، ص ٢١٦ .

(٤٦) ابن الخطيب : الاحاطة - ج ٢ ، ص ٣٣ - ٣٥ .

(٤٧) المقري : نفع الطيب - ج ٩ ، ص ١١٠ .

(٤٨) اليعصبي : ترتيب المذاريك - ج ٥ ، ص ١٧٧ .

الحمدى : جذوة القسيس ، ص ١١٣ .

بغرب الجامع (٤٩) .

٢ - أجر المعلمين ، وفي هذا المجال فإن الصورة قد أخذت أشكالاً متعددة ، فبينما كان عبد الرحمن الثالث يمنح جوائز للمعلمين بنجدان المستنصر بالله قد أوقف جوانيت السراجين للانفاق على معلمى الكتاتيب التى أنشأها بقرطبة ، ولدينياً نص صريح على دفع مرتبات للمدرسين أورده الضبى فى كتابه بغية المتلمس عند ترجمته ليحيى بن بلى المعروف بالسلاوى (توفى بمرسية سنة ٥٦٣ / ١١٦٨م) ، حيث يقول عنه :

« الواعظ ، الفقيه ، عارف بالتفسير ، أديب ، طبيب ... أقام بمرسية أعواماً جمّة يعظ الناس ، ولم يكن يأخذ شيئاً من أحد ، كان الأمير بمرسية محمد بن سعد (٥٤٢ / ١١٤٧م) قد جعل له مرتباً ثم قطع عنه ، فاشتغل بالطب ، وظهر فيه ، فكان يعين نفسه مما يعود عليه منه ، ولا يسأل أحداً شيئاً » (٥٠) .

ومن الجدير بالذكر فى هذا المجال ما يقال عن الأمير المرابطى يوسف بن تاشفين من أنه « كان يسير فى أعماله فيفتقد أحوال رعيته فى كل سنة ، وكان محباً للفقهاء والعلماء والصلحاء ، مقرباً لهم : صادراً عن رأيهم مكرماً لهم ، أجرى عليهم الأرزاق من بيت المال طوال حياته » (٥١) .

أما عن عبد المؤمن بن على - أول خليفة موحدى - فلقد كان مؤثراً لأهل العلم محباً لهم ، محسناً إليهم ، يستدعيهم من البلاد الى السكون عنده ، والجوار بحضرته ، ويجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، ويظهر التنويه بهم ، والأعظام لهم » (٥٢) .

(٤٩) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ص ١٦٣ .

الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٢١٣ .

(٥٠) الضبى : بغية المتلمس ، ص ٤٩٨ .

(٥١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص ٣٨ .

(٥٢) المراكشى : المعجب ، ص ٢٩٣ .

وهناك مظهر آخر من مظاهر حصول المعلمين على الأجر ، ألا وهو تعيينهم في وظائف معينة ، وأكثر هذه الوظائف كانت العمل في أحد المساجد إما خطيباً أو مقرئاً أو أماماً ، واننى على يقين من أن اسناد هذه الوظائف كان يهدف في الدرجة الأولى ، الى اعطائه الفرصة للقيام بالتعليم في هذا المكان ، علاوة على أن كثيراً من وظائف الدولة كانت تسند الى العلماء والفقهاء وغيرهم من رجال العلم ، ونستدل على ذلك بما تنقله لنا كتب التراجم — مثلاً :

خلف بن رزق الأموى المقرئ ، من أهل قرطبة ( المتوفى ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م ) ، كان امام مسجد الزجاجين بقرطبة ، وصاحب الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة ، وكان يقرئ القرآن ، ويعلم العربية ، وكان حسن التلقين ، جيد التعليم (٥٦) .

ابراهيم بن محمد بن على ، أصله من جزيرة طريف ، ونشأ بقرطبة ولى الخطابة والامامة بجامعها سنة ( ٥١٦هـ / ١٣١٧م ) ، وجمع بين القراءة والتدريس فكان مقرئاً للقرآن ، مبرزاً في تجويده ، مدرساً للعربية والفقه ، أخذاً في الأدب ، متكلماً في التفسير ، ظريف الخط (٥٧) .

وهناك من النصوص الكثيرة ما يؤكد أن اسناد مثل هذه الوظائف كان يرجع الى شخصيات رئيسية في الدولة ، ان لم يكن الى الخليفة نفسه — يقول ابن الأبار نقلاً عن القاضي نذير بن وهب بن نذير الفهرى ، أنه : كان بشنتمرية (٥٥) ، معلم كتاب يؤدبهم ، ويؤم في مسجدين : أحدهما يصلى فيه نهارة والثانى ليلاً ، فكتب الى الحاجب أبى مروان

(٥٣) ابن بشكوال : الصلاة ، ص ١٦٦ .

(٥٤) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ١ ، ص ٣٧٤ .

(٥٥) أورد الأستاذ عنان بأنها شنتمرية الشرق أو شنتمرية بنى رزين

أنظر ص ٧ ، في كتابه « طبوغرافية عربية إسبانية » ، وانظر تعليق حسين

مؤنس ، على ابن الأبار : الحلة السراء — ج ٢ ، ص ١٠٦ .

عبد الملك (٤٩٦هـ / ١١٠٣م) (٥٦) يسأله التقديم في المسجد الجامع للحلّة في الدولة مع سائر الأئمة ، فوقع له في مكتوبه :

أطبق تأديبا وعقد امامة

في مسجدين وجامع أنساك

أثبت على احدى المراتب لا تزدد

فمن الزيادة يتقى النقصان (٥٧)

بالإضافة الى هذه المظاهر كلها من تدخل في شؤون المطمين فان كتب التاريخ قد حفظت لنا نصا قيما جدا يبين لنا تدخل الأمراء في بعض النواحي الشخصية جدامن حياة المعلمين، ومن أمثلتها مايحكى عن حبيب بن دحون (توفي في سنة ٣٠٠هـ / ٨١٥ - ٨١٦م) ، من أنه كان فقيها ، فاضلا ، قدام الأندلس بعلم كثير ، فذهب الى نشره ، فكان يتحلق اليه في المسجد الجامع بقرطبة ، وهو يلبس الوشي الهاشمي (٥٨) ، وما شاكله ، فتكاثر الناس عليه ، فكره الأمير عبد الرحمن ذلك ، وأوصى اليه بترك التحلق (٥٩) .

ثالثا - الاشراف على أماكن التعليم وعلى انتظامه :

في هذا المجال أيضا تعددت مظاهر تدخل الدولة في التعليم ويمكن حصرها في عدة نقاط منها :

١ - زيارة الأماكن التعليمية ، ولقد بقيت الإشارة الى زيارة الصميل لمؤدب يعلم الصبيان ، وزيارة القاضي أمة بن عيسى لدار

(٥٦) انظر عن أبي مروان : عبد الله جمال ، تعليقات رسالته للدكتوراد ، التعليق رقم ١٢٩ ، ص ٤٠ .

(٥٧) ابن الأبار : الحلة السراء - ج ٢ ، ص ١١٣ ، ١١٤ .

(٥٨) يقول الدكتور محمود على مكي ، أنه كان نوعا من الخز الثمين .

(٥٩) ابن حيان : المتبس ( تحقيق مكي ) ، ص ٩٤ - ٩٦ .

الرهائن في ساعة من ساعات تعليم هؤلاء الصبيان ولدينا زيارات أخرى كثيرة قام بها رجال مسئولون في الدولة للمعلمين أثناء قيامهم بالتعليم ، فقد قام الوزير الشهير هاشم بن عبد العزيز بزيارة الفقيه وهب ابن عبد الأعلى في مجلس علمه<sup>(٦٠)</sup> ، والخليفة الحكم المستنصر بالله قد قام بزيارة الفقيه أبي الحسن الأنطاكي ، وعين له الأنطاكي بعض من يقرأ القرآن أثناء هذه الزيارة<sup>(٦١)</sup> . وعلى عهد الموحيدين كان الخليفة يحضر مجالس التعليم بنفسه ، ويقوم بتشجيع الحاضرين ومساعدتهم<sup>(٦٢)</sup> .

يضاف الى ذلك المناظرات العلمية ، والمجالس التي كان يعقدها الخلفاء والأمراء ، وسوف أتناول دور هذه في العملية التعليمية في مجال منفصل .

٢ - دور القضاة في التدخل في بعض مظاهر العملية التعليمية .  
فهناك شبه اجماع من جميع من تناولوا العملية التعليمية في الأندلس ، أو كتبوا عنها بعض الفصول ، على أن « الكتاتيب » ، أو ان شئت ، المدارس الأولية - كانت خاضعة نظريا لاشراف المحتسب<sup>(٦٣)</sup> .

وان كان ما أثار انتباهي هو الدور الذي كان يلعبه القضاة حيث توقفت طويلا أمام ظاهرة تردد أسمائهم مرتبطة ببعض المسائل الخاصة بالتعليم ، وتدخلهم في بعض شئونها ، والمشكلة بالنسبة لي ، التي صعب على حلها أو الوصول الى رأى نهائي فيها هي ، هل كان القضاة يقومون

---

(٦٠) ابن الأبار : تكملة الصلة - ج ٢ ، ص ٤٢٠ ، مدريد ١٨٨٠ .

(٦١) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٤٦ .

(٦٢) انظر القصة الطويلة الواردة في المعجب ، ص ٣٦٩ ، مع هلال

ابن سعد بن مردنيش .

(٦٣) مكي ( الطاهر احمد ) : دراسات عن ابن حزم وكتابه « طوق

الحمامة » ، ص ٥٢ .

موسى التبال : الحسبة الذهبية في بلاد المغرب العربي ،

ص ٢٧ ، ٩٧ .

ابن مرشد : نظام الحسبة في الاسلام ، ص ١٣٧ - ١٢٨ .

ببعض هذه التصرفات بصفة شخصية أم بصفتهم الوظيفية ؟ ، فالقاضي أمية بن عيسى هو الذي تدخل لدى معظم الرهائن ، ليوصيهم بعدم تعليمهم شعر عنقرة ، وأن يعلمهم أشعار الحسن بن هاني ، وصاحب السوق على عهد الأمير محمد هو الذي تولّى أيضا محاسبة الفقيه محمد بن عبدالله الخشنى ، وصاحب المدينة على عهد عبد الرحمن الناصر هو الذي طارد خرقة ابن مسرة ، وصاحب المدينة هو الذى طرد ابن حزم ومسعود بن مفلت ، ومنعهم من التدريس فى الجامع ، والقاضى ابن ذكوان على عهد المنصور بن أبى عامر هو الذى نوه يعلى بن أبى طالب ( المتوفى ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م ) ، وأجلسه فى الجامع ، فنشر علمه وعلا ذكره ، ورحل الناس اليه من كل قطر وولى الخطبة والثورى والصلاة الى أن قعد عنها (٦٠) ، والمعلم أبو جعفر الحميرى المؤدب ( المتوفى ٦١٠هـ / ١٢٢٢م ) ، حينما هجاه أحد طلبته شعرا « أنهى خبره الى القاضى أبى الوليد بن رشد ، فأوجعه ضربا » (٦١) ، ومحمد بن عياض بن محمد بن عياض ( ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م ) « كان محبا للعلم مقربا لأصاغر الطلبة ، ومكرما لهم ، ومعتنيا بهم ، ليحبب اليهم العلم والتمسك به » (٦٢) ، وما هو أكثر من ذلك أن عبد الله بن موسى بن سعيد الأنصارى كان فى آخر أمره قد عزم على الحج ثانيا مرة ، فأرسل اليه القاضى زيد بن الحشا ، وقال له : « قد قمت بالفرض ، فهذه المرة الثانية هي نافلة ، والذي أنت فيه الآن أوكد » فمنعه من الخروج حرصا على وجوده فى طليطلة معلما ومهذبا للناس » (٦٣) .

#### رابعا — استقبال المعلمين المشرقيين فى الأندلس :

فى هذا المجال فان هناك اجماعا تقريبا ، على دور الدولة والخلفاء ،

- 
- (٦٤) ابن فرحون : الديباج المذهب — ج ٢ ، ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .  
 (٦٥) المراكشى : المعجب ، ص ٤٣٣ — ٤٣٤ ، والتدبيرة ، ص ٣٠٣ — ٣٠٤ .  
 (٦٦) ابن فرحون : الديباج — ج ٢ ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .  
 (٦٧) أرسلان ( شكيب ) : الحلال السندية — ج ٢ ، ص ١٥ .

في الترحيب بالعلماء المشاركة الذين هاجروا الى الأندلس ، ولقد استمرت هذه الحركة ، منذ بداية الفتح الاسلامي لشبه الجزيرة الأيبيرية ، والى قرب سقوط غرناطة ، ولقد قام هؤلاء العلماء بالتعليم في المساجد الجامعة في قرطبة والزهراء والزاهرة ، وغيرها من مساجد الأندلس ، وتلقوا من الخلفاء والأمراء أكبر رعاية ممكنة ، ولعب المستنصر بالله في هذا المجال دورا كبيرا .

وفي مقابل وصول العلماء المشاركة الى الأندلس ، فان سماح حكام الأندلس برحلات الأندلسيين الى المشرق على الرغم من العداء السياسي الكبير الموجود بين الأمويين هنا والعباسيين هناك ، يعتبر دليلا آخر من دلائل التدخل غير المباشر في العملية التعليمية ، لأن السماح بالرحلة واکرام العلماء بعد العودة ، واسناد الوظائف اليهم ، قد شجع من هذه الرحلات ، وسمح بنقل علوم وكتب المشاركة الى الأندلس بأسرع ما يكون .

#### خامسا - بناء الأماكن التعليمية :

احتل بناء المساجد المقام الأول في هذا المجال ، وليس من شك في أن بناء المساجد لم يكن يهدف في الدرجة الأولى الى ايجاد مكان للتعليم ، بقدر ما هو مكان للعبادة ، لكن المسجد كان من جانب آخر ، أكبر مؤسسة تعليمية في الإسلام ، وسوف أتناول دور المسجد تفصيلا في مجال آخر ، ويهمني التأكيد على أن قيام الحكام في الأندلس ببناء المساجد والتشجيع على بنائها ، قد دفع بالتعليم في هذه المنطقة ، خطوات واسعة الى الأمام .

ولم يقتصر بناء الأماكن التعليمية على المساجد فحسب ، بل قام الحكم المستنصر ببناء سبعة وعشرين مكتبا لتعليم الأطفال ، وجعل الموحدون عرائش بجوار القصر يقيم بها الأتسياخ والكتبة ، وبنيت المدارس ، ولسوف أتناول المدرسة في الأندلس ضمن باب المؤسسات التعليمية .

وأختتم هذا الحديث عن دلائل تدخل الدولة في التعليم ، بالاشارة الى مسألة دواوين العطاء ، التي كان يسجل فيها القادمون الى الأندلس مثلما حدث مع محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله ( المتوفى ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م ) ، الذي وصل الى الأندلس سنة ٣٤٩ هـ ( ٩٦٠ م ) ، فأمر المستنصر بالله بانزاله ، وتوسع له في العطاء ، وأثبتته في ديوان قريش (١٨) ، ومحمد بن أحمد بن إبراهيم ، وصل الى الأندلس ٣٦١ هـ / ٩٧٣ م فأكرمه أمير المؤمنين ، وأمر بإجراء النزل عليه (١٩) . ومحمد بن العباس بن يحيى ( المتوفى ٣٧٦ هـ / ٩٨٧ م ) ، قدم الأندلس على أمير المؤمنين المستنصر بالله ، فكان يجري عليه النزل مع الأضياف (٢٠) .

وأنتنى آمل في دراسة خاصة عن نواحي التوزيع المعتمدة في هذه الدواوين ، تكشف بوضوح أكثر ، عن دور هذه الدواوين ، في تقديم العطاء للمعلمين وغيرهم .

---

(٦٨) ابن الفرضي : علماء الأندلس — ج ٢ ، ص ١١٦ .

(٦٩) نفس المصدر ، ص ١١٤ .

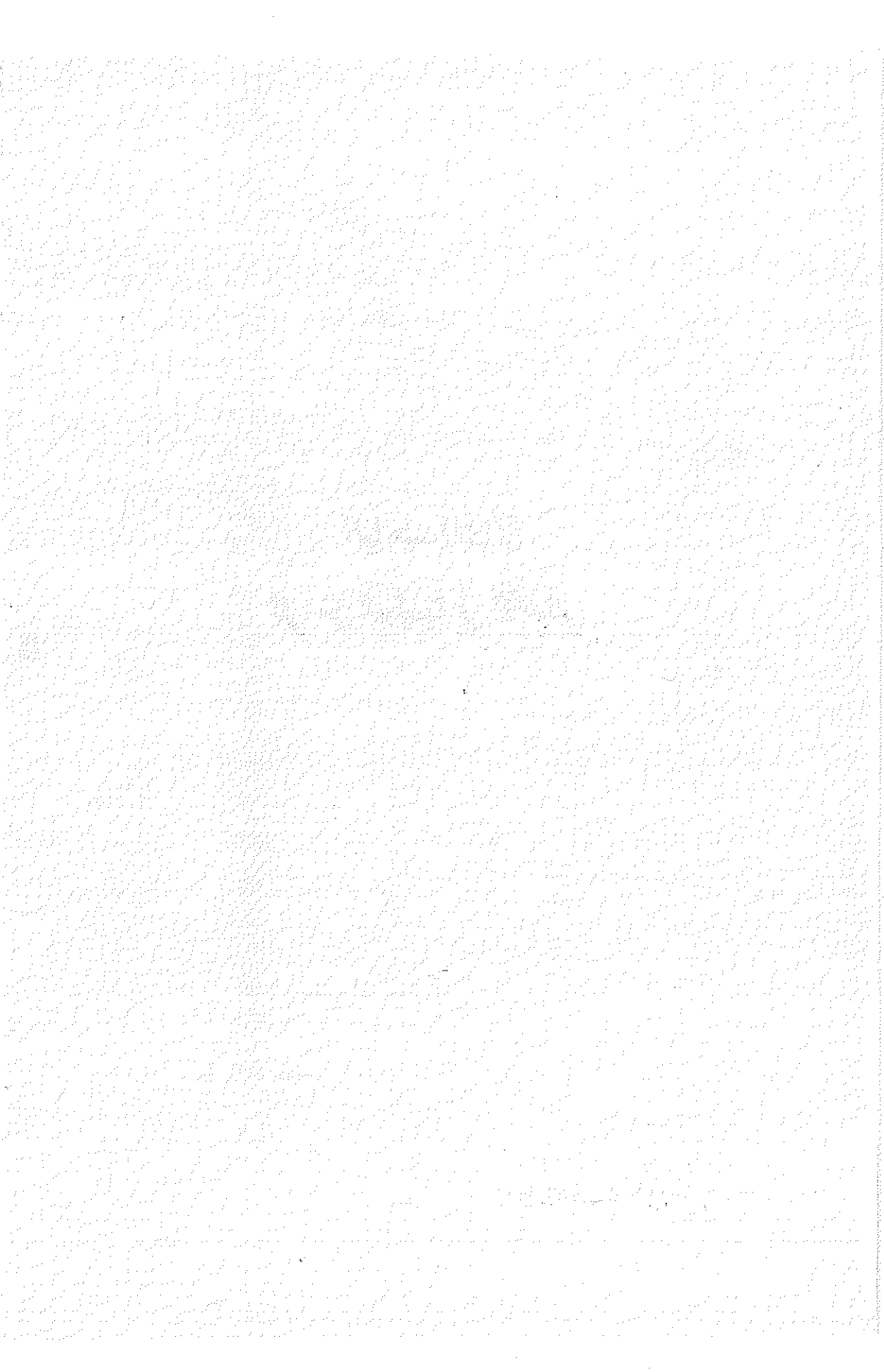
(٧٠) نفس المصدر ، ص ١١٤ — ١١٥ .



## الباب الثاني

### المراحل التعليمية في الأندلس

١١



### مقدمة :

مراحل التعليم ومؤسساته في الأندلس لا تختلف كثيرا عن مثيلاتها في العالم الاسلامي بأكمله .

ويقصد بالمرحل التعليمية، الفترات التي يمر بها الطفل منذ صغره، حتى ينتهي من التعليم المتوسط ، ويلتحق بالتعليم العالي ، أو يترك التعليم ، الى عمل ما ، ويحددها المفكر المصري أحمد أمين بقوله : « أن التعليم كان مرحلة تبتدىء بالكتاب أو بالمعلمين الخاصين ، وتنتهى بأن تكون حلقة في مسجد » (١) .

ولقد تعارف الناس على تقسيم التعليم في العالم الاسلامي الى مراحل ثلاث ، دون أن يعنى ذلك الفصل الواضح والمحدد بين كل مرحلة أخرى ، والتقسيم هنا يقوم أولا على أساس السن والمكان والمادة التعليمية .

فالمرحلة الأولى هي التي يحفظ فيها الطفل القرآن الكريم ويتعلم القراءة والكتابة ، وبعض العلوم الأخرى . ولقد تتباين ذلك من منطقة الى أخرى في العالم الاسلامي من حيث التركيز على مادة أو اهمال أخرى . وكما قلت ، فان التعليم في العالم الاسلامي كله متشابه ولكنه يختلف من مكان الى آخر حسب بعض الظروف التاريخية أو الشروط الجغرافية أو الأحوال الاقتصادية والاجتماعية .

أما المرحلة الثانية ، فان الطفل كان يتلقى فيها تعليما أوسع وأشمل . وأكثر تركيزا حيث أصبح في امكانه تلقي شروح القرآن وتفسيراته ، وقراءاته ، وكذا الحديث والآراء الفقهية ، وما الى ذلك

---

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام - ج ٢ ، ص ٦٦ .

من علوم الدين ، أو العلوم الانسانية عامة ، كما أنه يمكن له أن يبدأ  
في دراسة العلوم العقلية .

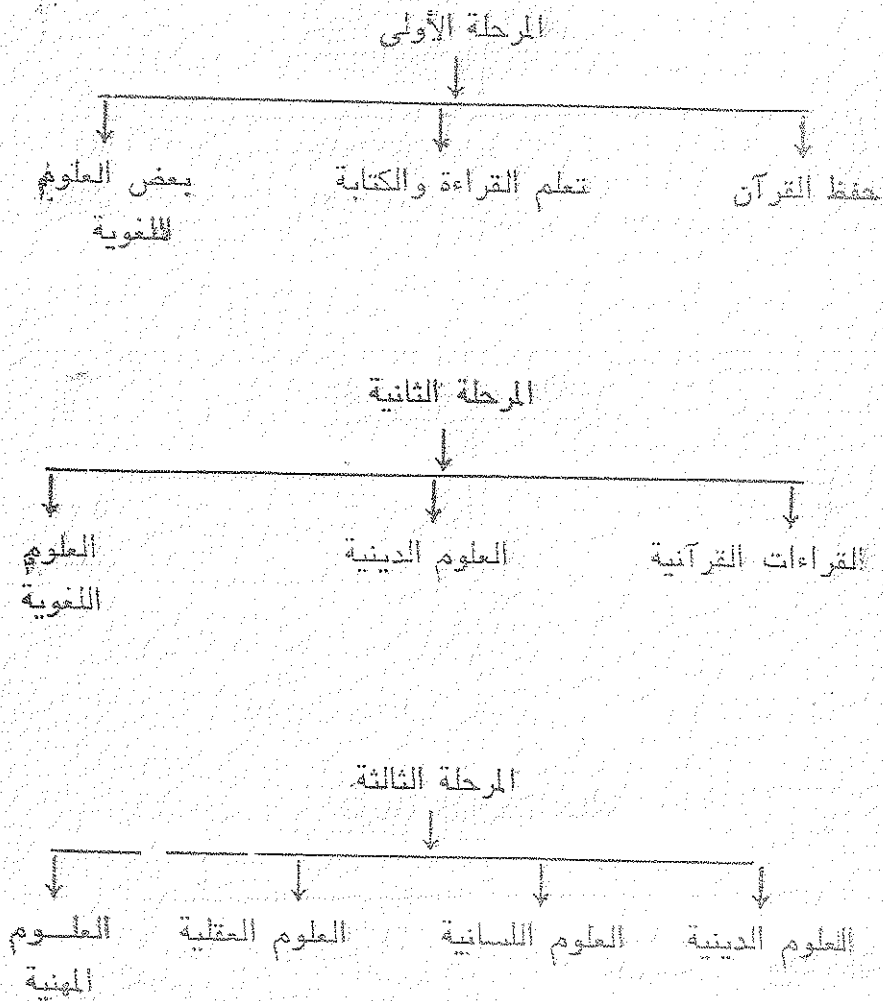
وفي المرحلة الثالثة ، يقوم بالرحلة والانتقال من مكان الى  
مكان ، بغرض التركيز ، والتخصص ما أمكن ، في ناحية أو في عدة نواح  
من العلوم ، التي سبق وبدأ تعلمها في المرحلة الثانية .

ويمكن تقسيم المراحل التعليمية أيضا الى ثلاث من ناحية مكان  
التعليم ، فالمرحلة الأولى يتعلمها الطفل في البيت أو في المكتب ، والثانية  
لما في المسجد أو في بيت المعلم ، أما الثالثة فلقد كانت تتم في المسجد وفي  
المنزل وفي المدرسة — أو في أى مكان عام أو خاص ، يمكن فيه  
الحديث مع الأستاذ المعلم .

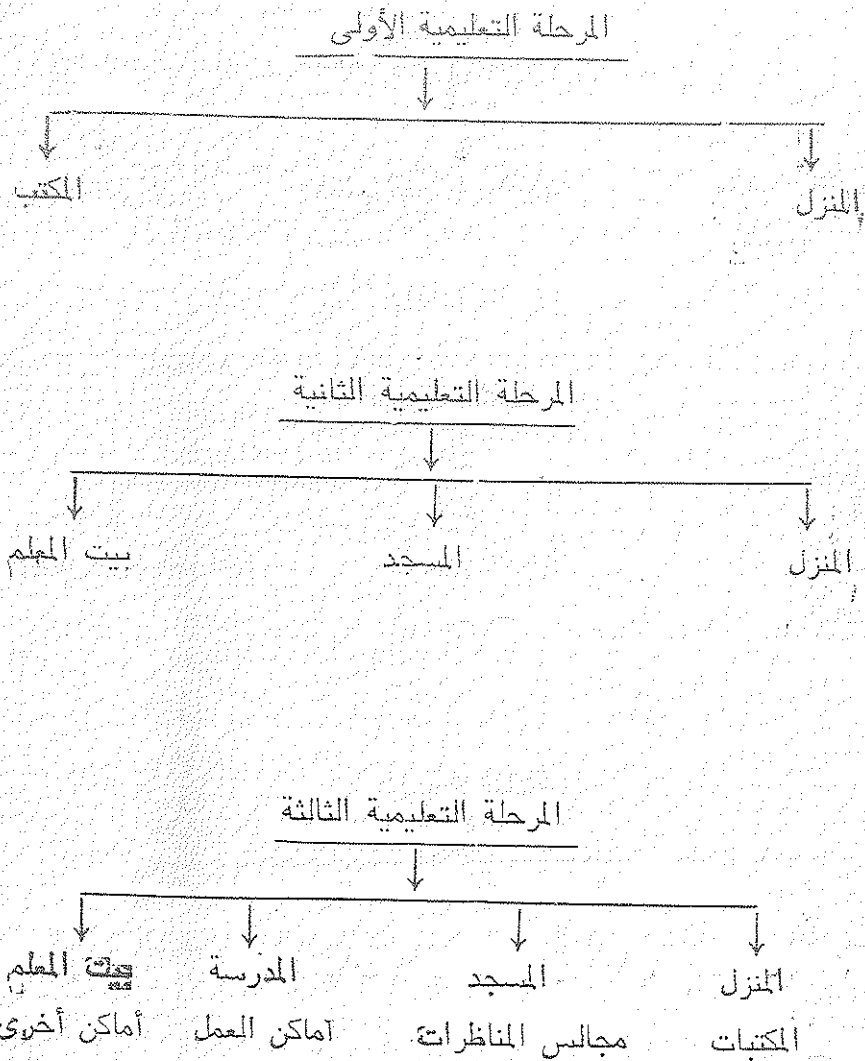
ولكى لا يكون الحديث مكررا فاننى سأتناول كل مرحلة تناولا  
كاملا ، أقصد بذلك أنه عند الحديث عن المرحلة الأولى أو الثانية  
أو الثالثة فاننى سأتناول كل الجوانب المتعلقة بهذه المرحلة — المكان —  
المحتوى الدراسى — المعلم — التلميذ — العلاقة بين المعلم والتلميذ —  
الجزاء ، سواء كان مكافأة أو عقابا — أجر التعليم — العلاقة بين  
الأسرة والمعلم ، الى آخر هذه المظاهر .

وأود الاشارة منذ البداية الى أن ذلك التقسيم المرحلى ، ليس  
الا بغرض التسهيل الدراسى فقط ، لأنه من الصعب جدا وضع حواجز  
فاصلة تماما بين مرحلة تعليمية وأخرى ، أو بين تعليم مادة وتعليم  
مادة أخرى .

مراحل التربية حسب المنهج التعليمي



المراحل التعليمية حسب مكان الدراسة



## الفصل الرابع

### المرحلة التعليمية الأولى

أقصد بذلك نوع التعليم ، الذى يتلقاه الطفل فى سننى عمره الأولى - أى تلك الفترة التى تبدأ بمحاولة الوالدين أو المعلم ، سواء فى البيت أم خارجه ، تعليم الصغير القراءة والكتابة ، أو تلقينه الآيات القرآنية ، حتى ينتقل بعد ذلك الى مجالس المعلمين والمؤدبين فى المساجد أو فى غيرها من أماكن التعليم .

### المكان :

نحسب ما بينت فى الجدول السابق ، فان المرحلة الأولى يتم تلقينها فى كل من المنزل والكتاب ، وتتناول دور كل منهما فيما يلى :

### دور المنزل :

لاشك أن المنزل يلعب الدور الأساسى فى التكوين العقلى للطفل ، وأنه يترك بصمته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية على تربية الأبناء ، والوالدان والأقربون بحكم ثقافتهم وعلمهم يتركون فى نفوس أبنائهم حب العلم عامة وحب مادة ما أو مواد يعمل بها الوالد أو الأقربون . ولم تهمل كتب التراجم الإشارة الى تأثير البيت فى عدد كبير من الشخصيات العلمية والأدبية الأندلسية حيث يشار اليهم بأنهم من بيت علم فقل عن أحمد بن محمد بن على - قاضى الجماعة بقرطبة - توفى ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م ، أنه أخذ عن أبيه وتلقاه عنده ، وهو من بيئة علم ودين (١) . وأحمد بن محمد بن أحمد

(١) ابن بشكوال : الصلة - ج ١ ، ص ٧٨ .

ابن مخلد المتوفى ٥٣٣ هـ / ١١٣٧ م ، سجع من أبيه بعض ما عنده ، وهو من بيت علم ونباهة ونخل وقصيانة (٢) . أما خليل بن اسماعيل بن عبد الملك المتوفى ٥٥٧ هـ من بيت علم ودين وحقه ، سواء في ذلك رجالهم ونسأولهم وخدمهم (٣) .

ولاشك أن الوالدين أو أهل المنزل قد حاولوا دائما ، منذ الأعمار الأولى لطفهم ، تعليمه بعض الآيات القرآنية أو القراءة والكتابة أو الأعداد ، وذلك قبل ذهابه إلى المكتب ، أو قبل أن يسدأ معه معلمه تعليمه ، سواء في منزل الحبي ، أو في مكان تعليم المعلم .

ولقد لعب الوالد دورا رئيسيا في هذه الناحية ، وواصل دوره ، بعد ذلك مع ابنه ، في مراحل تعليمه التالية ، حتى أننا يمكن لنا دون أدنى تردد - اعتبار الوالد المعلم الأول في حياة طفله ، سواء بطريقة مباشرة ، أي بأن يتولى بنفسه تعليم صغيره أو بطريقة غير مباشرة كأن يحثه على التعليم ، ويساعده على ذلك . فأحمد بن يحيى ابن أحمد المعروف بابن الحذاء ( ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م ) ، روى عن أبيه أكثر رواياته ، وندبه صغيرا إلى طلب العلم والسماع من الشيوخ الجلاء في وقته ، فحصل له بذلك سماع عاك ، أدرك به درجة أبيه (٤) .

ويقول ابن الأبار عن نفسه ، أنه قرأ القرآن على والده ، وسمع منه أخبارا وأشعارا ، وأنه استظهر عليه مرارا أيام أخذه على الشيوخ ، يمتحن بذلك حفظه (٥) .

(٢) ابن بشكوال : الصلاة - ج ١ ، ص ٧٩ .

(٣) السيوطي : بغية الوعاة - ج ١ ، ص ٥٦١ .

(٤) ابن بشكوال : الصلاة - ج ١ ، ص ٦٢ .

(٥) ابن الأبار : الحلة السراة - ج ١ ، ص ١٥ ( من مقدمة

الدكتور حسين مؤنس ) .



وقد اتخذ المنزل أحيانا مكانا لتعليم الأطفال ، وإن كانت الاشارات الى ذلك ليست كثيرة ، ولكن يقال عن حزم المعلم ، أنه كان هو وابنه محمد وابنته ، تجمعهم في تعليمهم ، دار واحدة (٦) .

الى جانب ذلك يتحمل المنزل مسئوليات أخرى في متابعة الطفل عند ذهابه للمكتب ، وفي تطور تعليمه ، ودفع أجر التعليم وتحديد الفترة التي يجب أن يستمر فيها الطفل في المكتب والسن التي توجب عليه الانتقال الى حلقات المدرسين بالمساجد أو غيرها ، ثم يواصل المنزل بعد ذلك دوره ، في المراحل التالية من تعليم الطفل ، وسأشير الى ذلك في حينه .

### المكتب :

تطلق هذه الكلمة على المكان الذي يتعلم فيه الصغار ، وقد تطلق عليه كلمة « كتاب » (٧) والجمع مكاتب أو كتاتيب . والمعلم الذي يتولى التعليم فيه ، يسمى أحيانا « بالمكتب » (٨) أو « الرجل » (٩) . أما كلمة « المعلم » ، فهي الأعم والأكثر استعمالا . ويرى الدكتور أحمد شلبي ، أن المكتب لا يرجع الى فترة تاريخية مبكرة جدا من تاريخ الاسلام ، مخالفا في ذلك ما قاله جولد زيهر Gold Ziher في دائرة معارف الأديان والأخلاق (١٠) ، مؤكدا أن ظهور المكتب في الاسلام كان في نهاية القرن الأول أو مطلع القرن الثاني من الهجرة ، وأنه حتى في هذا التاريخ ، كان « حديث الوجود وقليل الانتشار » (١١) .

(٦) ابن الأبار : تكملة الصلة - ج ١ ، ص ٣٤ .

(٧) أحمد شلبي : التربية الاسلامية ، ص ٤٤ .

(٨) ابن الخطيب : الاحاطة - ج ٣ ، ص ٣٢ - ٣٥ .

(٩) أي الذي يصنع من الطفل رجلا .

أحمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ، ص ٤٩ .

(10) Encyclopaedia of Religions and Ethies, Vol. v. p. 199.

(١١) أحمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ، ص ٥٣ .

ولقد قام الدكتور شلبي بدراسة تاريخية مطلولة عن المكاتب أو الكتاتيب في الاسلام ، بين فيها أن أرض الجزيرة العربية وسلاسل الشام قد شهدت نوعين من المكاتب ، الأول منهما خاص بتعليم القراءة والكتابة ، وأرجع ذلك النوع الى ما قبل الاسلام ، وأن الذين تولوا التعليم فيه ، خاصة في الفترة الاسلامية الأولى ، كانوا من غير المسلمين (١٢) ، أما الثاني فهو كتاب « لتعليم القرآن ومبادئ الدين الاسلامي » (١٣) ، وهذا النوع جاء متأخرا على ما يرى ، واعتبره تطورا لما كان يحدث من تعليم أبناء الملوك والعظماء في قصور ذويهم ، وتعليم الأولاد بمعرفة أهليهم (١٤) .

#### المكتب في الأندلس :

ظهر المكتب في الأندلس في فترة مبكرة من بعد الفتح العربي لشيبة الجزيرة الأيبيرية ، ولقد سبق لي أن بينت في رسالتي الصغرى (١٥) أنه من الطبيعي أن التعليم في الأندلس بدأ بالكبار سنا بقصد تعليمهم الدين الجديد واللغة العربية ، كما قلت بأن من الطبيعي أن تظهر المكاتب الخاصة بتعليم الأطفال بسرعة ، لأنه اذا كان رجال الجيش قد تزوجوا من نساء أهل البلاد كما فعل عبد العزيز بن موسى بن نصير بزواجه من أرملة آخر ملوك القوط ، وأن هذا الاختلاط قد أثر على الأجيال الجديدة ، واذا ما كانت السن المعقولة لبدء التعليم ، هي ما بين الخامسة الى السابعة ، فان ذلك يقودنا حتما الى القول بأن الاتجاه لتعليم الصبيان في الأندلس ، قد بدأ خلال العقد الأول من الفتح ، لا أكثر .

واذا افترضنا أن بعض العائلات العربية قد عبرت الى الأندلس بعد اتمام عملية الفتح السريعة ، وأن هذه العائلات قد اصططحت

(١٢) نفس المصدر ، ص ٤٤ .

(١٣) نفس المصدر ، ص ٤٩ .

(١٤) نفس المصدر ، ص ٥٢ .

(١٥) محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس منذ الفتح

حتى الخلافة ، ص ٤٧ من النص العربي .

معيها نساءها وأولادها فمن الجائز القول بأن الكتابين قد بدأت في الأندلس في فترة مبكرة عما ذكرنا ، وعلى كل حال فإنها لم تتأخر عن السنوات العشر الأولى — والاشارة الأولى ، التي وردت عن تأديب الصبيان أوردتها لنا ابن القوطية ، في كتابه عن افتتاح الأندلس ، حيث ذكر أن الصميل قد تناقش مع مؤدب للأطفال حين خطر به يوما ، ومن هذا النقاش نستنتج وجود مكان لتأديب الأطفال ، يمكن المرور عليه ورؤيته ، وسماع ما يدور فيه (١١) . ولقد وقع ذلك بالتأكيد قبل عام ١٣٨ هـ / ٧٥٧ م ، أي قبل تولي عبد الرحمن الداخل الامارة الأندلسية .

كما أن الزبيدي في كتابه طبقات النحويين ، ينقل لنا نصا قيما عن الغازي بن قيس المتوفى ١٩٩ هـ / ٨١٤ م ، يمكن لنا أن نستنتج منه ، أنه في أيام دخول عبد الرحمن الداخل كان الغازي يمارس التأديب ، بل ان مهنة التأديب كانت شائعة ، ويمارسها عدد كبير من الناس ، وأن هؤلاء كانوا يشعرون بأنهم يمارسون حرفة معينة ، يجب أن يتقاضوا في مقابلها أتعابا ، ويتجمعون للدفاع عنها ، يقول النص بأن الغازي بن قيس « كان ملتزما بالتأديب في قرطبة أيام دخول الامام عبد الرحمن بن معاوية ( ١٣٨ / ١٧٢ — ٧٥٦ / ٧٨٨ م ) » وذكر محمد بن عمر بن لبابة ( ٣٠٤ / ٩١٦ ) أن رجلا حاكم بعض المؤدبين في الحقة ( أي فيما يجب أن يدفعه مقابلا للحقة ) ، فمنعها المؤدب فناظره في ذلك ، وتعصب له المؤدبون بقرطبة وأشفقوا أن ينفث عليهم في ذلك باب منع ، فأتوا غازي ابن قيس فقالوا : ياسيدنا — تعريضا له بالتأديب — عرض عرض لنا كيت وكيت ، فقال : يغرمها صاغرا قميئا ، وقضى لهم بذلك ، اذ هو مما جرى عليه الناس » (١٢) .

كما أن لدينا نصا آخر عن معلم صبيان قائد ثورة ضد عبد الرحمن

(١٦) انظر النص والتعليق في صفحة ١٩٥ من الكتاب .

(١٧) الزبيدي : طبقات النحويين ، ص ٢٧٦ — ٢٧٨ .

الداخل وكان يسمى «شقياء» وتم القضاء عليه عام ١٥٢ هـ / ٧٦٩ م<sup>(١٨)</sup>، ولعل في هذا ما يمكن أن يلقي ظلالاً ولو باهتة على رأى الدكتور أحمد شلبي في مسألة تأخر ظهور المكتب في العالم الاسلامى ، الى أوائل القرن الثانى من الهجرة ، لأنها اذا كانت مؤكدة في الأندلس بعد حوالى ٤٠ سنة ومحملة قبل ذلك بكثير ، فليس من المحتمل أنها قد تأخرت في بلاد المشرق الى أكثر من مائة عام . ومما يؤكد ظهور المكتب الخاص بتعليم القرآن في السنوات الأولى من عمر الاسلام ما جاء عند ابن سخون والقابسى ، من أنه سئل أنس (القرن الأول من الهجرة/ السابع الميلادى) كيف كان المؤدبون على عهد الأئمة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، رضوان الله عليهم — قال أنس : كان المؤدب له أنجائه ، وكل صبي يجيء كل يوم بنوبته بماء طاهر فيصبه ، فيمحون به ألواحهم . قال أنس : ثم يحفرون له حفرة في الأرض فيصبون ذلك الماء فينشف<sup>(١٩)</sup> .

وعلى العموم فليس من غرض هذا البحث التأريخ للمكتب في الاسلام ، بل في أسبانيا الاسلامية فقط ، حيث نعود فنؤكد رأينا ، من أنه من المحتمل أنه لم يتأخر في الظهور عن السنوات العشر الأولى ، وأنه أصبح مؤكداً خلال الأربعين سنة الأولى .

نقطة أخرى ، لم أجد في كافة المصادر الأندلسية ما يمكن أن يدل على وجود النوع الأول الذى أشار اليه الدكتور شلبي ، وإنما هناك نوع واحد لا غير ، يتعلم فيه الأولاد القراءة والكتابة ، وبقيّة العلوم ، كما سنتبينها فيما بعد .

#### أماكن وجود المكتب :

المكتب عبارة عن مكان يتسع لمجموعة من الأطفال ، وقد يكون غرفة في منزل ، أو حانوتاً يكترى ، أو فناء ، ولم يكن له مكان معين يتقام

(١٨) مجهول : أخبار مجموعة ( ط . مدريد ) ، ص ١٧ .

ابن حيان : المقتبس ( تحقيق مكى ) ، ص ٢٦٦ .

(١٩) القابسى : أحوال المتعلمين ، ص ٣١٦ ، وآداب المتعلمين ،

ص ٣٥٣ .

فيه ، ولقد كان عادة يقام بالقرب من المسجد وربما في داخله ، ولقد نهى بعض المربين عن إقامة المكتب داخل المسجد ، وذلك بسبب ما يسببه الصبيان من القذارة وامتثالا لحديث الرسول « صلى الله عليه وسلم » القائل : جنبوا صبيانكم المساجد (٢٠) ، وأجمع على ذلك رجال الحسبة ، فجعلوا من واجب الحسب أن « ينهى عن الخط للصبيان والمجانين في وسط المساجد ، لأن الرسول ، أمر بتقزیه المساجد عن الصبيان والمجانين ، ولأنهم يسودون حيطانها ، وينجسون أرضها ، وما فيها من الحصر والفرش ، اذ أنهم لا يجترزون من البول ، وسائر النجاسات ، وإذا كان الأمر كذلك ، فيجب أن يتخذ المؤدبون أمكنة ، يعلمون فيها صبيانهم ، ويراعى فيها أن تكون على الدروب وأطراف الأسواق » (٢١) .

أما ابن عبدون الأثيلي ، فيقول : المساجد هي بيوت الله ومواضع الذكر ، ومواضع العبادة ، مشهورة بالطهارة ، ويجب أن لا يؤدب فيها الصبيان ، فانهم لا يتحفظون من النجاسات بأرجلهم ولا من ثيابهم فان كان ولا بد ففي السقائف (٢٢) .

أما السقفي فيرى أن معلمى الصبيان يجب أن يكونوا بالشوارع العامرة بالناس ، وأصحاب الحوانيت (٢٣) .

ورغم هذه التوصيات الواضحة ، فاننا نرى أن المعلمين والمؤدبين في الأندلس لم يلتزموا بها التزاما كبيرا ، حيث نجدهم قد اتخذوا من المساجد مكانا لتعليم الأحداث ، ولدى ملاحظتان واضحتان على ذلك ، أولاهما : قال عثمان بن محمد ، أخبرنى أبى قال : شهدت مجلس عمرو ابن عبد الله ( القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ) يوما من الأيام

(٢٠) ابن ماجة ، سنن « مساجد » ، ص ٥ .

(٢١) ابن مرشد : نظام الحسبة في الاسلام ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٢٢) ابن عبدون : الحسبة ، ص ٣١٤ .

(٢٣) السقفي : كتاب في آداب الحسبة ، ص ٦٨ .

في المسجد المجاور لداره ، غرأيته جالسا ، يحكم بين الناس ... وهو جالس في ركن المسجد مع من جلس اليه من أهل الحوائج والخصومات وفي الركن الثاني الذي يقابله مؤمن بن سعيد وقد جلس مع من جلس من الأحداث حيث تذف طفل آخر بالحذاء ، وسقط الحذاء في مجلس القاضي — مما يدل على قرب المسافة بين المجلسين — وكيف أن القاضي لم يغضب ، وإنما قال : لقد آذانا الصبيان الذين تسالوا واحدا بعد الآخر خارج المسجد (٢٤) .

أما الملاحظة الثانية فتحدث عن الأديب الأندلسي الشهير ، أحمد ابن محمد بن عبد ربه ، صاحب كتاب العقد الفريد ( توفي ٣٣٨/٩٣٩م ) قائلة بأنه وقف يوما تحت دوش لبعض الرؤساء ، وقد سمع غناء حسنا قرش بالماء ولم يعرف من هو . فمال إلى مسجد قريب من المكان ، واستدعى بعض ألواح الصبيان ، وكتب :

يا من يضمن بصوت الطائر الغرد

ما كنت أحسب هذا البخل في أحد (٢٥)

ولعل السبب في استخدام المساجد كمكان لتعليم الأطفال يرجع الى أن كثيرا من خدمة المساجد كانوا يحترفون هذه المهنة ، مما جعل من السهل عليهم ممارسة العملين في وقت واحد ، حيث نجد أن أحمد ابن خلف الأموي ( ٤٩٩/١١٠٥ م ) ، من أهل قرطبة « كان معلم كتاب ، وصاحب صلاة » (٢٦) .

---

(٢٤) الخشني : تاريخ قضاة قرطبة ، ص ١٠٤ ، ص ٦٧ ، ط ، القاهرة (١٠)

Ribera, J. : Historia de los Jueces de Corboda, pp. 445-447.

(٢٥) الحميدى : الجذوة ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

الضبي : بغية الملتبس ، ص ١٤٩ .

لم نترجم الشعر لأنه لا محل له .

(٢٦) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٧٥ .

كما وجدت المكاتب في المنازل حيث نجد أن ابن حزم المعلم قد استخدم داره مكانا للتأديب ، وساعده في ذلك ابنه وابنته (٣٧) .

وعينما أنشأ الحكم المستنصر سبعة وعشرين مكتبا في مدينة قرطبة جعل ثلاثة بجوار المسجد الجامع ، والباقي في أحياء المدينة (٣٨) .

وهناك من كان يتخذ من دكانه مكانا يقرئ فيه الأولاد فيحكي عن إبراهيم بن ميسر بن شريف البكري ( المتوفى في ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م ) ، أنه كان يقرئ في دكانه قرب المسجد الجامع بقرطبة وينقط المصاحف ويعلم المبتدئين (٣٩) .

أما من ناحية الانتشار ، فمن الطبيعي أن المكتب قد وجد في كافة الأحياء بالمدن ، وفي القرى (٤٠) ويرى الدكتور ثلبي أن عدد المكاتب وعدد معلمى الأطفال قد زاد في القرن الثانى الهجرى ، وما تلاه من قرون ، وكانت زيادة سريعة وضخمة حتى أصبح بكل قرية كتاب ، بل ربما وجد فيها أكثر من كتاب ، وقد ذكر ابن حوقل أنه عد حوالى ٣٠٠ معلم كتاب في مدينة واحدة هي مدينة بلرم في صقلية (٤١) .

وفي الأندلس ، انتشرت هذه المكاتب انتشارا واسعا ، بدليل كثرة أسماء المعلمين والمؤدبين ضمن كتب التراجم الأندلسية ، ولا يسعنا هنا أن نذكر أسماء هؤلاء ، لأن ذلك معناه أن ننقل مئات الصفحات من هذه الكتب الى هذه الرسالة ، وتكفى الإشارة الى أنه في موقعة قنتش (٤٢) سنة ٥٤٠هـ / ١٠٠٩م ، أصيب من المؤدبين خاصة ، ما نيف على ستين ،

- 
- (٢٧) ابن الفرضي : علماء الأندلس - ج ١ ، ص ٢٥ .  
 ابن الأبار : التكملة - ج ١ ، ص ٩٣ ، ٩٤ .  
 (٢٨) ابن عذارى : البيان المغرب ( ط بيروت ) ص ٢٤٠ - ٢٤١ .  
 (٢٩) ابن بشكوال : الصلة - ج ١ ، ص ٨٨ .  
 (٣٠) انظر الأهواني : في التربية الاسلامية ، ص ٦٤ .  
 (٣١) أحمد ثلبي : التربية الاسلامية ، ص ٥٤ - ٥٥ .  
 (٣٢) ابن الأبار : الحلة السراء - ج ٢ ، ص ٦ ، التعليق

عريت سقائهم في غداة واحدة منهم ، وتعطل صبيانهم لعدمهم (٣٣) .

### سن الذهاب الى المكتب :

ان تحديد سنة واحدة معينة لذهاب الأطفال الى المكتب ، عملية صعبة جدا . انها نفس المشكلة ، التي يواجهها أبناؤنا اليوم ، عند تحديد سن ذهابهم الى المدرسة الأولية ، فلند كان الآباء على ذلك العهد ، مثلما هو الحال مع آباء اليوم ، يحرصون على أن يبدأ أولادهم التعليم في سن مبكرة ما أمكن ذلك .

والآراء التربوية الحاثثة على بدء التعليم في الصغر كثيرة ومعقولة ، فيقول الشاعر :

علم بنيك صغارا قبل كبرتهم

اذ ليس ينفع بعد الكبرة الأدب

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت

ولن تلين اذا قومتها الخشب (٣٤)

ويرى ابن خلدون أهمية تعليم الصغر فيقول : وسبب ذلك أن تعليم النصبى في الصغر أشد رسوخا ، وهو أصل لما بعده ، لأن السابق الأول للقلوب الأساس للملكات ، وعلى حساب الأساس وأساليبه ، يكون حال ما ينبنى عليه (٣٥) .

كما أوصى ابن الجزار ، توفي ٥٣٩٥ / ١٠٠٤م ، بضرورة التأديب في الصغر ، لأن الصغير أساس قيادة ، وأحسن مواتاة ، وقال : لقد أمرنا أن يؤدب الصبيان وهم صغار ، لأنهم ليس لهم عادات تصرفهم لما

(٣٣) ابن بسام : الذخيرة - ج ١ ، ص ٢٤ ( تحقيق احسان عباس ) .

(٣٤) المغراوي : جامع جوامع الاختصار والنبيان ، ص ٤١ .

(٣٥) ابن خلدون : المقدمة - ج ٣ ، ص ١٢٤٠ .



يؤمرون به من المذاهب الجميلة ، والأفعال الحميدة ، والطرائق المثلى ،  
اذ لم تغلب عليهم بعد عادة رديئة تمنعهم من اتباع ما يراد بهم من  
ذلك ، فمن غود ابنه الأدب والأفعال الحميدة والمذاهب الجميلة ،  
في الصغر ، حاز بذلك الفضيلة ، ونال المحبة والكرامة ، وبلغ غاية  
السعادة ، ومن ترك فعل ذلك ، وتخلّى عن العناية به ، أداء ذلك الى  
عظيم النقص والخسارة ، ولعله يعرف فضيلة ذلك في وقت ،  
لا يمكنه تلافيه (٣٦) .

ويقول الدكتور الأهواني : « ان الواقع أنه لم يكن هناك سن  
معينة يبدأ عندها الطفل في تلقى العلم ، وانما كان الأمر متروكا لتقدير  
آباء الصبيان ، فاذا وجدوا الطفل بدأ في التمييز والادراك . دفعوا به  
الى الكتاب » (٣٧) .

ويرى أبو بكر بن العربي الأندلسي (٥٥٤٣/١١٤٨ م) أن « للقوم  
في التعليم سيرة بدیعة ، وهو أن الصغير منهم اذا عقل . بعثوه الى  
المكتب » (٣٨) .

ولقد اهتم كثير من الأندلسيين بأن يبدأ أولادهم التعليم في مرحلة  
مبكرة ، مما كان سببا في نبوغهم في سن مبكرة ووصولهم الى درجة عالية  
من العلم ، ولقد سبقت الاشارة الى أحمد بن يحيى بن أحمد الذي تدبه  
والده صغيرا ، لطلب العلم ، والسماع من الشيوخ الجلل في وقته ،  
فأدرك بذلك سماعا عاليا أدرك به درجة أبيه (٣٩) .

كما أن لدينا اشارات أخرى على بدء المرحلة التعليمية الثانية  
في سن مبكرة جدا ، مما يدعونا الى الاعتقاد بأن هؤلاء الأطفال قد بدءوا

(٣٦) ابن الجزار : سياسة الصبيان ، ص ١٣٤ — ١٣٨ .

(٣٧) أحمد فؤاد الأهواني : التربية الاسلامية ، ص ٦٠ .

(٣٨) ابن العربي : أحكام القرآن ، ج ٤ ، ص ١٨٨٣ .

(٣٩) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٦٢ .

تاريخ التعليم في الأندلس

مرحلة دراستهم الأولى في سن مبكرة ، فيقال مثلا ان ابن مريوال بن جراح بن حاتم المتوفى ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م ، بدأ بالسماع ، وعمره لا يتجاوز احدى عشرة سنة (٤٠) .

وسليمان بن حسان ، المعروف بابن ججل ، صاحب كتاب طبقات الأطباء ، سمع الحديث بقرطبة سنة ٣٤٣ هـ / ٩٥٤ م ، وهو ابن عشرين بمسجد أبي علاقة وبجامعها وبالزهاء (٤١) .

وكذلك يقال عن أبي عبد الله محمد بن طاهر القيسي التدميري انه « طلب العلم في حدثان سنه » (٤٢) .

وعن المنصور بن أبي عامر « أنه طلب العلم في حدثته » (٤٣) .

وأميل شخصا الى تحديد سن الذهاب الى المكتب في الأندلس بالعام السادس من العمر حتى بين أبناء الامراء أنفسهم ، ولقد وردت أكثر من اشارة ، الى تحديد السن في هذه المرحلة ، فيقال عن عبد العزيز بن عبد الرحمن الناصر أنه ولد له ولد عاش الى أن دخل الكتاب ، وظهرت منه نجابة ، فأول لوح كتبه بعث به الى أخيه الحكم المستنصر ، وكتب اليه من شعره هذه الأبيات :

هاك يامولاي خطا

مطه في اللوح مطا

ابن سبع في سنه

لم يطق اللوح ضبطا

---

(٤٠) ابن بشكوال : الصلاة ، ج ١ ، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٤١) الراكشي : الذيل والكلمة ، ج ٤ ، ص ٦٢ .

(٤٢) المقرئ : نفع الطيب ، ج ٣ ، ص ٤ .

(٤٣) ابن عذاري : البيان المغرب ، ص ٢٨٣ .

دمت يامولاي حتى

يولد ابن ابنك سبطا (٤٦)

وهناك أيضا ملاحظة أخرى ، واضحة الدلالة ، ينقلها لنا ابن عذارى ، يقول : « قال ابن جرير : كنت قاعدا يوما مع المنصور إذ طلع ابنه عبد الرحمن ، وهو يومئذ ابن سبع سنين ، خارجا الى المكتب » (٤٦) .

أما المدة التي يقضيها الطفل في المكتب ، فهي أيضا تختلف حسب قدرة الطفل على التعلم ، وإمكانياته في الانتقال الى المرحلة التعليمية التالية ، ولذلك من الصعب أن نحدد سنا معينة يترك الطفل فيها المكتب ، ويتوجه الى الدراسة على الأساتذة في الأماكن الأخرى . ويمكن أن نقول : أن الطفل كان يستمر في المكتب حتى سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة تقريبا ، لأن المقابى يوصى معلم الأطفال قائلا : « وأنه ينبغي للمعلم أن يختار بعضهم من بعض إذا كان فيهم من يخشى فساد ، يناهز الاحتلام » (٤٦) .

هذا ولقد سبق أن أشرت الى بعض الأطفال الذين أنهوا دراستهم في المكتب ، وبدءوا في التردد على حلقات المعلمين ، في الحادية عشرة أو العاشرة ، لكن الغالب أن يتردد الطفل الى هذه المرحلة التعليمية فيما بعد الرابعة عشرة .

فيقال عن عبد الجبار بن فتح بن منتصر البلوى المتوفى ٢٥٨ هـ / ٨٧١ م « أنه طلب العلم وهو ابن خمس عشرة سنة » (٤٧) .

(٤٤) الحميدى : الجذوة ، ص ٢٧٠ .

الضبي : البغية ، ص ٣٧٢ .

ابن الأبار : الحلة السراء ، ج ١ ، ص ٢٠٨ .

(٤٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٦٥ .

(٤٦) الأهوانى : التربية الإسلامية ، ص ١٣٠ .

(٤٧) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٢٨٣ .

ويقول الدكتور هيكل عن ابن حزم انه « بعد الخامسة عشرة تقريبا ، تبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياة ابن حزم ، وهى مرحلة الخروج الى الحياة ، والتحميل والدرس ، والتعلم خارج البيت » (٢٨) .

#### المنهج التعليمى فى المرحلة الأولى :

يقول المؤرخ المصرى الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، أن التربية فى العصور الوسطى - فى الشرق والغرب - كانت تربية دينية ، ترمى قبل كل شئ الى تهذيب النفس والروح ، ورياضتها ، وكانت خاضعة كل الخضوع للسلطة والتحكم وكانت قائمة على النقل لا العقل ، والتعليم فيها شكلى مخض ، يعنى كل العناية بالألفاظ ويهمل الروح واللب .

وفى موضع آخر يقول : ان التعليم الدينى كان يرمى فى الشرق والغرب ، فى الاسلام والمسيحية على السواء ، الى تهذيب روحانى ، أى الى تربية دينية أخلاقية تعد الفرد لا لهذا العالم الذى يضطرب بأسباب الحياة ، والذى يعيش فيه هذا الفرد ، بل لعالم آخر لا يصل اليه الا بعد أن تخلص روحه من أدرانها . لم يكن هذا التعليم يهتم بأعداد الفرد بما ينظم العلاقة بينه وبين أفراد المجتمع الذى يعيش فيه أو بما يكسبه قوة ومهارة فى معالجة أسباب المعاش ، بقدر ما كان يهتم بعلاقة الفرد بخالقه كما كانت تتصورها عقلية العصور الوسطى (٢٩) .

والحقيقة أن تقديم الحركة التعليمية فى العصور الوسطى بأنها دينية محضه ، فيه ظلم كبير ، وحتى يمكن لنا أن ننتين بوضوح المنهج

(٢٨) هيكل : الادب الأندلسى ، ص ٣٥٧ .

(٢٩) عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على .

التعليمي في المراحل التعليمية بصفة عامة ، والمرحلة الأولى بصفة خاصة ، فمن الضروري أن نتفهم الغايات التي كان يقصدها هذا التعليم ، أقصد بذلك ، لكي نعرف ماذا نتعلم ؟ — علينا أن نعرف ماذا نعلم ؟ ثم يأتي بعد ذلك كيف نعلم ؟ ويكون الترتيب كالتالي :

لماذا نعلم — ماذا نعلم — كيف نعلم ؟

بالنسبة للزرنوجي المتوفى ٥٩١ هـ / ١١٩٤ م هو : أن ينوى المتعلم بطلب العلم رضا الله تعالى ، والدار الآخرة ، وإزالة الجهل عن نفسه ، وعن سائر الجهال ، وأحياء الدين ، وإبقاء الإسلام ، فإن بقاء الإسلام بالعلم ، ولا يصح الزهد والتقوى مع الجهل ، قال محمد ابن الحسن رحمه الله : لو كان الناس كلهم عبيدي لأعتقتهم ، وتبرأت عن ولائهم ، وذلك لأن من وجد لذة العلم والعمل به ، قلما يرغب فيما عند الناس .

وينبغي لطالب العلم ألا يذل نفسه ، بالطمع في غير مطعم ، ويتحرر عما فيه مذلة العلم وأهله ، ويكون متواضعا (٥٠) .

والبدر الغزي يرى أن يقصد وجه الله بأشغاله وألا يريد بعلمه غير الله (٥١) .

أما ابن جماعة المتوفى ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م ، فهو يركز فضيلة العلم والعلماء فيمن يقصدون به وجه الله الكريم (٥٢) .

وهناك آراء أخرى كثيرة تركز على أن التعليم قد أخذ وجهة دينية بحتة ، ألا وهي الاستجابة لأمر الله سبحانه وتعالى ، والاذعان

---

(٥٠) الزرنوجي : تعليم المتعلم ، ص ١٢ .

(٥١) الغزي : المعيد في آداب المفيد والمستفيد ، ص ٢٢ .

(٥٢) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ١٣ .

لتعاليم رسوله عليه السلام والغاية الأصلية هي رضا الله . . . والذي يعلم ولده فيحسن تعليمه ، ويؤدبه فيحسن تأديبه ، فقد عمل في ولده عملا حسنا ، يرجى له من تضعيف الأجر فيه ، كما قال الله تعالى : ( من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ) (٥٣) . ومن هنا نتبين بوضوح ، أن الهدف الديني في التربية ، كان هو المهيمن والمسيطر ، سيطرة شاملة على التربية ، في العالم الإسلامي (٥٤) .

ولكن لم يكن الهدف الديني للتعليم هو الهدف النهائي والوحيد ، ولكن كان للتعليم أيضا هدفه الدنيوي ، فقد كان العلم هو الوسيلة الوحيدة لتغيير المستوى الاجتماعي ، وكان كل من يستطيع أن يتعلم ، يستطيع أن يصل الى أعلى المراتب السياسية والاجتماعية في المجتمع ، ومن هنا كان العلم هدفا ووسيلة في حد ذاته ، وكان للعلم فوائده الدنيوية التي لا شك فيها ، والمناظرة التي حدثت بين ابن حزم وأبي الوليد الباجي في غرض تعلم كل منهما يمكن أن تبين لنا بوضوح ، أنه لدى كل من العالمين الكبيرين ، كان الغرض الدنيوي واضحا ودافعا لما حصلاه من علم ، فأبو الوليد الباجي يقول لابن حزم :

أنا أبعد منك همة في طلب العلم ، لأنك طلبته وأنت معان عليه ، فتسهر في مشكاة الذهب ، وطلبته وأنا أسهر في قنديل بائت السوق .

فقال ابن حزم : هذا الكلام عليك لا لك ، لأنك انما طلبت العلم وأنت في هذه الحال وجاءت بتدليلها بمثل حالي ، وانما طلبته في حال ما تعلمه ، وما ذكرته ، علم لا أرجو به الا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة (٥٥) .

---

(٥٣) أحمد فؤاد الأهواني : التربية الإسلامية ، ص ١٢٠ .

(٥٤) الحون : أهداف التربية في العصر العباسي ، ص ٥٦ .

(٥٥) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ .

ولقد تشابك الغرضان تشابكا كبيرا : حتى أصبح من الصعب الفصل بينهما ، ويمكن القول بأن الهدف الأول كان اجباريا ، بينما الهدف الثانى كان اختياريا ، ولذلك فإن القابسى ( ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ) يضع منهجه التعليمى فى قسمين : اجبارى ويشمل علوم القرآن ، الصلاة ، الدعاء ، بعض النحو والعربية والقراءة والكتابة ، وعلوم اختيارية هى الحساب ، جميع النحو ، العربية ، الشعر ، أيام العرب .... الخ ، ونقد كان هذا هو المنهج السائد فى كل من القرنين الثالث والرابع .

ومن الغايات الدنيوية التى يحققها الوالد من تعليم ابنه ، أن يكون سعيدا ، أو كما قال القابسى : فمن رغب الى ربه أن يجعل له من ذريته قرة عين ، لم ييخل على ولده بما ينفق عليه فى تعليم القرآن (٥٦) .

وهناك من يرى أن يضع هدفا ثالثا من أهداف التربية عند المسلمين ، ألا وهو هدف اللذة الروحية من العلم ، وهو الهدف الذى يدفع صاحبة الى التعلم والبحث ، لا لثىء سوى البحث والتعلم لذاتهما مكتفيا بلذة البحث عن الحقيقة والتفتيش عن دقائق المعرفة ، ولقد تعرض كثيرون من مؤرخى التربية الاسلامية الى هذه النقطة ، وتكفى الإشارة الى أن الغزالى كان يرى « العلم فضيلة فى ذاته ، على الاطلاق » (٥٧) .

ولعل من المفيد هنا ، أن أعرض لرأى الدكتور محمد أسعد طلس القائل « والرأى عندنا أنه لا توجد أغراض للتربية عند العرب على الاطلاق ، وانما يجب أن نذكر صاحب المذهب ثم نذكر الغرض من التعليم الذى يلائم المذهب ، فطريقة التعليم مستمدة من مذهب صاحبها » (٥٨) .

(٥٦) الأهوانى : التربية الاسلامية ، ص ١٢٩ .

(٥٧) الغزالى : الاحياء ، ج ١ ، ص ١٧ .

فتحية حسن : التربية عند الغزالى ، ص ١٧ .

(٥٨) محمد أسعد طلس : التربية والتعليم فى الاسلام ، ص ١٤٣ .

لقد عرض الدكتور طلس لآراء القابسي ، وآراء الدكتور الأهواني وأساء فهم آرائهما حين عرضها قائلاً : « أما القول بأن التعليم انما كان له هدف واحد ، كما ذهب اليه القابسي والأهواني ، فهو قول المترمت البالغ » (٥٩) .

فلم يقل القابسي اطلاقاً بهدف واحد للتعليم ، والأهواني لم يقل ذلك أيضاً ، ولقد سبقت الإشارة ، الى أن القابسي قد وضع غرضاً أصلياً ، هو تعلم الدين ، وجعل ذلك في مرتبة اجبارية ، وجعل أيضاً للتعليم أغراضاً معيشية يقرها ويسمح بها ، وجعل تعليم ذلك من المسائل الاختيارية .

وبالنسبة للرأي القائل ، بأن الغرض من التعليم انما هو على حسب المذهب ، فهو قول بين السقوط بنفسه ، فالمذاهب الاسلامية على اختلافها وتنوعها كانت تعمل على اعداد الفرد لتشيئين :

أولهما : ارضاء الله سبحانه وتعالى ، وتنفيذ ارادته .

ثانياً : اعداد الانسان لحياة سليمة وصالحة ، وتقول الدكتورة فتحية سليمان : ان أهم ما يسترعى الانتباه في دراسة الغزالي من الناحية التربوية هو شدة اهتمامه بالعلم والتعليم وقوة عقيدته في أن التعليم الصحيح هو السبيل الى القرب من الله ، وسعادة الدنيا والآخرة ، وبهذا رفع الغزالي من مكانة المعلم ، ووضع ثقته في المعلم الصالح ، الذي اعتبره خير مرشد ومهذب ، ولا يقتصر الأمر عند الغزالي على التعلم فحسب ، ولكنه يشترط العمل بما تعلم الانسان ، وأن يعلمه لغيره ، فمن علم وعمل بما علم ، فهو الذي يدعى عظيماً في ملكوت السموات ، فانه كالشمس ، تضيء لغيرها ، وهي مضيئة بنفسها (٦٠) .

(٥٩) محمد أسعد طلس : نفس المصدر ، ص ١٤٤ .

(٦٠) فتحية حسن : المذهب التربوي عند الغزالي ، ص ١٤ ، ١٥ .



نعم يمكن القول بأن الغاية من التعليم قد اختلفت في تفصيلاتها من معلم الى آخر ، نتيجة وجهة نظره الدينية ، أو مذهبه التعليمي ، أو الاقليم الذي نشأ فيه ، أو للظروف السياسية والاقتصادية المحيطة به ، ولكن يبقى بعد ذلك أهداف علمية للجميع : التعليم من أجل الكمال الانساني الذي غايته ارضاء الله ، التعليم من أجل الكمال الانساني الذي غايته السعادة في الدنيا .

كان ذلك الغاية من التعليم في الاسلام بصورة عامة ، وأسانيب الاسلاميه قد شكلت جزءا من هذا المجتمع ، وإذا كان ذلك كذلك ، فماذا نعلم ؟ .

السياسة التعليمية عند أبي الوليد الباجي هي : حفظ القرآن الكريم ، وحفظ الحديث النبوي الشريف ، والتعرف على ما كان منه صحيحا ، وما كان غير صحيح ، ودراسة علم أصول الفقه الذي هو أصل لمعرفة القرآن ، ومعرفة الحديث ، ويجب على الطالب أن يتدرب تدريبا سليما على معرفة طرق النظر ، وتمحيص الأدلة ، وإقامة البرهان (٦١) .

ومن هنا كان تعاليم القرآن الكريم وتحفيظه هو الهدف السائد في هذه المرحلة في كافة أنحاء البلاد الاسلامية . ويصف ابن خلدون ذلك بقوله :

واعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهل الملة ، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الايمان وعقائده ، من آيات القرآن ، وبعض متون الأحاديث وصار القرآن أصل التعليم الذي يبنى عليه ما يحصل بعده من الملكات (٦٢) .

---

(٦١) جودة عبد الرحمن : وصية القاضي أبو الوليد الباجي ،

ص ١٧ .  
(٦٢) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٢ ، ص ١٢٣٩ .

ومن ناحية أخرى يقرر المستعرب الأسباني الكبير عند حديثه عن تطعيم ابن حزم بأن : الفقه والسنة النبوية كانا الأساس النظري للثقافة الإسلامية بأجمعها (٦٣) .

هذا هو الأساس العام فيما يجب أن يتعلمه الأطفال ولكن تختلف طرائق تعليم القرآن للولدان باختلاف الأقاليم والشعوب باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات (٦٤) .

ولقد عقد ابن خلدون فصلاً في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه فقال :

« اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهل الملة ، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم ، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الايمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث ، وصار القرآن أصل التعليم الذي يبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات . وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخاً وهو أصل لما بعده ، لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات ، وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ما يبنى عليه .

واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات .

نأماً أهل المغرب فمذهبهم في الوالدان ، الاقتصار على تعليم القرآن فقط ، وأخذهم أثناء الدراسة بالرسم ومثاله واختلاف حملة القرآن فيه ، لا يخطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم ، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب ، إلى أن يحذف فيه أو ينقطع دونه ، فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعاً عن العلم بالجملة

(63) Asin Palacios : Aben hazam de Cordoba, I. 33.

(٦٤) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ١٢٤٠ .

وهذا مذهب أهل الأندلس بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب في ولدانهم الى أن يجاوزوا حد البلوغ الى الشبيبة • وكذا في الكبير إذا راجع مدارس القرآن بعد طائفة من عمره • فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم •

وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو • وهذا هو الذي يراعونه في التعليم ، الا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلاً في التعليم • فلا يقتصرون لذلك عليه فقط ، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب • ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه ، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها ، الى أن يخرج الولد من عمر البلوغ الى الشبيبة وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما ، وبرز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة ، لو كان فيها سند لتعليم العلوم • لكنهم ينقطعون عند ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاقهم ، ولا يحصل بأيديهم الا ما حصل من ذلك التعليم الأول ، وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعداد اذا وجد المعلم •

وأما أهل أفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ، ومدارسه قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها الا أن عنايتهم بالقرآن ، واستظهار الولدان آياه ، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه ، وعنايتهم بالخط تتبع لذلك • وبالجملة فطريقتهم في تعليم القرآن أقرب الى طريقة أهل الأندلس ، لأن سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عند تغلب النصراني على شرق الأندلس ، واستقروا بتونس ، وعنهم أخذ ولدانهم بعد ذلك •

وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك على ما يبلغنا ولا أدري

بم عنيتهم منها • والذي ينقل لنا أن عنيتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشيبية ولا يخلطون بتعليم الخط ، بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراد ، كما تتعلم سائر الصنائع ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان • وإذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصر عن الاجادة • ومن أراد تعلم الخط ، فعلى قدر ما يسمح له بعد ذلك ، من الهمة في طلبه ، ويبتغيه من أهل صنعته •

فأما أهل افريقية والمغرب ، فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة ، وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة ، لما أن البشر مصروفون عن الاتيان بمثله • فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها ، وليس لهم ملكة في غير أساليبه ، فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي ، وحظه الجمود في العبارات ، وقلة التصرف في الكلام ، وربما كان أهل أفريقية في ذلك أخف من أهل المغرب ، لما يخلطون في تعليمهم القرآن ، بعبارات العلوم في قوانينها كما قلناه ، فيقتدرون على شئ من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل ، الا أن ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة ، لما أن أكثر محفوظهم عبارات العلوم النازلة عن البلاغة كما سيأتى في فصله •

وأما أهل الأندلس فأفادهم التفتن في التعليم وكثرة رواية اشعر والترسل ومدارسه العربية من أول العمر ، حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي ، وقصروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارس القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها فكانوا لذلك أهل خط وأدب بارع أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثانى من بعد تعليم الصبا » (٦٥) •

ويفهم من كلام ابن خلدون أن الأندلسيين اهتموا أساسا بتعليم القرآن لأولادهم ، شأنهم في ذلك شأن بلاد المغرب الاسلامى كلها •

والدلائل كثيرة على قيام أهل الأندلس بتعليم القرآن لأولادهم في المكتب ، منها قول ابن العربي : « وصار الصبي اذا عقل ، وسلكوا به أمثل طريقة لهم ، علموه كتاب الله تعالى » (٦٦) . ومن وصية ابن هود ، الذي حكم بشرق الأندلس من ٦٢٥ الى ٦٣٥ هـ / ١٢٢٨ الى ١٢٣٧ م ، الى أخيه يقول : « ومروهم بأن يعلموا أولادهم كتاب الله تعالى ، فان تعليمه للصغار يطفىء غضب الرب » (٦٧) . وابن الخطيب يقول عن سلطان غرناطة بأنه كان « يندب الناس لتعليم القرآن لصبيانهم غذلك أصل أديانهم » (٦٨) .

ومن ناحية أخرى اهتم الأندلسيون بأن يخلطوا في تعليمهم القرآن بعض المواد الأخرى مثل رواية الشعر ، وبعض العربية ، وأعطوا اهتماما خاصا بتعليم القراءة والكتابة ، وتحسين الخط حتى تميز صنف خطهم الأندلسي ، ينقل هنرى بريس عن ابن خلدون وتميز ملك الأندلس بأحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط ، فتميز خطهم الأندلسي ، كما هو معروف الرسم لهذا العهد (٦٩) .

كما أشار ابن خلدون الى أهمية قيام الأندلسيين بتعليم أولادهم الشعر والعربية في تكوين ملكة اللغة العربية ، وتفوقهم في الخط والأدب فقال :

وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي ، وقصروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث ، الذي هو أصل العلوم وأساسها ، فكانوا لذلك أهل

(٦٦) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ١٢١ « نقلا عن كتابه المصمم من العواصم » .

(٦٧) المتري : نفع الطيب ، ج ١٠ ، ص ٢٦٩ .

(٦٨) المتري : النفع ، ج ٩ ، ص ١١٠ .

(٦٩) هنرى بريس : منتخبات من مقدمة ابن خلدون ، ص ٥٨ .

خط ، وأدب بارع أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثاني من بعد تعليم الصبا (٧٠) .

ولكن العالم الأشبيلي الكبير أبو بكر بن العربي لم يكن راضيا عن هذا المستوى أو بمعنى أصح على أن يكون القرآن الكريم هو أول ما يعلم للأطفال ، ولذلك أختتم حديثي عن محتوى التعليم في المكتب بذكر رأى هذا المفكر التربوي الأشبيلي ، كما يلخصه الأستاذ الطالبى ، باعتباره واحدا من أشهر المتحدثين في مجال التربية في الأندلس :

« ان لابن العربي نظرات ناقدة في مجال التربية ، وفي طرق التعليم ، حصل ذلك عن طريق رحلاته ، وعن طريق خبرته بالطرق التربوية المستعملة في أنحاء العالم الاسلامي ، مشرقه ومغربيه » .

وقد عرض القاضي للطرق التعليمية في المغرب العربي ، ونقدها نقدا لاذعا ، وكذلك للطريقة الأندلسية ، فانه لم يقبل أن يبدأ الأمر بتعليم الأطفال للقرآن « ياغفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره ، يقرأ ولا يفهم ، وينصب في أمر ، ويرى أنه على فرض أن الصبي استطاع أن يفهم بعض الألفاظ المستعملة عنده ، في حياته اليومية ، كجاء ، وقام ، وقعد فانه لا يستطيع أن يؤلف بينها ، ولا أن يفهم ما تدل عليه من المعاني ، اذا انتظمت في تركيب » (٧١) .

طريقة أبي بكر بن العربي في التربية :

عمل أبو بكر بن العربي على وضع طريقة جديدة للتعليم ، بين هذه الطريقة في عدة من مصنفاته ، شرحها في « كتاب التعليم » الذي جعله جزءا من كتابه « قانون التأويل » ولم يصلنا هذا الجزء مع

(٧٠) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ١٢٤٢ .  
(٧١) عمار الطالبى : آراء أبي بكر بن العربي الكلامية ، ص ٢٣٤ - الجزائر .  
ابن خلدون : المقدمة - ج ٣ ، ص ١٢٤٢ ، ١٢٤٣ .

الأسف الشديد ، وان كانت بعض فقراته منشورة في عدة مؤلفات أخرى .

وبينها أيضا في كتابه « ترتيب الرحلة للترغيب في الملة » على ما قال به ابن خلدون ، وفي كتابه « سراج المريدين » ، وفي مؤلفه « العواصم من القواصم » .

ومن هذا كله يتبين اهتمام الفقيه الأندلسي بالتعليم وأهميته ، وما يمكن أن نصل اليه حين يوضع البرنامج النصن للتربية . ويرى أبو بكر بن العربي ، أنه في عصور الاسلام الأولى لم يكن العرب في حاجة الى تعلم اللغة العربية لأنهم في ذلك الوقت كانوا يتكلمونها بطريقة سليمة ، خالية من الأخطاء اللغوية ، وخالية من الكلمات الأجنبية ، وبعد ذلك حينما اختلط العرب بشعوب أخرى ذات لغة وثقافة مختلفة ، تطرق الفساد الى الألسن ، ونفذ اللحن الى اللغة ، شععت الحقائق عن بعض القلوب ، وغمضت فأصبح من الضروري أن يكون تعليم اللغة هو الأساس ، وذلك عن طريق الاهتمام بتعليم الألفاظ ومعانيها ، وأساليب تكوين الجملة ، وطرق دلالتها على ما تردد التعبير عنه ، لقد أحس أبو بكر بن العربي ، بضرورة العودة الى لغة القرآن ، الى اللغة العربية الفصحى ، حيث قال : ينبغي أن ينشأ الطفل على تعلم العربية ومقاطع الكلام ، ويحفظ أشعار العرب ، وأمثالها .

ثم ينتقل ابن العربي بعد ذلك الى شرح قيمة تعليم الحساب وأهميته لأن الحساب فيه فائدة نظرية ، هي شحذ الذهن ، وتمارين الفهم ، وفائدة عملية ، ترجع الى منفعته في القوانين الفقهية في قسمة التركات والمسااحات ، وما اليها من مسائل في الحياة العملية (٧٢) .

(٧٢) اشار عمار الطالبي في كتابه عن آراء ابن بكر بن العربي الكلامية الى طريقته في التربية بتفصيل واسع ويمكن الاطلاع عليها في الصفحات من ٢٢٩ الى ٢٤٠ .

فاذا تعلم الطفل شيئاً من ذلك انتقل الى تعلم الشعر - وكل ذلك لئلا يمهّد له دراسة القرآن ، لأنه اذا أخذ الطفل حفظه من هذه الوسائل اللغوية والحسابية ، ودرس خلال ذلك شيئاً من مفصل القرآن ، واشتد ساعده في هذه العلوم التي تعتبر مقدمة لدراسة القرآن انتقل الى دراسة القرآن نفسه ، حيث أن اللغة ، والشعر ، ومعرفة الكتابة ، بمثابة وسائل ميسرة ، لتعليم القرآن ، وغيمه (٧٢) .

لقد أشار ابن خلدون الى هذه الطريقة في التعليم ، شرحها وعرضها ، وأعجب بها ، ولكنه أكد استحالة تطبيقها لأن الظروف لا تساعد على ذلك ، مؤكداً أن قوة العادة وشدة التأثير الديني ، تدفع بالناس الى ما هم عليه - يقول :

ولقد ذهب القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته (٧٤) ، الى طريقة غريبة في وجه التعليم ، وأعاد في ذلك وأبدأ ، وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس (٧٥) ، قال : لأن الشعر ديوان العرب ، ويدعو الى تنديمه ، وتعليم العربية في التعليم ضرورة لفساد اللغة ، ثم ينتقل منه الى الحساب فيتمرن عليه حتى يرى القوانين ، ثم ينتقل الى درس القرآن ، فانه يتيسر عليه بهذه المقدمة . ثم قال : « ويا غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره ، يقرأ ما لا يفهم ، وينصب في أمر غيره أهم عليه » ، ثم قال « ينظر في أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل ، ثم الحديث وعلومه » .

(٧٦) عمار الطالبي : آراء أبو بكر بن العربي ، ص ٢٢٣ - وانظر تعليق هنري بريس على هذه الطريقة في كتابه « الشعر الأندلسي » ص ٣٣ .

(٧٤) يتصد كتاب ترتيب الرحلة لابن عربي .

(٧٥) يلاحظ هنا بأن مذهب أهل الأندلس لم يكن تقديم العربية والشعر والا لما هاجم أبو بكر هذه الطريقة ، وانما كانوا يعلمون هذه العلوم في نفس الوقت مع القرآن .

انظر أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ، ص ٣٤ .



ونهى مع ذلك أن يخلط في التطعيم علما إلا أن يكون المتعلم قابلا لذلك ، بجودة الفهم والنشاط :

« هذا ما أشار إليه القاضي أبو بكر رحمه الله ، وهو لعمرى مذهب حسن ، إلا أن العوائد لا تساعد عليه ، وهى أملك بالأحوال ، ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن إثارا للتبرك والثواب ، وخشية ما يعرض للولد في جنون الحبا من الآفات ، والقواطع عن العلم ، فيفوته القرآن ، لأنه ما دام في الحجر ، انقاد للحكم ، فإذا تجاوز البلوغ وانمحل من ربقة القهر ، فربما عصفت به رياح الشيبية ، فألقته بساحل البطالة ، فيغتتمون في زمان الحجر ، وربقة الحكم ، تحصيل القرآن ، لئلا يذهب خلوا منه . »

ولو حصل التيقن باستمراره في طلب العلم ، وقبوله للتعليم لكان هذا المذهب الذى ذكره القاضي أولى مما أخذ به أهل المغرب والمشرق ، ولكن الله يحكم ما يشاء ، لا معقب لحكمه « (٧٦) . »

#### طريقة التعليم في المكتب :

من الطبيعى أن تكون الأيام الأولى للطفل صعبة ، وكان على المعلم وأهل الطفل العمل على تعويده على المناخ الجديد .

كان من العادة أن يذهب الطفل الى الكتاب مبكرا ، بحيث يظل هناك الى منتصف النهار ، ويعود الطفل الى منزله للغذاء والراحة تليها ، بعد ذلك ينتج الى الكتاب مرة ثانية لكي يبدأ الدراسة فترة ثانية من وسط النهار حتى بعد العصر بقليل فيندسرف الى منزله على أن يعود في صباح اليوم التالى .

ويرتكز ذلك على ما أوثر عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ،

(٧٦) ابن خلدون : المقدمة ج ٣ ، ص ١٢٤٢ - ١٢٤٣ .  
تاريخ التعليم في الاندلس

حين أمر عابد بن عبد الله الخزاعي ، بأن يلزم تعليم الصبيان « بعد صلاة الصبح الى الضحى الأعلى ، ثم من الظهر الى صلاة العصر ، ويسرحهم بقية النهار ، ولا يلزمه الله بشرط أو عادة ، قلت : كعادة أهل البادية في اقراءهم السور ليلا » (٧٧) .

وأيام التعليم خمسة أيام : السبت والأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء وصبيحة الخميس ، « وكان للأطفال نصف يوم الخميس ، وطول يوم الجمعة عطلة للراحة ، وبالإضافة الى أيام عيد الفطر الثلاثة وأيام عيد الأضحى الخمسة وبعض أيام المناسبات العامة » (٧٨) .

وهناك رأى آخر فى مسألة الوقت ، يسوقه المؤرخ التونسي ، المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب ، فى مقدمته لكتاب « آداب المعلمين » ، نائلا : أما أوقات التعليم — فيما مضى — فليس لدينا ما ينبىء على تعيين ابتدائها صباحا ، ولا وقت انتهائها مساء وغاية ما نعلمه فى خصوصها ، ما روى عن أحد مشاهير علماء القيروان ، قال الوثئرسى : « وسئل أبو طيب عبد المنعم بن خلدون الكندى ( توفى بالقيروان ، ٤٣١ هـ / ١٠٣٠ م ) (٧٩) ، هل يجلس المعلم من الصبح الى المغرب ، أو عند طلوع الشمس الى الأسفار ، فأجاب : أما وقت جلوس المعلم وقيامه ، فبحسب العرف ، وما تعاهده أهل التعليم فى كل بلد » (٨٠) .

وهناك من المؤرخين ، من يرفض رفضا قاطعا هذه الاستثناءات . وميل كافة مؤرخى التربية الإسلامية الى أن فترات التعليم كانت تمارس ، على وجه الخصوص فى المرحلة الأولى ، على مدار النهار

(٧٧) الغراوى : جامع جوامع الاختصار ، ص ٥١ .

(٧٨) أسعد طلس : التربية والتعليم فى الإسلام ، ص ٧٠ .

(٧٩) الوثئرسى : المعيار ، ج ٨ ، ص ١٥٢ .

(٨٠) حسن حسنى عبد الوهاب : آداب المعلمين (المدنية) ، ص ٤٦ .

وامتداده من الصباح الى العصر ، راجع في ذلك ما كتبه الدكتور  
الأهوانى (٨١) .

وطريقة التعليم في الكتاب تتلخص في أن المعلم يقوم بقراءة آية  
من آيات القرآن ، ثم يقوم الطفل بترديدها حتى يحفظها ، ثم ينتقل الى  
آية أخرى وهكذا ، وهناك بعض المعلمين ممن كانوا يلجأون الى تعليم  
الأطفال السور القرآنية القصيرة أولاً ، وبعضهم كان يبدأ حسب ترتيب  
المصحف فيقول ابن مرشد :

« أول ما يبدأ به المؤدب في تعليمه الصبي ، تحذيقه كتابة الحرف ،  
وقراءتها حتى يألف ذلك ، ثم يشرع في تحفيظه السور القصار  
من القرآن » (٨٢) .

وعندما ينتقل الصبي من جزء الى آخر ، كان عليه أن يقرأ على  
معلمه ما قد سبق وتعلمه ، وهكذا يمضي الصبي من جزء الى جزء  
آخر حتى يتم حفظ انقرآن ، ويمكن لنا أن ننتبين في هذه المسألة  
خطوتين رئيسيتين :

أولاهما : التلقين ، وهو الجزء الجديد ، ويقراه الأستاذ للطفل الذي  
يقوم بالترديد خلف المعلم ، وحتى اذا كان الطفل قد وصل الى مرحلة  
تسمح له بالقراءة ، حتى يعرف الطفل القراءة السليمة ، وهنا أود أن  
أشير الى أن المبرأوى يرى أن العرف كان قد جرى في الأندلس بالقراءة  
في المصحف لا في الألواح ، ولا فرق بينهما (٨٣) .

ثانيا : الاستظهار ، وهو مراجعة ما كان الطفل قد درسه من قبل ،

---

(٨١) احمد فؤاد الأهوانى : التربية الاسلامية ، ص ١٧٦  
( القاهرة — ١٩٥٥ ) .

(٨٢) ابن مرشد : نظام الحسبة في الاسلام ، ص ١٢٨ .

(٨٣) المبرأوى : جامع جوامع الاختصار ، ص ١٩ .

وذلك بأن يخصص المعلم للطفل وقتا يستمتع منه فيه الى جزء مما قد حفظه الصبي ، واذا أخطأ الطفل كثيرا في حفظه فان عليه أن يدرس ثم يعود للقراءة ، في اليوم التالي \* .

ولقد كان معلم الكتاب مسئولا عن تعليم الصبيان القراءة والكتابة ، ولذلك كان على الأطفال أن يحضروا معهم ألواحهم ومطابريهم ، ولقد كانت تلك الألواح تصنع من الحجر أو الخشب ، وكان من السهل مسحها بالماء أو بقطعة من القماش ، ويصف ذلك البروفيسور خوليان ريبيرا فيقول : « استعمل الأطفال ألواحاً قوية من الخشب ، كانوا يكتبون عليها بأقلامه من القصب ، يغمسونها في الحبر ، وعند الانتهاء من تمرين ما ، غامهم يقومون بمحوها بقطعة من القماش مبللة ، ثم يعاودون الكتابة » (٨٤) \* .

ومما يثير الدهشة ، أن يقول الدكتور أسعد طلس : « وطريقة التعليم في الكتاب ، هي أن يقرأ المعلم آية من القرآن ، ثم يرددتها الطفل حتى يحفظها ، فينتقل الى آية أخرى سواها ، أو يكتب الآيات المطلوبة في لوح » (٨٥) \* .

وأن يقول الدكتور الأهواني « على أن أهم ما يدرس للصبي هو حفظ القرآن على الطريقة الفردية أو الجمعية ، اذ يبدأ المعلم أو العريف بأية يرددتها الصبيان من بعده ، ولكل صبي لوح يكتب فيه ، يثبت فيه ما يريد أن يحفظه ، ثم يمحوه ليكتب شيئا جديدا » (٨٦) \* .

---

(84) Ribera, J. : Ha de la Ensenanza entre los Musulmanes espanoles, p. 34.

Galino, Angeles : Ha de la Educacion Edad Antigua y medieval, p. 463.

(٨٥) أسعد طلس : المصدر المذكور ، ص ٧٨ .

(٨٦) الأهواني : التربية في الاسلام ، ص ٥٢ .

ان وجه الغواية هنا هو متى تعلم الصبي القراءة والكتابة حتى يستطيع أن يسجل ما يملأ عليه .

ان الدكتور الأهواني عند تقسيمه لليوم المدرسى يقول :

وتوزيع العلوم على اليوم المدرسى كالنظام الآتى :

أ — يدرس الصبيان القرآن من أول النهار في وقت مبكر حتى الضحى .

ب — يتعلمون الكتابة من الضحى الى الظهر ... الخ (٨٧) .

ونفس التقسيم تقريباً ، يضعه الدكتور طلس فيقول : « كان من العادة أن يذهب الطفل الى الكتاب مبكراً ، فيبدأ يومه بحفظ حزب من القرآن الكريم ، وبعد أن يحفظه يبدأ بالنسخ والكتابة والتمرن على تجويد الحفظ الى وقت الظهر ، ثم يعود الى بيته للغداء ، أو يتغدى في الكتاب ، ثم يبدأ عمله ثانياً بعد صلاة الظهر حتى فترة العصر يقرأ ويكتب ، الى حين الانصراف الى أهله بعد العصر .. » (٨٨) .

ومن دراسة هذا التقسيم يتبين استحالة أن يكتب الطفل ، وخاصة في الأعوام الأولى ، ما يتلى عليه من آيات القرآن ، بسبب الصعوبة في تعلم القراءة والكتابة .

ويمكن لنا أن نتصور حلاً للمشكلة ، بأنه خلال الأعوام الأولى ، يعتمد المعلم على التلقين والتحفيظ ، في الوقت الذى يعمل فيه على تعليم الطفل القراءة والكتابة ، الى أن يصل الى مستوى يسمح له بكتابة ما يملأ عليه مباشرة ، ليتولى حفظه بعد ذلك ، أو أن يتمكن من القراءة في المصحف . هذا ولقد نص ابن سحنون على أن من واجبات المعلم « أن يجعل للأولاد وقتاً يعلمهم فيه الكتب » (٨٩) ، ويفضل ابن سحنون أن

(٨٧) الأهوانى : نفس المصدر ، ص ١٧٦ .

(٨٨) طلس : المصدر المذكور ، ص ٧٨ .

(٨٩) ابن سحنون : آداب المعلمين ، ص ١٠٠ .

يكون ذلك الوقت من الفصحى الى وقت الظهور تقريبا فيقول : « وليجعل الكتاب من الفصحى الى وقت الانقلاب » (٩٠) .

ويذهب الدكتور أحمد شلبي الى رأى آخر يقسم تلك المرحلة من التعليم الى قسمين ، أو يفرق في الكتاب بين نوعين : نوع أولى لتعليم القراءة والكتابة فقط ، ثم ينتقل منه الطفل بعد ذلك الى تعلم القرآن وباقي العلوم في مكتب آخر ، وأورد طائفة كبيرة من الآراء التي يستند عليها ، وإن كان من الواضح أن ذلك النوع من المكاتب ، إن كان قد وجد ، كان في المشرق فقط ، حيث لم يأت الدكتور شلبي بأى نص ، يمكن أن يستدل منه على وجود نوعين من المكاتب في الأندلس (٩١) .

أما بالنسبة للأندلس ، فأعتقد بوجود نوع واحد من المكاتب يتم فيه تعليم القراءة والكتابة ، والقرآن ، وبعض العلوم الأخرى كما سبق أن أوضحت وعلى ما يبينه صراحة ابن خلدون (٩٢) .

#### بعض النواحي التربوية في المرحلة الأولى :

يرى ابن عبدون أن التعليم صناعة تحتاج الى معرفة ودربة ولطف ، فانه كالرياضة للمهر الصعب الذي يحتاج الى سياسة ولطف وتأنيس حتى يرتاض ، ويقبل التعليم (٩٣) .

ولقد أعطى المعلم سلطة واسعة ، إن لم تكن مطلقة على الأولاد ، رغبته الى مكانة الوالد بالنسبة لهم ، فملاوة على مسئولياته التعليمية ، فهو مسئول أيضا عن النواحي التربوية ، وأهم ما يجب أن يكون موضع اهتمام المعلم : تعليم الأولاد الصلاة ، وطاعة الوالدين ، والبعد عن

(٩٠) ابن سحنون : نفس المصدر ، ص ١٠٦ .

(٩١) أحمد شلبي : التربية الإسلامية ، ص ٤٤ - ٥٨ .

(٩٢) انظر مقدمة ابن خلدون ، ج ٣ ، ص ١٢٤٠ - ١٢٤١ .

(٩٣) ابن عبدون : رسالة ابن عبدون .

الأخلاق الفاسدة ، وله الحق في عقاب الأولاد بالضرب لحملهم على هذه الأخلاق الحميدة ، وهنا شروط كثيرة تمنع أن يسرف المعلم في عقاب الأولاد لأن ذلك مضر بالتعلمين ، ويقول ابن خلدون في ذلك :

« ان ارفاف الحد في العقوبة ، مضر بالتعليم ، سيما في أصغر الولد لأنه من سوء الملكة ، ومن كان مرباه بالعنف والقيصر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر ، وضيق على النفس في انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعاه إلى الكسل ، وحمل على الكذب والنخب ، وهو المتظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الأيدي بانقهر عليه ، وعظمه المكر والخديعة لذلك ، وصارت له هذه عادة وخلقاً ، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن ، وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله ، وصار ميالا على غيره في ذلك ، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل ، فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها ، فارتكس ، وعاد أسفل السافلين » (٩٤) .

ويرى السقطي أن لا يضرب الصبي الا تحت قدميه ، ثلاثا ، أو خمسة (٩٥) .

ولقد تحرر الربون الاسلاميون كثيرا من اعطاء سلطة الضرب الشديد إلى المعلمين ، وذلك لأهميتها في نفسية الطفل ، فابن سحنون يقول : لا بأس أن نضربهم على منافعهم ، ولا يجاوز بالأدب ثلاثا ، الا أن يأذن الأب في أكثر من ذلك إذا أدى أحدا ، ويؤدبهم على اللعب والبطالة ، ولا يجاوز بالأدب عشرة ، وأما على قراءة القرآن فلا يجاوز أدبه ثلاثا (٩٦) .

(٩٤) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ١٢٤٤ .

(٩٥) السقطي : آداب الحسنة ، ص ٦٨ .

(٩٦) ابن سحنون : آداب المعلمين ، ص ٨٩ .

أما العقباني ، فيرى ألا يزيد الكتب على ثلاثة ، فإن زاد على ثلاثة ، اقتضى منه (٩٧) .

— ٣١ —

وإبن مرشد يقول : ولا يضرب حبيبا بعصا غليظة ، تكسر العظم ، ولا رقيقة تؤلم الجسم ، بل تكون وسطا ، ويتخذ مجدا عريض السير ، ويعتمد في ضربه على الانخاذ والالية ، رأسل الرجلين ، لأن هذه المواضع لا يخشى من الضرب فيها مرض ولا غائلة (٩٨) .

ولقد منع ضرب الصبي على ظهره أو على بطنه ، ويضرب فقط أسفل قدميه (٩٩) ، كما حددت الاجالات التي يحاقب فيها الصبي ومنها : الهرب ، وعدم الحفظ ، اساءة الأدب والفحش في الكلام ، والقيام بالألعاب المحرمة كاللعب بالتمار ، وبصفة عامة القيام بأفعال شائنة ، وأكثر الأدوات استخدمها لضرب الأولاد ، وأشدّها تسوة ، كانت الفلقة ، وإن اقتصر استعمالها على الأمور الكبيرة (١٠٠) .

كما أن على المعلم أن يراعى حاجات الطفل الأساسية ، كأن يسمح له بالانصراف لقضاء حاجته ، ولا يؤخره فيورثه بعض الآلام أو بعض الأمراض في جهازه البولي (١٠١) .

كما كان على المعلم أن يراعى وقت غذائهم وراحتهم (١٠٢) ، ولم يكن مسموحا له باستخدامهم في حوائجه وأشغاله ، التي فيها عار عليه آباؤهم كحمل الحجارة أو نقل الزبل أو غير ذلك (١٠٣) .

(٩٧) العقباني : تحفة الناظر ، ص ٣٢٦ .

(٩٨) ابن مرشد : نظام الحسبة في الاسلام ، ص ١٣٨ .

(٩٩) المغراوي : جامع جوامع الاختصار ، ص ٤٠ .

(١٠٠)

(100) Canard, M. : Falaqa ( Arabica, 1954 ) ,

p. 331.

Ribera, J. : Ha de la ensenaza..., pp. 35,36.

(١٠١) المغراوي : جامع جوامع الاختصار ، ص ٤٠ .

(١٠٢) السطى : آداب الحسبة ، ص ٦٨ .

(١٠٣) ابن مرشد : نظام الحسبة في الاسلام ، ص ١٢٨ .



وحيث أن المكتب كان يضم أولادا من سن متباينة فقد سمح للمعلم باستعمال بعضهم في تعليم البعض الآخر ، كأن يقوم طفل بأمر طفل آخر ، ولكنه لم يكن يسمح لطفل بعقاب طفل آخر ، حيث يقول ابن سحنون بأن « لا يولى أحدا من الصبيان ضرب غيره ، ولا يجعل ليم عربنا منهم ، إلا أن أن يكون الصبي قد ختم وعرف القرآن » (١٠٤) .

ولقد فصل المغراوي في رسالته تفصيلا مطولا عددا كبيرا من آراء المربين المسلمين في مسألة العقاب ، ولا أجد داعيا لذكرها هنا ، لعدم التحويل (١٠٥) .

ونقطة أخرى مهمة جدا في الناحية التربوية ، ويجب أن يراعيها المعلم في المكتب ، ألا وهي العدل بين الصبيان ، واجب عليه : العدل بينهم في جلوسهم وكتبهم وتجويدهم ، وعرضهم ، وتقليب ألواحهم وضبطها ، وإصلاحها (١٠٦) .

#### المعلمون :

يرى البروفيسور خوليان ريبيرا أن التعليم في العالم الاسلامي « قد بدأ بأكبر الشخصيات الاسلامية ، وأكثرهم نبلا وجاها ، ثم مضى يهبط على مدار الزمن ، حتى استقر في أيدي أكثر أفراد المجتمع وضاعة وبنالة ، والسبب في ذلك : أنه في الأعوام الأولى من عمر الاسلام وحسب مايقول ابن خلدون ، كان التعليم يتركز في الرواية الى الآخرين ، الأوامر والنواهي التي سمعت من فم المشرع ، وكذلك إيصال مبادئه ، وبحريرة مجانية محضة . ولقد كان عظماء الرجال ومشايخ القبائل ، ممن

(١٠٤) ابن سحنون : آداب المعلمين ، ص ٩٨ .

المغراوي : جامع جوامع الاختصار ، ص ٤٣ .

(١٠٥) انظر : المغراوي في جامع جوامع الاختصار — الصفحات من

٢٩ — ٤٧ .

(١٠٦) نفس المصدر ، ص ٤٦ .

قاتلوا من أجل نشر الدين الذي أوحى به الله إلى نبيه ، هم الذين قاموا بتعليم القرآن ، الذي كانت تعاليمه ، هي الأساس القوي لأخلاقهم وسلوكهم . ولقد قاموا بهذه الطريقة أو بهذا الجهد دون أن يتوقعوا لحظة أمام أي شك قد يثور في نفوسهم منبعا لالاحساس الشخصي أو الكبرياء ، والدليل أمامهم أن النبي عليه السلام — عند وداعه لوفود القبائل العربية ، أحجبهم بمجموعة من أكابر صحابته ، وكلف هؤلاء بتعليم هذه الشعوب الدين الذي حمله إلى الانسانية ، ولقد عهد بهذه المهمة إلى عشرة من أكابر صحابته ، وبعد ذلك إلى أناس ممن بنوا أقل مكانة .

ولكن عندما انتشر الاسلام بين أمم كثيرة ، وكان من الواجب أن يستخرج من الكتاب الشريف أقصى ما يمكن لحل المشكلات التي حدثت أمام المحاكم والقضاء ، تطلب هذا الأمر تعليما مستمرا وثابتا ، مما جعل من المهنة عملا يمكن الارتقاء منه ، ورؤساء القبائل اضطروا ، اعتمادهم بالمحافظة على السلطة داخل الامبراطورية وعلى سيطرتهم التكميلية ، إلى أن يهجروا العلوم إلى هؤلاء الراغبين في التخصص فيها ، منتقلة بذلك إلى أيدي ليس لها مكانة كبيرة وموضع اختصار النبلاء ، بار الشخصيات . وهذه الآراء ، التي عرضها أكبر مؤرخي الاسلام منذ بصر ، يمكن تطبيقها على أسبانيا ، مع بعض التحفظات » (١٧) .

ثم يمضي المستعرب الأسباني متكلما عن أسبانيا ، شارحا كيف بدأ التعليم فيها على يد كبار الناس مجانا ، ثم تحول إلى مهنة يرتقي منها ، قائلا أن ذلك قد يرجع تقريبا إلى عهد الحكم المستنصر (١٨) .

والحقيقة أن معلمى المرحلة الأولية ، قد تعرضوا لانتقادات كثيرة

(157) Ribera, J. : Ha de la ensenanza los musulmanes expandes, pp. 30,31.

(108) Ribesa, J. ; Op. Cit., pp. 31,32.

بسبب بعض التصرفات السيئة ، التي ارتكبها بعد الدخلاء على المهنة  
وحيث أن تعليم الأولاد القرآن ، والقراءة والكتابة ، قد بدا لكثير من  
الناس أنه عمل سهل ، فلقد اندس عدد كبير من المعلمين في هذه المهنة  
متخذين منها حرفة ، وهؤلاء تسببوا في عدد كبير من الحماقات ، التي  
اتخذت موضوعا أدبيا طريفا ، وخاصة في المشرق \*

لكن دراسة مكانة معلمي الكتاب في الأندلس ، من خلال التراجم  
الجمعة والوافرة التي احتفظت لنا بها كتب التراث الأندلسي تسمح  
لنا بأن نرسم صورة حقيقية للمعلمين ، بعيدا عن ترهات الأدباء ،  
أو قصائد الشعراء \*

وقبل أن تنتقل الى الجانب التاريخي ، أود الإشارة الى أن  
المعلمين في الأندلس لم يسلموا من بعض الاتهامات الأدبية ، مثل تلك  
التي صبا عليها الوزير أبو عامر بن شهيد ، ونقلها إلينا ابن بسام ،  
حيث يقول : « وقوم من المعلمين بقرطبنا ، ممن أتى على أجزاء من  
النحو ، وحفظ كلمات من اللغة ، يحنون على أكباد غليظة ، وقلوب كقلوب  
البعران ، ويرجعون الى فطن حمئة ، وأذهان حدثة ، لا منفذ لها في  
شعاع الرقة ، ولا مدب لها في أنوار البيان \*\*\*\*\* » \*

وفي مجال آخر يقول :

« ومن دليل تقصير عصابة المعلمين ، أنهم لا يقدرّون أن يجعلوا ما  
يحملونه من المعرفة نصيفا ، ولا تغزّر مادتهم أن يتشوّها تأليفا وإنما  
تتسوّبها أنفاسهم فسوا ، بين تلاميذهم \*\*\*\*\* » \*

والنص يحتوي على سباب واحتقار كبير لا أجد داعيا لذكره هنا ،  
ولكن كما قلت ، المسألة هنا موضوع أدبي لا يمكن التعويل عليه كثيرا  
في التواخي التاريخية (١٩) \*

(١٩) ابن بسام : الذخيرة ( التسم الأول ) - الجلد الأول ،

ولست أعنى بذلك أن كافة معلمى المرحلة الأولى في الأندلس كانوا أبرياء تماما ، من التهم الموجهة الى معلمى الأطفال في العالم الاسلامى في العصور الوسطى ، ولكن أريد أن أقول ان أخبارهم السيئة ، على الأقل لم تنشر على الملأ بتلك الصورة المظلمة ، التى يقدمها الجاحظ مثلا عن معلمى الكتاب في المشرق .

وفى الأندلس نرى ابن عبدون الأشبيلي ، يinqد بعض المعلمين ، لكن بصورة مهذبة ورقيقة فيقول :

« ويجب أن لا يكون المؤدب عزبا ولا شابا بل يكون شيخا خيرا دينا غنيا ورعا قليل الكلام والشهوة الى استماع ما لا يعنيه ، وأن لا يحضر الجنائز البعيدة ، ولا يكثر من البطالة ، ولا يهمل الصبيان ولا يزول عنهم الا لأخذ الغدا والوضوء ، ويكون راتبا فى مكانه محافظا على حوائج صبيانہ ، ويجب للحاكم والقاضى ، اذا رأوا مؤدبا يكثر من الاقبال اليهما فى الشهادات ، أن يسألاه عن الحضار ، فان كان صاحب محضره فلا تقبل شهادته لأنه انما يطلب الظهور ، وأن يتسم باسم العدالة ، ليرتضى أو تودع عنده الودائع ، وينال رفعة الذكر والشهرة فى الخير ، وهو عنهما بعيد فان لم تكن عنده محضرة وعرف خبره ، وسمع القاضى حسن الثناء عليه قبله ، وانى لأعرف منهم جماعة بالوصف الذى وصفت ، فيا أسفا عليهم ، مساكين » (١١٠) .

هناك أيضا بعض الانتقادات الأخرى التى توجهت الى هؤلاء المعلمين تتناول بعض تصرفاتهم الشخصية أو أساليبهم التعليمية .

وعلى الرغم من هذا كله ، فلقد تمتع المعلمون ، ومن بينهم معلمو الكتاتيب ، بمكانة اجتماعية طيبة ، وتمتع بعضهم بمكانة اجتماعية عالية جدا .

وأول مظاهر التقدير في الأندلس لهؤلاء ، أن لقب « معلم كتاب » أطلق عليهم ، وتصدر أول ترجماتهم ، وبيان فضائلهم ، وذلك دليل على مكانة هؤلاء ، يقول ابن الفرضي أن :

محمد بن عبد الله بن محمد البهراني المؤدب (توفي ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م) من أهل قرطبة ، كان معلم هجاء ، وكان خير الرواية ، حدث وكتب عنه غير واحد من أصحابنا (١١١) .

وحبيب بن أحمد بن إبراهيم المتوفى ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م ، أنه كان معلم كتاب ، وحدث عنه أحمد بن عون وغيره (١١٢) .

ويشير ابن الخطيب إلى أحمد بن عبد الملك العدوي قائلًا : « وهو اليوم من معلمى الكتاب » (١١٣) .

وهناك مئات التراجم التي تتحدث عن المعلمين والمؤدبين في الأندلس ، ذاكرة فضائلهم وعلمهم ونيوخهم وتلاميذهم ، ولا أجد داعيًا لذكرها هنا (١١٤) .

علاوة على ذلك فإن المستوى الثقافي لمعلمى الكتاب في الأندلس كان مرتفعًا نسبيًا ، ويفسر ذلك كثرة الترجمات الواردة عنهم ، بل إن بعضهم قد ترك آثارًا ثقافية كبيرة ، فيقال عن عمر بن عبد الله الرعيني ، من أهل « رية » أنه سكن قرطبة ، وكان يكنى أبا جعفر جعفر (توفي ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م) ، كان معلم كتاب ، وكان رجلاً صالحاً زاهداً ورعاً ، حدث عنه القاضي يونس ، في غير موضع من تصانيفه (١١٥) .

(١١١) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٩٨ .

(١١٢) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ص ١٠٧ .

(١١٣) ابن الخطيب : الكتيبة الكامنة ، ص ٢٧٨ .

(١١٤) انظر على سبيل المثال في كتاب علماء الأندلس فقط الصفحات

٩ ، ٣١ ، ٤٥ ، ٥٧ ، ١٠٧ ، ١١٨ ، ١٨٤ ، ٢٢٣ ، ٢٣٢ ، ٢٧٦ ،

٢٨٣ ، ٣٥٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٧ ، ٣٩١ ، ٣٩٧ ( طبعة كوديرا ) .

(١١٥) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٣٩٥ .

أما محمد بن محمد - المعروف بالأشبيلى - من أهل قرطبة ( المتوفى ٥٢٢٥ / ٩٣٦ م ) ، فقد كان معلم كتاب ، روى عن محمد بن واضح وغيره ، وكان يجتمع اليه أهل الحسبة والمعلمون ، ويقرءون عليه ، وكان يدخل على أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد ، ويأخذ جوايزه (١١٦) .

ومن هذه الملاحظة يمكن أن نستخلص نتيجتين هامتين :

أولاهما : أن بعض معلمى الكتاب كانت تصل به ثقافته وعلومه الى درجة تجعله يعطى من وقته لإرشاد زملائه المعلمين وتوجيههم أو تثقيفهم فى القراءات وغيرها ، كما أن المعلمين من ناحيتهم كانوا يسعون الى تحسين مستواهم الثقافى دون خجل ، ويجلسون الى واحد منهم يدرسون على يديه .

والثانية : الاهتمام الذى قدمه بنو أمية فى الأندلس للتعليم الأولى وللمعلمين ، وذلك بالسماح لهم ، بأن يستقبوا فى مجالسهم وتقدم الجوائز لهم ، مما يعتبر دليلا على قيمة المعلم ومكانته الاجتماعية .

دليل آخر على أن مهنة تعليم الأطفال لم تكن فى يد أكثر طبقات المجتمع سفالة ، بل العكس من ذلك مارسها رجال من الطبقة العالية جدا ، هو أن الوليد بن هشام ، من ولد المغيرة بن عبد الرحمن الناصر خرج من الأندلس ، واشتغل فى برقة بتعليم الصبيان وتلقينهم القرآن (١١٧) .

ومن ناحية أخرى فإن الخليفة المعطى ، خليفة ميورقة ، انتهاز فرصة غياب مجاهد العامرى ، فى سردانية فى عام ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م ، وحاول

(١١٦) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٤٤ .

(١١٧) الترى : النسخ ، ج ٢ ، ص ٤١٢ .

الاستئثار بملكه ، ولكن شعيب ميورقة لم يؤيده ، وعلم مجاهد به. فإ  
كله ، فأمر حين عودته بعزله وارساله الى بجاية حيث استقر بها مع  
لصبيان البربر (١١٨) \*

كما أن مهنة تأديب الصغار يمكن أن تكون سلما يرتفع بصاحبه  
الى مكانة عالية ، فمحمد بن يحيى بن عبد السلام الأردى ، قدم قرطبة،  
خلزم التأديب في داره ، ثم انتقل الى أحد الحديريين ، ثم استخدمه  
عبد الرحمن الناصر ، لتأديب المغيرة (١١٩) \*

وأخيرا فان الأدب الأندلسى لم ينس أن يبجل هذه المهنة والقائمين  
بها ، فلقد كتب صاحب الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب الى حديقته  
أبى عبد الله اليتيم رسالة تقتطف منها :

« وتعرفت ما كان من مراجعة سيدى لحرفة التكتيب والتعليم ،  
والحنين الى العهد القديم ، فسررت باستقامة حاله ، وفضل ماله ،  
وان لاحظ اللاحظ ، ما قال الجاحظ ، فاعترض لايرد ، وقياس لايطرد ،  
حبذا والله عيش التأديب ، فلا بالضنك ولا بالجديب ، معاهدة الاحسان  
ومشاهدة الصور الحسان ، رعيانا أن المعلمين ، لسادة المسلمين ، وأنى  
لأنظر منهم كلما خطرت على المكاتب ، أمراء فوق المراتب ، من كل  
مسيطر الدرة ، متقطب الأسرة ، متمر للوارد تنمر الهرة ، يغدو الى  
مكتبه كالأمير في موكب ، حتى اذا استقل في فرشه ، واستوى على  
عرشه ، وترنم بتلاوة قائلوته وورشه ، أظهر للخلق احتقارا ، وأزرى  
بالجبال وقارا ، ورفعت اليه الخصوم ، ووقف بين يديه الظالم

(١١٨) المبادئ : الصنالية في اسبانيا ، ص ٢٦ .

(١١٩) الزبيدي : طبقات النحويين ، ص ٢٣٦ — ٢٤٠ .

— Al — Abbadi : Los esclavos en Espana, p. 26. El texto  
ara be, p. 26.

والمظلوم ، فتقول كبرى في أيوانه ، والرشيدي في آوانه ، أو الحجاج  
بين أعوانه » (١٢٠) .

### أجرة التعليم :

مسألة الأجر على التعليم من المسائل المعقدة ، على الأقل من  
الناحية النظرية ، حيث أن الرسول عليه السلام قد سم بتعليم الناس  
القرآن ، دون أن يسأل أحدا أجرا ، وتابعه على ذلك الصحابة ، وعدد  
كثير من التابعين ومن جاء بعدهم ، وهناك الكثير من الأحاديث الحاثثة  
على التعليم مجانا وخاصة القرآن الكريم ، وضم الى القرآن أحاديث  
رسول الله ، وذهبت طوائف كثيرة من العلماء والفقهاء ، الى أنه لا يجوز  
قبول الأجر على تعليم القرآن والحديث .

وتطورت الأمور وامتدت لتشتمل على الحراسات الدينية عامة  
وقال الناس ان التعليم يجب أن يكون مجانا ، والأجر الوحيد المقبول  
على ذلك هو جزاء الله سبحانه وتعالى في الآخرة ، وسار على هذا  
النوال ، عدد كبير من معلمى المسلمين ، سواء الأغنياء منهم والفقراء .

ومن ناحية أخرى ، فاننا نجد أن عددا كبيرا أيضا من النساء  
ومن بينهم الأندلسيون ، يباركون أخذ الأجر ، معلمين ذلك بأن من  
الضرورى أن يوجد من يقوم بتعليم أبناء المسلمين ، وأنه لابد لضمان  
ذلك من دفع أجر على التعليم ، ويرى الدكتور أحمد شلبى أن فكرة  
اعطاء المرتبات لمن يخدمون العلم ، ويسهمون في رفع المستوى الثقافي ،  
قد بدأت في عهد مبكر ، قد ترجع الى عهد أبي بكر ، حين جلس بعض  
الناس في المساجد ليسمعوا الناس بعض الأشياء التي لم يكن المقصود  
منها خدمة العلم ولا وجه الله ، ثم لاستعانة المسلمين بغير المسلمين ،  
للقيام ببعض الأعمال الخاصة مثل الترجمة وغيرها ، وأن هذه الفكرة  
تطورت مع الزمن ، ونسى الناس الحقائق الأولى الخاصة بالتعليم

---

(١٢٠) المقبرى : نفع الطيب ، ج ٨ ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .



مجانا ، خدمة لله ، وأصبح دفع المرتبات للمدرسين شيئا عاديا ، أيا كان الموضوع الذي يدرسه ، وأيا كان الدين الذي يعتنقونه (١٢١) .

ودراسة الكتب التي تناولت تاريخ التربية الإسلامية ، تعطينا فكرة واضحة جدا عن أن المستوى الاقتصادي لمعلمي الكتاب في المشرق كان مستوى متواضعا ، أن لم يكن فقيرا ، ويورد الدكتور شلبي أمثلة كثيرة تدل على ذلك ، حتى في صقلية فإنه يورد ما ينعيه ابن حوقل على معلمي الكتاتيب في صقلية رضاهم بشطف العيش ، وقلة الدخل ، إذ ما كان يتجاوز أيراد الواحد منهم ، عشرة دنانير في العام ، بل ربما لا يصل أيراد إلى هذا الحد (١٢٢) .

أما في الأندلس ، فلقد أفتى الفقهاء بجواز الأجر على تعليم القرآن ، وخاصة ابن حبيب ، وابن حبيب هو فقيه الأندلس ، ولآرائه التشريعية مكانة خاصة ، ولقد برر قبول الأجر على العكس مما عمل به الصحابة الأولون قائلا : وتأويل النهي أن ذلك كان في مبتدأ الإسلام وخين كان القرآن قليلا في صدور الرجال ، غير فاش ولا مستفيض في الناس وكان الأخذ على تعليمه يومئذ وفي تلك الحال ، إنما كان ثمنا للقرآن أما بعد أن صار فاشيا في الناس ، فقد أثبتوه في المصاحف ، وصارت المصاحف وما فيها مباحة للجاهل والعالم ، وللقارئ وغير القارئ ، غير محجوبة ولا ممنوعة ، ولا مطلوبة لقوم دون قوم ، ولا مخصوص بها قوم دون غيرهم ، فإنها الاجارة على تعليمه اجارة البدن المشتغل بذلك ، وليس ثمنا للقرآن (١٢٣) .

وكذلك ، نستدل على أن الأندلسيين قد قبلوا بالأجر ، من مجموعة الوثائق والعقود والآراء التشريعية الصادرة عن ابن حبيب وغيره من

(١٢١) أحمد شلبي : التربية الإسلامية ، ص ٢٣٦ .  
(١٢٢) أحمد شلبي : التربية الإسلامية ، ص ٢٣٩ ، نقلا عن : ابن حوقل : صورة الأرض ، ج ١ ، ص ١٢٧ .  
(١٢٣) أحمد مؤاد الاحوانى : التربية الإسلامية ، ص ٢١٨ .  
تاريخ التعليم في الأندلس .

فقهاء الأندلس ، تلك الوثائق المستخرجة من بعض كتب الفقه ، التي نشرها البروفيسور الأسباني خوليان ريبيرا ، ضمن كتابه عن تاريخ التعليم بين الأسبان المسلمين ، ونعيد نشرها ضمن هذه الرسالة بعد أن اطلعنا على الأصل المخطوط لها بمدرسة الدراسات العربية بمدريد ، بفضل تعاون الدكتور فرناندو دى لاجرانخا « مدير المدرسة » .

لكن على الرغم من كثرة البحث والتنقيب في المصادر التاريخية الأندلسية ، فأننى لم أتمكن من العثور على البيانات الكافية التى تمكنتى من الحكم على المستوى الاقتصادي لمعلمى الكتاب في الأندلس بدقة وإافية ، وعلى العموم ، اذا كانت كتب الأدب أو التاريخ قد قدمت صورة مظلمة عن حياة معلمى الكتاب في المشرق وفي صقلية ، فأننا لا نستطيع أن نطبق هذا الحكم في الأندلس ، لأن مصادرنا الأندلسية ، سواء الأدبية والتاريخية منها ، لم تشر الى مثل هذه الأحوال السيئة ، بل ان ما يمكن أن توحى به ، قد يكون العكس من ذلك تماما .

في الأندلس لم تغفل كتب التراجم والتاريخ أخبار معلمى الكتاب بل ذكرت أسماء الكثيرين منهم ، مصحوبة بأطيب الألقاب والصفات العلمية ، وسبق لى الإشارة الى بعض هذه الأسماء (١٢٤) بل اننى أشرت الى قيام بعض الشخصيات النبيلة بتعليم الأطفال مثلما قام به الخليفة المعطى .

أما من ناحية الأجر فقد بدأ المعلمون في قبوله في فترة مبكرة من تاريخ أسبانيا الاسلامية ، وأول المعلومات التى بين أيدينا في هذا الشأن هي التى أوردها الزبيدي ، عند حديثه عن الغازى بن قيس ، الذى كان ملترما بالتأديب بقرطبة أيام دخول عبد الرحمن الداخل الذى حكم في الأندلس عام ١٣٨هـ / ٧٥٧ م ، فيقول : ذكر محمد بن عمر بن ليابة المتوفى ٣٠٤هـ / ٩١٦م ، أن رجلا حاور بعض المؤيدين في الحذقة

(١٢٤) انظر الملاحظات الواردة عند الحديث عن العلم ، في هذا

(( والحدثة هي ما يدفع للمعلم عند تعلم الحصى القرآن ) فمنعها المؤدب ، فناظره في ذلك ، وتعصب له المؤدبون بقرطبة ، وأشفقوا أن ينفتح عليهم في ذلك باب منع ، فأتوا غازي بن قيس ، فقالوا : ياسيدنا - تعزنا له بالتأديب - عرض غرض لنا كيت وكيت ، فقال : يغرمها صاغرا قميئا ، وتقضى لهم بذلك ، اذ هو مما جرى عليه أمر الناس (١٢٥) .

وعبارة « اذ هو مما جرى عليه أمر الناس » تدل على أن دفع الأجر للمعلمين كان جاريا في الأندلس حتى قبل هذا التاريخ .

ومن ناحية أخرى ، لم أجد من البيانات ما أستطيع أن أحدد به بالضبط ما كان يدفع من أجر للمعلم ، ولكن الشائع هو أن ذلك كان يختلف من معلم الى آخر ومن صبي الى آخر حسب المكانة الاقتصادية لوالد الطفل وشهرة المعلم ، ويقول المستعرب الأسباني في ذلك الأمر :

والمعلم ، من الممكن أن يكون أى شخص يرغب في التخصص في المهنة ، يتفق مباشرة مع الوالد أو الحصى على المادة التي سيعلمها للطفل ، والوقت وطريقة التعليم وشروط الدفع . . . الخ ، حيث أن العقد بينهما عقد حر وخاص .

وبصورة عامة - بواصل المنتشرق الأسباني - فإن العقد كان يبرم لمدة عام مع الوضع في الاعتبار مصلحة الطرفين ، أما المرتب وطريقة الدفع ، فلقد كانت العادة أن يكون جزء منهما نقدا ، وهذا يدفع شهريا والبعض عينا أى من الحبوب ، والعادة أنها كانت تتراوح بين كيلتين أو ثلاث من القمح ، ونصف مكيال من الزيت ، وفي مقابل ذلك ، يعد المعلم ، ببذل كل طاقته في تعليم الطفل .

ولقد كان الشائع جدا تقديم الهدايا للمعلم في العيدين ، وإن جعل ذلك المشرعين على الاغصاح كثيرا بأن هذا ليس ضروريا

أو اجباريا ، والحقيقة أنهم لم يكونوا يشترطون ذلك أو يطلبونه ، حقا مسلما .

وفي أحيان أخرى ، بدلا من أن يتعاقد مع المعلم لمدة عام ، أو لمدة شهرين ، فإنه كان يتعاقد على كمية محددة أو جزء محدد ، يتم تعليمه ، وهذا كان يحمل المعلم ، على أن يعلم الطفل مادة ، أو جزءا من مادة ما ، وفي هذه الحالة يجب التأكيد على أهلية الطفل للتعليم حتى لا يخدع في الثمن وبالتالي يتحصن الوالد ضد شكايات المعلم مستقبلا والتي قد يقدمها ، متعللا بعدم قدرة الطفل على التعلم (١٢٦) .

لكن هناك طريقة أخرى كان يتم بها دفع مرتبات معلمي الكتاب في الأندلس ، وأن كنا نجهل كذلك الكمية أو النوعية التي كان يتم بها الدفع ، أقصد بذلك المرتبات التي كانت تدفع لمعلمي الكتاتيب ، من الأراضي أو العقارات المحبوسة على هذا السبيل ، فإذا كان الحكم المستنصر بالله قد أوقف حوانيت السراجين لدفع مرتبات معلمي الـ ٢٧ مكتبا التي أنشأها في قرطبة ، فلابد وأن هناك كثيرا من الأغنياء قد قاموا هم أيضا بتقليد الحكم في ذلك ، وأنهم تولوا دفع مرتبات المعلمين (١٢٧) .

وفي مقابل الأجر الذي كان يتقاضاه المعلم كان عليه أن يستأجر الكتاب ، وأن يتحمل كل تكاليف المكان .

هذا ولقد أفتى الفقهاء بجواز الشركة في الكتاب ، بل فضلوا ذلك ، لأنه في حالة مرض واحد منهما يمكن للثاني أن يحل محله ، وهناك

(126) Ribera, J. : Ha de la ensenanza entre los musulmanes Espanoles, pp. 34, 35.

(١٢٧) انظر :

Ribera, J. : Ha de la ensenanza entre los musulmanes espanoles, p. 32.

من فضل الشركة على أن يكون أحد المعلمين للقرآن ، والآخر للغة العربية ، وفي حالة المشاركة حدد الفقهاء نصيب كل منهما من الدخل ، أما حسب عمله ، أو حسب علمه .

### تعليم البنات في المكتب :

بالنسبة لتعليم البنات في المكتب في الأندلس لم أجد من النصوص ما يؤكد ذهاب البنت الى المكتب ، والآراء الفقهية التي نقلت إلينا عن ابن سحنون والقاسبي لا ترى أن تذهب البنت الى المكتب ، على أن النهي عن تعليم البنات في الكتاب لا يعنى أنها لم تكن تتعلم ، فقد ألزم القاسبي بضرورة تعليمها ، لضرورة معرفتها الدين والعبادات وقد جرت العادة على تعليم البنات داخل الدور .

واننا لنجد أسماء كثيرة لنساء أندلسيات ، تلمع بعد ذلك في مجائس العلم وفي مجالات الأدب والشعر مما يدل على انتشار التعليم بينهن في الصغر .

لكن ما هو مؤكد لدينا هو قيام عدد من النساء الأندلسيات بممارسة مهنة التعليم ، ومنهن ابنة حزم المعلم ، التي كانت تؤدب مع والدها وأخيها في دار واحدة (١٢٨) .

وكذلك ذكرت لنا « معلمة » أخرى اسمها « فخر » ولم يشر الى أكثر من أنها كانت معلمة ، وقال الرازي أنها توفيت سنة ٣١٧ هـ / (١٢٩) .

---

(١٢٨) ابن الأثير : تكملة المعلة - ج ١ ، ص ١٢ ، ١٤

(طبعة مدريد) .

(١٢٩) نفس المصدر .

والعلّمة الثالثة اسمها غالبية بنت محمّد ، العلّمة الأندلسية - على  
حدّ ما يسمّيها ابن بشكّوآل (١٣٠) .

أما الدور الأكبر للنساء في هذه المرحلة ، فقد مارسنه في بيوت  
الأمراء والأغنياء على ما سبق أن وضحت ، في تعليم الخاصة ،

## الفصل الخامس

### المرحلة التعليمية الثانية

تختلف هذه المرحلة من التعليم الاسلامى فى العصور الوسطى عن المرحلة التعليمية الثانية ، المتبعة حاليا فى مراحل التعليم بالمعالم الاسلامى المعاصر ، كما أنها بالطبع تختلف عن المفهوم الغربى للمرحلة الثانية ، وان تشابهت مع هذه المرحلة فى بعض الالامح .

تشابه المرحلة التعليمية الثانية فى العصور الوسطى مثيلاتها فى العصر الحديث فى أنها تنتجه الى طلبة فى سن المراهقة ومراحل الشباب الأولى ، وتشابه معها فى أن الطالب يخرج من بيته متجها الى المكان الذى يتلقى فيه التعليم — لكنها تختلف عن هذه المراحل فى كونها ليست مرحلة ثانوية تعد الطالب للحياة الجامعية ، على ما هو الحال فى المراحل الثانوية الحالية ، لكنها تعد مرحلة ثانوية وختامية فى ذات الوقت ، حيث يستكمل الطالب خلالها تكوينه الثقافى ويتهجه بعدها الى العمل ، فهى فى حالات الغالبية الشائعة من الطلاب تعتبر مرحلة نهائية ، وان كانت فى حياة الكثيرين ، مرحلة يمكن أن تتبعها مراحل التخصص الدقيق ، أى ما يمكن أن يطلق عليه اسم المرحلة التعليمية الثالثة .

### اماكن التعليم فى هذه المرحلة

#### ( ١ ) المنزل :

واصل المنزل دوره فى هذه المرحلة . سيما مارسه فى المرحلة التعليمية الأولى ، لكن دور المنزل هنا كان أكثر تأثيرا ، حيث قام كثير من الآباء بالتدريس لأبنائهم . بل ان بعض التلامذة قد اكتفوا فقط بما علمه لهم الآباء ، مرتفعين بذلك الى درجة علمية كبيرة ، ومن الطلبة الذين تعلموا على آباءهم نذكر ، على سبيل المثال لا الحصر ،

عبد الواحد بن محمد بن دينار ، من أهل قرطبة ، توفي ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م ، سمع من أبيه ومن أخيه ، ورحل معهما ، وبلغ مبلغ أكابر أهله في العلم (١) .

وأحمد بن مسعود بن بفرج ، المتوفى ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، روى عن أبيه وتفتت عنده (٢) .

أحمد بن محمد بن طلي بن محمد ، المتوفى ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م ، أخذ عن أبيه ، وتفتت عنده (٣) .

وممن انتصر على السماع عن والده ، ومع ذلك حاز شهرة واسعة وصل إلى أن يكون تاضي قرطبة ، النخبة أحمد بن بقي ابن مخلد الذي يقول عنه ابنه الفرغى : كان تاضي قرطبة ، لا أعلمه : سمع من غير أبيه ، وكان زاهدا غاضلا . توفي ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م (٤) .

وكذلك يقول ابن الفرغى عن محمد بن محمد بن عبد السلام ابن ثعلبة الخثني من أهل قرطبة ، المتوفى ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م ، أنه سمع من أبيه أكثر علمه ولا أعلمه روى عن غيره ، وكان مشاورا في الأحكام ، وانفرد عن أبيه برواية كتب لم يروها غيره (٥) .

أما عن استخدام المنزل كمكان للتدريس خلال هذه المرحلة ، فلقد كان شائعا أن يتخذ بعض المعلمين مكانا منفصلا في منزلهم لاستعماله مقرا لتعليمهم ، فلقد ذكر بعض طلبة ابن وضاح المتوفى ٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م ، أنهم كانوا في السماع عنده في غرفة له تدخل عليه رجل وأخبره بوفاة ابنه ، فلم يكثر له ، وأقبل على ما كان فيه

(١) ابن الفرغى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٢٨٩ .

(٢) ابن بشكوال : الحلة ، ج ١ ، ص ٦٧ .

(٣) ابن بشكوال : الحلة ، ج ١ ، ص ٨١ .

(٤) ابن الفرغى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٣٣ .

(٥) ابن الفرغى : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٥٣ .



عن امساك كتابه ، وأمر القارىء أن يتمادى في قراءته (٦) .

وحكى بعض أصحاب الفقيه أبى اسحق بن ابراهيم بن محمد  
ابن باز المعروف بابن الفزاز ، من أهل قرطبة ، المتوفى ٢٤٧ هـ / ٨٨٧ م ،  
قال : كنا نسمع عنده في غرفة له اذ صعدت امرأة عجوز تسأله أن  
يعينها في فداء ولد مأسور لها ببلد العدو ( ثم يواصل حكاية القصة  
الى أن يصل الى قوله ) وبعد شهر ونحن قعود في تلك الغرفة  
اذا صعدت العجوز ومعا فتى وقالت هذا ابني .... (٧) .

أما ابن خير الأسيلي ، فلقد ذكر أنه قرأ الملخص لمسند موطأ  
مالك بن أنس ، لأبى الحسن على بن محمد بن خلف القابسي الفقيه  
رحمه الله - قرأه عليه في منزله ، وكذلك حدثه به الشيخ الفقيه  
القاضي محمد بن عبد الحق بن عطية المحاربى - قرأه عليه في منزله  
بالمرية في ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م (٨) .

وأنه قرأ كتاب «النقض» على نفس الفقيه بمنزله في المرية (٩) ،  
كما أنه قرأ كتاب « تفسير غريب الموطأ » لأحمد بن عمران بن سلامة  
على الشيخ أبى الحسن يونس بن محمد بن مغيث - قرأه عليه  
في منزله (١٠) .

ويبدو أن مسألة اتخاذ مكان في سطح المنزل للتعليم كان شائعا  
أيضا في شمال أفريقيا - يحكى ابن فرحون عن حاتم بن محمد  
ابن عبد الرحمن التميمي القرطبي المتوفى ٤٦٩ هـ / ١١٠٢ م ، قوله :

(٦) ابن عاصم : جنة الرضى في التسليم لما تدر الله وتضى -  
المخطوط رقم ٢٦٤٨ ، ص ١٧٨ ، وانظر :

عباسي : ترتيب المدارك ، ج ٤ ، ص ٤٤٠ .

(٧) ابن عاصم : المخطوط المذكور ، ص ٢٣٩ ، وانظر ايضا : ترتيب

المدارك ، ج ٤ ، ص ٤٤٤ .

(٨) ابن خير : النهرسة ، ص ٩٠ .

(٩) ابن خير : نفس المصدر ، ص ٩١ .

(١٠) ابن خير : النهرسة ، ص ٩١ .

كنا عند أبي الحسن القابسي نحو ثمانين رجلا من طلبة العلم ، وكنا في عليه له ( والعلية هي الحصرية أو المشربية ، وهي غرفة عليها تطل على الشارع بحيث تبرز عن جدران البيت ) ، فصعد الينا الشيخ يوما وتبد شق عليه الصعود ، فقام قائما ، وتنفس الصعداء ، وقال : والله لقد قطعتم أبيهري (١١) .

#### (ب) المسجد :

يعتبر المسجد أهم مؤسسة تعليمية اسلامية على الاطلاق ودراسة هذه المؤسسة في أي منطقة من العالم الاسلامي ، هي دراسة المكان الرئيسي للحياة الثقافية الاسلامية في أي فترة من فترات تاريخها ، والمسجد هو أقدم مؤسسة تعليمية اسلامية ، فلقد أسس الرسول المساجد ، بعد هجرته مباشرة ، وتابعه الناس بعد ذلك ، ولعل السبب الرئيسي في اتخاذ المسجد مركزا ثقافيا يرجع الى أن الدراسات الاسلامية في تلك الفترة المبكرة كانت دراسات دينية تتضمن تعليم الدين الجديد وتفسيره وشرحه ، وتوضيح أسسه وأحكامه ، وتلك العلوم ترتبط بالمساجد أوثق ارتباط ، بل لعلها جزء من العبادة ، ومن هنا كان من السهل على المسلم التوجه الى المسجد للتعلم في الدين وأداء الفروض الدينية .

والحقيقة أن المسجد قد لعب دورا أكبر بكثير جددا من كونه مجرد بناء ، لأداء فروض الدين ، وأكبر من كونه مركزا للتعليم ، فهو علاوة على ذلك كان مقر القضاء ، وموطن بيت المال ، وساحة الاجتماعات العامة ... الخ (١٢) .

ويرى الدكتور ثلبي أن الذي دعا المسلمين الى التركيز بأشياء المسجد هو احساسهم بأن البيوت الخاصة تخفيق باجتماعاتهم

(١١) ابن بشكوال : المسئلة ، ج ١ ، ص ١٥٧ - ١٦٠ .

ابن خرجون : الديباج ، ص ٣٢٥ .

(١٢) محمود ( عبد العظيم ) : المسجد وأثره في المجتمع الاسلامي .

ولا تمنحهم حرية العبادة واللقاء كما يشتهون ، ومن هنا - فيما يبدو - أسسوا المسجد وأطلقوا عليه « بيت الله » إشارة الى أنه لا يحتاج الداخل فيه الى استئناس ولا استئذان (١٣) .

وهناك من يرى أن المسلمين قد أسسوا المساجد تقليدا لليهود والنصارى الذين كانت لهم بيوع وكنائس يتعبدون فيها ، لكن الأكثر صوابا هو أن العرب في بنائهم المسجد ، لم يفعلوا أكثر من مواصلة تقليد عريق لهم في شبه الجزيرة يتمثل في اللقاءات والعبادات التي مارسوها قبل الإسلام ، في البيت الحرام أو الكعبة المكرمة التي أسسها أبو الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام (١٤) ، ولقد صلى المسلمون في الكعبة قبل هجرتهم من مكة الى المدينة بالرغم من عداوة قريش لهم ، وايدائها لياهم .

وأول مسجد بنى في الاسلام هو مسجد « قباء » ويقال أن الرسول قد أسسه أثناء هجرته من مكة الى المدينة ، وهناك من يقول أن بعض المسلمين الذين سبقوا الرسول في الهجرة هم الذين تولوا تأسيسه ، وعندما وصل الرسول - عليه السلام - الى المدينة كان أول عمل قام به هو بناء مسجده الذي عمل فيه بنفسه وكانت حلقات العلم تعقد في مسجد قباء ، كما كان من عادة الرسول أن يجلس في مسجده بالمدينة ليعلم أصحابه دينهم (١٥) .

وكررت بعد ذلك المساجد وزاد انتشارها بتوسع الاسلام وأصبحت العبادة أن يبنى مسجد أو أكثر في كل مكان فتحه المسلمون أو في كل قرية أو مدينة أسسوها - روى أنه لما فتحت البلدان ، كتب عمر الى أبي موسى وهو على البصرة يأمره بأن يتخذ مسجدا للجماعة ، وأن يتخذ مساجد للقبائل فإذا كان يوم الجمعة انضموا الى مسجد

(١٣) أحمد شلبي : التربية الاسلامية ، ص ١٠٢ .

(١٤) نفس المصدر ، ص ١٠٢ .

(١٥) شلبي : التربية الاسلامية ، ص ١٠٤ .

الجماعة ، وكتب الى سعد بن أبي وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك ،  
وكتب الى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك (١٦) .

أما في الأندلس ، فإنه يقال ان أول مسجد تم بناؤه بها هو  
« مسجد الرايات » الذي أسسه موسى بن نصير في الجزيرة الخضراء  
ويقول الادريسي « الجزيرة الخضراء أول مدينة افتتحت من الأندلس  
في صدر الاسلام وذلك في سنة ٩٠ من الهجرة ( ٧٠٩ م ) - افتتحها  
موسى بن نصير (١٧) من قبل الروانيين ، ومعه طارق بن عبد الله  
ابن ونمو الزناتى ( طارق بن زياد ) ومعه قبائل البربر ، فكانت هذه  
الجزيرة أول مدينة افتتحت في ذلك الوقت ، وبها على باب البحر  
مسجد يسمى « بمسجد الرايات » ، ويقال انه هناك ، اجتمعت رايات  
القوم للرأى (١٨) .

أما في باقى مدن أسبانيا الأخرى التى فتحها المسلمون ، فاقعد  
قاموا في البداية ، وبسبب ظروف الحرب ، بمشاركة المسيحيين  
كنائسهم ، واتخاذ جزء من هذه الكنائس مكانا للعبادة ، مثلما  
حدث في قرطبة ، حيث شارك المسلمون النصارى في كنيستهم الكبرى ،  
المعروفة باسم « ثنت بيجت » ، وأقاموا في شطرنج مسجدا ركز  
قبلته حنث الصنعانى التابعى (١٩) .

هذا ولقد انتشرت المساجد في الأندلس انتشارا كبيرا جدا  
فقام الخائف والأمرء ببناء المساجد الجامعة في كل مدينة وفي كل  
قرية ، كما قام الأغنياء والعلماء والفقهاء ببناء مساجد خاصة بهم  
ومن الصعب جدا حصر العدد الذى وصلت اليه المساجد في الأندلس ،

(١٦) نفس المصدر ، ص ١٠٤ .

(١٧) أخطأ الادريسي في تحديد التاريخ ، ولعله خطأ من النسخ ،  
اذ من المعروف ان عبور موسى الى الأندلس كان في عام ٩٣ هـ / ٧١٢ م .

(١٨) الادريسي : نزعة المشتاق ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

(١٩) عبد العزيز سالم : العمارة الدينية بالأندلس ، دائرة معارف

الشعب ، رقم ٢ ، ص ١٠٧ .

ولكن يكفى القاء نظرة واحدة على « قائمة أسماء الأماكن والبلدان الواردة في كتاب « الصلة » لابن بشكوال (٢٠) ، لنرى أن المؤلف أشار الى المسجد الجامع في قرطبة ٧٣ مرة والى جامع الزهراء ١١ مرة ، وأن الكتاب قد تضمن أسماء ٧٥ مسجدا خاصا أقامها الأفراد أو بنتها العائلات (٢١) . وإذا علمنا أن فتح بن ابراهيم الأموى المتوفى ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م قد بنى بطليطة مسجدين ، أحدهما بالجبل البارد والثانى بالدباغين (٢٢) ، وإذا علمنا أن بمنطقة قرطبة فقط كان يأتى لصلاة الجمعة مع عبد الرحمن الثالث أكثر من ٣٠٠ فقيه ، يضع كل منهم القالص على رأسه ( ولا يضع القالص الا من حفظ الموطأ أو المدونة ) من القرى القريبة لى يحيطوا الخليفة علما بما يحدث في قراهم (٢٣) ، أمكن لنا أن نتصور الرقم الكبير ، لعدد المساجد في الأندلس . ويذكر أحد المؤرخين أنه كان بقرطبة فقط ١٣٨٧٠ مسجدا ، وأن ريبض شقندة فقط ، كان به ٨٠٠ مسجد (٢٤) ، وعلى الرغم من اتساقى مع الدكتور حسين مؤنس على أن ذلك وهم من المؤلف وأن المؤلفين القدامى كانوا يبالغون في الأرقام كثيرا ، الا أن ذلك الرقم يعكس حقيقة هامة وواقعية ألا وهى كثرة انتشار المساجد ووفرته في قرطبة . كما أن هذه الأرقام تمثل بالنسبة لهؤلاء المؤلفين على الأقل رقما مثاليا .

ولقد قصدت من التركيز على كثرة المساجد في الأندلس ، أن أبين كثرة انتشار مراكز التعليم في الأندلس ، فلو كان كل مسجد

(٢٠) رودلف سنجر : قائمة بأسماء الأماكن والبلدان الواردة في كتاب « الصلة » لابن بشكوال — مجلة المعهد المصرى رقم ٢٥ — عام ١٩٧٠ م .

(٢١) انظر صفحات المقال المذكور ، ص ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٢٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٤٣٥ .

(٢٣) المقرئ : نصح الطبيب ، ج ١ ، ص ٤٥٨ ( طبعة احسان عباس ) .

(٢٤) حسين مؤنس : وصفت جديد لقرطبة ، ص ١٦٦ .

منها مركزا للتعليم ، واذا وضعنا في الاعتبار أن المساجد الجامعية كان يدرس بها أكثر من معلم واحد ، بدليل أن الدور كان يقسم في المسجد الجامع بين الفقهاء ، كما كان هناك أكثر من مجلس للمعلمين في أنحاء المسجد المختلفة - أمكن لنا أن نقول بكل اطمئنان ، أن عدد المجالس التعليمية ، وبالتالي حلقات المعلمين قد زادت كثيرا عن عدد المساجد التي كانت قائمة في الأندلس .

وحيث أنه من الصعب حصر كل المعلمين الذين تولوا التدريس في مساجدهم الخاصة أو كل المعلمين الذين جلسوا للتعليم في مسجد واحد في وقت واحد أو في أوقات متقاربة ، فأننى أقدم هنا بعض الأمثلة على سبيل المثال - لا الحصر :

مفرج بن يونس بن مفرج بن محمود ، المكنى ، سكن قرطبة وكان يعلم بمسجد سرور (٢٥) .

محمد بن يوسف بن محمد الأموى المتوفى ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م كان من أهل الضبط ، والانتقان ، والمعرفة بما يقرأ ، وكان معه نصيب وافر من علم العربية ، وعلم العروض والحساب ، وأقرأ الناس بقرطبة في مسجده ثم خرج عنها في الفتنة واستوطن النغر ، وأقرأ الناس به دهرا ، ثم انصرف الى قرطبة (٢٦) .

على بن أحمد بن أبى بكر الكنانى القرطبى كان مقرئا للقرآن العظيم ، كثير الاعتناء برواياته ، مجودا متقنا ، التزم الامامة بمسجده والاقراء فيه ٦٦ سنة الى أن توفي ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م (٢٧) .

(٢٥) شكيب أرسلان : الحال السندسية ، ج ١ ، ص ٧٢ ، بالنسبة لمسجد سرور . وانظر مقالة قائمة بأسماء الأماكن والبلدان الواردة ، في كتاب « الصلة » لابن بشكوال ، مجلة المعهد الحمرى ببيدريد ، رقم ١٥ (١٩٧٠) ، ص ١٧٦ .

(٢٦) ابن النضرى : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ١٠٠ .

(٢٧) المراكشى : الذيل والكنة ، السفسر الخامس ، ج ١ ، ص ١٥٠ - ١٥٣ .

أما في المسجد الجامع بقرطبة فأنشئ الى :

عبد الله بن عمر بن أبان ، من أهل قرطبة ، كان متقدما في الفتيا ، متعلقا في المسجد الجامع بقرطبة مع أبي زيد عبد الرحمن ابن إبراهيم ، كان نظره في القدر والعلم ، وكان موصوفاً بالفضل (٢٨) .

محمد بن يحيى بن خليل اللخمى ، من أهل قرطبة ، توفي ٣٦٤ هـ / ٩٧٤ م ، كان حافظاً للمسائل ، معتنياً في السوق بالرأى ، وكان يفتى في قرطبة ، ويجتمع اليه في المسجد الجامع للمناظرة (٢٩) .

عبد الله بن محمد المقرئ ، من أهل قرطبة ، توفي ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م ، كان يقرئ على باب المسجد الجامع بقرطبة (٣٠) .

سليمان بن عبد الرحمن بن سليمان ، المتوفى ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م قرأ القرآن على الأنطاكي وأتقنه ، كان يقرأ عليه على باب المسجد الجامع ، وكان أحد أئمة المسجد الجامع ، وأحد المؤذنين فيه (٣١) .

يحيى بن عبد الله بن يحيى بن يحيى الليثي ، من أهل قرطبة المتوفى ٣٩٧ هـ / ٩٧٧ م ، رحل الناس اليه من جميع كور الأندلس ، واختلفت اليه في سماع الموطأ عام ٣٩٦ هـ / ٩٧٦ م ، وكانت الدولة فيه في أيام الجمع بالخدوات ، فتم سماعه منه ، وسمعت منه كتاب التفسير لعبد الله بن نافع ، ولم أشهد في قرطبة مجلساً أكثر بشراً من مجلسنا في الموطأ إلا ما كان من بعض مجالس يحيى بن مالك ابن عايد (٣٢) .

(٢٨) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٢١٢ .

(٢٩) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٧٤ .

(٣٠) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٢٤١ .

(٣١) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٨٨ .

(٣٢) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٩١ .

يحيى بن مالك بن عايد « من أهل طرطوشة » ( ٣٠٠ - ٣٧٥ هـ / ٩١٢ - ٩٨٥ م ) ، قدم طالبا سنة تسعة عشر ( ٣١٩ هـ / ٩٣١ م ) ورحل الى المشرق سنة ٤٧ / ٣٤٨ هـ ( ٩٥٨ م ) ، وحج سنة ٤٨ هـ ، حدثني أنه سمع ببغداد من ٧٠٠ رجل ونيف وجمع علما عظيما لم يجمعه أحد قبله من أصحابه الرحل الى المشرق ، وتردد بالمشرق نحو من اثنتين وعشرين سنة ، وكتب عن طبقات المحدثين وكتب الناس عنه كثيرا بالمشرق ، وقدم الأندلس في سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م ، فسمع منه ضروب من الناس ، وطبقات من طلاب العلم وأبناء الملوك ، وجماعة من الشيوخ والكهول ، وكان يملأ في المسجد الجامع في كل يوم جمعة (٣) .

وتشير هاتان الملاحظتان سؤالا هاما ، وهو أنه اذا كان كل من هذين الأستاذين قد خص وقتا معيناً لتدريسه ، أو لتدريس كتاب ما ، فهل وجدت هيئة حكومية أو أهلية للقيام بهذا التنظيم ؟ ان الأهمية التي كان يتمتع بها مسجد قرطبة ، وكثرة العلماء الراغبين في ممارسة التعليم في هذا المكان العظيم ، توجب ضرورة وجود سلطة ما تعمل على السماح لمعلم ما بالقيام بالتدريس في هذا المكان ، كما تعمل على تنظيم هذه المسألة بصورة لا تسمح بالتعارض فيما بينها .

واذا كانت هاتان الملاحظتان اللتان أوردتهما ابن الفري عن أستاذه يحيى بن عبد الله ويحيى بن مالك تبين لنا أن الأستاذ قد خص وقتا من كل أسبوع لتدريس كتاب معين : أقصد بذلك تخصيص صباح الجمعة لتدريس كتاب الموطأ أو أنه قد خص وقتا لتدريسه ، مثل تخصيص يوم الجمعة لأملائه فان الملاحظة التالية التي أوردتها عن سعيد بن كرسيلين ، المتوفى في حدود عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م ، تبين لنا أنه كانت هناك مواضع مخصصة لتدريس معلم ما ، فيقول :



كان شيخا غفيا ، وكانت فيه دعابة ، سجع بقرطبة من ابن رباح وابن باز وغيرهما ، وكان يتحلق في المسجد الجامع بموضعه ويقرأ عليه (٣٠) .

ويؤكد ذلك بما لا يدع مجالا للشك ، ما جاء في ترجمة عيسى ابن عبد الرحمن بن عقاب العافقي ، من أنه كان مقرئا مجودا ، قرأ القرآن طويلا بجامع قرطبة ، وأتى يوما الى مصطبة اقرائه ، فأخذ يتنفل ، فلما رفع رأسه من سجوده وأراد النهوض الى القيام ، عثر في ثوبه فسقط على الأرض ميتا (٣١) .

ملاحظة أخرى يمكن تبينها من دراسة المساجد الجامعة في مدن الأندلس ، ألا وهي ضرورة وجود أحد كبار الشيوخ المعلمين لتسولي التدريس بالمسجد ، وأنه اذا ما خلا هذا المكان بسبب الموت أو الهجرة أو الانتقال الى بلدة أخرى ، فان أهل المدينة أو الدولة كانوا يسعون لاحضار معلم آخر لكي يحتل نفس المكان .

فيقال مثلا عن أحمد بن خالد ( المتوفى ٣٢٢ هـ / ٩٣٣ م ) ، انه عزم عليه في الانتقال الى الجامع بأمر أمير المؤمنين ، بما لم يجد منه بدا ، وعمارته بنشر العلم ، بعد موت محمد بن لبابة ، فأجاب الى ذلك بعد اباية شديدة (٣٢) . وكان أبو محمد بن أبي طالب المتوفى ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م قد دخل قرطبة أيام المظفر بن أبي عامر ولا يؤبه بذكره الى أن نوه بمكانه ابن ذكوان القاسمي ، وأجلسه في الجامع فنشر علمه (٣٣) .

(٣٤) ابن النفرى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٣٥) المراكشي : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الثانى ،

ص ٥٠٠ .

(٣٦) اليعصبى : ترتيب المدارك ، ج ٥ ، ص ١٧٧ .

(٣٧) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٩٧ .

اليعصبى : ترتيب المدارك ، ج ٤ ، ص ١٢٧ .

ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ٢ ، ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

تاريخ التعليم

عمر بن عبد الغنى المتوفى ٦١٠ هـ / ١٢١٣ م — وكان قد استدعاه أهل مالقة بعد ارتحال السهيلي — وقيل بعد موته — للتدريس بها والاقراء مكانه ، فأجابهم الى ذلك ، واستقر بها الى أن توفى (٢٨) .

أما محمد بن يحيى بن على بن مفرج الأنصارى المالقى المتوفى ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ م ، فقد جلس للناس بالجامع الكبير بعد أبى عبد الله الطخالى (٢٩) .

على بن عمر بن ابراهيم بن عبد الله الكنانى ( ٦٥٠ — ٧٢٠ هـ / ١٢٥٢ — ١٣٢٠ م ) ، أوجد زمانه علماء وتواضعا وثقفتنا ، ورد على غرناطة مستدعى عام ٥٧١٢ هـ / ١٣١٢ م ، وقعد بمسجدها الأعظم يقرئ ههنا من العلم من قراءات وفقه وعربية وأدب (٣٠) .

وبالإضافة الى ذلك ، يقال عن أحمد بن ابراهيم بن الزبير ، المتوفى ٥٧٠ هـ / ١٣٠٨ م ، أنه أقرأ القرآن والنحو والحديث بمالقة وغرناطة وغيرها ، كان كثير الانصاف ، ناصحا في الاقراء ، خرج من مالقة ومن طلبته أربعون يقرءون كتاب سيبويه ، ثم عرض له أن السلطان تغير عليه فجعل سجنه داره ، وأذن له في حضور الجمعة ، فلما مات شيوخ غرناطة وشغل البلد من عالم رضى عليه وقعد بالجامع يفيد الناس (٣١) .

نقطة أخرى مهمة جدا فيما يتعلق بدور المسجد في الحياة التعليمية في الأندلس ، فعلاوة على كونه مقرا لممارسة التعليم فإن دراسة عشرات من تراجم علماء الأندلس يمكن أن توحى لنا بأن بعض هذه الملاحظات واضحة جدا ، في أن العلم كان يسكن المسجد ،

(٢٨) المراكشي : الذيل والتكملة : السقوة الخامسة ، القسم الثانى ، ص ٢٥٣ .

(٢٩) السيوطى : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٢٦٥ .

(٣٠) المقبرى : فتح الطب ، ج ٨ ، ص ٢٢ .

(٣١) السيوطى : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٢٩٢ .

وبعضها يشير الى الاقامة بحومة المسجد ، فان ذلك يبين أنه كانت تلتحق بالمسجد بعض الحجرات لأقامة هؤلاء بها ، وخاصة اذا كانوا ممن يعملون في خدمة هذا المسجد ، أو أن هناك بعض الدور والمنارل التي كانت تحبس على المسجد لتخصيصها لذلك الغرض .

فيقال عن أحمد بن خالد ، فقيه الأندلس وعالمها ، أنه قد وضع كتابا في حق العلماء قبول جوائز السلطان ، حمله على وضعه وجمعه طمن أهل بلده عليه في قبول جوائز عبد الرحمن الناصر اذ نقله الى المدينة بقرطبة ، وأسكنه دارا من دور الجامع ، وقربه ، وأجرى عليه الرزق ، من الطعام والادام والناض (٤٢) .

على بن معاذ بن سمعان الرعيني ، بجاني ، كان لغويا نسيايا استقدمه الحكم المستنصر بالله ليقتبس من علمه ، وكان عنده جميع كتب عبد الملك بن حبيب وروايته ، وأقام بقرطبة بحومة مسجد سلمة نحواً من سنة ثم عاد الى بجانة مسكنه (٤٣) .

خلف بن على بن ناصر بن منصور ، المتوفى ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م ، قدم الأندلس من سبتة ، وقدم قرطبة وسكن مسجد متعة ، وتبعد فيه ، وسمع منه جماعة من علماء قرطبة وغيرها (٤٤) .

خلف المقرئ ، من ساكني طليبة ، توفي بعد عام ٤٠٨هـ / ١٠١٧م ، كان يسكن المسجد ، ويقرأ عليه ، وكان يحاول عجن خبز به بيده (٤٥) .

أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله التميمي ، المتوفى

(٤٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٢٢٠ .

أبو زهرة : ابن حزم ، ص ٥٩ .

(٤٣) الأراكشي : الذيل والتكملة ، القسم الخامس ، الجزء الأول ،

ص ٤١٠ .

(٤٤) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

(٤٥) ابن بشكوال : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

٥٣٩٥/١٠٠٤م ، أتى مع أبيه الى قرطبة وهو ابن ثمانى سنين ، وكان سكناه بمسجد سرور واسماعه في مسجد شريح (٤٦) .

أما من الناحية التشريعية فقد كان من المستحب أن يبنى بجوار المسجد بعض السقائف لكي يتمكن الغرباء من المبيت بها ، وأحيانا تمارس فيها النواحي التعليمية ، وفي ذلك يقول ابن عبدون :

ولو قدر علي بناء سقائف لمبيت الغرباء حوله لكان من الفخر للرئيس ولأهل البلد بذلك .

يجب أن يجلس القاضى في السقائف رجالا فقيها خيرا يعلم الناس مسائل الدين ، ويعظهم ، ويعلمهم الخير ، ويسهم له القاضى في الوصايا اذا وقعت أو الصدقات نصيبا ، ويكون مأجورا ، ولا يترك أحدا يأكل فيه ولا ينام ، ولا يجهر بصوت الا بالقرآن ، ولا يدخله أحد بسلاح ، فانه لم يأت لحرب ، وانما يأتى متذلا خائعا راجيا ثواب الله . لا يترك أحد يقرأ في البلاطات الا القرآن والسنة ، وغير ذلك من العلوم في السقائف (٤٧) .

أما مسألة بناء المساجد والمحافظة عليها ، فانها انقسمت الى قسمين ، الأول منهما هو المساجد الجامعة ، أو المساجد التي أسستها الدولة ، فليس من شك في قيام حكام الأندلس ببناء المساجد في جميع البلدان والقرى الأندلسية - بدأ هذا مع بداية الحكم الاسلامى في أسبانيا وظل حتى نهاية هذا الحكم ، ولم تغفل المصادر الحديث عن نشاط الحكام في هذا المجال ، فلقد أفاضت الحديث عن مساهمة أمراء بنى أمية في تأسيس المساجد في كافة بلاد الأندلس وخاصة دورهم في التوسيعات التي طرأت على المسجد الجامع بقرطبة حتى أصبح أكبر مسجد في غرب العالم الاسلامى .

(٤٦) ابن بشكوال : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٨٧ .

(٤٧) ابن عبدون : الحسبة ، ص ٢١٣ .

فيقال مثلاً عن عبد المؤمن بن علي : الخليفة الموحدى ، أنه عندما دخلت سنة خمسين وخمسماية ( ١١٥٥ ) أمر بإصلاح المساجد وبنائها في جميع بلاده (٤٨) .

والانفاق على هذه المساجد والمحافظة عليها كان يتم اما من بيت مال المسلمين مباشرة أو من الأعباس الوقوفة على هذه المساجد ، ولم أتمكن من العثور على الوثائق الكافية المتعلقة بالوقف أو ما خصص منها لبعض المساجد المعينة ، فيقال مثلاً عن فرج بن حديدة ، بطليوسى ، المتوفى عام ١٠٨٧/٥٤٨٠م ، أنه كان عالماً بالقراءات ، متصدراً للاقراء بها ، جرى بيته وبين أمير بلده ، المظفر أبى بكر محمد بن عبد الله ابن مسلمة بن الألفطس ما أوجب انتقاله الى أشبيلية فقدمها فى امارة المعتضد بن عباد ، ووافى حينئذ اكمال أمه السيدة بناء مسجدها المنسوب اليها ، فأجلسه المعتضد للاقراء به ، بعد أن أجرى عليه راتباً ونفقة من الأعباس ، فلزم الاقراء به الى أن توفى (٤٩) .

ولقد كان كثير من الأهالى يجلسون كثيراً من أراضيهم وبيوتهم أو بعض موارد دخلهم على المساجد مثلما فعل عبد الملك بن حبيب السلمى ( ٥٣٨هـ / ٨٥٢م ) ، الذى كان له أرض وزيتون بقرية بيرة (٥٠) ، وهى احدى قرى طوق غرناطة ، وكان بها مسجد قراءته ، وجلس جميع ذلك على مسجد قرطبة (٥١) .

أما فرج بن أبى الحكم المتوفى ١٠٥٦/٥٤٤٨م فقد حبس داره على طلبه السنة (٥٢) .

(٤٨) ابن أبى زرع : الاتيس المطرب ، ص ١٥٤ .  
(٤٩) المراكشى : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الثانى ، ص ٥٣٨ ، ٥٣٩ .

(٥٠) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٢٩ .

(٥١) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٥٤٨ - ٥٥٣ .

(٥٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٤٦١ .

من ناحية أخرى فإن اسم « صاحب الأعباس » قد ظهر في أكثر من ترجمة ، مما يشير إلى كثرة هذه الأعباس إلى درجة تحتم اعتبارها مهمة يعهد بالإشراف إليها كما هو الحال في التنظيمات الإدارية الأخرى فيقال عن محمد بن عمرو بن العاصي المتوفى ٥٠٠ هـ / ١٠٠٩ م ، أنه انصرف إلى الأندلس وشهر بالعلم ، وكان مؤسراً وتولى الأعباس بقرطبة (٥٣) .

محمد بن سليمان بن أحمد المتوفى سنة ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م ، وهو من تلاميذ أبي بكر ، ابن صاحب الأعباس (٥٤) . ويشير ابن الخطيب عند حديثه عن القرري الحيلة بغرناطة والأملاك التي تتبعها فيقول :

وجملة المراجع العلمية المرتفعة فيها ، في الأرملة ، في العام وتقريب ، ومعظمها السقى الغبيط الممين ، العالي ، مايتا ألف شتان وستون ألفا ، يضاف إلى ذلك مراجع الأملاك السلطانية ، ومواضع أعباس المساجد ، وسبل الخير ما ينيف على ما ذكر ، فيكون الجميع باحتياط ، خمسمائة ألف وستون ألفا ، والمستفاد فيها من الطعام المختلف الجبوب للجانب السلطاني ، ثلاثمائة ألف قدح ويزيد ويشتمل سورها وما وراءه من الأرجاء الطاحنة بالماء ، على ما ينيف على مائة وثلاثين رحي (٥٥) .

ولعل السبب في اختفاء هذه الوثائق ، هو الظروف الخاصة التي عاشتها الأندلس ، وتكفي نظرة واحدة على البيانات

---

(٥٣) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٤٨٧ .

(٥٤) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٧٩ .

(٥٥) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

Villanueva, Mo. : Habices de las mezquitas de la ciudad de Granada y sus Alquerias. Madrid, — 1961.

Y véase también su obra : Casas, mezquitas y Teindas de los Habices de las Iglesias de Granada. Madrid, 1966.

الوافرة التي بقيت لنا عن مملكة غرناطة ، وهي الفترة الأخيرة والواضحة أيضا لتعطى فكرة واضحة جدا عن الأحباس التي خصصت للخدمات العامة وخاصة للمساجد : ولست أجد داعيا للحديث عن الأحباس في هذه المملكة حيث قامت الأستاذة « كارمن بيا نوييا » بدراسة واسعة واسعة مستوعبة (٥٦) .

أما عن المساجد الخاصة فلقد تولى أصحابها الانفاق عليها ثم أنها تمتعت بنصيب من دخل الأحباس .

وبالإضافة الى المنزل والمسجد ، قام بعض العلماء بالتدريس لطلبتهم خلال قيامه بأعماله الخاصة ، وربما قام الطلبة بمساعدته في عمله خلال ذلك — قال الفقيه محمد بن عمر بن لبابة : كنت يوما عند أبي وهب عبد الأعلى في حبابه بقرب مقبرة قريش ، وكان يعتمرها بيده في نفر من الطلبة تسمع عليه اذ حضر غداؤه ، فيقدمه اليها لنأكل منه (٥٧) .

وهناك من الأماكن الأخرى ما ساهم في الحركة التعليمية : ومن هذه الأماكن الرباطات التي كانت تتخذ للبعد عن العمران وللدفاع عن الحدود ، وقد مورست خلالها حياة كاملة بكل مظاهرها ، وانتشرت الرباطات بصورة كبيرة على عهد مملكة غرناطة ، ربما بسبب تقدم حركة الاسترداد مما أدى الى زيادة الرغبة في العزلة والزهد ، وربما بسبب انتشار المبادئ الصوفية ، ولقد اتخذ التعليم في هذه

(56) Villanueva, Mo. : Habices de las mezquitas de la Ciudad de Granada y sus Alquerias. Ma. 1961.

وانظر أيضا كتاب المؤلفات :

Villanueva, Mo. : Casas, mezquitas y tiendas de las Iglesias de Granada. Ma. 1966.

(٥٧) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ .  
Villanueva, Mo. : Rabitas Granadinas. pp. 79—86.

الأماكن صيغة معينة تميل الى الدراسات الدينية عامة ، والصوفية خاصة (٥٨) .

### المنهج الدراسي

لم يكن لهذه المرحلة التعليمية منيج محدد ، يمكن أن يسير عليه الطالب ، لكنها تميزت باتاحة الفرصة أمام الدارسين لكي ينهلوا من عدد واسع من المواد التعليمية ، ودراسة كتب التراجم تبين لنا أن المواد التعليمية التي كانت معروضة أمام الطلاب لتعلمها قد اتسعت لتشمل كل مناحي الثقافة المعروفة في ذلك الوقت . وإذا كان الطفل في المرحلة التعليمية الأولى قد وجد منها محددًا يتمثل في حفظ القرآن الكريم ، وتعلم القراءة والكتابة ومعرفة شيء من اللغة العربية والشعر العربي الجاهلي ، فإنه بعد الانتهاء من هذه المرحلة لم يجد نفسه مقيدًا بتعلم مواد معينة ، بقدر ما وجد أمامه الفرصة لكي يكون ثقافته ويواصل تعليمه في النواحي التي توافق ميوله وقدراته العقلية . وإذا كان الطفل في المرحلة الأولى ، قد وجد نفسه مرتبطًا بالمكتب يغدو إليه يوميًا ملتزمًا بساعات الحضور والانصراف فإنه في هذه المرحلة قد تخلص من تلك القيود ، ووجد أمامه حلقات المعلمين في المساجد وفي غيرها يختار من بينها الأستاذ الذي يميل إليه والمادة التي يهواها والوقت الذي يناسبه ، وليست أقصد بذلك أن الحرية كانت مطلقة ، لا ، لأنه كان هناك أيضًا من القيود الاجتماعية والأخلاقية ما يحد كثيرًا من هذه الحرية ، ويعمل على عدم إساءة استعمالها ، ويمكن لنا أن نجمع العلوم والمواد التي كانت تدرس في هذه المرحلة في المجموعات التالية :

١ - العلوم الدينية ، وتشتمل على دراسة القرآن والحديث ، وما نجم عنهما من علوم مثل التفسير ، والقراءات ، والفقه ، والكلام .. الخ .



٢ - العلوم اللسانية ، وهى العلوم المتصلة باللغة العربية  
مثل النحو ، واللغة ، والبيان ، والأدب ، وغير ذلك .

٣ - العلوم العقلية : وتتضمن الفلسفة والهندسة والرياضيات  
والفلك والتنجيم والموسيقى والطب والكيمياء والطبيعة والتاريخ  
والجغرافيا ... الخ .

### ١ - العلوم الدينية

تركزت الدراسات الدينية فى الأندلس ، كما كانت فى بقية أنحاء العالم  
الإسلامى فى دراسة القرآن الكريم والحديث الشريف وهما أساس  
الثقافة الإسلامية عامة . والحقيقة أن الدراسات القرآنية ودراسات  
الحديث الشريف قد منحت العقل الإسلامى فرصة واسعة لإبداع  
علوم جديدة متعلقة بها ، ولخلق مجالات واسعة للتفكير نفسه ، فمن  
الدراسات القرآنية ما هو متعلق بالقرآن نفسه ومنها ما نجم عن  
هذه الدراسات .

فمن الدراسات المتعلقة بالقرآن ذاته ما لخصه السيوطى المتوفى  
٥٩١١ / ١٥٠٥م فى كتابه الانتقان فى علوم القرآن على النحو  
التالى :

— معرفة سبب النزول .

— معرفة المناسبة بين الاثبات .

— الفواصل .

— معرفة الوجوه والنظائر .

— علم التشابه .

— علم المبهمات .

— أسرار الفواتح .

— خواتم السور .

- المكي والمدني \*
- أول ما نزل \*
- على كم لغة نزل \*
- كيفية انزاله \*
- بيان جمعه ومن حفظه من الصحابة \*
- معرفة تقسيمه \*
- معرفة أسمائه \*
- معرفة ما وقع فيه من غير لغة الحجاز \*
- معرفة ما فيه من غير لغة العرب \*
- معرفة غريبه \*
- معرفة التصريف \*
- معرفة الأحكام \*
- معرفة كون اللفظ والتركيب أحسن وأفصح \*
- معرفة اختلاف الألفاظ بزيادة أو نقص \*
- معرفة توجيه القرآن \*
- معرفة الوقف \*
- علم رسوم الخط \*
- معرفة فضائله \*
- معرفة خواصه \*
- هل في القرآن شيء أفضل من شيء \*
- في آداب تلاوته \*
- في أنه هل يجوز في التصانيف والرسائل والخطب واستعمالها
- بعض آيات القرآن \*
- معرفة الأمثال الكامنة فيه \*
- معرفة أحكامه \*

- معرفة جدله •
- معرفة ناسخه من منسوخه •
- معرفة موهم المختلف •
- معرفة المحكم من المتشابه •
- في حكم الآيات التشابهات الواردة في الصفات •
- معرفة اعجازه •
- معرفة وجوب متواتره •
- في بيان معاضدة السنة والكتاب •
- معرفة تفسيره •
- معرفة وجوه المخاطبات •
- بيان حقيقته ومجازه •
- في الكنايات والتعريض •
- في أقسام معنى الكلام •
- في ذكر ما تيسر من أساليب القرآن •
- في معرفة الأدوات •

ويعلق السيوطي على هذا بقوله : واعلم أنه ما من نوع من هذه الأنواع الا ولو أراد الانسان استقصاءه لاستفرغ عمره ثم لم يحكم أمره (٥٩) •

أما المواد الدراسية التي نجمت عن الدراسات القرآنية فهي كثيرة أيضا ، ولكن أهمها تركز في التفسير والقراءات والفقہ • وأوجز هنا معنى كل علم من هذه العلوم ومكانته ضمن التعليم الديني في الأندلس وما ترتب عنه من العلوم الأخرى •

---

(٥٩) السيوطي : احكام القرآن ، ج ١ ، ص ٦ •

### علم التفسير :

وجدت مدرستان من مدارس التفسير في الاسلام ، الأولى منهما هي مدرسة التفسير بالمأثور ، ونظرية هذه المدرسة كانت تقوم على التفكير النقلى ، الذى يستمد أصوله مما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكبار صحابته ، والثانية هي مدرسة التفسير بالرأى ، ونظرية هذه المدرسة كانت تقوم على التفكير العقلى أو الفلسفى ، وكانت تستمد أصولها من الفكر العقلى المتحرر ، وأصحاب هذه المدرسة جلهم من المعتزلة (١) .

والمدرسة التى سادت في الأندلس هي المدرسة الأولى مع التفكير بوجود بعض بذور المدرسة الثانية ، وأشهر مفسريها ابن عباس وهو أول من وضع تفسيراً للقرآن الكريم ، مرتباً حسب السور والآيات — والسدى المتوفى ١٢٧هـ / ٤٧٦م ، وقد اعتمد تماماً على ابن عباس — ومقاتل بن سليمان الأسدى المتوفى ١٥٠هـ / ٧٦٧م ، ثم تفسير ابن جرير الطبرى المتوفى ٣١٠هـ / ٩٢٢م ، ويقع في ثلاثين مجلداً حسب طبعة القاهرة ١٩٠٤م .

وأشهر المفسرين في الأندلس ، بقى بن مخلد المتوفى ٢٧٦هـ / ٨٨٩م ، ويقول ابن حزم عنه ما يلى :

وفي تفسير القرآن كتاب أبى عبد الرحمن بقى بن مخلد فهو الكتاب الذى أقطع قطعاً ، لا أستثنى فيه أنه لم يؤلف في الاسلام مثله ، ولا تفسير محمد بن جرير الطبرى ولا غيره (٢) .

ويذهب ابن حزم لأبعد من هذا حيث يقرر أن قواعد ابن مخلد صارت أسساً للإسلام وأنه أصبح صاحب مذهب خاص لا يقلد فيه

---

(٦٠) عبد الشافى غنيم : الحضارة العربية ( مجموعة محاضرات بكلية التربية عام ١٩٧٠ ) .

(٦١) التبرى : فتح الطيب ، ج ٤ ، ص ١٦٢ .

أحدا « حارت تأليف هذا الامام الفاضل قواعد الاسلام ، لا نظير لها ، وكان متميزا لا يقلد أحدا ، وكان ذا خاصة من أحمد ابن حنبل رضى الله عنه » (٦٢) .

وأبو محمد مكى بن أبى طالب المتوفى ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م ، الذى كتب تفسيره المسمى « الهداية » وهو من عشرة أسفار ، ويعرف أيضا باسم تفسير القرطبي (٦٣) .

ثم هناك محمد بن عطية الغرناطى ( من القرن السادس الهجرى ، الثانى عشر الميلادى ) ، صاحب التفسير الكبير ، الذى ينشر حاليا بالمغرب ، ويقول عنه ابن سعيد ما يلى :

ولأبى محمد بن عطية الغرناطى فى تفسير القرآن الكتاب الكبير الذى اشتهر وطار فى المغرب والشرق ، وصاحبه من فضلاء المائة السادسة (٦٤) .

#### علم القراءات القرآنية :

لقد وجه اهتمام الأندلسيين الأكبر فى مجال الدراسات الدينية الى حفظ القرآن الكريم وقراءاته ، ولقد كان من العادة أن يعين الأمراء فى المساجد بعض القراء لكى يقوموا بقراءة القرآن فيها ، ومن يقرأ لهم القرآن فى منازلهم ، وخاصة فى شهر رمضان . والموحدون قد أخذوا الناس بقراءة حزب من القرآن يوميا ، بعد صلاة الصبح ، كما أنه أكد على العوام ومن فى الديار بحفظ أم القرآن وما تيسر منه ، وألزم نوابه أن يقدموا علماء أمناء من قبلهم ليعلموا الناس ما ذكر (٦٥) .

(٦٢) انظر نفع الطيب ، ج ٤ ، ص ١٥٢ — ١٧٧ وكذلك :

l'Espagne musulmane. pp. 53—103.

Pellat, Ch. Ibn Hazm bibliographe et apologiste de

(٦٣) المقري : نفع الطيب ، ج ٤ ، ص ١٧١ .

(٦٤) المقري : نفع الطيب ، ج ٤ ، ص ١٧١ .

(٦٥) المنوتى : العلوم والآداب ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

وعلم القراءات من أهم العلوم القرآنية على الإطلاق ، ويرى بعض العلماء أنه فرع من فروع علم التفسير ، بل هو الأساس لذلك العلم لأن التفسير لا يتم إلا ببحر القراءات ، كما أن التفسير يتأثر بأسلوب النطق ، وطريقة الرسم ، أى طريقة الكتابة ، وعلى هذا يكون علم القراءات هو المرحلة الأولى ، أو المدخل الصحيح لعلم التفسير ، ولذلك كان اهتمام الأندلسيين بهذا العلم كبيراً بدرجة أنه لم تخل مدينة أو بلدة أو مسجد من مقرئ يقوم بالقراءة الصحيحة للقرآن . ويقول ابن خلدون عن ذلك العلم ما يلي :

« القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي المصحف وهو متواتر بين الأمة ، إلا أن الصحابة روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفيات الحروف في أدائها ، وتوغل ذلك واشتهر ، إلى أن استقرت منها سبع طرق معينة ، تواتر نقلها أيضاً بأدائها ، واختصت بالانتساب إلى من اشتهر برأيها من الجمل الغفير ، فصارت القراءات السبع أصولاً للقراءة ، وربما زيد بعد ذلك قراءات أخرى لحقت بالسبع ، إلا أنها عند أئمة القراءة ، لا تقوى قوتها في النقل » (٦٦) .

ولا يتسع المجال هنا لحصر قراء الأندلس على مدى القرون الطويلة ، ولكن تكفى الإشارة إلى أن كتاب « معرفة القراء الكبار » ، الذى تناول أكبر طبقات القراء في العالم الإسلامى قد ضم من الأندلسيين ١٢٧ قارئاً مشهوراً ، وأشير فقط إلى بعض المقرئين في مدن الأندلس المختلفة ، فمن قراء قرطبة مثلاً :

عبد الله بن محمد القضاعى الأندلسى ، نزيل بجاية ثم نزيل مالقة ثم نزيل قرطبة ، قدمها باستقدام الحكم المستنصر أمين المؤمنين بالأندلس ، في حدود خمسين وثلاثمائة (٩٩١م) - قال أبو عمر :

(٦٦) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٩٤ ، والترجمة الإسبانية ، ص ٧٨٥ .

الدانى ، فأقرأ الناس بها بحرف ورش ، وكان ينحو في قراءته ،  
نحو مذهب القرويين والمصريين ، وتوفى عام ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م (٦٧) .

محمد بن يوسف بن محمد أبو عبد الله الأموى ، كان من أهل  
الضبط والأتقان ، والمعرفة بما يقرى ، عن نصيب وأفر من العربية  
وعلم الفرائض والحساب .

أقرأ الناس بقرطبة في مسجده بعد سنة ٣٨٢ هـ / ٩٩٣ م ، ثم  
نُزح في الفتنة ، وسكن الشجر ، وأقرأ الناس به دهرا ، ثم رد إلى  
قرطبة ، وبها توفى في عام ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م (٦٨) .

على بن عبد الله بن فرج الطليطلى المتوفى ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م ،  
أقرأ الناس دهرا ، وكان ثقة عارفا بالفن ، صالحا واعظا ، قدم  
قرطبة ، وتصدر بخامعها للأقراء ، فأقرأ الناس نحو شهرين ،  
ثم توفى (٦٩) .

محمد بن خير بن عمر الأشبيلي المتوفى ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م ، كان  
مكثرا للغاية ، تصدر بأشبيلية للأقراء والتسميع ، وكان قائما على  
الصناعتين مبرزا فيهما ، نحويا لنحوي ثقة (٧٠) .

يوسف بن عبد الرحمن أبو الحجاج الأشبيلي المقرئ ، توفى في  
حدود ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م ، تصدر للأقراء بأشبيلية وانفرد بعلو  
الاسناد (٧١) .

محمد بن خلف بن عبد الله بن صاف الأشبيلي المتوفى ٥٨٥ هـ /  
١١٨٩ م ، أحد الحذاق ، وأقرأ الناس نحو من خمسين سنة (٧٢) .

(٦٧) الذهبى : معرفة القراء ، ج ١ ، ص ٢٧٤ .

(٦٨) الذهبى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢١١ .

(٦٩) الذهبى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٣٥٤ .

(٧٠) الذهبى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٤٤٥ .

(٧١) الذهبى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٤٥٤ .

(٧٢) الذهبى : معرفة القراء ، ص ٤٤٢ .

عبد الملك بن مسلمة الأموي الدمشقي ، المتوفى عام ٥٤٠ هـ /  
١١٤٥ م ، أحد الحفاظ ، وتصدر زماننا ببليسية للاقراء والنحو (٧٣) .

محمد بن أيوب بن محمد بن وهب البليسي المتوفى ٦٠٨ هـ /  
١٢١١ م ، لم يكن له في زمانه بشرق الأندلس نظير ، كان من الراسخين  
في العلم ، وصدر في المشاورين من الفقهاء ، قد برع في علم القراءات  
والعربية والفقه والفتيا ... الخ .

أقرأ القراءات ، ودرس الفقه ، وعلم النحو ، ورحل الطلبة  
إليه (٧٤) .

محمد بن سعيد بن محمد المراوي الرسي ، تو في عام ٦٠٦ هـ /  
١٢٠٩ م ، أخذ القراءات عن أبي الحسن بن هذيل ، وقال عنه  
ابن الأبار : كان خيرا فاضلا ، أخذ الناس عنه كثيرا (٧٥) .

محمد بن ابراهيم بن الياس المعروف بابن شعيب اللخمي ، تصدر  
بجامع الرية لاقراء القرآن والعربية والآداب (٧٦) .

على بن عبد الرحمن بن أحمد الشاطبي المقرئ المتوفى ٤٩٦ هـ /  
١١٠٢ م ، أقرأ الناس دهرا ، وكان ثقة فيما رواه وتوفى بشاطبة (٧٧) .

محمد بن عبد الرحمن بن عبادة الجياني المتوفى عام ٥٦٤ هـ /  
١١٦٨ م ، أقرأ الناس بجيان وشاطبة ، قال ابن الأبار : كان مقريا  
ماهرا (٧٨) .

محمد بن عبد الله بن مالك الطائي ، من أهل جيان ، وتوفى  
عام ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م ، أقرأ القراءات والنحو بجيان وغرناطة (٧٩) .

(٧٣) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٢٧ .

(٧٤) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٧٤ .

(٧٥) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٧٣ .

(٧٦) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٣٥٩ .

(٧٧) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

(٧٨) الذهبي : معرفة القراء ، ص ٤٢٦ .

(٧٩) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٦٥ .



محمد بن علي بن عبد الرحمن الأندلسي البياسي ، المتوفى عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م ، ولي قضاء بياسة وخطابتها ، وتصدر للاقراء والتحديث وكان حاذقا بالصناعة مجودا ماهرا (٨٠) .

كما تصدر للاقراء بمالقة أحمد بن محمد بن عبد الله بن العباس ، المتوفى عام ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م (٨١) .

أحمد بن علي بن أحمد بن زرقون المتوفى ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م ، تصدر للاقراء بالجزيرة الخضراء (٨٢) .

ولقد ازدهرت القراءات كثيرا في شرق الأندلس على أيام ملوك الطوائف ، ويحدثنا ابن خلدون عن ذلك قائلا :

ولم يزل القراء يتداولون هذه القراءات وروايتها ، الى أن كتبت العلوم ودونت فكتبت فيما كتب من العلوم ، وصارت صناعة مخصوصة وعلمًا مفردًا ، وتناقله الناس بالشرق والأندلس ، جيلا بعد جيل ، الى أن ملك بشرق الأندلس مجاهد من موالى العامريين ، وكان معتنيا بهذا الفن من فنون القرآن ، لما أخذه به مولاه المنصور بن أبي عامر ، واجتهد في تعليمه وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته ، فكان سهمه في ذلك وافرا ، واختص مجاهد بعد ذلك بامارة دانية والجزائر الشرقية فنفتت بها سوق القراء لما كان هو من أئمتهم ، وربما كان له من العناية بسائر العبادات وبالقراءات خصوصا ، فظهر لعهد أبو عمرو الداني وبلغ العناية فيها ، وعول الناس عليها وعدلوا عن غيرها ، واعتمدوا من بينها كتاب التيسير له . ثم ظهر من بعد ذلك فيما يليه من العصور والأجيال ، أبو القاسم بن خيرة من أهل شاطبة ، فعمد الى تهذيب ما دونه أبو عمرو وتلخيصه فنظم ذلك كله في قصيدة لغز فيها أسماء القراء بحروف

(٨٠) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٦٧ .

(٨١) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٤٤ .

(٨٢) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٠٩ .

(أ ب ج د) ، ترتباً أحكمه ليتيسر عليه ما قصده من الاختصار وليكون أسهل للحفظ لأجل نظمها ، فاستوعب فيها الفن استيعاباً حسناً ، وعنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين ، وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس (٨٣) .

ولقد كان من الواجب أن يتمتع المقرئ بصفات خلقية عالية ، ومستوى علمي مرتفع ، حتى يثق به الناس وينصتوا إليه ، ولقد حفلت كتب التراجم بالثناء على المقرئين في الأندلس ، ورفعت بعضهم إلى مراكز الصدارة والمشيخة فيقال مثلاً عن أبي عمر الطلمنكي المتوفى ٣٩٢هـ / ٩٧٣م ، انه كان رأساً في علم القرآن ، قراءاته وأحكامه وناسخه ومنسوخه ومعانيه ... الخ (٨٤) .

أما عن سليمان أبي القاسم المقرئ ، المتوفى ٤٩٦هـ / ١١٠٢م ، فقد كان من جلة المقرئين وفضلائهم وأخبارهم ، عالماً بالقراءات وطرقها حسن الضبط ثقة ديناً (٨٥) .

على بن خلف بن ذى النون الأشبيلي ثم القرطبي ، شيخ القراء بقرطبة ، توفي ٤٩٨هـ / ١١٠٤م ، كان من جلة المقرئين وعلمائهم ، ثقة شهر بالخير والزهد والتقل والصالح (٨٦) .

خلف بن إبراهيم بن خلف بن سعيد القرطبي المتوفى ٥١١هـ / ١١٧م ، كان مدار الاقراء عليه بقرطبة ، وكان ثقة صدوقاً ، بليغ الموعظة فصيح اللسان ، حسن البيان ، جميل المنظر والملبس (٨٧) .

---

(٨٣) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٩٤ ، ٩٩٥ .

(٨٤) الذهبي : معرفة القراء ، ص ٣٠٩ .

(٨٥) الذهبي : معرفة القراء ، ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

(٨٦) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٣٧٣ .

(٨٧) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٣٧٧ .

الحسين بن محمد الحسين بن علي بن غريب الطرطوشي المتوفى  
٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م - كان رأساً في الاقراء ذا حلقة عظيمة ،  
وذا صلاح وتلطف ولين (٨٨) .

الحسين بن يوسف بن أحمد بن يوسف المتوفى ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م ،  
انتبت اليه أستاذية الاقراء ، لائقانه وتحقيقه ، وتجويده ،  
وعلو أستاذه وتقنيته ، وذكائه وكان ضريرا (٨٩) .

ولكى نتبين الحساسية التي كان يعامل بها الأندلسيون أستاذة  
الاقراء ، وعدم تساهلهم معهم حين يجول في صدورهم بعض الشك  
نحوهم ، نرى ما يقوله ابن الأبار ، عن محمد بن أحمد بن مسعود  
الشاطبي المتوفى سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧ م ، بأنه لم يأخذ عنه لتسمحه  
في الاقراء ، والاسماع ، سمح الله له . ويضيف ابن الأبار ، قائلاً :  
رأيت ما يدل على ذلك بخطه ، أن بعض القراء قرأ عليه في ليلة واحدة  
ختمة برواية نافعة (٩٠) .

ويقول ابن بشكوال عن محمد بن المفرج بن ابراهيم البجليوسي  
المتوفى ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م ، انه كان يكذب فيما ذكره (حين دون أستاذه) ،  
وقد وقف على ذلك كله أصحابنا ، وأنكروا ما ذكروا .  
ويضيف انه وقعت له بعض القراءات عن طريق هذا لكن  
باسناد واه (٩١) .

وعن منصور بن الخير أبو علي المالقي المتوفى ٢٥٦ هـ / ١١٣٢ م ،  
يقول ابن بشكوال ، سمعت بعض شبوختنا يضعفه ، ونوفى بمالقة  
وقرأ عليه خلق (٩٢) .

(٨٨) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٤٢ .

(٨٩) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٧٨ .

(٩٠) الذهبي : معرفة القراء ، ص ٤٨٨ . نقلاً عن ابن الأبار .

(٩١) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٣٦٨ .

(٩٢) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

ولقد ألف الأندلسيون في هذا العلم كثيرا ، وأشير الى بعض مؤلفيهم للدلالة فقط :

العاص بن خلف بن محمد الأشبيلي ، المتوفى ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م ،  
صنف كتاب التذكرة في القراءات السبع وكتاب التهذيب (٩٣) .

أحمد بن محمد بن سعيد بن حرب ، توفي في حدود ٥٤٠ هـ /  
١١٤٥ م ، صنف كتاب التقريب في القراءات السبع ، وتصدر للقراء  
بأشبيلية (٩٤) .

محمد بن محمد بن عبد الله بن معاذ الأشبيلي ، المتوفى عام  
٥٥٣ هـ / ١١٣٨ م ، كان اماما في صناعة الاقراء ، مشاركا في العربية  
له كتاب في القراءات سماه كتاب « الايماء » (٩٥) .

أحمد بن محمد القيسي القرطبي ، تصدر للاقراء والعربية ،  
واختصر كتاب التبصرة لمكي في القراءات ، وتوفى سنة  
٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م (٩٦) .

وأختتم بالعالم الأندلسي الكبير ، محمد بن يوسف بن علي بن حيان  
أثير الدين أبو حيان الأندلسي الجباني الغرناطي المتوفى بالقاهرة  
٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م ، الذي كانت له اليد الطولى في الفقه والآثار  
والقراءات واللغات ، وله مصنفات في القراءات والنحو ، وهو مفخرة  
أهل مصرنا في وقتنا في العلم (٩٧) .

لقد نبغ الأندلسيون كثيرا في هذا العلم ، حتى أننا نجد أسماءهم  
تلمع في كثير من مناطق العالم الاسلامي ، ومن ضمنها مدنه الزاهرة  
مثل بغداد أو القاهرة فيقال عن اليسع بن عيسى بن حزم أبو يحيى

(٩٣) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٣٧٣ .

(٩٤) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٣٩٧ .

(٩٥) الذهبي : معرفة القراء ، ص ٤٢٥ .

(٩٦) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٥١٣ .

(٩٧) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٥٧٧ .

الغافقي الأندلسي الجياني ، المتوفى ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م ، بأنه رحل  
فسكن الاسكندرية ، وأقرأ بها ثم رحل الى مصر ، فاشتغل عليه  
الملك الناصر صلاح الدين ، ورتب له معلوماً وافراً . وكان صلاح الدين  
يكرمه ، ويشغفه في مطالب الناس ، لأنه كان أول من خطب على منابر  
العبيدية عند نقل الدعوة العباسية ، تجاسر على ذلك حين تهيبه  
سواه (٩٨) . وفي ذلك الخبر أهمية كبرى ، لظيواره حرص الأندلسيين  
على السنة ، وسعيهم الى نشرها ، ومقاومتهم للأفكار الشيعية .

القاسم بن عيرة بن خلف الشاطبي الضير ، المتوفى ٥٩٠ هـ /  
١١٩٣ م ، استوطن مصر واشتهر اسمه ، وبعد صيته ، وقصده الطلبة  
من كل النواحي ، وكان املاً علامة ، ذكياً كثير الفنون منقطع  
القرين ، رأساً في القراءات ، حافظاً الحديث ، بصيراً بالعربية .

تصدر للاقراء بمصر ، فعظم شأنه ، وبعد صيته ، وانتهت اليه  
الرياسة في الاقراء ، وتصدر للاقراء بالمدرسة الفاضلية (٩٩) .

القاسم بن أحمد بن الموفق المرسى المتوفى ٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م ،  
فلقد أقرأ بالترتبة العادلية بالقاهرة (١٠٠) .

على بن أحمد بن جبير القرطبي المتوفى ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م ،  
أقام تسعة أشهر يقرى ببيت المقدس (١٠١) .

عتبة بن عبد الملك بن عاصم الأندلسي ، نزيل بغداد ، توفي  
٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م ، كان موصوفاً بالدين والصلاح ، ومعرفة  
القراءات ، عالي الاسناد ، عديم النظر (١٠٢) .

---

(٩٨) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٢٧ .

(٩٩) الذهبي : معرفة القراء ، ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

(١٠٠) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٥١٦ .

(١٠١) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٣٨ .

(١٠٢) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٣٢٩ .

الحسين بن عبد السزيز البليسي : المتوفى ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م ،  
كان يكتب المصاحف ، سكن تونس وأقرأ القراءات (١٠٦) .

ابراهيم بن محمد بن عبد الرحمن الأندلسي الأشبيلي المتوفى  
٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م ، كان إماماً ، وداعياً ، معرنة القراءات  
والإباضية ، كثير الترحال والتنقل ، أقرأ بالموصل والشام (١٠٧) .

ولعله تجدر الإشارة الى ما يتال عن المقري البليسي على  
ابن محمد بن علي بن هذيل المتوفى ٥٦١ هـ / ١١٦٨ م ، من أنه كانت  
له خيعة يخرج لتتبعها بتمجده الطلبة ، فمن تارء ومن سامع ،  
وهو منشرح لذلك ، طويل الاحتمال على غرط ملازميتهم له ليلاً ونهاراً ،  
انتهت له رئاسة الاقراء عامة عمره ، لحلو روايته وإمامته في التجويد  
والاقتان (١٠٨) .

#### الفقه :

يتحدث ابن خلدون عن علم الفقه قائلاً : الفقه معرفة أحكام  
الله تعالى في أفعال المكلفين ، بالوجوب والحظر والندب ، والكراهة  
والإباحة ، وهي متلقاه من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفة  
من الأدلة ، فإذا استخرج الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه ،  
وكان السلف يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيما بينهم ،  
ولابد من وقوعه ضرورة أن الأدلة غالباً من النصوص وهي بلغة  
العرب ، وفي اقتضاءات ألفاظها لكثير من معانيها اختلاف بينهم  
معروف ، وأيضا السنة مختلفة الطرق في الثبوت وتتعارض في الأكثر  
أحكامها ، فتحتاج الى الترجيح وهو مختلف أيضا ، والأدلة من غير  
النصوص مختلف فيها . وأيضا فالوقائع المتجددة لا توفي بها  
النصوص ، وما كان منها غير ظاهر في النصوص فيحمل على منصوص

(١٠٢) الذمبي : نفس المصدر ، ص ٤٩٥ .

(١٠٤) الذمبي : معرنة القراء ، ص ٥٢٢ .

(١٠٥) الذمبي : نفس المصدر ، ص ٤١٧ .

إشابة بينهما ، وهذه كلها ماثرات للخلاف ضرورية الوقوع ، ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم .  
ثم أن الحجابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا ، ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم ، وإنما كان ذلك مختصا بالحاملين للقرآن للمارفين بناسخه ومنسوخه ، ومتشابهه ومحكمه ، وسائر دلالاته ، بما تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم أو ممن سمعه منه من عليتهم ، وكانوا يسمون لذلك القراء أى الذين يقرعون الكتاب ، لأن العرب كانوا أمة أمية ، فاختص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم ، لغرابته يومئذ ، وبقي الأمر كذلك صدر الملة .

ثم عظمت أمصار الاسلام وذهبت الأمية من العرب بممارسه الكتاب وتمكن الاستنباط ، وكمل الفقه وأصبح صناعة وعلم ، عبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء ، وانقسم الفقه فيهم الى طريقتين : طريقة أهل الرأي والقياس ، وهم أهل العراق ، وطريقة أهل الحديث ، وهم أهل الحجاز ، وكان الحديث قليلا في أهل العراق لما قدمناه ، فاستكثروا من القياس ، ومهروا فيه ، فذلك قيل أهل الرأي ، ومقدم جماعتهم الذى استقر المذهب فيه وفي أصحابه أبو حنيفة ، وأما أهل الحجاز ، فمرأسهم مالك بن أنس والشافعى من بعده (١٠٦) .

ويرجع المستشرق الأسباني أنخيل غونثالث بالنسيا ظهور الفقه الى اتساع الاسلام وانتشاره من أسبانيا الى سمرقند واحتياج المسلمين الى معالجة قضايا شعوب ذات أصول متباينة ، وظهور قضايا لم يتعرض لها القرآن ولم ترد في السنة ، ومن هنا كان لحوء المسلمين الى الرأي والى القياس والى الاجماع ، قائلا ان أول المذاهب الفقهية ولد مع أبى حنيفة الخوفى عام ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م ، ويصفه بأنه كان تحريرا فلسفيا وأنه أخضع نصوص القرآن للمنطق والحدس

(١٠٦) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ١٠١١ - ١٠١٣ .

العقلي مائلا الى الاستحيان (١٠٧) .

ثم جاءت مدرسة مالك بن أنس المتوفى ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م ، وهي مدرسة جمعت بين التقليد عند الأوزاعي المتوفى ١٥٧ هـ / ٧٧٣ م ، وحرية الرأي ، عند أبي حنيفة معطيا الأهمية الأولى للقرآن والحديث (١٠٨) .

ثم ظهرت الشافعية التي توفي مؤسسها ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م ، ثم بعدها مدرسة أحمد بن حنبل المتوفى ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م (١٠٩) .

وحيث أنه ليس من غرضنا التأريخ للمذاهب الفقهية ، فلننتقل الى الأندلس التي ساد فيها المذهب المالكي ، وسبق لنا الإشارة الى انتشار هذا المذهب في الأندلس عند حديثنا عن عصر الأمير هشام في فصل « الدولة والتعليم » (١١٠) .

عكف الأندلسيون على دراسة المذهب المالكي ، وانتشرت بينهم كتبه ومؤلفاته وخاصة موطأ مالك الذي أدخله الغازي بن قيس المتوفى ١٩٩ هـ / ٨١٤ م (١١١) ، فيقال مثلا عن عبد الملك بن حبيب المتوفى ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م ، أنه كان يخرج من الجامع ، وخلفه نحو من ثلاثمائة ، بين طالب حديث وفرائض وفقه وأعراب ، وقد رتب الدول عليه كل يوم ٣٠ دولة ، لا يقرأ عليه فيها شيئا الا كتبه وموطأ مالك (١١٢) .

(107) González Palencia : Ha de la literatura, p. 271.

(108) González Palencia : op. cit., p. 271.

(١٠٩) سعيد غراب : المذهب المالكي عنصر ائتلاف في المغرب الاسلامي ، ص ٢٢٧ .

(١١٠) راجع في انتشار المذهب المالكي في الأندلس المصادر التي أوردتها عند تناولنا لهذا الموضوع .

وانظر : الملاحظات القيمة التي أوردها الأستاذ سعد غراب في مقالته عن المذهب المالكي عنصر ائتلاف ، ص ٢٤٥ - ٢٤٩ .

(١١١) ابن فرحون : الديباج ، ج ٢ ، ص ١٣٦ .

السيوطي : بنية الوعاة ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ .

(١١٢) ابن فرحون : الديباج ، ج ٢ .



وَأَلَّفَ الأَنْدَلُسِيُّونَ كُتُبًا كَثِيرَةً جَدَا فِي الْفَقْهِ الْمَالِكِيِّ أَهْمُهَا  
الْوَاضِحَةُ لِابْنِ حَبِيبٍ ، ثُمَّ الْمُسْتَخْرَجَةُ أَوْ الْعَنْتَبِيَّةُ ، لِلْعَتَبِيِّ الْمُتَوَفَى  
٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م ، وَمِنْ الْمُسْتَحِيلِ حَصْرُ الْمُؤَلَّفَاتِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ فِي هَذَا  
الْمَجَالِ أَوْ حَصْرُ أَشْهُرِ عُلَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ الْمَالِكِيِّينَ (١١٣) .

وَمِنْ دَلَائِلِ اهْتِمَامِ الْأَنْدَلُسِيِّينَ بِالْفَقْهِ الْمَالِكِيِّ ، أَنَّهُمْ كَانُوا أَحْرَصَ  
عَلَيْهِ مِنْ عُلَمَاءِ أَيِّ أَقْلِيمٍ . إِسْلَامِي آخَرٌ ، وَيُمْكِنُ لَنَا أَنْ نَتَّبِعَ ذَلِكَ  
إِذَا وَضَعْنَا فِي الْإِعْتِبَارِ تِلْكَ التَّرْجُمَةَ الصَّغِيرَةَ الَّتِي أَوْرَدَهَا الْغُبَرِيُّ  
فِي دِرَاسَتِهِ لِمَدُونَةِ سَحْنُونٍ ، فَنَجِدُ أَنَّ سُلْسُلَةَ الرِّوَايَةِ مِنْ سَحْنُونٍ إِلَى  
الْغُبَرِيِّ تَمُرُّ بِعَبْرِ ثَمَانِيَةِ أَسَاتِذَةٍ كُلِّهِمْ ، مَا عَدَا الْآخِرَ ، مِنَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ  
وَهُمْ كَالْتَّالِيِ :

١ - عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ سَعِيدٍ التَّنَوُّخِيُّ ( سَحْنُونٍ )

١٦٠ - ٢٤٠ هـ / ٧٧٦ - ٨٥٤ م .

٢ - مُحَمَّدُ بْنُ وَضَّاحٍ

١٩٩ - ٢٨٦ هـ / ٨١٥ - ٨٩٩ م .

٣ - مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي دَلِيمٍ

تُوفِيَ ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م .

٤ - عَبْدُ الْوَارِثِ بْنُ سَفْيَانَ

٣١٧ - ٣٩٥ هـ / ٩٢٩ - ١٠٠٤ م .

٥ - أَبُو عَمْرِو أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ الْحِذَاءِ

٢٨٠ - ٤٦٧ هـ / ٩٩٠ - ١٠٧٤ م .

٦ - يُونُسُ بْنُ الصَّفَّارِ

٤٤٧ - ٥٣٢ هـ / ١٠٥٥ - ١١٣٧ م .

---

(١١٣) ارجع الى كتاب ترتيب المدارك للقاضي عياض ، أو الديباج

لابن فرحون .

- ٧ - محمد بن عبيد الله الحصري  
٥٠١ - ٥٩١ هـ / ١١١١ - ١١٩٠ م .
- ٨ - أبو بكر محمد بن محرز  
٥٦٩ - ٦٥٥ هـ / ١١٧٣ - ١٢٥٥ م .
- ٩ - عبد العزيز بن عبد القيسى ( أفريقي )  
٦٠٢ - ٦٨٦ هـ / ١٢٠٥ - ١٢٨٧ م .
- ١٠ - أبو العباسي الغبريني ( أفريقي )  
٦٤٤ - ٧١٤ هـ / ١٢٦٦ - ١٣١٥ م ( ١١٤ ) .

ولقد اعتمد الأندلسيون في أول الأمر على دراسة المصادر الرئيسية في الفقه ، وخاصة موطأ مالك ، ومدونه سحنون ، والواضحة لابن حبيب ، والعنينة للعتبي . . . الخ ، ولقد سبق لى أن أشرت الى أنه في صلاة الجمعة كان يأتي الى الخليفة عبد الرحمن الناصر ثلاثمائة غقيه متخلص من قرى قرطبة لأداء صلاة الجمعة ولم يكن يلبس القالس من الفقهاء الا من كان يحفظ موطأ مالك ( ١١٥ ) ، ثم بعد ذلك انتقلوا الى الشروح والمختصرات ، وانخفض بذلك مستواهم العلمي ، ولعل ذلك هو السبب ، في أن الطرطوشي ( ٤٥١ - ٥٢٥ هـ / ١٠٥٩ - ١١٣٠ ) اتهمهم بالجهل حين طالب منه تلميذه أبو بكر ابن العربي أن يرحل الى الأندلس ، فأجابه لا أحب أن أدخل بلدا غلب عليه كثرة الجهل ، وقلة العقل ( ١١٦ ) . ولقد أورد لنا المقرئ نصا ، يصف فيه هذه الحالة ، على النحو التالي :

( ١١٤ ) أعد هذا التسلسل الأستاذ الدكتور خوسيه ماري فورنياس ، الأستاذ بجامعة غرناطة ، ضمن بحث لم ينشر بعد عن انتشار المدونة في الأندلس ، وألقى البحث في الملتقى الأسباني التونسي الرابع الذي عقد بجزيرة ميورقة في المدة من ٢٠ أكتوبر الى ٦ نوفمبر ١٩٧٩ م . وانظر الغبريني : عنوان الدراية ، ص ٣٧٥ .

( ١١٥ ) المقرئ : نفع الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٥٨ ( طبعة احسان عباس ) .

( ١١٦ ) الطالبي : آراء أبي بكر بن العربي الكلامية ، ص ٥٨ .

فلقد تركوا كتب البراذعى على نبلها ، ولم يستعمل منها على كره من كثير منهم غير « التهذيب » الذى هو المدونة اليوم لشهرة مسائله وموانقته فى أكثر ما خلف فيه المدونة لأبى محمد ( سحنون ) ، ثم كل أهل هذه المائة عن حال من قبلهم من حفظ المختصرات ، وشق الشروح والأصول الكبار ، فاختصروا على حفظ ما قل لفظه ونزر حظه وأنفو أعمارهم ، فى فهم رموزه ، وحل لغوزه (١١٧) .

وظلت دراسات المذهب المالكى فى الأندلس حتى نهاية الدولة الإسلامية ، وبرز خلال هذه الفترة عدد جم من كبار الفقهاء والعلمين ، ويقول ابن الخطيب ضمن حديثه عن مملكة غرناطة ، ان « مذاهبهم على مذهب مالك بن أنس ، امام دار الهجرة ، جارية » (١١٨) .

ويقول المقرئ عن أهل الأندلس ، انهم « لا مذهب لهم الا مذهب مالك ، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحضر من ملوكهم ذوى الهمم فى العلوم ، وسمة الفقيه عندهم جليلة ، حتى أن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذى يريدون تنويبه بالفقيه ، وهى الآن بالمغرب بمنزلة القاضى بالمشرق ، وقد يقولون للكاظم والنحوى واللغوى فقيه لأنها عندهم أرفع السمات (١١٩) .

ولقد شهدت أسبانيا الإسلامية المذاهب الفقهية الأخرى بكافة مدارسها ، ولقد كانت قبل انتشار المالكية (١٢٠) ، مقرا لمذهب الأوزاعى . وعاصر الفكر المالكى الشافعى أيضا ، ولقد ظهر هذا الفكر فى الأندلس مبكرا جدا ، ثم انها ازدهرت بها أحيانا دراسات المذهب الظاهرى الذى كان من أبرز رجاله فى الأندلس القاضى منذر بن سعيد البلوطى قاضى الجماعة على عهد عبد الرحمن الناصر ،

(١١٧) المقرئ : النسخ ، ج ٥ ، ص ٢٧٦ ( تحقيق احسان عباس ) .

(١١٨) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٢٤ .

(١١٩) المقرئ : نسخ الطيب ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

(120) González Palencia : Ha. de la literatura, A.E., 6,7.

رابن حزم الظاهري على عهد ملوك الطوائف ، أما الفكر الشيعة فقد وجد له منفذا أيضا على الأرض الإسبانية ، وأشير في هذا المجال الى دراسة الدكتور محمود على مكي (١٢١) ، حيث أنه ليس من مدفنا هنا ، التاريخ للمذاهب التشريعية أو الفقهية في الأندلس .

#### علم الحديث :

يعتبر علم الحديث المصدر الثاني من مصادر التشريع الاسلامي وهو الى جانب ذلك يعتبر أحد أعمدة الحياة الفكرية الاسلامية ، وأحد مناهل الثقافة الاسلامية عامة ، فالتد أدى الاهتمام بعلم الحديث الى تعدد أساتذته ومدارسه في مختلف مراكز الحياة الفكرية في العراق ، كالكوكة والبصرة ، وفي الشام كصور وأنطاكية وصيدا وبيروت ودمشق وحمص ، وفي مصر كالفسطاط والاسكندرية ، وفي افريقية كالقيروان وتونس وفاس ، وفي الأندلس كقرطبة وأشبيلية وغرناطة وبلنسية ، وفي صقلية كبالرموا وسراقوسة وغير ذلك من منارات الحياة الفكرية العربية .

والحديث هو كل ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من قول أو فعل أو تقرير شيء رآه ، وهو يأتي في الأهمية بعد القرآن الكريم ، وذلك أن كثيرا من الآيات القرآنية جاءت مجملة أو مطالطة أو عامة ، فجاء قول الرسول أو عمله تبينها أو قيدها أو خصصها .

وكان الصحابة المعاصرون للنبي يسمعون منه ويشاهدون فعله ، ثم يروون ما يرون وما يسمعون ، ثم جاء التابعون من بعدهم فعاثروا الصحابة وسمعوا منهم ورأوا ما فعلوا ونقلوا عنهم كل هذا . ومن هذا كله نشأ علم الحديث . ويرى أستاذي الدكتور عبد الشافي غنيم ، أنه اذا كان القرآن الكريم قد نجا من كل ادخال أو تغيير ، الا أن

---

(١٢١) محمود على مكي : التشيع في الأندلس ، مجلة المعهد المصري بطبريد - ١٩٥٤ ، ص ٩٣ - ١٤٥ .

الحديث كان على العكس من ذلك حيث تعرض لكثير من عوامل الصناعة والخلق والاضافة مما جعل عملية التعرف على الصحيح من المدسوس عملا لا يطيقه الا الراسخون في العلم ، المتضلعون في النقد ، العارفون بتاريخ السير والأحداث والقدرة على تقييم المحدثين من النساء والرجال ، ويرجع السبب في تعرض الحديث للكثير من الادخال والزيف الى العوامل التالية :

١ - تأخر تدوين الحديث ، حيث أنه لم يدون الا في القرن الثاني من الهجرة .

٢ - الخصومات السياسية التي نشأت في الدولة الاسلامية ومحاولة كل طرف الحصول على نص من الحديث يؤيد موقفه .

٣ - الاسرائيليات ، ولقد لعب اليهود دورا بارزا في هذا المجال وذلك لتحقيق أغراضهم الخاصة .

٤ - الخلافات الكلامية والفقهية .

٥ - محاولات استرضاء أولى الأمر (١٣) .

ويرى صاحب كتاب « خلاصة تهذيب تهذيب الكمال » أنه في أواخر عصر التابعين ، حين انتشر العلماء في الأمصار ، وكثر الابتداع من الخوارج والروافض ، دونت الأحاديث ممزوجة بأقوال الصحابة والتابعين (١٣) .

ونتيجة لذلك كله فان العلوم المتشعبة عن الحديث كانت أيضا كثيرة جدا . وأستخلص مما كتبه ابن خلدون عن هذه العلوم ، الدراسات التالية :

---

(١٢٢) عبد الشافي غنيم : محاضرات في الحضارة العربية ( الحديث ) .

(١٢٣) الخزرجي : خلاصة تهذيب تهذيب الكمال ، ص ٧ .

- الناسخ والمنسوخ ، وهو من أهم علوم الحديث وأصعبها (١٢٤) .
- النظر في الأسانيد .
- معرفة شروط السند .
- معرفة رواية الحديث .
- مراتب الصحابة والتابعين وتفاوتهم في ذلك .
- الألفاظ ، الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع
- والشاذ والغريب .
- الخلافات بين أئمة الشأن .
- الوفاق بين أئمة الشأن ، وغير ذلك من الألقاب .
- كيف أخذ الرواة بعضهم عن بعض : قراءة أو كتابة أو منأولة
- أو اجازة ، وتفاوت رتبها .
- أحوال النقلة ... الخ (١٢٥) .

ولقد وضع المسلمون شروطا كثيرة لمن يقومون برواية الحديث ، أو الاشتغال بعلومه ، ووضعوا في ذلك المؤلفات الكثيرة (١٢٦) .

ومن ناحية أخرى ، فإن علم الحديث قد وضع الأساس ، أو أنه كان السبب الرئيسي في حركة الرحلات التي تميزت بها الحياة العلمية في العصور الوسطى ، حيث أن الصحابة والتابعين ومن تبعهم بعد ذلك كانوا قد تشتتوا في الأمصار ، كل منهم يحمل في صدره ما قد وعاه عن قبله ، وحين اتجهت جهود المسلمين لتدوين الحديث ، كان من

(١٢٤) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٩٩ .

(١٢٥) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٩٩ - ١٠١١ .

(١٢٦) اليعقوبي : المعجم في معرفة الرواية وتقييد السماع .

البغدادى : الكفاية في علم الرواية .

ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة .

الزمخشري : الفائق في غريب الحديث .

ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب .

صبيح الصالح : علوم الحديث ومصطلحه .

الضروري التنقل من مكان الى آخر للقاء هؤلاء الذين يحفظون الأحاديث ويقومون بتدوينها عنهم \*

ويرى الدكتور صبحي الصالح أن هذه الرحلات قد وثقت الأواصر بين بلدان العالم الاسلامي ، وأن ذلك أمر واضح تفرضه طبائع الأشياء ، وما كانت النتيجة لتتم على غير هذه الصورة ، لأن طواف الكثير منهم بالأقاليم ربط بين المشرق والمغرب ، وألقى السدود والحدود ، وجعل هذا العالم الاسلامي أشبه بالمدينة الواحدة (١٢٧) \*

بذل المسلمون جهودا جبارة في سبيل تدوين الحديث وتنقيحه وكتبوا في ذلك مؤلفات لا تحصى ، لكن أشهر الكتب التي وضعت في ذلك المجال هي المؤلفات الست التي تعتبر من أهم المصادر الموثوق بها في دراسات الحديث النبوي وهي :

- ١ - صحيح البخاري ، وقام بوضعه محمد بن اسماعيل البخاري ، واشتمل كتابه على سبعة آلاف ومائتي حديث \*
- ٢ - صحيح مسلم : لمسلم بن الحجاج القشيري \*
- ٣ - سنن أبي داود السجستاني \*
- ٤ - جامع التفسير لأبي عيسى محمد الزندي \*
- ٥ - تفسير النسائي \*
- ٦ - سنن ابن ماجه \*

وأخيرا علينا أن لا ننسى أن علم الحديث هو الذي خلق فكرة الاجازة ، وذلك لتشدهم في عملية النقل والرواية \*

هذا ولقد بدأت دراسات الحديث في الأندلس منذ عهد مبكر جدا ، حيث أنهم قد عرفوا قيمة هذه المادة العلمية واعتزفوا بحققها يقول ابن عبد البر القرطبي المتوفى ٥٦٣هـ / ١٠٧٠م :

---

(١٢٧) صبحي الصالح : علم الحديث ومطلعه ، ص ٥٠ ، ٥١ \*

ان أول ما نظر فيه الطالب ، وعنى به العالم ، بعد كتاب الله عز وجل ، سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهي النبئة لمراد الله عز وجل من مجملات كتابه والدالة على حدوده والمفصرة له والهادية الى الصراط المستقيم (١٢٨) .

وليس من السهل الاشارة الى أشهر المحدثين الأندلسيين ونكتفى ببعضهم فقط :

بقي بن مخلد المتوفى ٣٧٦هـ / ٩٨٩م ، وهو الذى ملا الأندلس حديثاً ورواية ، ولقد ووجه بمقاومة شديدة من علماء الأندلس حيث أنكروا عليه ما أدخله الأندلس من كتب الاختلاف وغرائب الحديث ، وأغروا به السلطان ، وأخافوه به ، ثم أن الله بمنه وخضله أظهره عليهم ، وعصمه منهم ، فنشر حديثه وقرأ للناس روايته ، فمن يومئذ انتشر الحديث فى الأندلس . ثم تلاه ابن وضاح ، فصارت الأندلس دار حديث واسناد ، وانما كان الغالب عليها قبل ذلك حفظ رأى مالك وأصحابه (١٢٩) ، ورغم تلك الأهمية الكبرى التى لبقى بن مخلد فى دراسات الحديث وانتشاره فى الأندلس الا أن المستشرق الأسباني أنخيل غونثالث بالنسيا لم يذكره عند حديثه عن أئمة المحدثين فى الأندلس (١٣٠) . هذا ولقد وصل بقى بن مخلد الى درجة عالية من الشهرة وسعة العلم ، حتى كان يقال فى المشرق : وهل احتاج بلد فيه بقى بن مخلد ، أن يأتى الى هنا منه أحد ؟ وحملت تصانيفه فى الحديث الى المشرق فاعترف بفضلها وقيمتها (١٣١) .

محمد بن وضاح المتوفى ٣٨٧هـ / ٩٩٠م ، الذى رحل الى المشرق مرتين ، ولقى من العلماء ١٧٥ رجلاً ، وكان عالماً بالحديث ، بصيراً

(١٢٨) ابن عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، ص ٢ .

(١٢٩) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٩١ - ٩٢ .

الأوسى : فصول فى الأدب الأندلسى ، ص ٤٦ .

(130) Gonzalez Palencia, A. : Ha. de la Literatura, p. 263

(١٣١) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٩٢ .



يطرقه ، متكلماً على الله ، وبه ويبقى بن مخلد صارت الأندلس دار حديث (١٣٢) .

قاسم بن أصبغ ( ٢٤٤ - ٣٤٠ هـ / ٨٦١ - ٩٥١ م ) (١٣٣) .

محمد بن عبد السلام الخثني ( ٢١٨ - ٢٨٦ هـ / ٨٢٣ - ٨٩٩ م ) ، الذي عاد إلى الأندلس بكثير من الكتب الجديدة ، كان معظمها في علم الحديث . يقول عنه السيوطي : أنه أدخل الأندلس كثيراً من حديث الأئمة (١٣٤) .

ومن محدثي الأندلس المشهورين ابن القوطية المتوفى سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٧ م (١٣٥) .

ويعد ابن عبد البر القرطبي المتوفى ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م من أكبر المحدثين في غرب الإسلام حسب شهادة ابن بشكوال وعلى الرغم من أنه لم يرحل إلى المشرق ، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يكون خليعاً في الفقه والأنساب والأخبار (١٣٦) ، ومن أشهر مؤلفاته في هذا المجال « الاستيعاب » و « التمهيد » (١٣٧) .

هذا ولقد أورد المستشرق الأسباني انخيل غونثالث بالنسيا لائحة بأسماء أشهر المحدثين في الأندلس (١٣٨) .

(١٣٢) ابن الفرعي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ١٥ - ١٧ .

(١٣٣) ابن ماكولا : الأكمال ، ج ١ ، ص ٤٤١ .

(١٣٤) ابن الفرعي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ١٤ .

السيوطي : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ١٢٧ .

الأوسى : فصول الأدب الأندلسي ، ص ٤٦ .

(١٣٥) ابن الفرعي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٧٦ .

González, P. A. : Historia de la Literatura, 263.

(136) González, P., A. : op. cit., p. 264.

(١٣٧) ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب .

ابن عبد البر : التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد .  
(138) González Palencia, A. : Ha da la literatura, 263, 264.

وترجمة حسين مؤنس ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ .

تاريخ التعليم

### علم الكلام :

يحدد ابن خلدون هذا العلم فيقول : انه علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقاد عن مذاهب السلف وأهل السنة (١٣٩) ، أما كيف وجد هذا العلم وكيف خلق فيقول :

اعلم أن الشارع لما أمرنا بالايمان بهذا الخالق الذي رد الأفعال كلها اليه ، وأفرده به كما قدمناه ، وعرفنا أن في هذا الايمان نجاتنا عند الموت اذا حضرنا ، ولم يعرفنا بكنه حقيقة هذا الخالق المعبود ، اذ ذاك متعذر على ادراكنا ، ومن فوق طورنا ، فكلفنا أولا اعتقاد تنزيهه في ذاته عن مشابهة المخلوقين ، والا لما صح أنه خالق لهم لعدم الفارق على هذا التقدير ، ثم تنزيهه عن صفات النقص والا شابه المخلوقين ثم توحيد بالايجاد والا لم يتم الخلق للتمانع ، ثم اعتقاد أنه عالم قادر فبذلك تتم الأفعال شاهد قضيته لكمال الايجاد والخلق ، والا لم يتخصص شئ من المخلوقات ، ومقدر لكل كائن والا فالارادة حادثة ، وأنه يعيدنا بعد الموت ، تكميلا لعنايته بالايجاد الأول ، ولو كان للفناء الصرف كان عبثا ، فهو للبقاء السرمدى بعد الموت ، ثم اعتقاد بعثة الرسل للنجاة من شقاء هذا المعاد لاختلاف أحواله بالشقاء والسعادة ، وعدم معرفتنا بذلك وتمام لطفه بنا في الايتاء بذلك ، وبيان الطريقين ، وأن الجنة للنعيم وجهنم للعذاب .

هذه أمهات العقائد الايمانية معالة بأدلتها العقلية وأدلتها من الكتاب والسنة كثيرة ، وعن تلك الأدلة أخذها السلف وأرشد اليها العلماء ، وحققها الأئمة .

الا أنه عرض بعد ذلك خلافة في تفاصيل هذه العقائد أكثر مثارها من الآي المتشابهة ، فدعا ذلك الى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل

(١٣٩) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ١٠٣٥ ، والترجمة ،

زيادة الى النقل فحدث بذلك علم الكلام (١٤٠) \*

وفي القرون الأولى من الاسلام ، قام السلف بقراءة آيات القرآن ، وآمنوا بها كما هي ، ولم يتعرضوا لمعناها يبحث أو تأويل ولكن عندما كثرت العلوم والصنائع ، وولع الناس بالتدوين والبحث في سائر الأنحاء ، حدثت بدعة المعتزلة ، وقالوا بخلق القرآن ، وناظروا في كل شيء ، وخالفوا الأوائل ، وساندتهم بعض الخلفاء العباسيين في المشرق ، وحدثت فتن كثيرة ، كما سالت دماء غزيرة في هذا المجال \*

وتولى الأشعرية الرد على المعتزلة حتى تمكنوا من القضاء عليهم تماما \*

في أسبانيا الاسلامية ، تسربت آراء المعتزلة ، وظهر ابن مسرة القرطبي الذي ترك مدرسة كاملة (١٤١) \* وقد سبق لي الحديث عن موقف الدولة من هذه الأفكار ، في الفصول السابقة ، وأود أن أؤكد هنا أن الدراسات الكلامية لم تنتشر في الأندلس انتشار غيرها من العلوم ، وأورد هنا هذه القصة التي تعبر تعبيراً صادقاً عن موقف أهل الأندلس ، من علم الكلام :

أحمد بن محمد بن سعدى أبو عمر ، فقيه فاضل محدث رحل قبل الأربعمائة بمدة فلقى أبا محمد بن أبي زيد القيرواني وأبا بكر محمد بن عبد الله الأبهري بالعراق وغيرهما ، ورجع الى الأندلس وحدث \* قال عبد الله بن الوليد : سمعت أبا محمد عبد الله ابن أبي زيد يسأل أبا عمر أحمد بن محمد بن سعدى المالكي عند وصوله الى القيروان من ديار المشرق — وكان أبو عمر دخل بغداد

---

(١٤٠) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٢ ، ص ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ،  
والترجمة ، ص ٨٤١ ، ٨٤٢ .

(141) Asin Palacios , Ibn Masarra y su Escuela.  
Gonzalez, p., A. : Ha de la Literatura, p. 232.

في حياة أبي بكر محمد بن عبد الله بن صالح الأبهري ، فقال له يوما : هل حضرت مجالس أهل الكلام ؟ فقال بلى ، حضرتهم مرتين ثم تركت مجالستهم ولم أعد إليها فقال له أبو محمد : ولم ؟ قال : أما أول مجلس حضرته فرأيت مجلسا قد جمع الفرق كلها المسلمين من أهل السنة والبدعة والكفار من المجوس والذرية والزنادقة واليهود والنصارى وسائر أجناس الكفر ، ولكل فرقة رئيس يتكلم على مذهبه ، ويجادل عنه ، فإذا جاء رئيس من أى فرقة كان ، قامت الجماعة إليه قياما على أقدامهم حتى يجلس فيجلسون بجلوسه ، فإذا تمضى المجلس بأهله ، ورأوا أنه لم يبق لهم أحد ينتظرونه ، قال قائل من الكفار : قد اجتمعتم للمناظرة ، فلا يحتج علينا المسلمون بكتابهم ولا بقول نبيهم فانما لا نصدق ذلك ولا نقر به ، وإنما نتناظر بحجج العقل وما يحتمله النظر والقياس ، فيقولون نعم لك ذلك .

قال أبو عمر : فلما سمعت ذلك لم أعد الى ذلك المجلس ، ثم قيل لى ثم مجلس آخر للكلام ، فذهبت اليه فوجدتهم على مثل سيرة أصحابهم ، سواء ، فقطعت مجالس أهل الكلام فلم أعد إليها ، فقال أبو محمد بن أبي زيد : ورضى المسلمون بهذا من القول والفعل ؟ قال أبو عمر : هذا الذى شاهدت منهم ، فجعل أبو محمد يتعجب من ذلك وقال : ذهبت العلماء ، وذهب الاسلام وحقوقه ، وكيف يبيع المسلمون المناظرة بين المسلمين وبين الكفار ، وهذا لا يجوز أن يفعل لأهل البدع الذين هم مسلمون ويقررون بالاسلام وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، وإنما يدعى من كان على بدعة من منتحلي الكلام الى الرجوع الى السنة والجماعة ، فان رجع قبل منه ، وان أبى ضرب عنقه ، وأما الكفار فانما يدعون الى الاسلام ، فان قبلوا كف عنهم وان أبوا وبذلوا الجزية في موضع يجوز قبولها ، كف عنهم ، وقبل منهم . وأما أن يناظروا على ألا يحتج عليهم بكتابنا ولا بنبينا ، فهذا لا يجوز ، فانما الله وانا اليه راجعون .

أخبرني غير واحد من أشياخي ، منهم القاضي أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد والزاهد أبو محمد بن عبيد الله والأديب الحافظ أبو جعفر أحمد بن أحمد الأزدي وغيرهم عن أبي حبيب عن أبي عمرو بن عبد البر أنه قال :

أجمع أهل الفقه والآثار ، في جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وزبغ ولا يعدون عند الجميع في طبقات العلماء ، وإنما العلماء أهل الأثر والتفقه فيه ويتفاضلون في الاتفاق واليز والفهم .

وقال أبو عمر في كتاب « بيان العلم » (١٤٢) ، له : أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع أشعريا كان أو غير أشعري ، ولا تقبل له شهادة في الاسلام ويفجر ويؤوب على بدعته ، فان تمادى عليها استتيب منها . قال أبو عمر ليس في الاعتقاد كله في صفات الله وأسمائه إلا ما جاء منصوصا في كتاب الله أو صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو اجتمعت عليه الأمة (١٤٣) .

وليس في هذه كل العلوم الدينية التي كانت تدرس خلال هذه الفترة وإنما هناك علوم أخرى كثيرة ، قد تكون بالنسبة للعصر الحالي غير ملائمة مثل معجزات بعض آيات القسرآن ، أو غير ذلك .

## ٢ - العلوم اللسانية

أقصد بالعلوم اللسانية العلوم الضرورية التي تساعد على تفهم اللغة العربية تفهما جيدا ، والحديث بها بطريقة صحيحة ، وإجادة التعبير بها نثرا أو شعرا ، وأركان هذه العلوم أربعة : اللغة والنحو والبيان والأدب .

(١٤٢) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله .

(١٤٣) الحميدى : حذوة القتبس ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

الضبي : نفيسة اللبس ، ص ١٥٥ - ١٥٧ .

Vernet, J. : La cultura hispanoárabe, pp. 16-17.

ولقد حظيت هذه المواد بعناية الأندلسيين كثيرا وخاصة الحكام والأمرء الذين ركزوا اختيارهم. انتخب الكتاب والوزارة وفي المناصب عامة من بين البارزين في هذه العلوم .

ولعل هذا يرجع الى المجهود الذي كان من الواجب بذله لتعريب جموع سكان شبه الجزيرة ، راداً كانت مجسوعة المواد الدينية قد وجدت اهتماما بغرض المحافظة على الدين ونشره ، فلا شك أن العلوم اللسانية قد حازت من النجاح في الانتشار بين المسيحيين الأسبان ، أكثر من العلوم الدينية ، والدليل على ذلك أن المستعربين الذين حافظوا على دينهم الأصلي ، كانوا يتكلمون العربية بنحاحة وطلاقة ، ألفوا مؤلفاتهم بالعربية ، ونظموا الشعر بها ، وأصبحت هي لغة الحياة والعائلة بالنسبة لهم .

وقد يكون لذلك عوامله الأخرى المتمثلة في تعريب الدواوين والرسائل والمعاملات التجارية ، مما أجبر السكان جميعا على اختلاف أديانهم على تعلم العربية . ولعل شكوى القديس « ألفارو » القرطبي الخاصة بأن أبناء ملته يعشقون العربية ويتكلمون بها أكثر من اللاتينية تقدم دليلا واضحا على الجهود التي بذلت خلال عهد الإمارة لتعريب اللسان في أسبانيا الإسلامية .

### النتيجة :

موضوع هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية ، ويجنح الى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتابة والتدوين خشية الاندثار وما قد يترتب على ذلك من الجيل بالقرآن والحديث ، فقام كثير من أئمة اللسان ببذل جهود كثيرة في سبيل تأليف واملاء الدواوين .

وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد ، الذي كتب كتاب « العين » ، فحصر فيه حروف المعجم كلها من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي ، وهو غاية ما ينتهي اليه التركيب في اللسان

العربي (١٤١) ، ولقد دخل هذا الكتاب الى الأندلس على يد ثابت ابن عبد العزيز السرقسطي وابنه قاسم المتوفى سنة ٥٣٠٣/٩١٤م (١٤٢) .

ولقد بدأت الدراسات اللغوية في الأندلس مبكرة جدا ، وقام علماءه بالرحلة الى المشرق للدراسة واحضار الكتب الرئيسية من هناك فنجد أن عبد الرحمن بن موسى الهواري ، أول من جمع الفقه في الدين وعلم العرب بالأندلس ، ورحل في خلافة الامام عبد الرحمن ابن معاوية ، فلقى مالكا ونظراءه من الأئمة ، ولقى الأخصمى وأما زيد الأنصاري ونظراءهما ، وداخل الأعراب في مجالها (١٤٣) .

أما محمد بن عبد الله بن الحازي بن قيس القرطبي ، المتوفى ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م ، فقد أدخل الأندلس علما كثيرا من الشرق والغربية والخبر وعنه أخذ أهل الأندلس الأشعار المشروحة (١٤٤) .

وتطورت هذه المادة تطورا كبيرا مع قدوم علماء من المشاركة وعودة من رحل من الأندلسيين ، ولقد كان مستوى أسبانيا الإسلامية اللغوي طيبا ، عند قدوم أبي علي النقالى (٢٨٨/٥٣٥٦-٩٠١/٩٦٧م) ، والنقالى عالم كبير (١٤٥) ، قام بتدريس الحديث واللغة العربية وآدابها ، وأملى كتابه المشهور « الأملى » ورفع مستوى أسبانيا الإسلامية من الناحية اللغوية الى أقصى حد ممكن ، ويحكى عن أبي علي النقالى أنه خلال رحلته الى الأندلس قال : لما وصلت القيروان وأنا أعتبر من أمر به من أهل الأمصار ، فأجدهم درجات في الغياوة وقلة الفهم ،

(١٤٤) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٥٨ : الترجمة : ص ١٠١٩ .

(١٤٥) الزبيدي : طبقات النحويين ، ص ٣٠٩ .

ابن فرخون : الديباج ، ص ٢٢٢ .

السيوطي : بغية الوعده ، ج ٢ ، ص ٢٥٢ .

(١٤٦) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ٣٤ ( طبعة كوديرا ) .

الزبيدي : طبقات النحويين ، ص ٢٧٥ .

السيوطي : البغية ، ج ٢ ، ص ٩٠ .

(١٤٧) السيوطي : بغية الوعده ، ج ١ ، ص ١٢٩ .

(148) Riu, Manuel : Lecciones de Ho. Medieval, p. 196.

بحسب تفاوتهم في مواضعهم منها بالقرب والبعد ، حتى كأن منازلهم على الطريق هي منازلهم من العلم محاسة ومقايسة ، قال أبو علي : قلت أن نقص أهل الأندلس عن مقادير من رأيت في أفهامهم ، يتقدر نقصان هؤلاء عن قبلهم ، فاحتاج إلى ترجمان بهذه الأوطان . قال ابن يسام : فبلغني أنه كان يصل كلامه هذا بالتعجب من أهل هذا الأفق في ذكائهم (١٤٩) .

وحينما وصل أبو علي إلى الأندلس وجد بها من يستحق تقديره واحترامه مثل محمد بن القوطية ، وينقل المقرئ عن ابن خلكان أنه كان يجتمع به ، وكان يباليخ في تعظيمه ، قال له الحكم بن عبد الرحمن : من أنبل من رأيته ببلدنا هذا في اللغة ؟ فقال : محمد بن القوطية (١٥٠) .

ويتحدث الدكتور نعمة رحيم عن المستوى اللغوي للأندلس مبينا أنها قد ازدهرت تماما وخاصة في القرن الرابع الهجري ( العاشرة الميلادي ) محددا ملامح ازدهارها كالتالي :

- ١ - ظهور العالم اللغوي المتخصص ، ونبوغه إلى درجة يماثل بها علماء المشرق ، مثل أبي بكر بن الزبيدي ، وتلامذة القالي .
- ٢ - استغناء الطلاب الأندلسيين عن الرحلة إلى المشرق ، لأن الأندلس أصبحت بيئة ثقافية ، ومركزا من مراكز العلم .
- ٣ - نشاط حركة التأليف (١٥١) .

ويعتبر أبو بكر الزبيدي قمة تطور هذا الفن في الأندلس ومن بعده ابن سيده المتوفى ٩٩٣ م (١٥٢) ، دون أن يعنى ذلك عدم

---

(١٤٩) ابن يسام : الذخيرة ، ج ١ ، ص ١٥ ( تحقيق احسان هياس ) .

- (١٥٠) المقرئ : النسخ ، ج ٤ ، ص ٧٣ .  
 (١٥١) السزاي : أبو بكر الزبيدي الأندلسي ، ص ٤٩ ، ٥٠ .  
 (١٥٢) الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ٣٨١ .  
 ابن خلدون : المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٦٠ .



وجود قسم شامخة في هذا العلم على مدار التاريخ الأندلسي بكامله ، ولقد اعترف ابن خلدون بمكانة أهل الأندلس في صناعة العربية بالذات ، وأرجع ذلك الى نظام التعليم الأندلسي الذي كان يعطى اللغة العربية المكانة الأولى من اهتماماته ، يقول ابن خلدون عند حديثه عن الفرق بين ملكة اللسان ، وصناعة العربية : « وأهل صناعة العربية بالأندلس ، ومعلومها أقرب الى تحصيل هذه الملكة وتعليمها عن سواهم ، لقيامهم فيها على شواهد العرب وأمثالهم ، والتفقه في الكثير من التراكيب في مجالس تعليمهم فيسبق الى المتدئ كثير من الملكة أثناء التعليم ، فتنتظم النفس لها ، وتستعد الى تحصيلها وقبولها » (١٥٣) .

ولقد بقى فن العربية مزدهرا في الأندلس ، رغم انحطاط بعض العلوم الأخرى الى نهاية الحكم الاسلامي هناك ، ونعتمد أيضا على شهادة ابن خلدون حيث يقول : وأما أهل الأندلس فذهب رسم التعليم من بينهم ، وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئتين من السنين ، ولم يبق من رسم العلم فيهم الا فن العربية والأدب ، اقتصروا عليه ، وانحفظ سند تعليمه بينهم ، فانحفظ بحفظه (١٥٤) .

#### النتـو :

يتحدث ابن خلدون عن الأسباب التي أدت الى وضع قواعد اللغة العربية فيحددها على الشكل التالي :

اعلم أن اللغة : التعارف ، وهي عبارة المتكلم عن مقصوده ، وتلك العبارة فعل لسانی ، ناشئة عن القصد لأفادة الكلام ، فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها ، وهو اللسان ، وهو في كل أمة يحسب اصطلاحاتهم ، وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن

(١٥٣) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٧٨ ( الترجمة الأسبانية ، ص ١٠٤٤ ) .  
(١٥٤) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٨٨ ( الترجمة الأسبانية ، ص ٧٧٧ ) .

الملكات وأوضحها إبانة عن القاصد ، لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعانى ، مثل الحركات التى تعين الفاعل من المفعول من المحرور ، أغنى الخاف ، ومثل الحروف التى تنفى بالأعمال الى الذوات ، من غير تكلف ألفاظ أخرى .

فلما جاء الاسلام ، وفارقوا الحجار لطلب الملك الذى كان فى أيدي الأمم والدول ، وخالطوا المعجم ، تغيرت تلك الملكة بما ألقى اليها السمع من المخالفات التى كانت للمتعبين من المعجم ، والسمع أبو الملكات اللسانية ففسرت بما ألقى اليها مما يغيرها لجنوحها اليه باعتياد السمع ، وخشى أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا ، وبطول العهد هينغلق القرآن والحديث على المفهوم ، فاستبطنوا من مجارى كلامهم قوانين لتلك الملكة ، مطردة شبه الكليات والتواعد ، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشياء منها بالأشياء ، مثل أن الفاعل مرفوع ، والفعل منصوب ، والمبتدأ مرفوع ، ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات ، فاصطلحوا على تسميته اعرابا وتسمية الموجب لذلك عاملا ، وأمثال ذلك ، وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدها بالكتاب ، وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو . وأول من كتب فيها أبو الأسود الدؤلى من بنى كنانة (١٥٥) .

وأشهر من كتب فى هذا العلم الكسائى المتوفى ١٨٨ هـ / ٨٠٤ م ، وسيبويه والزجاجى ٣٣٧ هـ / ٩٤٩ م .

وفى أسبانيا الاسلامية ، كان لابد من بذل جهود مضاعفة وذلك لغلبة العنصر العجمى والبربرى ضمن سكانها ، فحملت اليها كتب المشاركة فى النحو ، ويقال ان جودى بن عثمان ١٩٨ هـ / ٨١٣ م ،

---

(١٥٥) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٥٥ ، ١٢٥٦ .  
والترجمة الأسبانية ، ص ١٠١٥ - ١٠١٧ .

هو أول من أدخل كتاب الكسائي (١٥٦) ، كذلك أحضرت الى الأندلس كتب سيبويه والزجاجي وغيرهما من المشارقة ، وبدأ الأندلسيون أنفسهم في التأليف في هذا الفرع من العلوم ، ويذكر الزبيدي أن لجودي بن عثمان تأليف في النحو (١٥٧) ، وتأتي بعد ذلك مؤلفات أبي علي التائي في النحو ومن بعده الزبيدي (١٥٨) \*

ويبدو أن الأندلسيين قد استغرقوا وقتا طويلا ، حتى أمكنهم الوصول الى نوع من الاستقرار في تدريس هذه المادة ، وأنهم كانوا يخلطون بينها وبين علم اللغة حتى عاد محمد بن يحيى الرباحي ، المتوفى ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م ، من المشرق ، وعلمهم الطرق المشرقية السهلة في تعليم العربية ، يقول الزبيدي :

ولم يكن عند مؤدبي العربية ولا عند غيرهم من عني بالنحو كبير علم ، حتى ورد أبو عبد الله محمد بن يحيى الرباحي عليهم ، وذلك أن المؤدبين انما كانوا يمانون اقامة الصناعة في تلقين تلاميذهم العوامل وما شاكلها ، وتقريب المعاني لهم في ذلك ، ولم يأخذوا أنفسهم بعلم دقائق العربية وغوامضها ، والاعتلال لمسائلها ، ثم كانوا لا ينظرون في امالة ولا ادغام ولا تصريف ولا أبنية ، ولا يجيبون في شيء منها حتى نهج لهم سبيل النظر ، وأعلمهم بما عليه أهل هذا الشأن في المشرق ، من استقصاء الفن بوجوهه ، واستيفائه على حدوده وأنهم بذلك استحقوا اسم الرياسة (١٥٩) \*

وتطورت الدراسات النحوية في الأندلس تطورا عظيما ، ويصنفهم المقرئ قائلا : والنحو عندهم في نهاية علو الطبقة ، حتى أنهم في هذا

---

(١٥٦) الزبيدي : طبقات النحويين ، ص ٢٧٨ .

السيوطي : بنية الوعاة ، ج ١ ، ص ٤٩٠ .

(١٥٧) الزبيدي : طبقات النحويين ، ص ٢٧٨ .

(158) Gonzalez Palencia : Ho. de la Literatura A.E.,

p. 136.

(١٥٩) الزبيدي : طبقات النحويين ، ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

العصر فيه كأصحاب الخليل وسيبويه لا يزداد مع تقدم الزمان  
الاجدة ، وهم كثيرو البحث فيه ، وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه ،  
وكل عالم في أي علم لا يكون متكاملاً من علم النحو — بحيث لا تخفى  
عليه الدقائق — فليس عندهم يستحق للتمييز ولا يسأل من  
الازدراء (١٦٠) .

وظهر من بينهم أساتذة متخصصون في تدريس النحو مثل أحمد  
ابن محمد بن هاشم القيبي المتوفى ٣٥٥ هـ / ٩٦٥ م ، الذي مال إلى  
النحو فغلب عليه وأدب به (١٦١) .

ومهاب بن أدريس العدوي ، المتوفى ٣٥٢ هـ / ٩٦٢ م ، الذي كان  
عالماً بالفرائض والحساب والأعراب ، وكان معلماً بالفنيين جميعاً (١٦٢) .

ويسدو أن الأندلسيين كانوا يكتفون بتعليم أولادهم في المراحل  
المتوسطة بعض كتب النحو البسيطة أو المختصرة ، بينما يتركون كتب  
كبار النحاة إلى مرحلة متقدمة ، فيقول ابن خزم القرطبي عند حديثه  
عن ما يجب أن يدرس من النحو ، أن أقل ما يحجز منه « كتاب  
الواضح » ، للزبيدي ( ٣١٦ — ٣٧٩ هـ / ٩٢٨ — ٩٨٩ م ) ، أو ما نحا  
نحوه « كالوجز » ، لابن السرج ( المتوفى ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م ) ، وما أشبه  
هذه الأوضاع الحقيقية. وأما التحقق في علم النحو ففضول لا منفعة  
بها ، بل هي مشغلة عن الأوكد (١٦٣) .

(١٦٠) القسري : النسخ ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

(١٦١) ابن الفرغى : علماء الاندلس ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

(١٦٢) ابن الفرغى : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٥٥ .

(١٦٣) ابن خزم : نراتب المعلوم ( ص ٥٦ ) ، عن كتاب الفكر  
التربوي عند العرب ) .

Asin Palacios : Un Codice enexplorado del Cordobes

Ibn Hazm, pp. 46, 56.

Muñiz H. : Clasificación de las ciencias segun Ibn Hazm.

من ناحية أخرى فإن كتاب سيبويه كان أساسيا في علم العربية في القرنين السابع والثامن ، حيث كان الناس يتساعلون : هل يقرأ كتاب « سيبويه » فإن قيل لا ، فيقولون لا يعرف شيئا (١٦٤) .

ويقول السيوطي : ان أحمد بن محمد بن إبراهيم بن الزبير المتوفى ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م ، أقرأ القرآن والنحو والحديث بمالقة ، وأنه عندما خرج من مالقة ، وترك هناك من طلبته أربعين يقرءون كتاب سيبويه (١٦٥) .

ويصف المستشرق الأسباني خوليان ريبيرا دراسة علم النحو في أسبانيا الإسلامية على النحو التالي :

لقد أعطى المسلمون الأسبان أهمية كبرى لدراسات النحو ولم يقتنعوا إلا بدراسة المؤلفات الأساسية ، وكان العالم منهم الذي لا يتعمق في النحو حتى أعرق أعماقه ويتفهم كل شواذه وغرائبه ، لا يحظى باحترام كبير ، ومن أراد أن يسلم من المزالق والسقطات فلا بد وأن يدرس كتب المتخصصين المشاركة الضخمة ، وخاصة كتاب سيبويه الذي كان موضع الإعجاب الكبير .

والحقيقة أن الناس في الأندلس كانوا يقومون بهذه الدراسات ، بصورة تفوق كثيرا غيرهم في المناطق الإسلامية الأخرى ، ويرجع ذلك الى أنهم كانوا يبدعون تعليم أطفالهم ببعض عناصر النحو الأولية الى جانب بعض النصوص الشعرية والأدبية . ولقد كان ذلك يساعدهم على التأهيل في الدراسات التي يتلقونها في المراحل التالية ، أي أنهم كانوا يحوزون منذ بداية عمرهم التعليمي ملكة عملية في اللغة ، ولم يكن يجري مثل هذا في المغرب أو حتى في تونس ، حيث كان تدريس هذه المادة ، ينحصر الى الناحية النظرية المحضة (١٦٦) .

(١٦٤) السيوطي : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٣٣١ .

(١٦٥) السيوطي : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٢٩٢ .

(١٦٦) Ribera, J. : Ho. da la Ensenanza entre los M. El.

وليس معنى ذلك كله أن الأندلسيين كانوا في حياتهم العادية يتحدثون العربية الفصحى ، وإنما كانت تجري بينهم إلى جانب معرفتهم اللغة الرومانشية التي كانوا يجيدونها إحادة تامة ، حتى الخلفاء منهم (١٦٧) ، كلمة عامية . ويصف لنا المقرئ هذه الحالة فيقول : « مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، حتى لو أن شخصا من العرب سمع كلام الثلوثيني ( عمر بن محمد بن عبد الله الأزدي النحوي ، المعروف بالثلوثيني ) ، المشار إليه في علم النحو في عصرنا ، الذي غربت تصانيفه وشرقت ، وهو يقرئ دروسه لضحك ملء فيه من شدة التحريف الذي في لسانه ، والخاص منهم إذا تكلم بالاعراب ، وأخذ يجرى على قوانين النحو ، استنقلوه واستبردوه ، ولكن ذلك مراعى عندهم في القراءات والمخاطبات والرسائل (١٦٨) » .

#### علم البيان :

يرى ابن خلدون أن « هذا العلم حادث في اللغة ، بعد علم العربية واللغة ، وهو من العلوم اللسانية لأنه متعلق بالألفاظ وما تنفيده ، ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني » .

ولأن هذا العلم يقوم بالبحث عن هذه الدلالات ، التي للهيئات والأحوال والمقامات وجعل على ثلاثة أصناف ، الصنف الأول يبحث فيه عن هذه الهيئات ، والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ، ويسمى علم البلاغة . والصنف الثاني ، يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومة ، وهي الاستعارة والكناية ، ويسمى علم البيان ، وألحقوا بهما صنفا آخر وهو النظر في ترتيب الكلام وتحسينه بنوع من التنميق ، أما بسجع يفصله ، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه ، أو ترصيع يقطع أوزانه أو ثورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى

(١٦٧) المقرئ : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٣٤٦ .

هيكل : الأدب الأندلسي ، ص ٢١ ، ٢٢ .

(١٦٨) المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما ، وأمثال ذلك ، ويسمى عندهم علم  
البديع ، وأطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين ، اسم  
البيان (١٦٩) .

#### الأدب :

ازدهر الأدب في الأندلس بصورة لم يصل إليها أى نوع آخر من  
العلوم ، ويقول ابن خلدون عن هذا العلم : انه « لا موضوع له ينظر في  
اثبات عوارضه أو نفيها ، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته  
وهي بالاجادة في فن النظم والمنثور على أساليب العرب  
ومناحيهم » (١٧٠) .

ولقد ظل أهل الأندلس حتى عصر ابن خلدون على الأقل ، يقولون  
أن « أصول علم الأدب وأركانه أربعة هي : أدب الكاتب لابن قتيبة ،  
والكامل للمبرد ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والنوادر لأبى على القالى »  
وان الأندلسيين كانوا يطلبون أعمال الأدباء المشرقيين وأشعارهم  
بمجرد ظهورها هناك وقصة ارسال أبى الفرج الأصفهاني نسخة من  
كتاب الأغاني الى الحكم المستنصر بالله بمجرد ظهوره معروفة ،  
وقد نقل ابن الأشج عن المتنبي ديوانه ، وقرأه في قرطبة على طلابه  
وعشاقه ، كما نقل ديوان أبى تمام بمجهود شاعر أندلسى هو مؤمن  
ابن سعيد ، عن أبى تمام نفسه ، وكان الطلاب يقرءونه عليه في  
قرطبة (١٧١) .

وينقسم الأدب الى قسمين رئيسيين هما : الأدب النثرى والشعر ،  
وكلاهما قد ازدهر في الأندلس بصورة كبيرة ، ووجد في كل فن منهما

(١٦٩) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٦٣ - ١٢٦٧ ،

والترجمة ، ص ١٠٢٤ - ١٠٢٦ .

(١٧٠) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٦٨ ، والترجمة ،

ص ١٠٢٨ .

(١٧١) انظر مقدمة كتاب رايات البرزين لابن سعيد التي كتبها

الدكتور النعمان عبد المتعال القاضي ، ص ٩ .

المتخصصون الضالعون وبعض المعلمين الذين يتولون التدريس في كل فرع منهما على حدة ، وبعض المعلمين الذين يتولون تدريس الفنين معاً ، فيقال عن عباس بن ناصح الثقفي ( أوائل القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ) ، قاضي الجزيرة الخضراء ، أنه كان يعد على قرطبة ويأخذ عنه أدباؤها (١٧٢) .

أما الشيخ أبو القاسم ابراهيم بن محمد بن زكريا المعروفة بالاقليبي من أهل قرطبة المتوفى ٤٤١هـ / ١٠٤٦م ، فقد كان من أئمة النحو واللغة ، وله معرفة تامة بالكلام على معاني الشعر ، وشرح ديوان المتنبي شرحا جيدا ، وهو مشهور .

وكان متصدرا بالأندلس ، لاقراء الأدب وولى الوزارة للمكتفي بالله ( محمد بن عبد الرحمن الذي حكم من ٤١٤ - ٤١٦هـ / ١٠٢٤ - ١٠٢٥م ) ، وكان حافظا للأشعار ، ذاكرة للأخبار ، وأيام الناس (١٧٣) .

وأحمد بن محمد بن يحيى الحميري المتوفى عام ٦١٠هـ / ١٢١٣م كان آخر من انتهى إليه علم الأدب في الأندلس (١٧٤) .

أما علي بن عبد الله بن عبد الرحمن الأنصاري ، المتوفى عام ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م ، فقد كان متحققا بالنحو ، ذكيا ، بارع الخط والأدب ، درس العربية والأدب زمانا (١٧٥) .

والحقيقة أن غن النشر قد ارتقى في الأندلس في القرن السادس والسابع ( الثالث عشر والرابع عشر ) ارتقاء كبيرا ، وليست أجده دليلا على هذا أكثر من الإشارة الى الرسائل النثرية التي تبوأت

(١٧٢) المقري : النج ، ج ٣ ، ص ٢٨ .

(١٧٣) ابن حيان : المتن ، ص ٦١ - ٦٣ .

ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٣٣ ، ٣٤ .

(١٧٤) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٣٠٠ .

(١٧٥) المراكشي : عبد الملك : النيق والتكلمة ، السفر الخامس .

القسم الأول ، ص ٢٣٢ .



بين عبد الله بن الجنان ، وعلى بن محمد بن علي ، أبو الحسن الرعيني ( ٥٩٢ - ٦٦٦ هـ / ١١٩٥ - ١٢٦٧ م ) ، فلقد ورد إلى الأندلس الأديب أبو عبد الله بن عابد ، وتولى الكتابة فكتب إليه عبد الله ابن الجنان رسالة طويلة في حوالى مئتين ونصف ، التزم فيها حرف « العين » في كل كلمة من كلماتها سواء في النثر أو النظم ، ولما عجز عبد الله بن عابد عن الرد عليها ، رد الشيخ أبو الحسن الرعيني برسالة من أربع صفحات كاملة ، التزم فيها حرف العين في كل كلمة من كلمات الرسالة نظماً أو نثراً . فكتب إليه أبو عبد الله بن الجنان رسالة أخرى ملتزماً حرف العين في كل كلمة منها نثراً أو نظماً في ست صفحات ونصف ، فرد الشيخ الرعيني ملتزماً حرف العين في كل كلمة بقصيدة من ٢٣ بيتاً وخمس صفحات ونصف صفحة نثراً ( ١٧٦ ) .

ولقد أثارت هذه الرسائل حركة بين الأدباء في الأندلس ، فكتب أبو المطرف بن عميرة ( ٥٨٠ - ٦٥٨ هـ / ١١٨٧ - ١٢٦٠ م ) ( ١٧٧ ) ، رسالة التزم فيها حرف النون ، وهو الحرف المشترك في اسمي عبد الله بن الجنان وأبي الحسن الرعيني ، في كل كلمة من كلماتها نثراً ونظماً ، من ثلاث صفحات ونصف ( ١٨ سطراً ، في كل سطر ١٠ كلمات ) ( ١٧٨ ) .

أما من ناحية الشعر ، فهناك مؤلفات لا تحصى ولا تعد حول الأدب الأندلسي ، تتناول بالتفصيل مكانة الأندلس الشعرية ( ١٧٩ ) ، ويرى الدكتور حكمت على الأوسى ، أن الشعراء الأندلسيين كانوا يصعدون عن سليقة وطبع ، كما أن الجو كان يساعد من له طبع وثألية

( ١٧٦ ) المراكشي : نفس المصدر ، ص ٣٢٣ - ٣٤٨ .  
( ١٧٧ ) ترجمة أبو المطرف بن عميرة منتشرة في كل كتب التراجم والأدب الأندلسية ، انظر د. حكمت الأوسى في كتابه الأدب الأندلسي في عصر الموحدين ، ص ١٣٩ ، حيث أشار إلى عدد كبير من المصادر .  
( ١٧٨ ) المراكشي : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، الجلسر الأول ، ص ٣٤٨ - ٣٥٠ .

( 179 ) Vernet, J. : Los Musulmanes Espanoles. pp. 67-84.

تاريخ التعليم

شعرية على أن يبدع ويحيد في الشعر الفصيح ، وإن لم يكن من الدارسين للشعر ولا للأدب ، كما هو شأن ابن مرج الكحل الذي كان شاعرا مبرزاً ، بارع التوليد ، رقيق الغزل ، مطبوع الشعر ، وكان مع ذلك ، أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة (١٨٠) ، على العكس مما يقوله غارثيا غومث ، من أن الشعر الأندلسي كان شعراً فقيراً (١٨١) .

ومن المستحيل هنا الإشارة إلى شعراء الأندلس ، أو إلى المؤلفات الأندلسية التي تتناول هذا الشعر ، ويكفي القاء نظرة على الذخيرة لابن بسام (١٨٢) ، أو رايات البرزين لابن سعيد (١٨٣) ، أو الاحاطة لابن الخطيب (١٨٤) ، أو نفح الطيب وأزهار الرياض للمقري (١٨٥) . . . الخ .

ولقد أنشأ المنصور بن أبي عامر ديواناً خاصاً بالشعراء ، مهمته ترتيب الشعراء طبقات ، وبذل العطاء لهم على أقدارهم في الشعر ، وشاع بين الناس الميل إلى الشعر الجميل ، وشارك الأمراء أنفسهم في قول الشعر . وأشهر حكام الأندلس شعراً ، المعتمد بن عباد ، ملك أشبيلية (١٨٦) .

- 
- (١٨٠) المقري : النفح ، ج ٦ ، ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ .  
 (١٨١) على الأوسي : الأدب الأندلسي في عصر الموحدين ، ص ٤٤ .  
 (١٨٢) ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ٨ أجزاء ( تحقيق احسان عباس ) .  
 (١٨٣) ابن سعيد : رايات البرزين — تحقيق نعمان التناضي ، القاهرة . كذلك قام بتحقيقه وترجمته إلى الأسبانية غارثيا غوميث .  
 (١٨٤) ابن الخطيب : الاحاطة في أخبار غرناطة ، ٤ أجزاء — تحقيق نعمان .  
 (١٨٥) المقري : نفح الطيب — ١٠ أجزاء ، تحقيق الشيخ محمد عبد الحيد — و ٨ أجزاء ، تحقيق احسان عباس .  
 أزهار الرياض ، أميد طبعه في المغرب ، وحقق منه أيضاً الجزء ٤ .

(186) Schack, A. F. : Poesia y Arte de los árabes en Espan y Sicilia, 115—75.

Hagerty, M. J. : Poesia de la Muctamad.

ولقد كان تعليم الشعر يتم عفوا أثناء تدريس العلوم الأخرى  
فحين يلاحظ الأستاذ موهبة تلميذه الشعرية ، فإنه يعمل على تنميتها  
وصقلها حتى يمكن له أن يحل الى مكانة جيدة في الشعر فيحكي لنا  
أن عباس بن ناصح الثقفي ، قاضي الجزيرة الخضراء ، كان ينفذ على  
قرطبة ويأخذ عنه أدباؤها ، ومرت عليهم قصيدته التي أولها :

لعمرك ما البلوى بعمار ولا العدم  
إذا المرء لم يعدم تقى الله والكرم

حتى انتهى القاريء الى قوله :

تجاف عن الدنيا فما لمعجز  
ولا عاجز الا الذي خط بالقلم

فقال له الغزال ( المتوفى ٣٥٠ هـ / ٨٦٤ م ) ( ١٨٧ ) ، وكان في  
الحلقة ، وهو اذ ذاك حدث نظام ، متأدب ذكي القريحة : أيها الشيخ ،  
وما الذي يصنع مفعّل مع فاعل ؟ ، فقال له الشيخ : كيف تقول أنت ؟  
فقال : كنت أقول : فليس لعاجز ولا حازم • فقال له عباس : والله  
يا بني لقد طلبها عمك فما وجدها ( ١٨٨ ) •

كما أن هناك قصة أخرى حدثت للقاضي منذر بن سعيد مع أستاذه  
أبي جعفر أحمد بن محمد بن النحاس النحوي ، وذلك أنه حضر مجلسه  
في الأملاء ، فأملى الشيخ قول الشاعر :

خيلي هل بالثام عين حزينة  
تبكي على ليلى لعل أعينها  
قد أسلمها الباكون الا حمامة  
مطوقة باتت وبات قرينها

---

(187) Garcia Gomez, El La Poesia Arabigo-Andaluza,  
p. 33.

على الأوسى : حكيت : نصول من الأدب الاندلسي ، ص ٩٦ ، ٩٧ •  
(١٨٨) المقرئ : الننج ، ج ٣ ، ص ٢٨ ، ٢٩ •

فقال منذر : أيها الشيخ ، أعزك الله ، باتا يصنعان ماذا ؟  
فقال أبو جعفر : فكيف تقول أنت ؟ فقال منذر : بانت وبان قرينها ،  
فاستبان أبو جعفر ما قال ، وقال له : ارتفع ، ولم يزل يرفعه ، حتى  
أدناه منه ، وكان يعرف ذلك له بعد ذلك ويكرمه (١٨٩) .

وأبو جعفر الحميري ، السابق الإشارة إليه ، كان يشجع تلميذه  
« أبو يوسف » ، على قول الشعر ، وقيم المنافسة بينه وبين ابنه ،  
ليساعد الاثنان على صياغة الشعر ، ويقول التلميذ ، لقد كنت أنشده  
من شعري على ركائته وكثرة تكلفه ، وبعده عن الجودة أبياتا لا أعدها  
شيئا ، يحملني على انشاده أياها ، فرط استدعائه ذلك مني ، فيلجج بها  
ويشند استصلاها لها ، وربما درسها وحفظها (١٩٠) .

ويرى المستشرق الأسباني أنخيل غونثا ليث بالنثيا أن صاعد  
الطبقى قد أدخل الى الأندلس طريقة جديدة في درس الشعر الجاهلي  
تتلخص في أن يقرأ الطالب القصيدة ، ثم يسأله أستاذه عن معاني  
الألفاظ فيقوم بالشرح معتمدا على قائمة من المعاني يكون قد  
استخرجها من المعاجم العربية (١٩١) .

أما الدكتور جودت الركابي فيرى أن الشاعر ، حتى يصبح شاعرا  
كان لابد وأن يتمتع بثقافة أدبية عالية (١٩٢) .

ولقد تنسوق الأندلسيون في الشعر التعليمي فوضعوا منظومات  
علمية في التاريخ والنحو وغيره ، ومن ذلك أرجوزة ابن عبد ربه في  
التاريخ وأرجوزته في علم العروض التي ينتدئها بقوله :

- 
- (١٨٩) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .  
(١٩٠) انظر هذه القصة الطويلة في المعجب للمراكشي ،  
ص ٤٢٩ — ٤٣٤ .  
(١٩١) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ،  
ص ٦٦ .  
(١٩٢) جودت الركابي : في الأدب الأندلسي ، ص ٦٢ — ٧٤ .

بالحمد لله نبداً وبه التمام  
وباسمه يفتح الكلام  
وكذلك الأرجوزة التي صدرها الشيخ يوسف بن محمد البلوي  
لكتابه « ألف باء » :

حصلت ما أؤلف فيه وأبني

لعبد الرحيم أبني -

ليقرأه بعد موتي

وينظر الى منه بعد فوتي (١٩٣)

### ٣ - العلوم العقلية

لا شك أن تعبير العلوم العقلية لا يدل دلالة واضحة على مجموعة العلوم التي نتناولها في هذا المجال ، لأنه ما من مادة علمية الا وكان للعقل فيها نصيب ، قل هذا النصيب أو أكثر . لكن العرب استخدموا هذا التعبير للفرقة بين العلوم اللسانية والدينية من جهة ، وباقي العلوم الأخرى من جهة ثانية .

وفي الأندلس ، حظيت العلوم العقلية بمكانة طيبة ، لكنها لم تتصارع ما وصلت اليه مجموعتا العلوم السابقتان ، مثلما يقول المستشرق الأسباني خوان بيرنيت : بأن التعليم في العالم الاسلامي كان موجهاً في المقام الأول ، لاعداد الفرد للحياة الآخرة (١٩٤) . هذا ولقد اعترفت كثير من العلماء بالمكانة العلمية لاسبانيا الاسلامية ، وتأثيرها القوي على الحياة في أوروبا الغربية ، أكتفى هنا بإيراد ثلاث شهادات لثلاثة من رجال الفكر الأسبان :

(١٩٣) البلوي : ألف - باء - طبعة القاهرة ، ١٢٨٧ هـ .

حاجي خليفة : كشف الظنون ، ص ١٥٠ .

(195) Vernet, J. : Los Musulmanes Espanoles, p. 97.

يقول خوان بيرنيت :

ان كميات هائلة من مترجمات اللغة العربية الى اللاتينية ، والتي تم القيام بها في أسبانيا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، قد أعيد طبعها مرات على مدار القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، وعن طريق هذه الأعمال المترجمة كون العلماء ورجال الدراسات الانسانية حورة فذة ورائعة عن الحالة العلمية التي كانت تتمتع بها أسبانيا الاسلامية لدرجة أنهم قد نسبوا كل الأعمال المترجمة عن العرب ، بما في ذلك أعمال ابن سينا الذي لم يوطأ قدمه أرض شبه الجزيرة ، الى أسبانيا الاسلامية ، ولذلك لم يكن من الغريب أن لا يتردد ، ولو للحظة واحدة ، مؤرخ العلم الذائع الصيت « سارتون » ، في اعتبار أسبانيا الاسلامية أعظم مركز ثقافي وحضاري في عالم العصور الوسطى (١٩٥) \* ويقول الدكتور غرنتاليس برانيس عند دخوله الأكاديمية الملكية الطبية الأسبانية « هذا الأندلس ، مركز ومنار ، كان يوما مشرقا وزاهيا ، كان مطمح الأطماع ، ومحط الأبصار النهمة الراغبة في التعلم ، لأي فرع من فروع المعرفة ، في ذلك العصر الذي اتسم بالفخار ، وبالجهد المضيئة » (١٩٦) \*

أما البروفيسور سانثيت بيريث ، فانه يعطى أهمية كبرى لوجود العرب في أسبانيا عند تأريخه للعلوم عند العرب ، قائلا :

ان للوجود العربي في أسبانيا أهمية كبرى ، فعلى الرغم من أن اقليم شمال شبه الجزيرة الايبيرية قد شهد صراعا بينهم وبين

---

(195) Vernet, J. : Ho. de la ciencia, espanola, p. 58.

Sarton : Introduction to the history of science.

Millas Valliorosa : Estudios sobre la historia de la ciencia espanola.

(196) Gonzalez Prats, . : Las Alturas en las ciencias medicas en el Reino de al - Andalus, p. 20.

المشتالين وأهل نبرة وأستوريه والأراغونيين ، إلا أن كل الأقسام الجنوبية قد عاشت عدة قرون تحت تنظيم سياسى محكم وثقافة عربية ارتقت بصورة مذهبة (١٩٧) .

و دراسة ما تقدمه لنا كتب التراجم الأندلسية الخاصة بالمشتالين فى مجال العلوم العقلية تطلعنا على موسوعية أصحابها ، حيث نجد أن كلا منهم عالم متخصص فى أكثر من مادة واحدة ، ويمكننا من أجل التسهيل الدراسى لا أكثر ، أن نقسم العلوم العقلية الى أربع مجموعات رئيسية :

- ١ - المجموعة الطبية ، وتضم : الطب والصيدلة وعلم النبات .
- ٢ - العلوم البحتة ، وتضم الرياضيات والطبيعة والكيمياء والذات .
- ٣ - العلوم الفلسفية ، وتضم : الفلسفة والمنطق .
- ٤ - العلوم الاجتماعية : الجغرافيا والتاريخ والتراجم . الخ .

#### (١) المجموعة الطبية

- ١ - علم الطب والصيدلة :  
اعتنى المسلمون بالطب بعناية كبيرة منذ بداية الاسلام ومما يشهد لهذه الصناعة بعلو الشأن ، ورفعة المكان ، قوله صلى الله عليه وسلم : « العلم علان : علم الأبدان ، وعلم الأديان » (١٩٨) .  
ولقد عول الأندلسيون فى الطب على كتاب مترجم من كتب النصارى ، يقال له « الابريشم » « Aphorismi » ومعناه المجموع

(197) Sanchez Pérez, J. : La ciencia árabe en la Edad Media- p. 11.

Mielo, Aldo : Panorama general de la Ha. de las ciencias II, 48. (Traduccilb (Traduccion Espanola).

Millas Vallicrosa : Estudios sobre la Ha. de la ciencia espanola.

(١٩٨) ابن الخطيب : عمل من طب لمن حب ، ص ١ .

### أو الجامع (١٩٩) \*

ثم تطور العلم على يد أطباء أندلسيين عادوا من المشرق مثل  
الحراني الأندلسي ، الذي عاد في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن  
الأوسط ( ٢٣٨ - ٢٧٣ هـ / ٨٥٧ - ٨٨٦ م ) ، ويقول عنه صاعد  
الطبي : كانت عنده مجريات حسان في الطب ، واشتهر بقرطبة ( ٢٠٠ ) \*

ولقد شارك في هذه المعنة في الأندلس كثير من الأطباء النصارى  
واليهود مثل ابن ملوكة النصراني ، كان في أواخر أيام الأمير عبد الله ،  
وأول دولة الأمير عبد الرحمن الناصر ، وكان يصنع بيده ، ويفصد  
العروق ، وكان على باب داره ثلاثون كرسيًا لقعود الناس ( ٢٠١ ) \*

ويحيى بن اسحق ، أحد وزراء الناصر ، ألف في الطب كتابًا ،  
يشتمل على خمسة أسفار ، ذهب فيه مذهب الروم ( ٢٠٢ ) ، ولقد كان  
والده من قبله ، على أيام الأمير عبد الله ( وكانت سكناه بقرب  
مسجد ظاهر ، مسيحي النحلة ، وكان صانعًا بيده ، مجربًا ) ( ٢٠٣ ) \*

ومن أشهر الأطباء اليهود في تلك الفترة حسداى بن شبروط ،  
وكان وزيرًا وسفيرًا للخليفة عبد الرحمن الناصر ( ٢٠٤ ) \*

ويعتبر عصر عبد الرحمن الناصر ، العصر الذهبي للطب في  
الأندلس ، حيث ( تتابعت الخيرات على أيامه ودخلت الكتب الطبية  
من المشرق وجميع العلوم ، وقامت الهمم ، وظهر الناس ممن كان في

( ١٩٩ ) ابن جليل : طبقات الأطباء ، ص ٩٢ .

( ٢٠٠ ) ابن جليل : طبقات الأطباء ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

صاعد الطبي : طبقات الأمم ، ص ١٠٤ .

الطنطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء .

( ٢٠١ ) ابن جليل : طبقات الأطباء ، ص ٩٧ .

( ٢٠٢ ) صاعد : طبقات الأمم ، ص ١٠٤ .

( ٢٠٣ ) ابن جليل : نفس المصدر ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

( 204 ) Vernet, J. : Historia de la ciencia española, p. 59.



### صدر دولته من الأطباء المشهورين (٢٠٥) \*

وعلى عهد الحكيم المستنصر أقيمت خزانة الطب ، أقامها الطبيب أحمد بن يونس ( وهو طبيب رحل الى المشرق في عام ٥٣٣هـ / ٩٤١م ) ، الذي أقام ببغداد هو وأخوه عمر عشرة أعوام ، وتأديبا بالطب ، وخدموا الرؤساء ، مع ثابت بن سنان بن ثابت بن قبرة ، الذي قرأ عليه كتب جالينوس عرضا . وقد خدما ابن وصيف في غل الغين ، وعادا الى الأندلس في عام ٥٣٥١هـ / ٩٦٣م ، ودخلاها في دولة المستنصر ، وغروا معه غزاته الى شنت استين وأنصرفا وألحقهما لخدمته بالطب وأسكنهما مدينة الزهراء ، واستخلصهما لنفسه دون غيرهم ممن كان في ذلك الوقت من الأطباء ، ثم مات عمر وبقي أحمد ، فأسكنه المستنصر في قصره بمدينة الزهراء ، وقد تولى إقامة خزانة بالقصر للطب . ولم يكن قط مثلها ، رتب لها اثني عشر صبيا صقليا ، طبائخين للأشربة ، صانعين للمعجنات ، واستأذن أمير المؤمنين في أن يعطى منها من احتاج من المساكين والمرضى ، فأباح له ذلك (٢٠٦) \*

ووجد على عهد الناصر والمستنصر ، ديوان للأطباء ، تسجل فيه أسماؤهم . وليس لدى تفصيلات عن هذا الديوان ، ولكن ابن جليل يقول عند ترجمته لأحمد بن حكم بن حفصون ، أنه خدم بالطب طول أيام جعفر بن عثمان المحففي ، فلما مات جعفر ، أسقط من ديوان المتطببين أو الأطباء ، وبقي مخمولا أخريات أيامه (٢٠٧) \*

وازدهر الطب والحيدة أيضا على عهدي الموحدين والنصرين ، وكان مادة تدرس ، يقال عن محمد بن إبراهيم بن محمد الأوسى المتوفى ٧١٥هـ / ١٣١٥م ، أنه أقرأ التعاليم والطب والأصول بغرناطة لما استقدمه السلطان ثاني الملوك من بني نصر من مدينة بجاية

(٢٠٥) ابن جليل : طبقات الاطباء ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٢٠٦) ابن جليل : نفس المصدر ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٢٠٧) ابن جليل : نفس المصدر ، ص ١١٠ .

فانتفع الناس به (٢٠٨) .

أما عبد الله بن أحمد بن ضياء الدين الأندلسي الملقب المعروف بابن البيطار ( ٥٧٥-٦٤٦هـ / ١١٧٩-١٢٤٨م ) ، فإنه حينما رحل إلى مصر ، كان هناك « رئيس العشابين » ، ولقد طاف تقريبا بكل البلاد الإسلامية ، وله مؤلفات في الطب (٢٠٩) .

ويبدو أن المهنة قد دخلها كثيرون من غير المؤهلين ، مما دفع إلى وضع شروط وقواعد قاسية للمشتغلين بالطب (٢١٠) .

أما تعلم الطب فلو قد كان يتم في الدرجة الأولى بين عائلات معينة احتفظت بسر المهنة بين أفرادها ، الذي لم يكونوا يقدمونه لغيرهم ، مثل أبي بكر سليمان ، الذي عالج أمير المؤمنين ، الناصر لدين الله من الرمذ ، وطلب منه نسخه بعد ذلك ، فأبى أن يملئها (٢١١) .

وكذلك الحراني الذي ورد من المشرق في أيام الأمير محمد ، أدخل الأندلس معجونا ، كان يبيع منه البقية بخمسين دينارا ، وحاول أطباء قرطبة معرفة السر منه ، حتى وصلوا إلى شراء شربة من الدواء وتحليلها (٢١٢) .

وعلى بن هلال بن علي بن حسن البيلنسي ، المتوفى ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م ، كان عدديا ماهرا مهندسا حاذقا ، طبييا بارعا فائقا ، متعرضا لذلك ، مقصودا فيه ولم يزل معظم عمره شديد الضنانة لما كان عنده من المعارف ، شرس الخلق عند التعليم ، متعززا على المتعلمين ، لا يتعلم له أحد ، عز أو هان ، إلا واقفا أسفل دكانه ، الذي تصدى فيه للفتاوى

(٢٠٨) ابن الخليب : الإحاطة — ج ٣ ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٢٠٩) مطلب : تاريخ علوم الطبيعة ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٢١٠) العقباني : تحفة الناظر ، ص ٢٥٨ .

(٢١١) ابن جليل : طبقات الأطباء ، ص ١٠٢ .

(٢١٢) ابن جليل : طبقات الأطباء ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

الطبية ، ثم سمح بآخذه لبعض الطلبة وأسعفهم بالجلوس لأقرائهم في مسجد يقرب من موضعه ، فاعتنم ذلك منه وأخذ في تلك الحال (٢١٣) .

ولكن مع ذلك كان الطب يعلم ، وذلك بقراءة الكتب وصحبة الأطباء ، حيث يحكى أن أبا بكر بن زهر قد أتى إليه اثنان من الطلبة ، ليشتغلا عليه بصناعة الطب ، ترددوا عليه ولازماء مدة ، فقرأ عليه شيئاً من كتب الطب (٢١٤) .

## ٢ - علم النبات :

يرتبط هذا العلم بعلم الطب والصيدلة ، من ناحية أنه يمددهما بالمادة العشبية اللازمة لاستخراج الدواء ، ولقد وصل هذا العلم في الأندلس الى مكانة طيبة ، وأشهر رجاله هم :

أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد ، المعروف بابن وافد ، المتوفى في عام ٤٦٧هـ / ١٠٤٧م ، كان طبيباً وله في الطب كتاب الأدوية المفردة وكذلك له كتاب في الفلاحة ، وهو الذي تولى غرس حديقة المأمون بن ذى النون ، بطليطلة (٢١٥) .

حسن بن أحمد بن عمر بن مفرج بن هاشم البكري الأشبوني ، المتوفى ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م ، ويعرف بالزرقاله ، فاق أهل عصره في تمييز النبات والعشب (٢١٦) .

أحمد بن محمد المعروف بابن العشاب ، المتوفى ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م ،

---

(٢١٣) المراكشي : الذيل والتكملة - السفر الخامس - القسم الأول ، ص ٤١٩ ، ٤٢٠ .

(٢١٤) محمد المنوني : العلوم والآداب على عهد الموحدين ، ص ٢٦ .

(٢١٥) شبيب أرسلان : الحلل السندسية ، ج ٢ ، ص ٣٦ .  
Vernet, J. : La Cultura hispanoarabe, 39-40 y 254.

Vernet : Historia de la Ciencia Espanola, p. 63.

(٢١٦) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ج ١ ، ص ٢١ ( الترجمة ٤٧ ) .

كان حسن العلاج في طبه ، وكان امام أهل المغرب قاطبة في معرفة النبات وتمييز الأعشاب وتحليلها ، وعلم مناخها ومضارها ... رحل في سبيل ذلك الى جبل غرناطة وغيره من بلاد الأندلس ، وعين في وجهته الشرقية كثيراً مما لا يكون بالمغرب منه ، وفاوض هنالك كل من أمكنه ممن يشهد له بالفضل في معرفته ، ولم يزل باحثاً عن حقائقه ، كاشفاً عن غوامضه حتى وقف منه على ما لم يقف عليه غيره ممن تقدم في الملة الاسلامية ، فصار أوجد عصره في ذلك ، فردا لا يجاريه أحد فيه باجماع من أهل ذلك الشأن .

وكان له دكان متسع يقعد فيه لبيع الحشائش الطبية والنفع بها (٢١٧) .

ويقال عنه أيضاً ، انه جال في الأندلس ، ومغرب العدو ، واستوعب المشهور من أفريقية ومصر والشام والحجاز والعراق ، حتى صار أوجد عصره في ذلك ، لا يجاريه فيه أحد من أهل هذا الشأن (٢١٨) .

#### (ب) العلوم البحتة

تنقسم العلوم البحتة بدورها الى قسمين رئيسيين ، الأول منهما يتناول العلوم الرياضية مثل الحساب والهندسة والفلك ، والثاني يتناول الكيمياء والطبيعة .

(أ) وجدت المجموعة الأولى من هذه العلوم مبكرة في الأندلس ، ولم تواجه أية مشاكل في دراستها أو تدريسها ، وذلك لارتباطها بالعلوم الدينية وتطبيق الشريعة ، مثل تقسيم الموارث ومعرفة اتجاه القبلة ، وكذلك فان هذه العلوم كانت مهمة أيضاً لحل بعض مشاكل الحياة الدنيوية ، يقول أبو عمران اليورقي في قصيدة له :

(٢١٧) المراكشي : الذيل والتكملة ، السقر الأول ، ص ٥١٢ ، ٥١٣ .

ابن الخطيب : الاحاطة - ج ١ ، ص ٢١١ - ٢١٤ .

(٢١٨) أحمد شوكت الشطبي : حول علم النبات عند العرب :

ص ٢٤٨ .

لولا الحساب وعلم كل فريضة  
لم يعرف التحليل والتحريم (٢١٩)

ويرى مؤرخ العلوم الأسباني خوان بيرنيت ، أنه على الرغم من أن العلوم البحتة كانت قليلة نسبيا في العالم الاسلامي بسبب اتجاه حركته التعليمية الى اعداد الفرد لحياة الآخرة ، ومن هنا كان تطور هذه العلوم بطيئا في فترات الضغط الديني ، والذي لم يكن يسمح الا بالشروح الضرورية لحل المشكلات المعقدة ، الناجمة عن تطبيق الشرائع القرآنية في حالات تقسيم الميراث وعليه يمكن القول بأن نظام الأرقام قد انتشر دون صعوبة تذكر في المشرق في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، منتقلا بأسرع مايمكن الى الأندلس ، ومنها بسرعة كبيرة الى الأراضى المسيحية ، فان مجموعة الرياضيات التجارية والهندسة المساحية لما يجدا الا صعوبات تافهة على طريق تطورها ، وذلك لأهمية الأولى في الحياة اليومية ، والثانية ، الى جانب علم النجوم ، شكلت الأساس للتوجيه الشرعى للمساجد ووضع الجداول الشمسية (٢٢٠) \*

ويرى صاعد الطبقي أن منتصف القرن الثالث من الهجرة ( التاسع الميلادي ) هو بداية نهضة هذه العلوم في الأندلس وبالتحديد على عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن \*

وأول من يشير اليه صاعد ، ممن برزوا خلال هذا القرن هو أبو عبيدة بن مسلم بن أحمد بن أبى عبيدة البلنسى ، المتوفى ٢٩٥ هـ / ٩٠٧ م (٢٢١) \*

أما عصر الخلافة في الأندلس فلقد شهد تطورا ضخما في هذه

(٢١٩) ابن القاضى : درة الحجال ، ص ٢٣٨ .  
(220) Vernet, J. : Los Musulmanes espanoles, pp. 97, 98.  
Millas Vallicroca : Estudios sobre la ciencia, p. 23.  
(٢٢١) صاعد الطبقي : طبقات الأمم ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

العلوم ، ولعب الحكم المستنصر دورا بارزا في تشجيعها (٢٢٢) .

وأبرز الشخصيات في هذا المجال هو أبو القاسم مسلمة بن أحمد المعروف بالمجريطي ، المتوفى ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م ، فهو كما يقول عنه صاعد الطبقي ، كان امام الرياضيين في الأندلس في وقته ، وأنجب تلاميذ جلة (٢٢٣) ، وترك في الأندلس ما يمكن أن نسميه بمدرسة المجريطي الرياضية (٢٢٤) .

ولقد كان لتعليم الحساب جوانب تربوية مهمة جدا ، منها مثلا تعليم التفكير ، والتأني ، والصدق ، ولقد أعجب أبو بكر بن العربي بطريقة تعليم الحساب التي كان يتبعها المعلمون في مكة المكرمة حيث يقول : كنت أحضر عند الحاسب بتلك الديار المكرمة ، وهو يجعل الأعداد على المتعلمين الحاسبين وأقواهم مملوءة بالماء ، حتى اذا انتهى القاءه ، وقال ما يريد ، رمى كل واحد بما في فمه ، وقال ما معه ، وذلك ليعودهم خزل اللسان عن تحصيل المفهوم عن المسموع (٢٢٥) .

والظاهرة التي نتجلى لنا من دراسة عشرات من تراجم معلمي الرياضيات بالأندلس ، أن الغالبية العظمى منهم كانوا يتداولون علم النجوم ، وأنهم كانوا يتعاطون أيضا الطب والفلسفة — فمثلا :

أبو مسلم عمرو بن أحمد بن خلدون ، المتوفى في ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م ، من أشرف أهل أشبيلية في علوم الفلسفة ، مشهورا بعلم الهندسة والنجوم والطب (٢٢٦) .

(٢٢٢) نفس المصدر ، ص ٨٨ .

(٢٢٣) صاعد الطبقي : المصدر السابق ، ص ٩٢ .

القنطري : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٣٢٦ .

(224) Burckhardt : La Civilizacion hispanoárabe, p. 213.

(٢٢٥) ابن العربي : أحكام القرآن ، ج ٤ ، ص ١٨٨٣ .

(٢٢٦) صاعد : المصدر السابق ، ص ٩٥ .

أبو بكر عمرو بن عبد الرحمن الكرمانى ، أحد الراسخين فى علم  
العدد والهندسة ، درس الهندسة والطب فى المشرق ، وعاد إلى  
الأندلس ، مستوطناً مدينة سرقسطة ، وهو الذى أدخل إلى الأندلس  
رسائل اخوان الصفا ، لا نعلم أحداً أدخلها إلى الأندلس قبله (٢٢٧) .

أبو جعفر أحمد بن خميس ، من أهل طليطلة ، توفى ٤٥٤ هـ /  
١٠٦٣ م ، وأحد المعتنقين بعلم الهندسة والنجوم والطب ، برع فى ذلك ،  
وقعد لتعليمها زماناً طويلاً (٢٢٨) .

ومن هؤلاء من مال أكثر ، إلى دراسة علم الأفلاك وهيئاتها ،  
وحركات الكواكب وأرصاها ، مثل محمد بن عمر بن محمد المعروف  
بإبن البرغوث المتوفى عام ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ (٢٢٩) .

وفى علم الفلك يحسن أن نشير إلى العالم الكبير إبراهيم  
ابن حبيب أبو اسحق ، المعروف بولد الزرقى الأندلسى ( ت ٤٩٣ —  
١١٠٥ ) ، يقول عنه القفطى ، أبصر أهل زمانه بأرصاد الكواكب ،  
وهيئة الأفلاك واستنباط الآلات النجومية ، وله صفيحة « الزرقىال »  
المشهورة فى أيدي أهل هذا النوع التى جمعت من علم الحركات  
الفلكية كل بديع مع اختصارها ، ولما وردت على علماء هذا الشأن  
بأرض المشرق حاروا فيها وعجزوا عن فهمها إلا بعد التوفيق (٢٣٠) ،  
ويقول عنه صاعد الطبقي : أنه أبصر أهل زماننا بأرصاد الكواكب ،  
وهيئة الأفلاك ، وحساب حركاتها (٢٣١) . ويصفه أحد مؤرخى

(٢٢٧) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٢٣٣ .

(٢٢٨) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٩٩ .

شكيب أرسلان : الحل السندسية — ج ٢ ، ص ٣٩ .

(٢٢٩) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٩٥ .

(٢٣٠) القفطى : أخبار الحكماء ، ص ٥٧ .

(٢٣١) صاعد : طبقات الأمم ، ص ١٠٠ .

محمد عبد اللطيف مطلب : تاريخ علوم الطبيعة ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

العلوم الأسبان بأنه أكبر شخصية علمية عربية تركت تأثيراً على العلوم الأوروبية اللاتينية (٢٣٢) .

(ب) أما عن مجموعة العلوم الخاصة بالكيمياء والطبيعة فخلقت وانتشرت أيضاً في الأندلس ، ولكن بصورة أقل ، وتحدثنا المصادر عن عباس بن فرناس الذي سبقت الإشارة إليه عند الحديث عن الدولة والتعليم ، أنه كان أول من تعاطاها هناك ، كما أن الذخيرة لابن بسام تحتفظ لنا بنص يفهم منه وجود معمل كيميائي يشرف عليه الوزير خالد بن يزيد المخزومي (٢٣٣) .

#### (ج) العلوم الفلسفية

من الصعب القول بأن العلوم الفلسفية كانت ضمن المواد المعروضة للاختيار أمام الطلبة الأندلسيين ، حيث أن الفلسفة قد عانت كثيراً من الاضطهاد من علماء المالكية ، ولكن ذلك لا يعنى اختفاءها ، بل على العكس ، فأننى أرى أن الاضطهاد الذى صبه المالكيون في الأندلس على الفلسفة قد جعل الاقبال عليها سرا أمراً شائعاً ، وأدى الى انتشارها على مستوى واسع . ويجب التفريق في البداية بين علم المنطق وعلم الفلسفة ، حيث واجه الأول منهما مقاومة أقل مما واجه الثانى ، ووجد معلمون يقومون بتدريس المنطق عبر فترات طويلة من التاريخ الأندلسى .

أما الفلسفة فخلقت شهدت فترات ازدهار وفترات اضطهاد ازدهرت على عهد الحكم المستنصر ، ثم تعرضت لاضطهاد على يد المنصور بن أبى عامر ، وعادت الى الازدهار على عصر الطوائف

1. (232) Millas Vallicrosa : Estydios sobre Alzarquil, p. 1.

Vernet, J. : La Cultura hispanoárabe, pp. 40, 41 y 138.

Vernet, J. : Ho. de la Ciencia Espanola, pp. 64, 65.

Burckhardt : la civilization hispno árabe, p. 213.

(٢٣٣) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الاول ، المجلد الاول ، ص ١٨٣ - ١٨٧ .



ثم خدمت على عهد المرابطين ، وعاشت أزهى أيامها على الأرض  
الأندلسية ، على عهد الموحدين .

ولقد أنجبت الأندلس المسلمة عددا كبيرا نسبيا من رجال  
الفكر الفلسفي ، أهمهم : ابن حزم القرطبي ( ٩٩٤ هـ - ١٠٦٤ م ) ،  
وأبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة المتوفى  
٥٣٣ هـ - ١١٣٨ م ، وأبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل ( ١١٠٠ -  
١١٨٥ م ) ، ثم ابن رشد ( ١١٢٦ - ١١٩٨ م ) .

ويرى الدكتور جودة عبد الرحمن في مقدمته لوصية القاضي  
أبي الوليد الباجي أنه يمكن القول بأن الفلسفة قد عاشت في الأندلس  
على الرغم من فرض الحصار الشديد عليها ، وأنها قد ظهرت أحيانا  
في ثوبها الجميل وأخذت حصتها من التطور والازدهار ، وذلك حينما  
كان يقدر لها التأييد من ملك أو أمير ، وأحيانا أخرى تنكمش بعيدة  
عن قصور الخلفاء وبيوت الوزراء (٢٣٤) .

وليس هنا المجال للتأريخ للفلسفة في الأندلس ، ولذلك أفضل  
الإشارة الى بعض المراجع التي يمكن الاطلاع عليها (٢٣٥) .

#### د - العلوم الاجتماعية

تطورت العلوم الاجتماعية في الأندلس المسلمة تطورا كبيرا ،  
ساعد على ذلك أن ذلك الفرع خاصة ضمن العلوم العقلية ، يتصل  
اتصالا وثيقا بالعلوم الدينية ، فالتاريخ مثلا يرتبط مباشرة بكتابة  
السيرة النبوية وأخبار الصحابة والتابعين ، والعلماء ، أما الجغرافية  
فلقد دعا الى الاهتمام بها ، اتساع الدولة الاسلامية ، وضرورة تحديد  
الطرق والاتجاهات . وحيث أن الأندلس كانت تنفع في أقصى الغرب ،

(٢٣٤) عبد الرحمن : جودة : وصية القاضي أبي الوليد الباجي ،

ص ٢١ .

(٢٣٥) محمد لطفي جمعة : تاريخ فلاسفة الاسلام في المشرق

والمغرب .

أو في أقصى الشمال الغربي من هذه الأمة الإسلامية ، وقيام الأندلسيين بالرحلات الى الشرق سواء للحج أو للدراسة ، قد أعطاهم الفرصة للاهتمام بعلم الجغرافيا \* أما التراجم والسير فانها أيضا تتصل اتصالا وثيقا بالعلوم الدينية ، وبدأت بالاهتمام بالسيرة النبوية وسيرة الصحابة ومن جاء بعدهم ، ثم ظهرت المدارس الفكرية ، وكتابة سير رجالها وتراجمهم \*

وقد اتخذت كتابة التاريخ في الأندلس اتجاهين عامين ، أولهما كتابة تاريخ الأندلس في مجمله أو كتابة عصر معين أو تاريخ دولة ما من دوله ، ثم الكتابات المتخصصة عن شتى نواحي الأندلس وبلادها أو تاريخ الأدب والأدباء والفقهاء ... الخ \*

ومن الصعب جدا الاطّام بكل المؤرخين الأندلسيين ، أو من كتبوا كتباً تاريخية ، كما أنه أكثر صعوبة الاطّاعة بكل المؤلفات ذات الصيغة التاريخية — وسأشير فقط الى أهم المؤرخين الأندلسيين :

عبد الله بن حبيب ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م ، هو أول مؤرخ أندلسي ، حاول أن يكتب تاريخاً عاماً للعالم ، وذلك قبل أن يكتب الطبرى تاريخه بحوالى قرن من الزمان (٣٣٦) \*

أحمد بن محمد الرازى ، المتوفى ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م ، ويعتبر أحمد بن محمد الرازى — على ما يقول الدكتور حسين مؤنس — أبا الجغرافيا والتاريخ في الأندلس في آن واحد \* ولقد أخذ اهتمامه بالتاريخ عن والده محمد بن موسى ، المتوفى ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م ، وعن أستاذه قاسم بن أصبغ البيانى \*

(٢٣٦) المقري : النفع — ج ٢ ، ص ٢١٥ .  
وانظر المقدمة التى كتبها الدكتور محمود على مكى لتحقيقه للسفر الثانى من مقتبس ابن حيان ، ومقالته عن ابن حبيب فى :  
Makki, M. A : Egipto y los. origenes de la historiografia  
Arabigo — Espanola.

وكان أحمد هذا ميلا بطبعه الى التعرف على أحوال الدنيا  
والشر وانصرف الى الجغرافيا والتاريخ انحرافا تاما ، أرسى به أسس  
هذين العلمين في بلاده (٢٣٧) \*

ويقول عنه ابنه عيسى ، وهو مؤرخ كبير أيضا :

توفي الجد في البيرة عام ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م ، وابنه أحمد والدي  
يومئذ طفل ابن ثلاثة أعوام ، فأقره أهله بالأندلس ، ونشأ فيها ،  
فطلب العلم ومال الى الأدب ، فغلبه عليه حب الخبر والتتبع عنه ،  
ولم يكن من شأن أهل الأندلس ، فالتقطه عن لحقه من مشيختهم ،  
ورواتهم ، ودونه ، ووضع قواعد التاريخ بالأندلس ، مبتدئا ، فأرلفه  
السلطان واعتلت به منزلة ولده من بعده ، وأكسبوا أهل الأندلس علما  
لم يكونوا يحسنونه (٣٣٨) \*

ولاشك أن الرازي هو أول من كتب تاريخا موضوعيا للأندلس  
المسلمة ، وعليه اعتمد كثير من المؤرخين والمؤلفين ، لكن الأعمال  
الأصلية للرازي فقدت ، ولم تصلنا منها الا شذرات مترجمة الى  
البرتغالية والأسبانية ، وما حفظ ضمن نقول المؤلفين الآخرين \*

محمد بن القوطية المتوفى ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، الذي كان حافظا  
لأخبار الأندلس ، ملما برواية سيرة أمرائها (٢٣٩) ، لقد ترك لنا كتابا  
عن افتتاح الأندلس (٢٤٠) \*

---

(٢٢٧) حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ،

ص ٥٦ .

(٢٣٨) ابن حيان : المقتبس ( طبعة مكي ) ، ص ٢٦٩ .  
Levi Provencal : Ho de la Espana Musulmana, 11.76.

(٢٣٩) ابن الفرسي : علماء الأندلس — ج ٢ ، ص ٧٦ .  
(240) Ribera, J. : Ho de la conquista de Espana de Ibn al  
Qutiyya de Cordoba.

Chalmeta, P. : Una historia discontinua e intemporal.

ابن حيان القرطبي ، المتوفى ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م ، « الذى يتفق الكثيرون على أنه من أعظم مؤرخى الاسلام ، وهو بغير شك أعظم مؤرخ أنجبته الأندلس بل والغرب كله — الاسلامى والمسيحى منه على السواء — طوال العصور الوسطى » (٢٤١) \*

أهم مؤلفات ابن حيان كتاباه : المقتبس والمقتبس يتناول تاريخ الأندلس منذ الفتح العربى فى سنة ٩١ هـ / ٧١١ م ، حتى عصر المؤلف تقريبا ، ولقد أشار اليه ابن حزم ضمن رسالته فى فصله الأندلس قائلا :

« ومنها كتاب التاريخ الكبير فى أخبار أهل الأندلس تأليف أبى مروان بن حيان ، نحو عشرة أسفار ، أجل كتاب ألف فى هذا المعنى » (٢٤٢) \*

ويتألف المقتبس لابن حيان من عشرة أسفار ووصلت اليها بعض قدامه ، علاوة على النصوص التى نقلها منه المؤرخون الذين جاءوا بعده والقطع التى وصلت من المقتبس هى :

— قطعة كبيرة فى حدود ١٨٨ ورقة ، تتناول عصر الأمير الحكم ابن هشام ( ١٨٠ — ٢٠٦ هـ / ٧٩٧ — ٨٢١ م ) وشطارا كبيرا من امارة عبد الرحمن الأوسط ( ٢٠٦ — ٢٣٢ هـ / ٨٢١ — ٨٤٦ م ) ، وكانت فى حوزة المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال ثم غقدت منه فى عام ١٩٥٧ ولم تظهر بعد (٢٤٣) \*

(٢٤١) محمود على مكى : مقدمته للجزء الثانى من مقتبس ابن حيان ، ص ٧ و ص ١٠٤ .

جمال الدين : عبد الله : ابن حيان الأندلسى — أبو مروان بن حيان : أمير مؤرخى الأندلس — مجلة أوراق — العدد الثانى ١٩٧٩ ، الصفحات من ١٤ الى ٢٧ .

(٢٤٢) القبرى النفع — ج ٤ ، ص ١٦٧ .

(٢٤٣) محمود مكى : مقدمته للسفر الثانى من المقتبس ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ ( وقد ظهرت فى الاسكندرية بعد ذلك ) .

— قطعة ثانية تتناول السنوات الأخيرة من عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط ومعظم عهد الأمير محمد ، وتشتمل على خمس وتسعين ورثة قام بنشرها الدكتور محمود على مكى فى بيروت عام ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .

— قطعة تتناول عصر الأمير عبد الله ( ٢٧٥ — ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ — ٩١٢ م ) . وتبلغ حوالى مائه وسبع ورفات ، نشرها الأب ميلشور أنطونيا بياريس عام ١٩٣٧ .

— الجزء الخاص بالسنوات الثلاثين الأولى من حكم عبد الرحمن الثالث ، قام بنشره الدكتور بدرو شالميتا وآخرون تحت عنوان الجزء الخامس من مقتبس ابن حيان ، وذلك بالمعيد الأسباني العربى للثقافة بمدريد عام ١٩٧٨ .

— جزء آخر صغير يتناول خمس سنوات من عهد الحكم المستنصر بالله من ٣٦٠ — ٣٦٤ هـ / ٩٧٠ — ٩٧٤ م ، قام بنشره باللغة العربية فى بيروت عام ١٩٦٥ ، الدكتور عبد الرحمن الحجى ، ثم قام الدكتور غارثيا غوميث بنشر ترجمة باللغة الأسبانية فى عام ١٩٦٧ بناء على مخطوط الأكاديمية الملكية للتاريخ تحت عنوان :

Anales Palatinos del Califa de Cordoba al Hakam 11  
por Isa b. Ahmad al Rāzi.

أما عن كتاب المتين لابن حيان فلم يصلنا منه أية قطعة متكاملة ، لكن كتاب الذخيرة لابن بسام ، قد احتفظ بنصوص كثيرة قيمة ، كانت موضوعا لرسالة دكتوراه ، قام بها الباحث المحرق الدكتور

( ٢٤٤ ) انظر ايضا :

Levi Provencal : Textos Inéditos del Muqtabas de Ibn Hayyan sobre los origenes del Reino de Pamplona.  
Chalmere, O. : Historiografia Medieval Hispano-Arabe.  
Chalmere, O. : Treinta anos de nuestra historia hispana del Muqtabas de Ibn Hayyan.

عبد الله جمال الدين حيث جمع النصوص وترجمها الى الأسبانية<sup>(٢٤٥)</sup> .

أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى ، المعروف بابن الأبار  
( ٥٩٥ - ٦٥٨ هـ / ١١٩٩ - ١٢٦٠ م ) <sup>(٢٤٦)</sup> ، وهو من كبار مؤرخى  
القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى ، وأهم مؤلفاته التى  
خلفها : الحلة السراء <sup>(٢٤٧)</sup> .

محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله السلمانى ، المعروف  
بابن الخطيب ، المولود فى لوثة فى الخامس والعشرين من رجب عام  
٧١٣ هـ ، ١٦ نوفمبر ١٣١٣ م ، والمقتول فى عام ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م .

كان القرن الثامن الهجرى فى مملكة غرناطة ، بالنسبة لجال الفكر  
والأدب قرن النضج والازدهار ، وفيه ظهرت مجموعة من كبار المفكرين  
والشعراء والكتاب مثل ابن خاتمة الانصارى <sup>(٢٤٨)</sup> ،  
وأبو الحسن بن الجياب <sup>(٢٤٩)</sup> ، وابن جزى <sup>(٢٥٠)</sup> ، ولسان الدين  
ابن الخطيب ، وابن زمرك <sup>(٢٥١)</sup> ، وأبو سعيد بن لب <sup>(٢٥٢)</sup> .

ولقد كان ابن الخطيب أعظم شخصية ظهرت ضمن هذا العدد  
الضخم من العلماء والأدباء والمفكرين ، كما أنه كان شخصية

(٢٤٥) ابن حيان : المتن ، تحقيق عبد الله جمال الدين .

(٢٤٦) أنظر فى ترجمات ابن الأبار :

الفيرينى : عنوان الدراية ، ص ٣٠٩ - ٣١٣ ( الترجمة ٩٥ ) .

(٢٤٧) أنظر الكتاب والمقدمة التى أعدها الدكتور حسين مؤنس

لطبعتة فى القاهرة ١٩٦٣ ، وكذلك رسالة الدكتوراد التى قدمها الدكتور

عبد الله الطباع بجامعة مدريد عن هذا الكتاب .

(248) Gibert, C. : el Diwan de Ibn Jatima de Almeria.

ابن الخطيب : الاحاطة - ج ١ ، ص ٢٣٩ - ٢٥٣ .

(٢٤٩) المتورى : نفع الطيب - ٧ ، ص ٣٦٢ - ٣٦٤ .

(٢٥٠) ابن الخطيب : الاحاطة - ج ٢ ، ص ٢٥٦ .

(٢٥١) ابن الخطيب : الاحاطة - ج ٢ ، ص ٣٠٠ - ٣١٥ .

(٢٥٢) ابن الخطيب : أوصاف الناس فى التواريخ ، ص ٣٢ .

موسوعية ، برزت مواهبه في كل مجالات المعرفة ، وكان كما يصفه الأستاذ محمد عبد الله عنان أعظم ما تمخضت عنه الأندلس الكبرى (٢٥٣) .

ولقد ترك لنا ابن الخطيب مجموعة كبيرة من الكتب أهمها الإحاطة في أخبار غرناطة الذي انتهى من تحقيقه ونشره في ٤ أجزاء المؤرخ المصرى محمد عبد الله عنان (٢٥٤) ، كما أنها كانت في جزء منها موضوعا للدكتوراه ، قدمه الباحث الكويتى يوسف الحشاش ، بجامعة مدريد المركزية (٢٥٥) .

وأكتفى في هذا المادة ، بالإشارة الى الدراسة القيمة التى نشرها الأستاذ بونس بوجسى (٢٥٦) ، مع التأكيد بأن التاريخ كان مادة تدرس وتقرأ كتبه ، أشار الى ذلك ابن خير في فهرسته ، مستعرضا الكتب التاريخية التى درسها على أساتذته (٢٥٧) .

ولقد تطور علم الجغرافيا أيضا في الأندلس المسلمة ، بدرجة عظيمة ربما بسبب الموقع الجغرافى ، وربما بسبب المستوى الثقافى المرتفع الذى عاشته الأندلس ، ولذلك فلدينا من الجغرافيين الأندلسيين مجموعة كبيرة أشهرهم :

أحمد بن أنس العذرى ، ولد في المرية عام ٣٩٣ هـ / ١٠٠٣ م ، وتوفى في بلنسية ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م ، ترجم له الكثيرون من رجال التراجم الأندلسيين ، وألف مجموعة كبيرة من الكتب ، ووصلنا بعض

(٢٥٣) عنان : مقدمة الإحاطة - ج ١ ، ص ١٨ .  
(٢٥٤) ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان - القاهرة - ١٩٧٣ - ١٩٧٧ م .  
(٢٥٥) يوسف الحشاش : المحدثون في الإحاطة ، رسالة دكتوراه ، بجامعة مدريد المركزية - قسم اللغات السامية ، ١٩٧٦ م .  
(256) Pons Boigues : Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y geógrafos arábigos españoles.  
(٢٥٧) ابن خير : الفهرسة ، ص ٧٨ .

أجزاء من كتابه عن جغرافية الأندلس قام بنشرها وتحقيقها العالم  
المصرى الكبير الدكتور عبد العزيز الأهوانى (٢٥٨) .

عبد الله بن عبد العزيز بن محمد ، المعروف بأبى عبيد البكرى  
المتوفى ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، الذى ألف مجموعة كبيرة من المؤلفات ،  
يهمنا منها فى هذا المجال ، كتاب « المسالك والممالك » الذى قام بتحليل  
أهميته ومادته الجغرافية الدكتور حسين مؤنس ، ونشر فى بيروت  
عام ١٩٦٨ م (٢٥٩) .

عبد الله بن ابراهيم الحجارى ، المتوفى ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م ،  
وتتضح لنا أهمية هذا الجغرافى الكبير ، اذا علمنا أنه يندر أن تجد  
مؤلفا أندلسيا كتب بعده دون أن يشير اليه مما يدل على أن كتابه كان  
مرجعا وحجة ، وأنه أضاف الى المكتبة الأندلسية شيئا جديدا (٢٦٠) .

أما قمة الجغرافية فى الأندلس ، بل قمة الجغرافيا فى الاسلام ،  
فهو الشريف الإدريسى (٤٩٣ - ٥٦٠ هـ / ١١٠٠ - ١١٦٤ م) ، الذى  
ألف كتابه العظيم فى الجغرافيا ، المسمى « نزهة المشتاق » (٢٦١) ،  
وأحيل الى الدراسة القيمة التى قام بها المؤرخ المصرى الدكتور حسين  
مؤنس فى كتابه عن تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس (٢٦٢) .

مادة أخرى تطورت فى الأندلس المسلمة تطورا كبيرا — أقصد بذلك

(٢٥٨) الحيدى : جذوة المقتبس ، ص ١٢٧ - ١٢٩ .  
العذرى : نصوص عن الأندلس ، تحقيق الدكتور عبد العزيز  
الأهوانى .

مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، ص ٨١ - ٩٦ .  
(٢٥٩) البكرى : المسالك والممالك ، تحقيق الحجى — بيروت —  
١٩٦٨ .

مؤنس : تاريخ الجغرافية ، ص ١٠٨ - ١٤٨ .  
(٢٦٠) د. حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية ، ص ١٤٩ - ١٦٤ .  
(٢٦١) الإدريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق .  
(٢٦٢) د. حسين مؤنس : تاريخ الجغرافيا والجغرافيين ،  
ص ١٦٥ - ٢٨٠ .



علم التراجم ، حيث ترك لنا المؤلفون الأندلسيون سلسلة متواصلة الحلقات من كتب التراجم ، التي تناولت تاريخ حياة علماء الأندلس وأدبائه وشعرائه ومؤرخيه وجغرافيينه وفلاسفته ... الخ .

ويقول الدكتور عبد العزيز الأهواني عن هذا العلم ، انه نشأ في أول أمره متصلا بعلم الحديث أو علم الرواية ، وكان هدفه الأول علم معرفة رجال الأسانيد ، وحالهم من الثقة أو عدم الثقة ، وما يتصل بأسانيدهم وبلادهم ورحلاتهم ، ومن لقوه وأخذوا عنه ليعرف من ذلك الأحاديث الصحيحة من الأحاديث الزائفة التي دخل أسانيدھا الخلل (٢٦٣) .

وهناك كتب عامة في هذا المجال ، أهمها :

تاريخ علماء الأندلس ، لمحمد بن حارث بن أسد الخشني المتوفى بقرطبة عام ٣٦١ هـ / ٩٧١ م ، ويضم تراجم الأندلسيين حتى القرن الرابع الهجري وما زال مخطوطا حتى الآن بالخزانة الملكية بالرباط (٢٦٤) .

تاريخ علماء الأندلس لأبى الوليد عبد الله بن محمد بن الفرضي المتوفى سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ، وهو من أشهر كتب التراجم الأندلسية ، وطبع عدة مرات ، وأحصى فيه حوالي ١٧٦٦ عالما من علماء الأندلس (٢٦٥) .

جذوة المقتبس لمحمد بن فتوح بن عبد الله الحميدى ، المتوفى ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م ، وهو أيضا قد طبع عدة مرات ، وجاء به ٩٨٧ ترجمة (٢٦٦) .

---

(٢٦٣) عبد العزيز الأهواني : صلة الصلة لابن الزبير والذيل والتكملة لابن عبد الملك ، ص ١٤ ( مجلة المجهود المصرى للدراسات الإسلامية - العدد الثالث - المجلد الأول ، ١٩٥٥ م . )  
 (٢٦٤) النجاشي : عبد الرحمن : منتخبات من نواذر المخطوطات بالخزانة الملكية ، ص ١٣٦ .  
 (٢٦٥) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس .  
 (٢٦٦) الحميدى : جذوة المقتبس ، تحقيق محمد بن تاويت - القاهرة .

الصلة لخلف بن عبد الملك بن بشكوال ، المتوفى ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م ،  
وتوجد له عدة طبعات أيضا ، وبه حوالى ١٤٤٠ اسما (٢٦٧) .

كتاب تكملة الصلة لابن الأبار ، المتوفى ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ، وهو  
أيضا مطبوع . وأورد فيه ابن الأبار حوالى ٢٥٠٠ اسما (٢٦٨) .

كتاب الذيل والتكملة لمحمد بن محمد بن عبد الملك المراكشى  
المتوفى ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م ، ويوجد من هذا الكتاب الضخم مجموعة  
من الأجزاء قام بتحقيقها الدكتور احسان عباس والدكتور محمد  
ابن شريفة وأورد به أكثر من ٣٠٠٠ ترجمة (٢٦٩) .

صلة الصلة لابن الزبير (٢٧٠) ، ولقد نشر بعض أجزاءه والباقي  
ما زال مخطوطا بدار الكتب المصرية ، وتوجد صورة منه في جامعة  
غرناطة .

ثم تأتى بعد ذلك مؤلفات ابن الخطيب وهى تغطى تراجم علماء  
القرن الثامن حتى وفاة ابن الخطيب فى عام ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م (٢٧١) .

وهناك كتب تراجم خاصة اهتم بها الأندلسيون ، وتناولوا فيها  
فئات معينة من العلماء مثل طبقات الأطباء لابن جليل (٢٧٢) ، وكتاب  
ترتيب المدارك للقاضى عياض الذى تناول فيه علماء المالكية فى  
الأندلس (٢٧٣) .

(٢٦٧) ابن بشكوال : الصلة .

(٢٦٨) ابن الأبار : التكملة .

(٢٦٩) المراكشى : الذيل والتكملة ، لكتاى الموصول والصلة .

(٢٧٠) ابن الزبير : صلة الصلة .

(٢٧١) ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة .

ابن الخطيب : الكتبة الكامنة .

(٢٧٢) ابن جليل : طبقات الاطباء .

(٢٧٣) اليعصبى : ترتيب المدارك .

وأختتم هذا العرض المختصر للعلوم التي كان يمكن للدارس تناولها في المرحلة التعليمية الثانية ، مشيراً الى أن هناك الكثير من المواد الأخرى التي لم أرغب في التطرق اليها ، مثل علم الأنساب (٢٧٤) ، والبرامج والفهرسات التي كانت متداولة بين أيدي الدارسين على مدار التاريخ الأندلسي ويكفي القاء نظرة على فهرسة ابن خير أو على برنامج التجيبي (٢٧٥) ، أو برجمة المرعيني (٢٧٦) ، لنحاط علماً بضخامة عدد الكتب وتنوع المواد التي كان يسعى الطلاب لدراستها في الأندلس .

### طرق التعليم في المرحلة الثانية

تميزت طرق التعليم في هذه المرحلة ، من معلم الى آخر ، حسب مستوى التلميذ ، وحسب المادة التي تدرس ، ولكن من الممكن اجمالها في الطرق التالية :

#### ١ - الإقراء :

وهو أشهر طرق التعليم في هذه المرحلة ، ويتلخص في أن يمسك المعلم كتاباً ويقراً منه ، ويقوم الطلبة بكتابة نسخهم ، أو أن يقوم طالب من المجموعة بالقراءة في حضرة الأستاذ ويقوم الطلبة الآخرون بالكتابة ، ويعمل الأستاذ على تصحيح القراءة وتقديم النطق السليم للكلمات والمواضع الصحيحة للوقف والابتداء ... الخ . وهذه الطريقة هي الأكثر شيوعاً في تعليم القراءات القرآنية ، كما أنها تستخدم عامة في العلوم الدينية واللسانية ، مع بعض الطرق الأخرى . يقول ابن بشكوال مثلاً عن أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الحق الخزرجي المتوفى في سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م : أنه أقرأ الناس مدة طويلة ،

(٢٧٤) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب - وانظر أيضاً مقالة :

Teres, El. : Linajes - arábes en al - Andalus.

(٢٧٥) كان موضوعاً لرسالة دكتوراه السيدة انا راموسى ، جامعة

الأوتونوما - مدريد .

(٢٧٦) قام بتحقيقه ونشره الدكتور ابراهيم شيوخ ، ونشر بدمشق

عام ١٩٦٢ .

وعمر وأسن وجالسته وأنا صغير السن (٢٧٧) \*

عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن عبد الله الأزدي الأسبيلي، المعروف بابن الخراط ، المتوفى ٥٨١ هـ / ١١٨٦ م ، كان غنيا محدثا ، وكان رحمه الله متواضعا ، وكان اذا صلى الصبح في الجامع ، أقرأ حتى الفجر ، ثم يعود بعد ذلك الى منزله ليشتغل بالتأليف ، وكان لا يدخل بجاية أحد من الطلبة الا سأل عنه ، ومشى اليه ، وآنسه بما يقدر عليه (٢٧٨) \* ويقول الضبي عن نفس الأستاذ ، ان له توالييف حسنا ، قرأت عليه بعضها (٢٧٩) \*

وأحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي عيسى المتوفى ٤٣٩ هـ / ١٣٠٧ م ، كان أحد الأئمة في علم القرآن العظيم ، قراءاته واعرابه وأحكامه وناسخه ومنسوخه ومعانيه ، سكن قرطبة وأقرأ الناس بها محتسبا (٢٨٠) \*

ويحكى أبو الحسن بن مغيث عن أستاذه أحمد بن عبد الله التميمي المتوفى سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م . أنه كان يختلف عليه ، ليقرا عليه كتب الأدب بالمسجد الجامع ، حيث كان له موضع مخصص لأقراءه (٢٨١) \*

## ٢ - الإملاء :

وهي طريقة مشابهة للاقراء ، لكنها تميل أكثر الى القول من الذاكرة حيث يملئ المعلم على طلبته ما يعرفه من علوم ، فمثلا ، يحيى بن ملك بن عايد بن كيسان ، المتوفى سنة ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م ، عاد من رحلته في سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م ، فسمع منه ضروب من الناس

(٢٧٧) ابن بشكوال : الصلاة - ج ١ ، ص ٧٤ .

(٢٧٨) الضبي : بغية الملتبس ، ص ٣٩١ .

(٢٧٩) الضبي : بغية الملتبس ، ص ٣٩١ .

(٢٨٠) ابن بشكوال : الصلاة - ج ١ ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٢٨١) ابن بشكوال : الصلاة - ج ١ ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

وطبقات طلاب العلم وأبناء الملوك ، وجماعة من الشيوخ والكهول ، وكان يملأ في المسجد الجامع ، في كل يوم جمعة (٢٨٢) .

ويمكن لنا تبين الطريقتين ، الاقراء والاملاء ، من الترجمة التي أوردها ابن بشكوال لأحمد بن عبد الله بن طريف ، المتوفى ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م ، حيث يقول : قرأت على أبي مروان الطنبلي قال : قرأت على أبي الحسن علي بن عمر الحراني بمصر ، قال : أملى علينا حمزة ابن محمد الكناني (٢٨٣) .

### ٣ - المناظرة أو الحوار :

وهي طريقة تبدأ فيها المسألة ، بطرح سؤال من الطالب على الأستاذ . ثم يبدأ الأستاذ في الإجابة على السؤال مبينا كل جوانبه ونواحيه ، وخفاياه وما يترتب عليه . أو أن الأستاذ نفسه يفترض السؤال كما لو كان موجها إليه ، ثم يبدأ هو في الإجابة على هذا السؤال ، ولدينا كثير من التراجم التي اعتمد فيها الأساندة على طريقة المناظرة في تعليمهم فيقال مثلا عن أحمد بن محمد بن رزق الأموي ، المتوفى ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م ، انه كان مدار طلبة الفقه في قرطبة في المناظرة والمدارسة ، والتفقه عنده (٢٨٤) .

أحمد بن محمد بن عمر التميمي ، من أهل المرية ، توفي ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م ، ناظر عند الفقيهين ابن رشد وابن العواد (٢٨٥) .

وهناك طرق أخرى كثيرة ، يمكن لنا أن نستخرجها من كتب التراجم ، وهي :

الأخذ عن ، الرواية عن ، الملاقاة ، السماع ، الجلوس الى الدرس على ، الاختلاف الى الشيوخ . . . الخ .

(٢٨٢) ابن الفرضي : علماء الأندلس - ج ٢ ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

الضبي : بغية المتلمس ، ص ٤٩٢ ، ٤٩٣ .

(٢٨٣) ابن بشكوال : الصلة - ج ١ ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٢٨٤) ابن بشكوال : الصلة - ج ١ ، ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٢٨٥) ابن بشكوال : الصلة - ج ١ ، ص ٨٦ .

ومن أهم سمات التعليم في هذه المرحلة ملازمة الشيوخ ومصاحبتهم وكلما طالت المدة كلما كان ذلك في صالح التلميذ حتى أن بعض هؤلاء لكثرة ملازمة شيوخهم ، يصبحون متخصصين في نفس مواد هؤلاء الشيوخ فنجد أن علي بن أحمد بن أبي قنوة المتوفى ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م ، قد لازم أستاذه أبا القاسم بن حبيش عشرين سنة كاملة (٢٨٦) .

عثمان بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم العيدري المتوفى ٦٦٣ هـ / ١٢٦٤ م ، لازم شيخه عبد الرحمن بن يوسف بن الحسن خمسة عشر عاما (٢٨٧) .

ويقال عن أحمد بن محمد بن أحمد بن بقي بن مخلد المتوفى ٥٣٣ هـ / ١١٣٧ م ، أنه صحب أبا عبد الله محمد بن مفرج الفقيه ، وانتفع بحضته (٢٨٨) .

أحمد بن محمد بن عبد العزيز اللخمي ، المتوفى ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م ، صحب أبا علي حسين بن محمد الغساني ، واختص به ، وأخذ منه معظم ما عنده (٢٨٩) .

أحمد بن صارم النحوي الباجي ، عني بكتب الأدب واللغة ، أخذ ذلك عن أبي نصر هارون بن موسى الجريطي ، وقيده عنه واختص به (٢٩٠) .

أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد ، قاضي قرطبة ، المتوفى ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م ، أخذ عن أبيه ولازمه طويلا (٢٩١) .

---

(٢٨٦) المراكشي : الذيل والتكملة — السفر الخامس — الجزء الأول ، ص ١٥٤ .

- (٢٨٧) المراكشي : نفس المصدر ، ص ١٣٧ .
- (٢٨٨) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٧٩ .
- (٢٨٩) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٨٠ .
- (٢٩٠) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٥١ .
- (٢٩١) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٨٣ .

ويقوم الطالب بدراسة مادة ما أو أكثر على أستاذ معين ثم ينتقل إلى أستاذ آخر ليسمع منه مادة أخرى أو عدة مواد ، وفي كل مادة يقوم الطالب بدراسة كتاب معين أو عدة كتب وقد يقرأ على أستاذه كتاباً واحداً فقط أو يقرأ عدة كتب ، فلقَدْ قرأ ابن خَيْر على معلمه أَبِي الحسن بن شريح أكثر من اثني عشر كتاباً في علم القراءات (٢٩٢) . كما أنه سمع من أستاذه عيسى بن أَبِي البخر الزهري أكثر من عشرة كتب في القراءات واللغة .

والحفظ هو الأساس في العملية التعليمية ، حيث يجب أن يحفظ الطالب الكتاب الذي يقرؤه ، كما أنه من الضروري أن يكون الأستاذ حافظاً لمصادته وخاصة في مجال العلوم الدينية والعلوم اللسانية والتكرار هو أفضل وسيلة لكي يتمكن الطالب من حفظ دروسه ، فإذا كان محمد بن يحيى بن هاشم يحفظ الموطأ والبخاري ويقرأ من حفظه كتاب البخاري على الناس (٢٩٣) فإن عبد الله بن محمد بن عيسى كان يختم كتاب سيويه كل خمسة عشر يوماً (٢٩٤) .

والأستاذ العالم ، سعد بن أحمد بن ليون التجيبي ( من رجال القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر الميلادي ) يقول :

من لم يكن علمه في صدره نُشِبَ

يداه عن المسؤالات التي ترد

العلم ما أنت في الحمام تحضره

وما سوى ذلك التكليف والكمد (٢٩٥)

كما يقول محمد بن عبد الرحيم الغرناطي :

تكتب العلم وتلقى في سَفَط

ثم لا تحفظ ؟ لا تفلح قط

(٢٩٢) أنظر الفهرسة - الصفحات ٢٣ - ٢٦ و ص ٣١ .

(٢٩٣) أرسلان : الحلال السندية - ج ٢ ، ص ١٣٨ .

(٢٩٤) السيوطي : بغية الوعاة - ج ٢ ، ص ٥٩ .

(٢٩٥) المقرئ : نفع الطيب - ج ٨ ، ص ٥٩ .

انمسا يفلح من يحفظه  
بعد فهم وتوق من غلط  
ويقول :

العلم في القلب ليس العلم في الكتب  
فلا تكن مغرما باللهو واللعب (٢٩٦)  
وتتجلى أهمية الحفظ ، في حالات احراق الكتب الأصلية أو ضياعها .  
ولقد صور لنا هذه الأهمية المفكر القرطبي العظيم ابن حزم  
حين يقول :

فان تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي  
تضمنه القرطاس بل هو في صدري  
يسير معي حيث استقلت ركائبي  
وينزل ان أنزل ويدفن في قبرى  
دعوني من احراق رق وكاغد  
وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدري  
والا فعودوا في المكاتب بدأة  
فكم دون ما تبغون لله من ستر (٢٩٧)  
اوقات التعليم

ليس هناك وقت محدد بالضبط لحضور الدروس في هذه المرحلة ،  
حيث يرتبط ذلك غالبا بوقت الأستاذ ، وغالبا ما يكون الصباح هو أكثر  
الأوقات ملاءمة لكى يقوم المعلم بالقاء دروسه ، فمثلا عبد الحق بن  
عبد الرحمن المشار اليه من قبل ، كان اذا صلى الصبح في الجامع

(٢٩٦) المقري : نفع الطيب — ج ٣ ، ص ٥ ، ٦ .  
(297) Gozalbez Busto : El Libro y las Bibliotecas en  
la Espana Musulmana, p. 24.  
Vernet, J. : Los Musulmanes Espanoles, p. 81.



أقرأ حتى الضحى (٣٩٨) •

كما أن هناك قصة أوردها الضبى ضمن حديثه عن أحمد بن خلف ابن عيشون المتوفى ٥٣١ هـ / ١١٣٦ م ، مفادها أن هذا حينما أراد القراءة على الشيخ محمد بن شريح ، وطلب منه أن يعين له وقتاً للقراءة ، قال له ابن شريح : « إذا سمعت أول الأذان غائتني — أى أنه خصص له وقت الفجر ليقراً عليه » (٣٩٩) •

وليس معنى ذلك الاقتصار على الفترة الصباحية فنصيب لأن بعض المعلمين كان يجعل وقت اقراءه بعد صلاة العصر ، وقبل صلاة المغرب (٣٠٠) • ولكن بما أن الطالب يقوم بدراسة أكثر من مادة واحدة في ذات الوقت ويذهب الى أكثر من معلم في نفس اليوم ، فإن الوقت الدراسي كان من المرونة بحيث يتناول اليوم بأكمله •

ويحرص الطلبة على الوصول الى مكان أستاذهم مبكرين فنجد أن عبد الله بن حمود بن مذحج الزبيدي ، المتوفى ٣٧٣ هـ / ٩٨٢ م ، ينাম في مزود دابة أستاذه ليكون أول وارد عليه في الصباح (٣٠١) •

وهناك بعض الحالات الخاصة ، لا ينتقيد فيها بوقت معين ، وخاصة عند حضور أحد الغرباء الى المدينة ، فعند مرور أبي علي الصدفى بسببة الى الأندلس في عام ٤٩٠ هـ / ١١٠١ م ، قرىء عليه اذ ذاك جامع الترمذى ولازم الناس سماعه بالجامع ليلاً ونهاراً ، وكانوا يبيتون بالمقصورة ، حتى كمل في مدة يسيرة ، لفرط استعجاله (٣٠٢) •

(٢٩٨) الضبى : بغية المنتهى ، ص ٣٧٨ .

(٢٩٩) الضبى : بغية المنتهى ، ص ١٦٤ — ١٦٦ .

(٣٠٠) المقرئ : أزهار الرياض — ج ٢ ، ص ٢٨٥ .

(٣٠١) المراكشي : الذيل والنكلة — القسم الرابع ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١ .

المقرئ : النفع — ج ٣ ، ص ٤٠١ ، ٤٠٢ .

(٣٠٢) ابن الأبار : المعجم ، ص ٥٤ .

### حلققات المعلم

كان المعلم يجلس الى جوار عمود من أعمده المسجد ، أو في صدر المكان الذي اتخذته لتعليم طلبته ، ويطلق على المكان اسم المعلم الذي يشغله ، وخاصة إذا ما استمر فيه مدة طويلة \* وبعد وفاة المعلم ، يقوم بشغل المكان ابنه ، أو أحد طلبته النباه \* ولدينا بعض البيانات التي تنص على أن الابن يخلف أباه في حلقته ، منها :

أن أبا القاسم بن الامام القاضي أبي الوليد الباجي المتوفى ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩ م ، قد سكن سرقسطة وغيرها ، وروى عن أبيه معظم علمه ، وخلفه في حلقته بعد وفاته (٣٠٣) .

عياش بن محمد بن عبد الرحمن الأشيلي ، المتوفى ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م ، كان قد أحكم القراءة على أبيه ، وتصدر للاقراء بعده ، وخلفه في حلقته (٣٠٤) .

سعد بن محمد بن عبد الرحمن بياسى ، أخذ عن أبيه وغيره ، وتصدر بعد أبيه للاقراء (٣٠٥) .

غالب بن عبد الله بن أبي اليمى ، المتوفى عام ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م ، أقرأ بمجلس أبيه في حياته ، وبعد وفاته ، وأسمع الحديث ، ودرس العربية ، والآداب (٣٠٦) .

عصام بن أحمد بن محمد بن ابراهيم ، قرطبي ، توفى ٦٣١ هـ / ١٢٣٣ م ، كان باهرا في علوم اللسان ، رثحه أبوه للاقراء

---

(٣٠٣) المقرئ : النفح - ج ٣ ، ص ٤٠١ .  
 (٣٠٤) المراكشي : الذيل والتكملة - السفر الخامس - القسم الثاني ، ص ٤٨٨ .  
 الذهبي : معرفة الثراء ، ص ٤٥٥ .  
 (٣٠٥) المراكشي : الذيل والتكملة - السفر الرابع ، ص ٤٣ .  
 (٣٠٦) المراكشي : نفس المصدر - السفر الخامس - القسم الثاني ، ص ٥١٩ .

بمجلسه فأقرأ فيه مدة (٣٧) \*

أحمد بن محمد بن عبد الله الماعزى ، توفى بعد عام ٤٨٧ هـ /  
١٠٩٤ م ، تصدر لتدريس ما كان عنده من فنون المعارف بعد جده (٣٨) \*  
ومن ناحية أخرى فقد يقوم الأستاذ باختيار أحد طلبته ليتولى  
التدريس في مكانه بعد وفاته ، مثلما حدث مع على بن حسين بن إبراهيم  
ابن يحيى ، المتوفى ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م ، حيث كتب بموضع أبى عبد الله  
ابن عبدون بعد وفاته بتبنيها عليه وشهادته له بالافتان (٣٩) \*

ولقد وجدت المجالس في الأندلس منذ فترة مبكرة ، ومن المحتمل  
استخدام الكراسى لجلوس المدرس ، حيث نجد أن محمد بن الحسن  
الزبيدي المتوفى ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م ، يكتب رسالة شعرية الى أبى مسلم  
ابن همد ، يبين له فيها أن الفتى إنما هو بعقله وليس ببنائه ، وأن طول  
الجلوس على الكرسي لا قيمة له إذا لم يكن الإنسان عالما (٣١) \*

وكان من العادة أن يكون في الحلقة معيد أو قارئ يقوم  
أما بشرح بعض ما غمض من كلام الأستاذ أو أن يتولى قراءة النص  
الذى سيتولى الأستاذ شرحه وتفسيره ، فيقال عن أحمد بن طلحة  
الأشبيلي ، المتوفى عام ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م ، أنه أخذ عن أخيه وكان  
معيدا في حلقة (٣١) \*

(٣٠٧) المراكشي : نفس المصدر - القسم الأول ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .  
(٣٠٨) المراكشي : الذيل والتكملة - السفر الأول ، ص ٤٥٠ ، ٤٥١ .  
(٣٠٩) المراكشي : الذيل والتكملة - السفر الخامس - القسم الأول ،  
ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٣١٠) الحميدي : الجذوة ، ص ٤٣ . والأبيات هي :  
أبا مسلم ان الفتى بجنانه  
ومقوله لا بالمرآك واللبس  
وليس ثياب المرء تفنى قلامة  
إذا كان مقصورا على قصر النفس  
وليس يفسد العلم والحلم والحجا  
أبا مسلم طول القعود على الكرسي  
(٣١١) السيوطي : بغية الوعاة - ج ١ ، ص ٣١٣ .

ومن المحتمل أيضا أنه كان يعهد للمعيد بحفظ النظام في الحلقة وخاصة أثناء غياب الأستاذ ، يقول ابن بشكوال عن أحمد بن أفلح ابن حبيب بن عبد الملك الأموي أنه شاهد حين سماعه من وهب ابن مسرة في المسجد الجامع ، وقوع لغط وكلام في المسجد بين أصحابه ، وارتفاع الصوت بينهم ، وكان أحدهم يعرف بالبشرلى ، فأنكر عليهم ذلك بعض القومة ، حتى أخذ عليهم الدرة ، وكان أبو بكر بن عذيل الشاعر الأديب بالحضرة فقال في ذلك على البديهة :

ان وهب بن مسرة

بين أهل العلم درة

كان في مجلسه لليو

م على العلم معرة

إذا على القيم رأ

س البشرلى بدره (٣١٢)

أما عن عدد الطلبة في كل حلقة فلم يكن هناك تحديد لذلك واختلف الرقم حسب سمعة الأستاذ ، وحسب المادة التي يقوم بتدريسها وحسب المكان الذي توجد به الحلقة ، فعبد الملك بن زيادة لله الضبى ( توفي ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م ) حينما رجع الى قرطبة ، وجلس ليروي ما احتقبه من العلوم ، اجتمع اليه في المجلس خلق عظيم فلما رأى تلك الكثرة ، وملاؤه عندهم من الأثرة قلته :

انسى إذا حضرتنى ألف محبرة

يكتبن حداثى طورا وأخبرنى

نادت بمفخرتى الأقلام معلنة

هذى المفاخر لا قبعان من لبن (٣١٣)

(٣١٢) ابن بشكوال : الصلة - ج ١ ، ص ١٦ ، ١٧ .

(٣١٣) الحميدى : الجذوة ، ص ٣٦٥ . ابن بشكوال : الصلة -

ج ٢ ، ص ٢٦٢ .

ابن سعيد القرطبي : المغرب في حلى المغرب - ج ١ ، ص ٩٢ ، ٩٣ .

القرطبي : فتح الطيب - ج ٦ ، ص ٢٥٩ .

ولقد وضعت قواعد أخلاقية وأصول يجب أن يتبناها الطلبة في هذه المجالس ، وتحدث عن ذلك العالم الأندلسي الكبير ابن حزم القرطبي في كتابه ( الأخلاق والسير ) ، حيث خصص فصلا في حضور مجالس العلم ، أورد بعضه فيما يلي :

— إذا حضرت مجلس علم ، فلا يكن حضورك الا حضورا مستريدا علما وأجرا لا حضور مستغن بما عندك طالب عثرة تشنعها أو غريبة تشيعها ، فهذه أفعال الأرذال ، الذين لا يفلحون في العلم أبدا .  
فإذا حضرتها على هذه النية ، فقد حصلت خيرا على كل حال ، فان لم تحضرها على هذه النية فجلوسك في منزلك أروح لبدنك وأكرم لخلقك وأسلم لدينك .

— فإذا حضرتها كما ذكرنا فالتزم أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها ، هي :

اما أن تسكت سكوت الجهال فتحصل على أجر النية في المشاهدة وعلى الثناء عليك بقلّة الفضول وعلى كرم المجالسة ومودة من تجالس .

— فان لم تفعل فاسأل سؤال المتعلم فتحصل على هذه الأربع محاسن وعلى خامسة ، وهي استزادة العلم .

وصفة سؤال المتعلم هو أن يسأل عما لا يدري / لا عما يدري .  
فان السؤال عما تدريه سخف وقلة عقل لكلامك وقطع لزمانك بما لا فائدة فيه لا لك ولا لغيرك وربما أدى الى اكتساب العداوات ، وهو يعد عين الفضول . فيجب عليك أن لا تكون فضوليا ، فانها صفة سوء .

فان أجابك الذي سألت بما فيه كفاية لك فاقطع الكلام ، فان لم يجبك بما فيه كفاية ، أو أجابك بما لم تفهم فقل له : « لم أفهم » ، واسترده ، فان لم يزدك بيانا وسكت أو أعاد عليك الكلام الأول ولا مزيد فأمسك عنه والا حصلت على الشر والعداوة ولم تحصل على ما تريده من الزيادة .

— والوجه الثالث : أن تراجع مراجعة العالم ، ومضة ذلك أن تعارض جوابه بما ينتقضه نقضا بيّنا ، فإن لم يكن ذلك عندك ولم يكن عندك إلا تكرار قولك ، أو المعارضة بما لا يراه خصمك معارضة ، فأمسك ، لأنك لا تحصل بتكرار ذلك على أجر زائد ولا تعلم ، بل على الغيظ لك ولخصمك والعداوة التي ربما أدت الى المضرات .

— وإياك وسؤال المعنت ومراجعة المكابر الذي يطلب الغلبة بغير علم فهما خلقا سوء ، دليان على قلة الدين وكثرة الفضول وضعف العقل وقسوة السخف ، حسنا الله ونعم الوكيل .

— وإذا ورد عليك خطاب بلسان أو هجمت على كلام في كتاب فإياك أن تقابله بمقابلة المخاضة الباعثة على المبالغة قبل أن تتيقن بطلانه ببرهان قاطع .

وأيضا فلا تقبل عليه اقبال المصدق به المستحسن إياه قبل علمك بصحته ببرهان قاطع فتظلم — في كلا الوجهين — نفسك ، وتبعد عن ادراك الحقيقة ، ولكن اقبال من يريد حظ نفسه في فهم ما سمع ورأى بالتزديد به علما ، وقبوله أن كان حسنا ، أو رده أن كان خطأ ، فمضمون لك ، إذا فعلت ذلك ، الأجر الجزيل والحمد الكثير والفضل العميم .

— من اكتفى بقليله عن كثير ما عندك فقد ساواك في الغنى ولو أنك قارون ، حتى إذا تصاون في الكسب عما تشيره أنت إليه ، فقد حصل أغنى منك بكثير .

— ومن ترفع عما تخضع إليه من أمور الدنيا فهو أعز منك بكثير .

— فترض على الناس تعلم الخير والعمل به ، فمن جمع الأمرين جميعا ، فقد استوفى الفضلين معا ، ومن علمه ولم يعمل به فقد أحسن في التعلم وأساء في ترك العمل به ، فخلط عملا صالحا وآخر سيئا ، وهو خير من آخر لم يعلمه ولم يعمل به ، وهذا الذي لا خير فيه .

أمثل حالة وأقل دما من آخر ينهى عن تعلم الخير ويصد عنه (٣١٤) \*

### المعلمون في المرحلة الثانية

تبين دراسة كتب التراجم أن معلمى المرحلة الثانية ، كانوا يتمتعون بمستوى ثقافى عال ، وبمعرفة موسوعية ، قاموا بتحصيلها عن طريق الدراسة التى تلقوها فى بلادهم ، أو كتبوها من خلال رحلاتهم الى البلاد الأخرى ، وتشهد بذلك الألقاب الكثيرة التى أطلقت عليهم والتى تبين فى ذات الوقت مستواهم الثقافى ، ومن الألقاب التى كانت تطلق على هؤلاء ما يلى :

- كان له حظ ..
- كان من أهل المعرفة ..
- أو عنده اهتمام ..
- أو عنده مشاركة فى أشياء من العلم ..
- كانت عنده عناية ..
- كان كثير السماع ..
- له مشاركة فى الحديث ..
- نفذ فى القراءات ..
- بز أهل زمانه ..
- فاق فى ..
- أعلم الناس ..
- أفهم الناس ..
- كان من أهل الأدب ..
- كان من أهل العلم ..
- كان فى حفظه آية من آيات الله ..

— كان بحرا من بحور العلم ..

— كان لا نظير له في العلم ..

— ثقة ..

— حاذقا ..

— محدثا ..

— مقربا ..

— حافظا ..

— عارفا ..

— متفنا ..

— فقيها .. الخ \*

ولعل لقب الفقيه كان أسمى هذه الألقاب ، ولم يكن هينا أن يطلق على أحد ، فالشيخ محمد بن عبد الله المتوفى ٩٨٢/٥٣٧٢م ، كان لا يرى أن يسمى طالب العلم فقيها حتى يكتيل ، ويكمل سنه ، ويقوى نظره ، ويبرع في حفظ الرأي ، ورواية الحديث ، ويتميز فيه ، ويعرف طبقات رجاله ، ويحكم عقد الوثائق ، ويعرف عللها ، ويطلع الاختلاف ، ويعرف مذاهب العلماء والتفسير ، ومعاني القرآن ، فحينئذ يستحق أن يسمى « فقيها » والا فاسم الطالب أليق به الى أن يلحق بهذه الدرجة (٣١٥) \*

ولذلك كان من الضروري لمن ينتصب للتدريس في هذه المرحلة أن يكون عالما بمادته ، معتمدا على أصول وروايات صحيحة ، والا تعرض للنقد الشديد ، فيقال مثلا عن أحمد بن محمد بن عبد الله الخولاني (توفي ٥٥٠٨/١١٤م) ، انه لم يكن عنده كبير علم ، أكثر من روايته عن هؤلاء الجهلة ، ولا كانت عنده أيضا أصول يلجأ اليها أو يعمل عليها (٣١٦) \*

(٣١٥) ابن فرحون : الديباج — ج ٢ ، ص ٢٠٣ \*

(٣١٦) ابن يثكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٧٦ \*



أحمد بن عبد الله بن طريف ، من أهل قرطبة ، توفي ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م ، كان كثير السماع من الشيوخ والاختلاف اليهم ، ولم تكن له أصول (٣١٧) .

وابن الفرضي يؤكد كذب كل من الفقيه عثمان بن محمد بن يوسف قائلًا عنه : كان كذابا ، أخبرني بذلك من أتى به ممن وقف على كذبه ، وما كان يستأهل أن يحدث عنه (٣١٨) . وكذلك الفقيه محمد بن عيسى ابن رفاعة الخولاني المتوفى ٤٣٧ هـ / ٩٤٨ م ، قائلًا عنه أنه شاعر بالكذب (٣١٩) .

كما أن هؤلاء المعلمين أيضا كانوا موضع النقد في أساليبهم التعليمية فهناك من حمدت طرائقه في التعليم ، وهناك من كان شديد الضرر عند تتبع البحث والمساءلة ، حتى أنه كان يترك الحلقة وينصرف ، مثلما كان يحدث مع علي بن محمد بن علي بن خروف المتوفى ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م (٣٢٠) ، ومن كان عسر الأخذ نكد الخلق ، مثل أحمد ابن عبد الله بن المطرز ، المتوفى ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م (٣٢١) .

أما من الناحية الاجتماعية ، فلقد تمتع هؤلاء بمستوى طيب سواء بين الناس أو بين الحكام وساعدتهم علمهم على الانتساب الى طبقة اجتماعية متميزة ، هي طبقة الشقاء ، التي أصبح لها وزنها وقيمتها في نظر الدولة والمجتمع من القرن الثاني من الهجرة / الثامن الميلادي .

ولقد كان اختيار معظم التائمين على الأمور العامة من رجال العلم وهؤلاء بدورهم حاولوا أن لا تشغلهم الوظيفة عن أعباء القيام

(٣١٧) ابن بشكوال : نفس المصدر - ج ١ ، ص ٨٠ .

(٣١٨) ابن الفرضي : علماء الأندلس - ج ١ ، ص ٣٠٦ .

(٣١٩) ابن الفرضي : نفس المصدر - ج ٢ ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٣٢٠) التراكمي : الذيل والتكملة - السفر الخامس - ج ١ ، ص ٣٢٢ .

(٣٢١) ابن بشكوال : الصلة - ج ١ ، ص ٧٨ .

بمهمة التدريس فأصبح من السهل أن ترى وزيراً أو غيره من رجال المناصب العليا يمارسون التدريس ، بل من الممكن القول بأن جميع من شغلوا وظائف عامة كان لهم دور في نشر العلم والتعليم .

#### أجر المعلمين في المرحلة الثانية

من الناحية الاقتصادية تشير كل الدلائل ، الى أن دخل هؤلاء المعلمين كان مرتفعاً .

وفي تناولنا لمسألة أجر التعليم ، يمكن لنا أن نقسم المعلمين الى ثلاث فئات :

( أ ) فئة تتقاضى أجرها من الجارية التي كانت تجريها عليهم الدولة أو من الأجر الذي يدفع من الأعباس .

والجارية نظام عمل به على مدار فترة طويلة من التاريخ الأندلسي ووجدت دواوين العطاء منذ عهد مبكر ، ولقد سبق لى أن أوردت الكثير من الأمثلة على ذلك عند تناولى الفصل الخاص بالدولة والتعليم ، وبعض مظاهر تدخل الدولة في التعليم .

( ب ) فئة أخرى ، تتقاضى أجرها من الطلبة أنفسهم ، بناء على عقد يعقد بين المعلم ووالد التلميذ أو وليه ، وفي آخر هذا الفصل أورد صيغة من صيغ العقود المعمول بها حينذاك منذ القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، ولقد كان العمل في مهنة التدريس مربحاً جداً يدل على ذلك ما ورد في ترجمة على بن يوسف بن محمد ابن أحمد ، وهو داني ، سكن مرسية ، توفي في ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م ، كان نجاراً ، فلما كف بصره ، انقطع الى طلب العلم فبرز في النحو ، ونال من الاقراء وتعليم العربية مالا جسيماً ( ٣٢٢ ) .

---

( ٣٢٢ ) المراكشي : الذيل والتكملة — السفر الخامس — الجزء الأول ، ص ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

أما الشيخ أبو علي الشلوبين ، فقد قام بالتدريس في أشبيلية مدة تزيد على ستين عاما ، وكان اكتسابه من الطلبة أكثر من ٤ آلاف درهم في الشهر (٣٢٣) .

الشيخ أبو العباس أحمد بن جعفر السبتي ، المتوفى سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م : كان في أول أمره يسكن في الفندق ويعلم الحساب والنحو ، ويأخذ الأجرة على ذلك (٣٢٤) .

( ج ) ومجموعة ثالثة كانت تتقاضى أتعابها من الوظائف التي تسند إليها ، مثل الإمامة أو الصلاة أو الأذان في المساجد ، أو وظائف الدولة الأخرى مثل الشورى أو الفتوى .

وهناك مجموعة من المدرسين ، كانت تقوم بالتدريس مجانا على أساس أنه عمل خيري ، ولقد وردت عبارة « أقرأ الناس محتسبا » في كثير من تراجم علماء الأندلس ، وأكتفى في هذا المجال بالاشارة الى كل من :

أبي علي الغساني ( من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ) ، الذي حينما دفع اليه تلميذه محمد بن عبد الرحمن جملة من المال في مقابل اقراءه ، أخذه ووضع على رأسه وقال : لا آخذ على هذا شيئا أبدا ، ولو أخذت من أحد لأخذت منك (٣٢٥) .

عتيق بن علي بن خلف ، المتوفى ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م ، كان لا يبتغي على اقراءه أجرا الا من الله تعالى (٣٢٦) .

(٣٢٣) المراكشي : نفس المصدر — السفر الخامس — الجزء الثاني ، ص ٤٦١ — ٤٦٣ .

(٣٢٤) التري : نفع الطيب — ج ١٠ ، ص ١٣٥ .

التبكي : نيل الابتهاج ، ص ٦١ .

(٣٢٥) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٣٧ .

Ribera, J. : He de la Ensenanza entre los Espnoles Musulmanes, p. 72.

(٣٢٦) المراكشي : الذيل والتكملة — السفر الخامس — القسم

الأول ، ص ١٢٣

### ملابس المسلمين

يقول المقرئ أن أهل الأندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ، وغير ذلك مما يتعلق بهم ، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه فيطويه صائما ، ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه . ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها .

ويقول أيضا :

وأما زى أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمام ، لا سيما في شرق الأندلس ، فإن أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضيا ولا فقيها مشارا إليه الا وهو بعمامة . . . والذؤابة لا يرخيها الا العالم ، ولا يصرفونها بين الأكتاف ، وانما يسدلونها من تحت الأذن الصغرى (٣٢٧) .

ويؤكد ابن الخطيب أن العمام ثقيل في أهل هذه الحضرة (غرناطة) ، الا ما شاء ، في شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم (٣٢٨) .

ولم يكن للمعلمين زى خاص بهم ، ولكنهم كانوا يعتنون بملابسهم وخاصة حين قيامهم بالتعليم ، فعبد الملك بن حبيب كان يلبس الخز والسعدي . وانما كان يفعل ذلك اجلالا للعلم وتوقيرا (٣٢٩) .

وحبيب بن الوليد ، كانت له حلقة في جامع قرطبة يسمع الناس فيها . وهو يلبس الوشى الهشامى (٣٣٠) .

خلف بن ابراهيم بن خلف ، توفي ٥١١ هـ / ١١١٧ م ، كان جميل

(٣٢٧) المقرئ : نفع الطيب - ج ١ ، ص ٢٠٨ .

(٣٢٨) ابن الخطيب : الاحاطة - ج ١ ، ص ١٢٦ .

(٣٢٩) اليعصبى : ترتيب المدارك - ج ٤ ، ص ١٢٤ .

Ribera, J. Ho. de la Ensenanza entre .... p. 70.

(٣٣٠) ابن حيان : المتنبى ، طبعة مكي ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

ابن الأبار : التكنة - ج ١ ، ص ٣٢ .

المنظر والثياب (٣٣١) .

قاسم بن خيرة ، المتوفى ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م ، كان لا يجلس للاقراء  
الا على طهارة ، وفي هيئة حسنة (٣٣٢) .

والشيخ علي بن أحمد بن علي ، المتوفى ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، كان أكثر  
لباسه جبة صوف لا شعار لها (٣٣٣) .

أما الشيخ محمد بن فرحون ( توفي ٧٩٣ هـ / ١٣٩٠ م ) ، فكان  
يلزم الطيلسان على العمامة ، ولا يلبس الثياب المصقولة (٣٣٤) .

واعتناء المعلم بنظافته وثيابه أمر واجب نصت عليه كافة الكتب  
التي تحدثت عن العلماء والمعلمين ، فانه اذا عزم على مجلس التدريس  
تطهر من الحدث والخبث ، وتنظف ، وتطيب ، ولبس أحسن ثيابه ،  
اللائقة بين أهل زمانه ، قاصدا بذلك تعظيم العلم (٣٣٥) .

#### العلاقة بين المعلم والطالب

اختلف أسلوب العلاقات بين المعلم والتلميذ في هذه المرحلة عن  
سابقتها ، فهنا قد أصبح التلميذ واعيا ، ويمكنه أن يعرف مسؤولياته ،  
ولذلك فقد اختلف أسلوب العتاب نوعا ما ، وتحول الى أساليب أخرى ،  
كالنصح والارشاد . وأقصى ما يمكن أن يصل في العقوبة ، هو حرمانه  
من حضور دروسه فترة معينة ، أو منعه من الدراسة عليه .

ولقد كان على الأستاذ تحمل المسؤولية كاملة في ذلك فينبغي  
عليه « أن يعتنى بمجالح الطالب ، ويعامله بما يعامل به أعز أولاده  
من الحنو والشفقة والاحسان اليه ، والصبر على جفاء ربما وقع منه » .

(٣٣١) الذهبي : معرفة القراء ، ص ٣٧٧ .

(٣٣٢) ابن فرحون : الديباج - ج ٢ ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٣٣٣) المراكشي : الذيل والتكملة - السفر الخامس - القسم

الأول ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٣٣٤) التنبكي : نيل الانتهاج ، ص ٣٠ .

(٣٣٥) ابن جماعة : تذكرة السامع والتكلم ، ص ٣١ .

ونقص لا يكاد يخلو الانسان منه ، وسورة غضب في بعض الأحيان ،  
فيوقف على ذلك بنصح وتلطف لا بتعنيف وتعسف قاصداً بذلك حسن  
تربيته ، وتحسين خلقه ، واصلاح شأنه « (٣٣٦) » .  
ويشير ابن خلدون الى ذلك قائلاً : فينبغي للمعلم في متعلمه  
والوالد في ولده ، أن لا يستبد عليهم في التأديب (٣٣٧) .

كما أن على المعلم أن يحرص على تعليم التلميذ ، « وتفهمه  
ببذل جهده ، وتقريب المعنى له من غير اكثار لا يحتمله الذهن ، أو بسط  
لا يخبطه حفظه » (٣٣٨) .

كذلك عليه أن لا يظهر للطلبة تفضيل بعضهم على بعض عنده  
في مودة أو اعتناء مع تساويهم في الصفات من سن أو فضيلة  
أو تحصيل أو ديانة فإن ذلك ربما يوحش الصدر ، وينفر القلب ،  
ولقد أصر ابن خلدون على أنه من الواجب في التعليم ، أن لا يخلط على  
المتعلم علمان معاً ، حتى لا يسبب ذلك انشغال بال التلميذ وعدم  
اجادته لأحدهما ، وطالب « بأن يتفرع الفكر لتعلم ما هو بسبيله ،  
مقتصر عليه ، فربما كان ذلك أجدر بتحصيله » (٣٣٩) .

ولقد طلب من المعلم اختيار التلميذ قبل أن يبدأ معه ، وأن يعرف  
مستواه ، فإذا وجد من الصعوبة على الطالب أن يواصل دراسة  
كتاب ما ، أشار عليه بأن يقرأ كتاباً أسهل حتى يدرب ذهنه ، وبعد ذلك  
يعود الى نقله الى كتاب آخر وهكذا ، كما أنه بعد الانتهاء من الدرس  
فلا بأس بطرح مسائل تتعلق به على الطلبة يمتحن بها فهمهم وضبطهم  
لما شرح (٣٤٠) .

(٣٣٦) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٣٣٧) ابن خلدون : المقدمة - ج ٤ ، ص ١٢٤٤ .

(٣٣٨) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ٥٣ .

(٣٣٩) ابن خلدون : المقدمة - ج ٤ ، ص ١٢٣٥ .

(٣٤٠) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ٥٣ .

وإذا كان المعلم قد طوب بكل ذلك ، فلقط طوب الطالب أيضا بأشياء كثيرة حتى يمكن له أن يتعلم وأن يصبح يوما ما معلما ، فكان ينبغي على طالب العلم أن يثبت ويصبر على أستاذ وعلى كتاب حتى لا يتركه أبتر ، وعلى من حتى لا يشتغل بفن آخر قبل أن ينتقن الأول ، وعلى بلد حتى لا ينتقل الى بلد آخر من غير ضرورة ، فان ذلك كله يفرق الأمور ويشغل القلب ، ويضيع الأوقات ويؤذى العلم (٣٤١) .

كذلك يوصي الطالب ، ألا يذم ماجهل منه ، فهو دليل على نقصه ، وقوله بغير معرفة ، وألا يعجب بما علم فيطمس فضيلة علمه (٣٤٢) ، والاشارات الى هذه التوصيات كثيرة جدا ، وتكفي الاشارة الى كتاب الغزالي « أيها الولد » أو ملخص في التربية الاسلامية « لآسين بلاثيوس » (٣٤٣) .

ولقد نمت العلاقة بين المعلم والتلميذ ، الى درجة أنه كان يسمح للمعلم بأن يصطحب طلبته للتنزه في أيام العصور ، وهناك في هذه المواضع الجميلة يمنحهم من الحرية ما لا ينعمون به أثناء الدرس (٣٤٤) .

كما أن الطلبة تعلقوا بأساتذتهم ، وأحبوهم حبا شديدا لدرجة أنه بموت الأستاذ ، يقوم الطلبة بمرافقة نعشه وقراءة القرآن على قبره ، مثلما حدث عند وفاة محمد بن أحمد بن عبيد الله المعروف بابن العطار المتوفى في عام ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م ، حيث كان الجمع في جنازته عظيما ، وانتاب قبره طلاب العلم أياما ختم قراؤها فيها محضرته القرآن عدة ختمات (٣٤٥) .

(٣٤١) الزرنوجي : تعليم المتعلم ، ص ١٨ .

(٣٤٢) الفارابي : احصاء العلوم ، ص ١٠٧ .

(٣٤٣) الغزالي : أيها الولد ، طبعة بيروت ، ١٩٥١ .

Asin Palacios : Un Compendio de Pedagogia. musulmana.

(٣٤٤) انظر ترجمة محمد بن حسين في بغية المتمس ، ص ٦٠٥٩ .

(٣٤٥) ابن بشكوال : الصلة - ج ٢ ، ص ٤٨٤ .

### تعليم النساء في المرحلة الثانية

لا تتحدث المصادر كثيراً عن طريقة تعليم النساء ، ولكن بعض الفقرات الواردة في بعض ترجمات شهرات النساء الأندلسيات أو في ترجمات بعض العلماء يمكن أن تلقى ضوءاً على هذه المسألة ، وتبين لنا أن البنات كن يتلقين العلم على أيدي بعض المعلمين الرجال أو النساء وأن النساء كن يذهبن إلى المسجد للتعلم ، فيقال عن محمد ابن علي بن محمد الفخار المتوفى ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م ، انه استوطن مالقة ، وتصدر للاقراء بها فكان يدرس من صلاة الصبح إلى الزوال ، ويقرأ القرآن ، ويفتي النساء بالمسجد إلى ما بعد العصر (٣٤٦) .

محمد بن أحمد بن أبي القاسم الأنصاري ، المتوفى ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م ، ثابر على الاكتاب ، وتأديب النساء (٣٤٧) .

عثمان بن سعيد بن عثمان المقرئ ، توفي ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م ، أقرأ بالمرية مدة وكانت ريحانة تقرأ عليه القرآن بها ، كانت تقعد خلف ستر ، فتقرأ ، ويشير لها بقضيب بيده إلى المواقف ، فأكملت السبع عليه ، وطلبتة بالإجازة ، فامتنع ، ولكنه كتبها لها فيما بعد (٣٤٨) .

كما أن نزهون بنت القليعي كانت تقرأ على أبي بكر المخزومي الأعمى (٣٤٩) .

ويقول القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله عن أستاذه الوليد ابن بكر بن مخلص ، المتوفى ٣٩٢ هـ / ١٠٠١ م ، انه كان « مؤدبى ،

(٣٤٦) ابن الخطيب : الإحاطة - ج ٢ ، ص ٩١ - ٩٥ .  
السيوطي : بغية الوعاة - ج ١ ، ص ١٨٧ .  
(٣٤٧) المراكشي : الذيل والتكملة - السمر الخامس - القسم الثاني ، ص ٥٨٩ .

(٣٤٨) الضبي : بغية المتيسر ، ص ٣٩٩ .

(٣٤٩) ابن سعيد : رايات البرزين ، ص ٩١ .

ابن الخطيب : الإحاطة - ج ٢ ، ص ٣٢٤ .

القسري : نفع الطيب - ج ٦ ، ص ٣٣ .



ومؤدب أخى ، وابنة أخى « (٣٥٠) .

أما عن دور المرأة كمعلمة للنساء ، فيمكن أن نشير الى مريم بنت يعقوب الشلبى ، فقد كانت أديبة شاعرة ، وكانت تعلم النساء الأدب (٣٥١) .

وكذلك حفصة الركونية ، توفيت ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م ، كانت أستاذة وقتها وانتهت الى أن علمت النساء فى دار المنصور (٣٥٢) .

وكذلك كانت ولادة بنت الخليفة المستكفى بالله ، أستاذة مهجة بنت التيانى القرطبية (٣٥٣) .

ومن ناحية أخرى ، فقد حفظ لنا التاريخ بعض الملاحظات التى تبين أن بعض الأندلسيات لعبن دورا هاما فى الحياة العلمية وقمن بنقل علومهن الى الرجال ، وأكتفى بالإشارة الى أمة الرحمن بن عبد القاهر العيسى (٣٥٤) — راضية ، مولاة الامام عبد الرحمن الناصر (٣٥٥) — واشراق السويدية العروضية ، توفيت بداية ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م ، وكانت تسكن بلنسية ، وكانت قد أخذت عن مولاها النحو واللغة ، وفاقته فى كثير مما أخذت عنه ، وأتقنت العروض .

قال أبو داود سليمان بن نجاح : أخذت عنها العروض ، وقرأت عليها النوادر لأبى على القالى ، والكامل للمبرد ، وكانت تحفظ الكتابين ظاهرا وتتكلم عنهما (٣٥٦) .

(٣٥٠) ابن بشكوال : الصلة — ج ٢ ، ص ٦٤٢ .

(٣٥١) ابن بشكوال : نفس المصدر — ج ٢ ، ص ٦٩٤ .

الحيدى : جذوة المتبس ، ص ٣٨٨ .

المترى : نوح الطيب — ج ٦ ، ص ٢٣ .

(٣٥٢) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ١ ، ص ٤٩٣ ، ٤٩٤ .

(٣٥٣) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب — ج ١ ، ص ١٤٣ .

(٣٥٤) ابن بشكوال : الصلة — ج ٢ ، ص ٦٩٤ .

(٣٥٥) ابن بشكوال : الصلة — ج ٢ ، ص ٦٩٣ ، ٦٩٤ .

(٣٥٦) السيوطى : بقية الوعاة — ج ١ ، ص ٤٥٨ .

عجيل حسن : الحياة العلمية ، ص ٤٥٢ .

## الفصل السادس

### المرحلة التعليمية الثالثة

أكدت أكثر من مرة أن تقسيم التعليم في هذا العصر ، الى مراحل محددة ليس الا لغرض الدراسة فحسب ، لأن الطالب بعد الانتهاء من الكتاب ، كان يبدأ مرحلة منفصلة من سماع الشيوخ ، والانتقال من معلم الى آخر ومن كتاب الى آخر ، ومن مكان الى آخر ، دون أن يكون هدغه الوصول الى الانتهاء من سنة دراسية معينة ، أو مرحلة محددة .

ومن هنا فالمرحلة التعليمية الثالثة ليست الا امتدادا للمرحلة الثانية ، لكنها تتميز غنيا ، بارتفاع سن طلبتها ، ومكانة الشيوخ الذين يتولون التدريس فيها .

والمرحلة التعليمية الثالثة يمكن أن تتميز أيضا بأنها استكمالية إذ أنها فترة يحاول فيها المتعلم أن يستكمل دراساته التي قد يعتقد أنه لم يستكملها من قبل كما أنها عملية تجديد مستمرة لمعلومات المتعلم ، ولذلك فهي لا تتميز بسن محددة ، أو حتى بمكان معين .

وأكبر سميتين من سمات هذه المرحلة تتمثلان في التعليم المدرسي والرحلة .

فالمدرسة وخاصة في الأندلس ، لم تكن تضم بين مدرسيها الا كبار علماء العصر ، أما الطلبة فانهم كانوا يسعون اليها ، عندما يرغبون في تحصيل درجة عالية من العلوم ، بدليل أن الشيخ ابن الفخار ، حين انتهى من تدريسه لتلميذه منصور الرواوي ، كتب له بالاجازة والأذن له في التحليق بموضع عودده من المدرسة بعده (١) .

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ .

أما الرحلة ، فلقد كانت أبرز مساعي الطلاب المتقدمين للحصول على أقصى ما يمكن تحصيله من العلوم ، التي كانت تدرس في مساجد ومدارس البلاد الشرقية .

وهناك أماكن أخرى كثيرة ، ساهمت في تطور الحركة التعليمية في الأندلس ، وأثرت فيها تأثيرا كبيرا ومنها :

المجالس العلمية ، سواء التي كان يعقدها الأمراء منذ بدايات الأسرة الأموية ، حتى سقوط غرناطة ، أو التي كان يعقدها كبار العلماء والشخصيات الأندلسية ، هذا ولقد تناولت تلك المجالس بالدراسة ، في الفصل الخاص بالدولة والتعليم ( أنظر الفصل الأول ) .

أما المكتبات فلقد انتشرت انتشارا واسعا في أسبانيا الإسلامية فظهرت مكتبات القصور الخلافية ، وكانت أعظمها مكتبة الحكم الثاني ، ثم مكتبات أمراء الموحدين ، ومن ناحية أخرى ، اهتم كبار الناس وعامتهم بالحصول على الكتب ، وإقامة مكتباتهم الخاصة ، ونتيجة لذلك حدثت حركة إغارة للكتب نشطة جدا ، ويتم تبادل الكتب بين المعلمين والطلاب بصورة واسعة ، وأجد أنه ليس من الضروري تناول هذا الموضوع بالدراسة حيث سبقني الى هذا المجال ثلاثة من الأساتذة ، قاموا بدراسته دراسة مستوعبة (١) .

وثمة أماكن أخرى ساهمت بصورة فعالة في النشاطات التعليمية ، وفي اللقاء بين المعلمين والطلبة ، مثل حوانيت الوراقين ، أماكن تجليد الكتب ، كما أن مصانع الكاغد التي نشأت بشاطبة ، والتي لم يكن لها نظير في معمر الأرض ، والتي عمت المشارق والمغارب على

---

(2) Ribera, J. : *Bibliofilos y Bibliotecas en Espana Musulmana* (Disertaciones y Opùsculos) 181—228.

Gozalbez, Busto : *El libro y las Bibliotecas en El. M.*

الحجى : الكتب والمكتبات في الأندلس : مجلة كلية الدراسات

الإسلامية ببغداد ، العدد الرابع ( ١٣٩٢ — ١٩٧٢ ) .

سطح المعمورة ، كما يقول الادريسي (٣) .

وهناك جانب مهم جدا ، كان يجب تناوله في هذه الدراسة ، ولكنني فضلت ارجاءه الى دراسة مستقلة ، ألا وهو الصناعات التعليمية ، أقصد بذلك صناعة الألواح والأقلام وأدوات الحبر والمحابر ... وغير ذلك ، وقد حفلت كتب الأدب بالاشعارات الأدبية الى الأدوات المكتبية ، وخاصة القلم والمخبرة .

كما أن التجارة قد لعبت دورا رئيسيا ، في هذا المجال ، فكثير ممن تنقلوا بين المدن الأندلسية ، وبين الأقطار الإسلامية ، كانوا ممن يعملون في التجارة وحملوا معهم بالإضافة الى تجارتهم علوم بلادهم ، وكتبها الى البلاد التي قصدوها .

وسأكتفي هنا بدراسة المدارس في الأندلس والرحلات ، وما يتبع ذلك من الحصول على الاجازة .

---

(٣) الادريسي : نزهة المشتاق ، ص ١٩٢ .

## نظام المدرسة في الاسلام

يذهب بعض الباحثين الى أن كلمة مدرسة انما هي في الأصل كلمة عبرية دخلت الى اللغة العربية قبل الاسلام (٤) ، وبعضهم يرى أنها من الألفاظ المولدة المشتقة عند العرب (٥) ، وهي مكان خصص للتعليم ، ويكاد يجمع كافة المؤرخين على أن المدارس في بداية أمرها قد بنيت لكي تتولى العناية بالدراسات التشريعية (٦) ، وخاصة المذاهب السنية (٧) ومنها ما تخصص في تدريس مذهب واحد أو كان يجمع في مبناه بين المذاهب السنية الأربعة (٨) .

والمدرسة مبنى يتفاوت من ناحية الحجم ، حيث هناك المدارس الصغيرة التي لا تتجاوز كونها منزلا صغيرا يخصصه صاحبه لهذا الغرض ويقوم مدرس بالتدريس فيه ، ويعرف هذا النوع من المدارس عادة بالمدارس الأهلية ، ومن أولى هذه المدارس ، المدرسة المنسوبة الى أبي حاتم بن حيان البستي (٩) ، المتوفى ٣٥٤هـ - ١٠٦١م ، حيث قال عنه ياقوت الحموي : وقد كان أبو حاتم سبل كتبه وأوقفها

(٤) منصور فهمي : قاعات البحث ، ص ١٠٧ ( مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ج ١ ، عام ١٩٢٥ ) .

محمد غنينة : تاريخ الجامعات ، ص ٦٣ .

(٥) حسين أمين : المدرسة المستنصرية ، ص ٢٠ .

(٦) Makdese; G. : Madrasa and University in the Middle ages.

Makdese; : The Scholastic method in Medieval Education.

Makdese; G. : Muslim Institutions of Learning in Eleventh century, p. 10-12.

(٧) ثلبي : تاريخ التربية ، ص ١١٥ ، ١١٦ .

(٨) ناجي معروف : نشأة المدارس المستقلة في الاسلام ،

ص ١٠ - ١٧ .

(٩) ياقوت : معجم البلدان - ج ١ ، ص ٤١٨ ( وبست من أعمال

كابول بأفغانستان ) .

وجمعها في دار رسمها \* وقال الخافض أبو عبد الله الحاكم « أبو حاتم ابن حيان داره التي هي اليوم مدرسة لأصحابه ، ومسكن للغرباء الذين يقيمون بها من أهل الحديث والمتنفة ولها جرايات يستنفقونها دارة ، ومنها خزانة كتبه في يدي صبي ، سلمها اليه ، ليبدلها لمن يريد نسخ شيء منها في الصفة من غير أن يخرجها عنها (١٠) \* كما أن أبا بكر محمد بن الحسن بن قورك ، المتوفى ٤٠٦ هـ - ١٠١٥ م ، أقام له أهل نيسابور مدرسة ودارا (١١) \*

أو أن تكون مبنى كبيرا يضم علاوة على الايوان الرئيسي ، مسجدا ، ومساكن للطلبة والمدرسين ، وقد تقوم الدولة بإنشائها \*

ويجمع كافة المؤرخين على أن أول احتضان للدولة لنظام المدارس في الاسلام قد تم على يد نظام الملك ، المتوفى ٤٨٦ هـ - ١٠٩٣ م ، الذي كان وزيرا للألب أرسلان في بغداد ، يقول الدكتور طلس : ويعتبر عمل نظام الملك هذا أول عمل رسمي قامت به الدولة الاسلامية لتنظيم الدراسة وترتيبها بتهيئة الأسباب ، وإيجاد المواد الضرورية (١٢) \*

ولقد كان لجهودات نظام الملك أثر كبير ، حتى أن كثيرا من

(١٠) ياقوت : معجم البلدان - ج ١ ، ص ٤١٨ \*

ناجي معروف : نشأة المدارس ، ص ٨ \*

محمد طلس : التربية والتعليم ، ص ١٢٢ \*

(١١) ابن خلكان : وفيات الأعيان - ج ٣ ، ص ٤٠٢ \*

الكتبي : الوافي بالوفيات - ج ٢ ، ص ٣٤٤ \*

معروف : نشأة المدارس ، ص ٨ \*

غنيمة : تاريخ الجامعات ، ص ٧١ \*

(١٢) طلس : التربية والتعليم ، ص ١٢٦ \*

Dodge; Bayard : Muslim Education in Medieval Times

p. 20.

Tritton; A. S. : Muslim Education in the Middle Ages;

p. 103.

المؤرخين قد زعموا أنه أول من أنشأ المدارس في الإسلام (١٣) ، وقام  
غيرهم بالرد عليهم وتبيان الحقيقة القائلة بوجود المدارس قبل نظام  
الملك بأكثر من قرن من الزمان (١٤) .

ولكن أهمية عمل نظام الملك ترجع الى كونه بداية عصر جديد  
من الازدهار للمدرسة ، إذ أصبح السلطان ، ورجال الطبقة العالية  
مولعين بتأسيس المدارس كما أن تكوين المدرسة ، كما أنشأها نظام  
الملك وما جعله بها من أقسام داخلية للطلاب ، أصبح فيما بعد نموذجا  
يحتذى في سائر المدارس التي أنشئت في الأزمان التالية (١٥) .

ولا شك أن مولد المدارس في الإسلام كان في مدينة نيسابور  
وذلك في القرن الرابع الهجري ، وأنها أول من عرف المدرسة بمبناها  
ووضعها الاصطلاحي المعترف به ، كمعهد متخصص للدرس والتعليم .  
وبعد ذلك بأن مدينة نيسابور كانت مركزا من مراكز أهل السنة  
والشافعية منهم بوجه خاص ، وظهر من بينهم طائفة كبيرة من كبار  
أصحاب الحديث كالبيهقي ، المتوفى ٤٥٤ هـ - ١٠٦٣ م ، والحاكم  
النيسابوري ، ولذلك لا بد من القول بأن حركة بناء المدارس قد نشأت  
في كنف الفقهاء الشافعية ورعايتهم (١٦) .

ويعتقد أن أول مدرسة ببغداد هي المدرسة الحنفية التي أنشأها  
أبو سعيد وفتحها للتدريس في عام ٤٥٩ - ١٠٦٧ م (١٧) ، وإن كانت

(١٣) السيوطي : حسن المحاضرة - ج ٢ ، ص ٢٥٥ .  
Ribera; J. : Ho. de la ensenanza entre los musulmanes  
Espanoles; p. 17.

أمين : المدرسة المستنصرية ، ص ٢١ .  
(١٤) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ .  
Tritton, A. S. : Op Cit., pp. 98—129.  
Makdesi; G. : Muslim Institutions of learning, p. 10.

محمد غنيمه : تاريخ الجامعات ، ص ٧٦ .  
(١٥) نفس المصدر ، ص ٧٦ .  
(١٦) اليطفتي ، أبو طاهر : المدارس في الإسلام ، ص ٢٠ ، ٢١ .  
حسين أمين : المدرسة المستنصرية ، ص ٢٢ .  
(١٧) نفس المصدر ، ص ٢٢ .

النظامية هي أول مدرسة شرعية فيها ، وقد بدأ بناؤها في بغداد سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٥ (١٨) ، وفتحت أبوابها للتدريس في عام ٤٥٩ هـ - ١٠٦٧ م ، ولقد أحصى مدارس بغداد وواسط الأستاذ ناجي معروف (١٩) .

ويرى الأستاذ غنيمه أن أول المدارس في البلاد المصرية قد ظهرت خلال الدولة الفاطمية حيث أنشئت مدرستان أولاهما مدرسة الوزير رضوان التي أقامها سنة ٥٣٢ هـ - ١١٣٧ م ، والثانية للوزير ابن السلار التي أنشأها قبل عام ٥٤٤ هـ - ١١٥٠ (٢٠) . وبناء على دراسته فإن هذه المدرسة هي التي قام بالتدريس بها أبو الطاهر السلفي . وقد لعبت هذه المدرسة دورا مهما في حركة التعليم بالأندلس ، حيث قصدتها عدد كبير من طلبة الأندلس ، وعاشوا فيها مددا متفاوتة ، ولقد ذكر مدرس المدرسة في معجمه أسماء كثيرة من طلبة الأندلس وتم استخراج أسماء هؤلاء من المعجم ونشر ذلك ضمن كتاب نشر بعنوان : أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي (٢١) .

ومن ناحية أخرى يؤكد السيوطي ، نقلا عن ابن خلكان ، المتوفي ٦٨٢ هـ - ١٢٨٢ م ، أنه لما ملك صلاح الدين بن أيوب الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس ، وأنه أول من قام بإنشاء عدد كبير من المدارس ، انتشرت واستمرت بعده على عهد دولتي الأيوبيين والمماليك (٢٢) .

- 
- (١٨) غنيمه : تاريخ الجامعات ، ص ٧٩ .  
 حسنى عبد الوهاب : بيوت الله ، ص ٥ .  
 (١٩) معروف : المدارس المستقلة ، ص ٢٠ - ٢٤ .  
 معروف : مدارس واسط ، مطبعة الإرشاد ، ١٩٦٦ .  
 معروف : المدارس الشراعية ، مطبعة الإرشاد ، ١٩٦٥ .  
 (٢٠) غنيمه : تاريخ الجامعات ، ص ٨٣ .  
 عطية على : التعليم في مصر في العصر الفاطمي الأول ، ص ١٦٧ .  
 (٢١) قام بأعدادها وتحقيقها الدكتور احسان عباس - بيروت - ١٩٦٣ .  
 (٢٢) السيوطي : حسن الحاضرة ، ص ٢٥٦ - ٢٧٣ .  
 غنيمه : تاريخ الجامعات ، ص ١٠٧ .



وانتشرت المدارس في بلاد الشام ابتداءً بما قام به الملك السلجوقي العادل نور الدين محمود الى مدارس الأيوبيين والمماليك<sup>(٢٣)</sup> .  
وفي بلاد الحجاز أيضا ، وبالذات في مكة ، انتشرت المدارس ، وخاصة بجوار الحرم المكي<sup>(٢٤)</sup> .

كما انتشرت المدارس أيضا في شمال أفريقيا ، وتضاربت الآراء حول بداية انتشار هذه المدارس في هذه المنطقة ، فبينما يرى الأستاذ غنينة أنه يرجع الفضل في انتشارها في هذه المناطق الى الدولتين الحفصية في تونس والمرينية في المغرب الأقصى ، نافيا بشدة ما قاله ابن أبي زرع من قيام يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدى ، المتوفى سنة ٥٩٥ هـ - ١١٩٨ م ، بإنشاء المدارس في بلاد أفريقية والمغرب والأندلس<sup>(٢٥)</sup> . يرى الأستاذ عبد الهادي التازي أنه بعد ثلاث سنوات من تأسيس المدرسة النظامية عرفت مدينة فاس مدارس احتضنت الطلبة المغتربين الذين يردون بقصد الدرس من سائر أطراف البلاد ، وحدد وجود مدرسة للمرابطين سنة ٤٦٣ هـ - ١٠٩٦ م ، بناها يوسف بن تاشفين بعد دخوله المدينة في حوالى التاريخ المذكور ، وأن طلاب هذه المدرسة قد قاوموا الموحدين مقاومة شديدة حتى قتلوا جميعا ، ولذا سميت بمدرسة الصابرين ، وأن أطلال هذه المدرسة ما زالت ماثلة الى الآن . كما يتحدث أيضا عن وجود مدارس على عهد الموحدين<sup>(٢٦)</sup> ، ويؤيده في هذه الفكرة الأستاذ المنونى في كتابه عن العلوم والفنون على عهد الموحدين<sup>(٢٧)</sup> .

- 
- (٢٣) النفيى : المدارس في تاريخ المدارس .  
غنينة : تاريخ الجامعات ، ص ٩٩ - ١٠٧ .  
(٢٤) معروف : مدارس مكة - مطبعة الارشاد ، بغداد - ١٩٦٦ .  
(٢٥) غنينة : تاريخ الجامعات ، ص ١٠٧ .  
(٢٦) عبد الهادي التازي : مسجد القرويين ، ج ٢ ، ص ١٢١ - ١٢٣ .  
(٢٧) محمد المنونى : العلوم والآداب ، ص ٢٠ - ٢٢ ( نسخة الرباط الصورة - ١٩٧٧ ) .

تعد دراسة المدرسة في الأندلس من أصعب الأمور وأغمضها حيث تباينت حولها آراء المؤرخين بصورة شديدة ، ويساعد على هذا الغموض قلة البيانات وسكوت المراجع ولنتعرض قليلا من هذه الآراء :

يرى الأستاذ غنيمية في تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى ، أن الأندلس لم يتح لها أن تستفيد من هذا النوع من التعليم الا متأخرا جدا ، وكانت أول مدرسة بها في غرناطة سنة ٧٥٠ هـ - ١٣٤٩ م ، أنشئت في زمن يوسف الأول تقليدا للمدارس المغربية ، ويضيف بعد ذلك قائلا : كان التعليم بالأندلس طيلة حياة الاسلام بها مسجديا ، وفي حالات قليلة كان العلماء يقومون بالتدريس في منازلهم (٢٨) .

أما خوليان ريبيرا فيذهب الى أن تأسيس المدارس في أسبانيا الإسلامية قد أتى من ناحية الشمال أى بتأثير من أوروبا ومن أسبانيا المسيحية واضعا نظريته في الكلمات الآتية :

في أسبانيا الإسلامية ، تجلت واحدة من الظواهر العكسية التي يتقدمها التاريخ أحيانا ، وذلك أن تأسيس مدرسة حكومية وعلى نفقة الدولة لم يكن تأثيرا شرفيا مباشرا ، وانما على العكس من ذلك جاء التأثير من الجانب الأوروبي ، بل هو أكثر غرابة حتى الآن فان ذلك يرجع الى أمير مسيحي ، وهو الفونسو العاشر الذي أسس في مرسية أول مدرسة اسلامية ، ذلك الشاب المحب لكافة العلوم مهما كان مصدرها . لقد سلم لأحد العلماء المسلمين ، الذي كان في الحقيقة عالما خليعا ومبيرا في معارفه ، نعم ، لقد كان هذا العالم متعمقا في كافة العلوم ، ولا يقتصد بذلك العلوم العربية فحسب ، وانما تلك التي يطلق عليها اسم العلوم القديمة : الهندسة ، الطب ، الموسيقى ، المنطق ، وباقي فروع الفلسفة . بل ان ما هو أكثر غرابة في هذا

(٢٨) غنيمية : تاريخ الجامعات الإسلامية ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

العالم الكبير أنه كان أستاذا قادرا على تعليم طلبة أرض شبه الجزيرة ، على اختلاف أديانهم بلغتهم أى بلغة كل مجموعة منهم ، لقد أعجب الأمير بالعالم ، وأنشأ له مدرسة ، حيث قام الرقوطى بتقديم علومه ، الى المسلمين واليهود والنصارى \* لقد كان ألفونسو العاشر يعامله معاملة ممتازة ، ويفيخ عليه بكرم وسماحة ، على أمل أنه باغراقه بالعطايا والهدايا يمكن له تحت ضغوط الكرم والأريحية أن يجعله يعتنق المسيحية فى يوم من الأيام \*

ووصلت الأخبار مدينة غرناطة : هناك ملك مسيحي أقام مدرسة لعالم مسلم لكى يتولى فيها تعليم أبناء الديانات الثلاثة ، وهنا تحرك سلطان غرناطة ، ودعاه لكى ينتقل الى مدينته ، وبعد الحاح شديد لم يجد العالم المسلم بدا من مغادرة مرسية ، وترك خدمة الملك النصراني ، وانتقل الى غرناطة (٢٩) \*

ويقول الدكتور الطوخى ، ولم تعرف غرناطة نظام المدارس الذى كان معروفا فى المشرق الإسلامى فى أول الأمر ، ومن المعروف أن أول مدرسة بمعناها التقليدى أنشئت بالأندلس على عهد أبى الحجاج يوسف ( ٧٣٣ - ٧٥٥ هـ / ١٣٣٣ - ١٣٥٤ م ) ، فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى ، وهى المدرسة النصرية (٣٠) \*

أما غارثيا غوميث فإنه حين يتحدث عن يوسف الأول ، يقول : افتتح المدرسة بغرناطة ، مقلدا المدارس الشهيرة على الشاطىء الآخر من مضيق جبل طارق ، ومغايرا للتقاليد الأندلسية فى مجال التعليم (٣١) \* ولقد اعتمد كل من قال بهذا الرأى على عبارة لابن سعيد أوردها الخرى يقول فيها :

(29) Ribera, J. , La ensenanza entre los Musulmanes Espanoles, pp. 18, 19.

(٣٠) أحمد الطوخى : الحياة الثقافية فى غرناطة ( رسالة دكتوراه ) ،

ص ٣٠٢ .

(31) Garcia Gomez, E : Cinco Poemas Musulmanes; p. 190.

« وليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ،  
بل يقرءون جميع العلوم في المساجد ، بأجرة » (٣٢) .

ومن ناحية أخرى ، هناك بعض المؤرخين الذين لا يتشرب اليهم  
الشك في قيام المدارس في الأندلس — يقول الأستاذ اليفتي : « وأما  
فهضة المدارس بأسبانيا العربية فلا يتشرب الشك اليها » (٣٣) .

أما الأستاذ الحسيني عبد العزيز فيقول : « أولى حكام بني أمية  
في الأندلس العلم أكبر رعايتهم ، وجعلوا من قرطبة حاضرة دولة  
عريقة تجذب الطلبة من كل فج ، فمدارسها ومعاهدها مصدر إشعاع  
عكري ، وقد كانت قرطبة تضم ثمانين مدرسة عامة ، وسبعة عشر  
معهدا عدا أشياء أخرى » (٣٤) .

أما الدكتور حسن محمود فيشير الى أن كل مدينة بالأندلس  
كانت تحتوى على مدرسة (٣٥) .

وينضم الى هذه المجموعة أرنت كوتل ، في كتابه عن الفن  
الاسلامي قائلا : وكما أدخل صلاح الدين نظام المدرسة في مصر  
أدخله الموحد يعقوب المنصور في أسبانيا والمغرب ( ١١٨٤ — ١١٩٩ ) ،  
مع فارق بلا شك هو أن الأمر هنا يتعلق بالمعهد كمعهد ، لا تحدد  
أقطار معمارية معينة \* والواقع أن هذا النموذج الجديد من الأبنية  
العربية الدينية ، قد بقى عديم الأهمية من حيث تطور الهندسة  
المعمارية ، في الغرب الاسلامي (٣٦) .

(٣٢) القسري : فتح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .  
Ribera; J. : Ho. de la ensenanza entre los Musulmanes  
Espanoles, p. 11.

(٣٣) اليفتي : المدارس في الاسلام ، ص ٢٢ .  
(٣٤) الحسيني : الحياة العلمية في الدولة الاسلامية ، ص ١٤١ .  
(٣٥) محمود ( حسن ) : قيام دولة المرابطين ، ص ٤٣٢ .  
(٣٦) كوتل : الفن الاسلامي ، ترجمة أحمد موسى ، ص ١٢٩ .  
Kuhnel; Ernest : Maurische Kunst; p. 129 (T.A.)

وأختتم هذه المجموعة من الآراء بما يورده الأستاذ المنونى عن قيام الموحدين ببناء كثير من المدارس في شمال أفريقية والأندلس (٣٧) \*

ويزيد الأمر صعوبة أن المستشرق الهولندى دوزى ، يرى أن كلمة « مدرسة » في أسبانيا الإسلامية لم تكن تعنى مكانا تعليميا ، وإنما تعنى مكتبة (٣٨) \*

إن تحقيق دراسة منطقية علمية في وسط هذا التيار ، ليس بالأمر الهين أو البسيط ، والسؤال الذى يفرض نفسه منذ البداية هو : لماذا لم تظهر المدرسة في الأندلس إلا في نهاية الدولة الإسلامية على أرضها ، حسب ما يقول الفريق الأول ؟ وإذا كانت قد ظهرت ، على ما يقول الفريق الثانى ، فأين هى الوثائق الكافية للدلالة عليها ؟

ولم أستطع ، رغم كثرة محاولاتي ، الوصول الى رأى نهائى أتمكن به من تأييد إحدى الفكرتين تأييدا تاما أو رفضها رفضا نهائيا ، لأنه كيف يمكن أن تظهر المدارس في الشرق في القرن الرابع الهجرى ( العاشر الميلادى ) ، ولا تظهر في أسبانيا قبل القرن الثامن الهجرى ( الرابع عشر الميلادى ) ، ونحن نعرف أن الأندلسيين كانوا مولعين بتقليد المشاركة ، وعلى علم تام بكل ما يجرى في بلادهم ؟

قد يقول قائل بأن المدارس قد ظهرت في مناطق مليئة بالصراع العقائدى وأن المدارس قد بناها أهل السنة في تلك البلاد الشرقية ، وذلك لى يتغلبوا على الشيعة مثلما حدث في العراق وفي مصر بينما في أسبانيا الإسلامية لم تكن هناك حاجة الى مثل هذه المؤسسة ، وأن الأندلس نتيجة لوحدة المذهب فيها ولتمسكها بالسنة لم تشأ أن تدخل تقليدا لم يكن موجودا في العصور الإسلامية الأولى \*

(٣٧) المنونى : العلوم والفنون والآداب ، ص ١٥ ، ١٦ \*

ص ٢٠ ، ٢١ \*

(38) Dozy : Supplement aux Dictionnaires Arabes, I (Madrassa)

لكن الرد على ذلك ، أن المدارس وإن بدأت مدخوعة بهذا الغرض إلا أن بناءها استمر بعد ذلك وانتشر في مناطق ليست موددة بالشيعة مثلما حدث في مصر على عهد المماليك ، وفي شمال أفريقيا التي كانت تدين بالمذهب المالكي ، مثلها مثل أسبانيا ، وقد دخلتها المدارس في القرن الخامس ( الحادي عشر الميلادي ) ، على ما يؤكد الدكتور عبد الهادي التازي (٣٩) ، وانتشرت بكل تأكيد منذ بداية القرن السابع الهجري ( الثالث الميلادي ) \* وعلاوة على ذلك ، فإن بناء المدارس قد أصبح عملا فخريا للذكوري مثله تماما مثل بناء القصور والمستشفيات \*

وأما إذا قلنا بوجود بعض المدارس وتساءلنا عما يؤكد هذا يقول قائل ، أنه ربما وجدت هذه المدارس ثم اندثرت ، واختفت باختفائها الوثائق الدالة عليها \*

لكن الأمر ليس كذلك لأنه إذا ما اندثر البناء أو اختفى بسهولة فمن الصعب جدا أن تختفى بياناته التي يمكن أن توجد ضمن تراجم المعلمين الذين تولوا التدريس فيها أو ضمن أعمال من تولوا القيام بها أو إنشاءها ، على ما هو الحال في المدارس الشرقية أو مدارس الأندلس في القرن الثامن \*

إن البيانات التي استخرجتها من دراستي للمراجع التاريخية ، تجعلني أميل إلى القول بوجود بعض المدارس في الأندلس اعتبارا من القرن الخامس الهجري ( الحادي عشر الميلادي ) ، دون أن أصلا إلى حد التأكيد المطلق لهذه القضية وسأطرح هذه البيانات ، تاركا للمستقبل أو للصدفة تأييد هذه المسألة تأييدا نهائيا أو رفضا باتا - معتمدا في ذلك على عدد من الملاحظات ، التي وردت في المراجع :

( أ ) الملاحظة الأولى أوردها ابن فرحون المتوفى ٧٩٩ هـ -  
١٣٩٧ م ، عند حديثه عن أبى على الصدفى المتوفى ٥١٤ هـ - ١١٢٠ م ،  
يقول فيها : ثم عاد الى الأندلس واستقر بمدرسة مرسية ، ورحل  
اليه الناس (٤٠) . ولقد رجع الصدفى الى الأندلس فى عام ٤٩٠ هـ -  
١٠٩٦ م (٤١) .

وعلى الرغم من أن ابن فرحون موضع ثقة المؤرخين ، إلا أنه  
هو المصدر الوحيد الذى أشار الى هذه المدرسة ، والفرق الزمنى  
بينه وبين الصدفى كبير جدا .

( ب ) الملاحظة الثانية ، أوردها ابن أبى زرع المتوفى ٧٤١ هـ -  
١٣٤٠ م ، عند حديثه عن السلطان يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن  
ابن على ، الذى تولى الحكم فى ١٩ ربيع الآخر عام ٥٨٠ هـ ، ٢٠ يولية  
١١٨٤ م ، وتوفى فى ٢٣ ربيع الأول عام ٥٩٥ هـ / ٢٢ يناير ١١٩٩ م ،  
حيث يقول عنه :

انه « حصن البلاد ، وضبط الثغور ، وبنى المساجد والمدارس  
فى بلاد أفريقية والمغرب والأندلس ، وبنى المرستان للمرضى  
والمجانين ، وأجرى المرتبات على الفقهاء والطلبة ، على قدر مراتبهم  
وطبقاتهم » (٤٢) .

( ج ) أما الملاحظة الثالثة ، فلقد جاءت ضمن القصائد الشعرية  
التي قيلت فى رثاء مدينة بلنسية ، ومحاولة حث الحفصيين على انتقاذها  
من أيدي الأراغونيين الذين استولوا عليها فى عام ٦٣٦ هـ - ١٢٣٨ م ،  
خفى قصيدة ابن الأبار التي مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا  
أن الطريق الى منجاتها درسا

(٤٠) ابن فرحون : الديباج ، ص ٢٢١ .  
(٤١) القسرى : إزهار الرياض - ج ٣ ، ص ١٥٢ .  
Makdese; G. : The Madrasa in Spain, p. 154.  
(٤٢) ابن أبى زرع : روض الترطاس ، ص ٢١٧ .

يقول : (٤٣) : *يا للمساجد عادت للعدا ييما*

*وللنداء عدا أثناءها جرسا  
لهمى عليها الى استرجاع غائتها  
مدارسا للمثاني أصبحت درسا (٤٣)*

ويقول شاعر آخر لم يسمه المقرئ ، في رثاء بلنسية :

*بأبى مدارس كالطلول دوارس  
نسخت نواقيس الصليب نداءها  
ومصانع كنف الضلال صباحها  
فخضاله الرائي اليه مساءها (٤٤)*

ولعل هذه البيانات تكتسب أهمية ما ، اذا ما علمنا أن المؤرخين الأسبان ، يجمعون على وجود مدارس مسيحية في مدينة بلنسية بعد أيام من سقوط المدينة على يد خايمي الأول في عام ٦٣٦ هـ - ١٢٣٨ م ، وأنه في عام ١٢٤٠ م ( ٣٦٨ هـ ) ، كانت هذه المدارس مؤكدة ، بل أن بعضهم وصل الى القول بوجود مدرسة مسيحية في مدينة بلنسية الإسلامية (٤٥) .

(٤٣) المقرئ : نفع الطيب - ج ٦ ، ص ١٩٩ .  
عبد المنعم خفاجة : قصة الادب في الأندلس ، ص ٣٨٨ .  
الأوسى : الادب الأندلسي في العصر الموحدى ، ص ١٣٤ .  
De Schach ; : Poesea y Arte dee los Arabes en Espana y Sicilia ; -162—163.

(٤٤) المقرئ : نفع الطيب ، ج ٦ ، ص ٢٢٤ .  
حكيت الأوسى : الادب الأندلسي ، ص ١٢٨ .  
(٤٥) انظر الدراسة القيمة عن مدارس بلنسية على عيد خايمي الاول التي أعدها :

Gallego Salvadores : Las Escuelas de Valencia en los dias de Jaime el Conquistador.

Gallego «Perspectivas Pedagógicas» XXXXVII—XXXXVIII, pp: 117—132.



ومما يجعلنى أميل أكثر الى هذا الرأى أن هذه الملاحظات لا تقل شأنًا عما يقدمه المؤرخون على أنه مدارس مؤكدة مثل مدرسة مرسية أو مالقة أو غرناطة التى سنتناولها فيما بعد .

أما من ناحية ما يمكن أن يشبه المدارس الخاصة فاننى توقفت أمام ملاحظتين ، الأولى منهما أن فرج بن غزلون العسال اليحصبى الطليطلى ، الذى توفى فى عام ٤٤٨ هـ - ١٠٥٦ م ، قد حبس داره على طلبة السنة (٤٦) ، مما يدفع الى التساؤل : لماذا طلبة السنة ؟ ومن هم ؟ وأين هم ؟ والثانية أن الفقيه أحمد بن جعفر الخزرجى ، أبو العباس السبتى ، كان يقيم فى فندق ، ويعلم الحساب والنحو ، ويأخذ الأجرة على ذلك ، ويقال أنه بات ليلة عند الطلبة فارتفعت أصواتهم بالذاكرة ، وجاء الحرس لمنعهم (٤٧) .

### المدارس المؤكدة

#### ١ - مدرسة مرسية :

وهى مدرسة أقامها الأمير المسيحى ، ألفونسو العاشر ، حينما دخل مرسية ووجد بها العالم محمد بن أحمد الرقوطى المرسى ، ويحكى ابن الخطيب قصة هذا العالم ومدرسته على النحو التالى :

محمد بن أحمد الرقوطى المرسى (٤٨) : كان حجة فى المعرفة القديمة ، المنطق ، والهندسة والعدد والموسيقا والطب ، فيلسوفا ، وطبيبا ماهرا - آية الله فى المعرفة بالألسن ، يقرئ الأُمم بالسنتهم فنونهم التى يرغبون فى تعلمها ، شديد البأس ، مترفعا ، متعظما .

(٤٦) اربلان : الحلال السفسدية - ج ٢ ، ص ٢١ .

(٤٧) المقرئ : نفح الطيب - ج ١٠ ، ص ١٢٥ .

(٤٨) نسبة الى رقوطة ، وهى بلدة صغيرة فى شرق الاندلس ، تقع على مقربة من شمال غربى مرسية ، على الضفة الغربية لنهر شقورة .

عرف طاغية الروم حقه ، لما تغلب على مرسية (٤٩) ، فبنى له مدرسة يقرى فيها المسلمين ، والنصارى ، واليهود ، ولم يزل معظمها عنده . ومما يحكى من ملحه معه ، أنه قال له يوما وقد أدنى منزلته ، وأشاد بفضلته : لو تنصرت وحصلت الكمال ، كان عندي لك كذا ، وكنت كذا ، فأجابه بما أقنعه ، ولما خرج من عنده ، قال لأصحابه : أنا الآن أعبد واحدا ، وقد عجزت عما يجب له ، فكيف حالى لو كنت أعبد ثلاثة كما أراد منى .

وطلبه سلطان المسلمين ، ثانى الملوك من بنى نصر ( السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف ، الملقب بالفقيه ، وقد حكم مملكة غرناطة من سنة ٦٧١ - ٧٠١ هـ ( ١٢٧٢ - ١٣٠٢ م ) ، واستقدمه ، وتعلم له (٥٠) . هذا ولقبه نقل المقرئ نفس الترجمة تقريرا (٥١) .

## ٢ - مدرسة مالقة :

لا شك أن مالقة كانت مركزا فكريا ، غاية في الأهمية ، على مدار تاريخها الاسلامى ، وكان مسجدها الجامع من أكثر مساجد المملكة النصرية شهرة ، حيث درس فيه كبار علماء هذه المملكة .

ويشير كل من المؤرخين الأسبانيين سيمونت وجين روبلس الى وجود « مدرسة عظمى » أو جامعة مالقة ، وأنها كانت مقامة في صحن البرتقال بالمسجد الجامع بالمدينة ، ويصران على أن الفقيه محمد بن

(٤٩) تم احتلال مرسية في ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م .

(٥٠) ابن الخطيب : الاطاحة ، ج ٣ ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

Gaspar Remiro : Historia de Murcia Musulmana; pp. 109 — 110.

Martinez Ripoll; Aportaciones a la vida cultral de Murcia en el S. XIII, pp. 36, 37.

(٥١) المقرئ : نقح الطبيب ، ج ٥ ، ص ٢٦٦ .

محمد بن يوسف الطنجالي (٥٢) ، المتوفى في عام ٥٧٣٣ هـ - ١٣٣٢ م ،  
قد قام بالتدريس بها وأنها كانت مستقلة تماما عن المسجد الجامع  
بمالقة (٥٣) .

وأقيمت في مالقة أيضا مدرسة أخرى قبل قيام المدرسة النصرية  
في غرناطة أنشأها الصوفي محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم  
الأنصاري أبو عبد الله الساحلي الذي عاش بين عامي ٦٧٨ هـ - ٧٥٤ هـ /  
٢٧٩ - ١٣٥٣ م (٥٤) - بناها من مال أعطاه آياه بعض الأغنياء ، من  
وزراء الدول بالمغرب ، وأقامها في الجانب الغربي من المسجد الأعظم ،  
وأوقف عليها الرباع ، وابتنى غيرها من المساجد ، ويبدو أن صاحب  
هذه المدرسة ووالده الشيخ الصوفي أبو عبد الله الساحلي (٥٥) ،  
المتوفى ٧٣٥ هـ - ١٣٣٤ م ، كانا على صلة طيبة بابن الخطيب حيث  
كان يندبهما في بعض المهمات السياسية الى المغرب .

وحينما توفي الوالد ، حاول ابنه أن يواصل مكانته ، وأن يترقى  
في مدارج الصوفية مثله ، ولكنه حصل جأها عريضا ، ومالا كثيرا ،  
جعله ينحرف عن ما يجب أن يتحلى به ، ولعل ذلك مما سبب تساؤلات  
كثيرة عن مصدر هذه الأموال ، وأثار غضب أتباعه ، فاضطره ذلك  
الى الرحيل الى المشرق ، ثم عاد الى الأندلس ، مليح الثنية ، بأدى  
الوقار ، فبنيه الرتبة فتولى الخطابة الى حين وفاته (٥٦) .

وترى الدكتورة ماريا خيسوس روبيرا في هذه المدرسة ، المكان

(٥٢) ابن القاضي : درة الحجال - ج ١ ، ص ٢١٠ (الترجمة ٥٤٩) .  
(53) Gullen Robles : Historia de Malaga Muslmana; p. 316

(٥٤) أشارت الى هذه المدرسة الدكتورة ماريا خيسوس روبيرا ،  
اعتمادا على بعض أشعار لابن الجساب يهني فيها أبا عبد الله الساحلي  
لأقامته أول مدرسة في الأندلس : انظر :

Rubiera Mo. J. : Datos sobre una madrasa en Malaga  
anterior de Granada.

(٥٥) أنظر ترجمة الوالد في الاطحة - ج ٣ ، ص ٢٣٩ - ٢٤١ .

(٥٦) ابن الخطيب : الاطحة - ج ٣ ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

الذى مارس فيه الأساتذة التعليم لأول مرة بعيدا عن المسجد في الأندلس ، وأنها لم يكن لها الصفة الرسمية التى كانت لمدرسة غرناطة أو لمدارس الشرق الإسلامى ، وتعتقد أنها كانت ذات صيغة حقوقية بحتة مما قد يفسر لنا الاختفاء الغامض لكل ما يشير الى هذه المدرسة ، حيث اختفت تماما واختفى كل ما قد يشير اليها بعد ذلك (٥٧) .

### ٢ - بدايات المدارس في غرناطة :

شهدت غرناطة أول محاولة لاقامة مدرسة ، حينما خصص السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف ، الملقب بالفقيه ، سلطان غرناطة من سنة ٦٧١ الى ٧٠١ هـ ( ١٢٧٢ - ١٣٠٢ م ) منزلا للفقيه محمد ابن أحمد الرقوطى بعد أن أخضره من مرسية ، لى يتولى فيه تعليم الطلبة العلوم الطبية والفلسفية وغيرها ، بل انه كان - أكثر من ذلك - يقوم باختبار من يرد على غرناطة ، للتعرف على مستواه ، ومكانته \* يقول ابن الخطيب عن ذلك الرجل :

وطلبه سلطان المسلمين ، ثانى الملوك من بنى نصر ، واستقدمه وتلمذ له ، وأسكنه فى أمعدل البقع من حضرته ، وكان الطلبة يغشون منزله المعروف له ، فيتعلمون عليه الطب والتعاليم وغيرها ، اذ كان لا يجارى فى ذلك ، وكان قوى العارضة ، مضطجعا بالجدل ، وكان السلطان يجمع بينه وبين منتابى حضرته ، ممن يقدم متحملا صناعة أو علما ، فيظهر عليهم لتمكنه ودالته (٥٨) .

ويرى خوليسان ريبيرا ، أنه بوفاة الأستاذ الرقوطى ، أغلقت بذلك أبواب أول محاولة لتدخل الدولة فى نظام التعليم فى الأندلس (٥٩) .

(57) Rubiera, Mo. Jesus : Datos sobre una madras en Malaga anterior a la de Granada, p. 226.

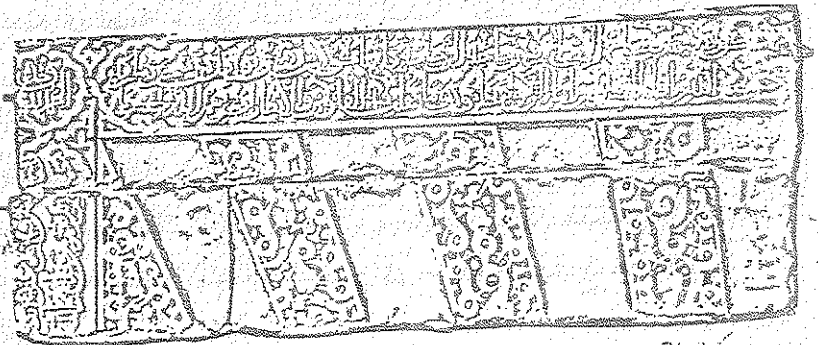
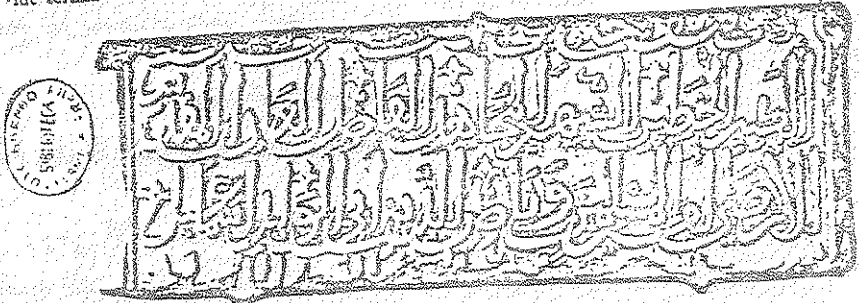
(٥٨) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٢ ، ص ٦٨ .

(59) Ribera; J. : Ho. de la ensenaaza entre los Espanoles Musulmanes, p. 20.

مرسوم بالدرسة النصرية بقرنطة على ما نقله ليفي  
بروفينسال ، والقطعة الموجودة في متحف الآثار بقرنطة

أمر بنا هذه الدار للطب جعلها الله استقامة ونوراً وأماناً في علوم الدين على الأيام آمين  
المسلمين أطله الله بعونه (١) العلي النهر الكرم السعيد الطاهر الرفيع الهمام السلطان المؤيد  
أبو الحاج يوسف ابن الطلي الكرم الكبير الخطير النهر المجاهد الناضل العادل المقدس  
الأرض أمير المسلمين وناصر الدين أبي الوليد إسماعيل بن تخرج بن نصر كافي الله في الإسلام  
صائمه الزاكية وتبلى أعماله المجاهدة وتم ذلك في شهر محرم عام خمسين وسبعائة

A ordonné la construction de cette demeure (consacrée) à la science — qu'Allah en fasse  
un établissement de droiture et de lumière et qu'il la fasse durer au long des jours pour les  
sciences de la religion! — l'émir des Musulmans — qu'Allah le protège par son aide! (١) —  
l'élevé, le célèbre, le noble, le fortuné, le pur, le haut, le héros, le sultan assisté par Dieu, ABU  
'L-HAGGÂG YÜSUF, fils de l'élevé, du noble, du grand, du considérable, du célèbre, du guerrier  
pour la foi, de l'excellent, du juste, du sanctifié, du très agréé, l'émir des Musulmans et le  
défenseur de la religion, ABU 'L-WALID ISMÂ'IL IBN FARAG B. NAÏR. Qu'Allah récompense pour  
l'Islâm ses actions vertueuses et accepte favorablement ses hauts faits de guerre sainte! Et cela  
fut terminé dans le mois de muharram de l'an 750 (22 mars—20 avril 1349).



Nº. 172. Grenade (750 H) Fragments épigraphiques de la Medersa. Détail.

ولنتحدث الآن عن أشهر المدارس التي ظهرت في غرناطة :

#### ( ١ ) المدرسة النصرية :

أشهر المراكز التعليمية في الأندلس ، بعد مسجد قرطبة ،  
بنيت على عهد السلطان الغرناطي أبي الحجاج يوسف الأول  
( ٧٣٣ - ٧٥٥ م = ١٣٣٣ - ١٣٥٤ م ) ، بناء على مبادرة من  
الحاجب رضوان النصري . ولقد حازت هذه المدرسة  
شهرة واسعة حتى أجمع كافة المؤرخين تقريبا على اعتبارها أولى  
المدارس في الأندلس ، كما أنها هي المدرسة الوحيدة التي وصلت  
بعض أجزائها الى أيامنا هذه .

ولسوف أعتمد على ترجمة ابن الخطيب التي أوردها لمعاصره  
وصديقه الحاجب رضوان ، مؤسس هذه المدرسة ، لأن فيها ما قد  
يسمح لنا بايضاح بعض النقاط ، ونص الترجمة كالآتي :

#### رضوان النصري الحاجب المعظم

#### حسنة الدولة النصرية ، وفخر مواليتها :

رومي الأصل ، أخبرني أنه من أهل القلصادة ، وأن انتسابه  
يتجاذبه القشتالية من طرف العمومة ، والبرجلونية من طرف الخؤولة ،  
وكلاهما نبيه في قومه . وأن أباه ألجأ الخوف بدم ارتكبه في محله  
أصالته من داخل قشتالة الى السكتي بحيث ذكر ، ووقع عليه سباء  
في سن الطفولية ، واستقر بسببه بالدار السلطانية ، ومحض احراز  
رقعة ، السلطان داييل قومه ، أبو الوليد المار ذكره ، فاخص به ،  
ولازمه قبل نصير الملك اليه ، مؤثرا له معتبطا بمخائل فضله وتمائل  
استقامته ، ثم صير الملك اليه فتدرج في معارج حظوته ، واختص  
بتربية ولده ، وركن الى فضل أمانته ، وخطه في قرب الجوار بنفسه ،  
واستجلى الأمور المشككة بصدقه ، وجعل الجوائز السنية لعظماء دولته  
على يده ، وكان يوجب حقه ، ويعرف فضله ، الى أن هلك ، فتعلق  
يكف ولده ، وحفظ شمله ، ودبر ملكه ، فكان أخيرا للخف ، وستر

للحرم ، وشجى للعدا وعدة في الشدة ، وزينا في الرخاء ، رحمة الله عليه .

كان هذا الرجل مليح الشيبة والهيئة ، معتدل القند والسحنة ، مرهب البدن ، مقبل الصورة ، حسن الخلق ، واسع الصدر ، أصيل الرأي ، رصين العقل كثير التجمل ، عظيم الصبر ، قليل الخوف في الملأ ، ثابت القدم في الأزمان ، ميمون النقية ، عزيز النفس ، عالي الهمة ، بادي الحشمة ، آية في العفة ، مثالا في النزاهة ، ملتزما للسنة ، دعويا على الجماعة ، جليس القبلة ، شديد الادراك من السكون ، ثاقب الذهن مع اظهار الغفلة ، مليح الدعاية مع الوقار والسكينة مستظها لعيون التاريخ ، ذاكرا للكثير من الفقه والحديث ، كثير الدالة على تصوير الأقاليم وأوضاع البلاد ، عارفا للسياسة ، مكرما للعلماء ، مدركا للهوادة ، قليل التصنع ، ناغرا من أهل البدع ، متساوئ الظاهر والباطن ، مقتصدا في المطعم والملبس .

اتفق على أنه لم يعاقر مسكرا قط ، ولا زل بهناة ، ولا لطح بريية ، ولا وصم بخلة تقذح في منصب ، ولا باشر عقابا جاز ، ولا أظهر شفاء من غائظ ، ولا اكتسب من غير التجر والفلاحة مالا .

أحدث المدرسة بغرناطة ، ولم تكن بها بعد ، وسبب اليها الفوائد ، ووقف عليها الرباع الخلة ، وانفرد بمنتقبا ، فجاءت نسيجة وحدها بهجة وضدرا وظرفا وفخامة ، وجلب الماء الكثير اليها من النهر ، فأبد سقيه عليها ، وأدار السور الأعظم على الربض الكبير المنسوب للبيازين ، فانتظم منه النجد والغور ، في زمان قريب ، وشارفت التمام الى هذا العهد ، وبنى من الأبراج المنيعه في مثالم الثغور وروابي مطالعها المنذرة ، ما ينيف على أربعين برجاً ، ففي مائلة كالنجوم ما بين البحر الشرقي من ثغر بيرة الى الأحواز الغربية ، وأجرى الماء بجبل مورور ، مهتديا الى ما خفى على من تقدمه وأفذاذ أمثال هذه الأنتاب يشق بعداده .

غزا في السادس والعشرين من محرم عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة بجيش مدينة باغة ، وهي ما هي من الشهرة ، وكرم البتعة ، فأخذ بمفنتها ، وشد حصارها وعلق المريح عنها ، فتملكها عنوة وعمرها بالحماة ورثتها بالمرابطة ، فكان الفتح فيها عظيما ، وفي أوائل شهر المحرم من عام اثنين وثلاثين وسبعمائة غزا بالجيش عسكو المشرق ، وطوى المراحل مجتازا على بلاد قشتالة ، لورقة ومرسية ، وأمعن فيها ، ونازل حصن الدور ، وهو حصن أمن غائلة العسكو ( مكتنف بالبلاد ، مد بالبسيني موضوع على طية التجارة ، ونائبه القتال ، فاستولى عنوة ) ، عليه منتصف المحرم من العام المذكور ، وآب مملوء الحقائق سبيا وغنما .

وغزواته كثيرة ، كمظاهرة الأمير الشهير أبي مالك على منازلة جبل الفتح ، وما اشتهر عنه فيه من الجند والصبر وأوثر عنه من المنقبة ، الدالة على صحة اليقين ، وصدق الجهاد ، إذ أصابه سهم في ذراعه وهو يحل ، فلم يشغله عن صلاته ، ولا حمله توقع الاغارة على ابطال عمله .

لما استوثق أمر الأمير المخصوص بتربيته ، محمد ، ابن أمير المسلمين أبي الوليد نصر ، وقام بالأمر وكيل أبيه الفقيه أبو عبد الله محمد بن المحروق ، ووقع بينه وبين المترجم عهد على الوفاء والمناصحة ، ولم يلبث أن نكبه وقبض عليه ليلة كذا من رجب عام ثمانية وعشرين وسبعمائة وبعثه ليلا الى مرسى المنكب ، واعتقله في المطبق من قصبتها ، بغيا عليه ، وارتكب فيه أشنوعة أساءت به العامة ، وأنذرت باختلال الحال ، ثم أجازاه البحر ، فاستقر بتلمسان ، ولم يلبث أن قتل المذكور ، وبادر سلطانه الموثور بفرقة عن سبنته ، فاستدعاه فلحق محله من هضبة الملك متمليا ما ثساء من عز وعناية ، فصرفت اليه المقاليد ، ونيطت به الأمور ، وأسلم اليه الملك ، وأطلقت يده في المال ، واستمرت الأحوال الى عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ، والثالث الأمر ، وظهر من سلطانه التكرار عليه ، فعاجله الحمام فخلعه الله منه ،



وولى أخوه أبو الحجاج من بعده ، فوقع الاجماع على اختياره للوزارة  
 أوائل المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، فرضى الكل به ، وقرحت  
 العامة والخاصة للخطة ، لارتفاع المناقصات بمكانه ، ورضى الأضداد  
 بتوسطه ، وطابت النفوس بالأمن من غائلته ، فتولى الوزارة وسحب  
 أذيال الملك ، وانفرد بالأمر واجتد في تنفيذ الأحكام ، وتقدم الولاية ،  
 وجواب مخاطبات ، وقواد الجيوش الى ليلة الأحد الثاني والعشرين  
 من رجب عام أربعين وسبعمائة ، فنكبه الأمير المذكور ، نكبة ثقيلة  
 البرك ، هائلة الفجأة من غير زلة ماثورة ، ولا سقطعة معروضة ،  
 الا ما لا يعدم بأبواب الملوك من شرور المناقضات ، ودبيب السعيات  
 الكاذبة ، وقبض عليه بين يدي محراب الجامع من الحمراء اثر صلاة  
 المغرب ، وقد شهر الرجال سيوفهم فوقه يحفون به ، ويقودونه  
 الى بعض دور الحمراء ، وكبس ثقات السلطان منزله ، فاستوعبوا  
 ما اشتمل عليه من نعمة ، وضم الى المستخلص عقاره ، وسوغ الخبر  
 عظيم غلاته ، ثم نقل بعد أيام الى قصبة المرية محمولا على الظهر ،  
 فشد بها اعتقاله ورتب الحرس عليه الى أوائل شهر ربيع الثاني  
 من عام أحد وأربعين وسبعمائة ، فبدأ للسلطان في أمره ، واضطر الى  
 اعادته ، ووجد فقد نصحه ، وأشفق لما عدم من أمانته ، والانتفاع  
 برأيه ، وعرض عليه بما لنوم الكف والاقطار عن ضره ، فغفنا عنه ،  
 وأعاده الى محله من الكرامة ، وصرف عليه من ماله ، وعرض الوزارة  
 فأبأها ، واختار برد العافية ، وأنس لذة التخلي ، فقدم لذلك من سد  
 الثغور ، فكان له اللفظ ، ولهذا الرجل المعنى ، فلم يزل مفزعا للرأى ،  
 مجلى في العظة على الولاية ، كثير الآمل والغاشى الى أن توفي السلطان  
 المذكور غرة شوال من عام خمسة وخمسين وسبعمائة ، فشعب  
 الثأى ، وحفظ البلوى ، وأخذ البيعة لولده سلطاننا الأسعد  
 أبى عبد الله ، وقام خير قيام بأمره ، وجرى على معهود استبرائه ،  
 وقد تحكمت التجربة ، وعلت السن ، وزادت أنة الخشية وقربت  
 من لقاء الله الشنة ، فلا تسأل عما حط من خل ، وأفاض من عدل ،  
 وبذل من مداراة ، وحاول عقد السلم ، وسد أمور الجند على القل ،

ودامت حاله متحلة على ما ذكر ، وسنه تتوسط عشر التسعين الى أن  
لحق بربه ، وقد علم الله أنى لم يحملنى على تفسير سيرته ،  
والاشادة بمنقبته داعية ، وانما هو قول بالحق ، وتسليم لحجة  
الفضل ، وعدل في الوصف ، والله عز وجل يقول : « واذا  
قلتم فاعدلوا » .

في ليلة الأربعاء الثامن والعشرين من رمضان من عام ستين  
وسبعمائة طرق منزله بعد فراغه من احياء ثلث الليل ، متبدل اللبسة ،  
خالص الطوية ، مقتضيا للأمن مستشعرا للعافية ، قائما على المسلمين  
بالكل ، حاملا للعظيمة ، وقد بادره الغادرون بسلطانه ، فكسروا  
غلقه بعد طول معالجة ، ودخلوا عليه وقتلوه بين أهله وولده ، وذهبوا  
الى الدايلى برأسه ، وفجعوا الاسلام ، بالسائس الخصيب المتغاضى ،  
راكب متن الصبر ومطوق طوق النزاهة والعفاف ، وآخر رجال الكمال  
والستر ، الضافي على الأندلس ، ولوئم من الغد بين رأسه وجسده ،  
ودفن بازاء لحود مواليه من السبيكة ظهرا ، ولم يشهد جنازته  
الا القليل من الناس ، وتبرك بعد بقبوره (٦٠) .

ودراسة هذه الترجمة تطرح أمامنا سؤالا هاما حول الوقت الذى  
بدأ فيه الحاجب رضوان بناء هذه المدرسة والمدة التى استغرقها  
التنفيذ . يرى المستشرق الأسباني لويس ثيكو دى لوثينا أن العمل  
قد انتهى في عام ٧٥٠ هـ - ١٣٤٩ م حيث تشير الى ذلك اللوحة  
التذكارية التى كانت منصوبة على واجهة المدرسة ، والباقية حتى اليوم  
في متحف الآثار بغرناطة . كان العمل قد بدأ منذ مدة طويلة -  
ترجع الى عشر سنوات على الأقل ، حيث أننا نعرف أن يوسف الأول  
قام بعزل الحاجب رضوان وسجنه في ٢٣ يناير ١٣٤٠ م ، وأن هذا  
لم يعد الى سلطته الا في ١٩ أكتوبر ١٣٤٩ م ، وحيث أن المدرسة

(٦٠) ابن الخطيب : الاطاعة - ج ١ ص ٥٠٦ - ٥١٣ .

كانت بدايتها على يد الحاجب رضوان ، فمن الضروري أن يكون ذلك العمل قد بدأ قبل الثالث والعشرين من يناير عام ١٣٤٠ (٦١) .

وليس من السهل مجازاة الباحث الأسباني في هذا الرأي ، وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بمؤسسة ليست من الضخامة بحيث تستغرق كل هذه المدة الزمنية ، علاوة على أن الكتب التاريخية لم تشر الى ذلك أية اشارة ، يستدل منها على بدء البناء في المدرسة قبل ذلك بعشر سنوات وخاصة أن النظامية في بغداد لم يستغرق بناؤها أكثر من عامين فقط .

ان التعبير الذي استخدمه ابن الخطيب للدلالة على ذلك ليس واضحا جدا ، فالكلمة « أحدث المدرسة » لا تعنى بالضرورة « بنى المدرسة » بقدر ما تعنى « أوجد المدرسة » ، خاصة اذا كان ابن الخطيب قد استعمل الفعل « بنى » عند حديثه عن مدرسة مالقة ، ومن المحتمل أن المبنى كان قائما ، وأن الحاجب رضوان قد قام بتخصيصه لهذا الغرض مدخلا عليه التعديلات اللازمة من زخرفة أو غير ذلك ، وبالتالي فالأمر لا يحتاج الى وقت طويل ، ويكون ذلك قد تم خلال عامي ٧٤٨ و ٧٤٩ هـ ، حيث كان الحاجب في تلك الفترة يتمتع بسلطة حقيقية ، فنراه قائدا لجيوش غرناطة ، في حملتها ضد حصن قنيط (٦٢) .

أما الاحتمال الثاني ، فهو حيث أن كلمة « أحدث » لا تستبعد قيامه بالبناء ، فاننى أميل الى اعتبار عام ٧٤٨ هـ — ١٣٤٧ م ، العام الذي بدأ فيه الحاجب مشروع المدرسة ، وبالتالي من المعقول أن يستمر البناء فيها عاما أو عامين .

أما تاريخ الانتهاء من بناء المدرسة فهو أيضا مثير للتساؤل ،

(61) Seco de lucena : El Hayib Ridwan y Granada ; p. 295 — al Andalus XXI (1956) 285—296.

(٦٢) شبانة : يوسف الأول « الرسالة الثانية » ، ص ٢٢٧ .  
Seco de Lucena : Op. Cit., p. 293.

على الرغم من اللوحة التذكارية التي تحدد افتتاح المدرسة في عام ٧٥٠ هـ - ١٣٤٩ م (٦٣) ، وهنا يبين لكل هذا الشك : السبب الأول أن أبا الحسن بن الجياب ، المتوفى في شوال من عام ٧٤٩ هـ / يناير ١٣٤٩ م ، قد كتب الأبيات التالية ، التي يؤكد المقرئ ، أنها كتبت على باب المدرسة العلمية بغرناطة :

يا طالب العلم هذا بابه مفتحا  
فادخل تشاهد سناه لاح شمس ضحى  
واشكر مجيرك من حل ومرتمحل  
اذ قرب الله من مرمك ما نرحا  
وشرفت حضرة الاسلام مدرسة  
بها سبيل الهدى والعلم قد وضحا  
أعمال يوسف مولانا وبيته  
قد طرزت حفا ميزانها رجحا (٦٤)

لم تظهر هذه الأبيات ضمن ما نقله المورييسكى الونسو ديل كاستيليو ، مما يسبب مشكلة التناقض مع قول المقرئ ، بأنها كانت على باب المدرسة وعدم ظهورها ضمن ما نقله هذا المورييسكى - والأشكال الثاني يتجلى في قول المقرئ بأنها كانت على باب المدرسة العلمية ، فهل يعنى ذلك وجود مدرستين ؟ أن ذلك قد يحل مشكلة التناقض المشار إليه ، لكن نص مرسوم افتتاح المدرسة القائل : « أمر ببناء هذه الدار للعلم » ، يمكن أن يفسر قول المقرئ بأنها على باب المدرسة العلمية دون أن يعنى ذلك وجود أخرى ، وتبقى المشكلة معلقة ، بالضبط كما شرحها البروفيسور كابانيلاس \*

(63) Levi Provencal : Inscripciones Arabes de Granada pp. 158, 159.

(٦٤) المقرئ : نصح الطيب - ج ٧ ، ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .  
Rubiera; Mo. Jesus : Ibn al Yaiyyab y su época (Tesis Doctoral inédita; Madrid 1972).

والسبب الثاني هو ما جاء في ترجمة محمد بن محمد بن محارب الصريحي المتوفى في عام ٥٧٥٠ هـ - ١٣٤٩ م ، من أنه دخل غرناطة مرات ، متعلما وحاجا ودعى للاقراء بمدرستها النصرية عام ٥٧٤٩ هـ - ١٣٤٨ م ، فقدم على الباب السلطاني ، واعتذر بما قبل فيه عذره (٦٥) .

ونستنتج من هاتين الملاحظتين ، أن المدرسة كانت قد تمت تماما خاتم عام ٥٧٤٩ هـ - ١٣٤٨ م ، وأن كان افتتاحها الرسمي قد تأجل حتى الشهر الأول من عام ٥٧٥٠ هـ ( ٢٢ مارس - ٢٠ أبريل ١٣٤٩ م ) .

أوقف الحاجب رضوان على المدرسة الرباع المطلة ، وسبب لها الفوائد ، وجلب إليها الماء من النهر ، حتى جاءت نسيجة وحدها ، بهجة وصدرا وظرفا وفضامة .

ويبدو أن أوقاف المدرسة كانت كثيرة حتى أن الأمر قد استدعى أن يعين لها مسئول مخصوص هو محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم الأنصاري ( توفي بعد عام ٧٧٠ هـ ) ، الذي يقول عنه ابن الخطيب :

وهو الآن مستوطنا حضرة غرناطة ، وتاليا للأعشار القرآنية بين يدي السلطان ، أعزه الله ، مرفع الجانب ، معزز الجراية بولايته أحباس المدرسة (٦٦) .

ولابد من الإشارة أيضا الى وجود بعض الفنادق المجاورة للمدرسة والتي كانت محبسة على بعض مساجد غرناطة ، مما يعطي الاحتمال في استعمالها لصالح المدرسة لمبيت الطلبة والغرباء (٦٧) .


---

(٦٥) ابن الخطيب : الاطالة - ج ٣ ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

التبكي : نيل الانتهاج ، ص ٢٤٩ .

(٦٦) ابن الخطيب : الاطالة - ج ٣ ، ص ١٩٦ - ١٩٩ .

(67) Seco de Lucena : Notas de Arqueologia de Granada

(Cuadernos dr Alhambra No. 6 MCMLXX. : 

Vellanueva; C. : Habices de las Mezquitas la ciudad de Granada y sus Alquerias, pp, 27, 28.

ولقد زخرت المدرسة بالآيات الشعرية والآيات القرآنية ،  
فحملت على بابها كثيرا من الأبيات الشعرية ، فملأوة على أبيات  
ابن الجياب الأربعة التي يؤكد القرى أنها كتبت على باب المدرسة ،  
نقلَ إلينا الموريسكي « ألونسو ديل كاستيو » ، المترجم الرسمى لبلاط  
الملك الأسباني فيليب الثانى (٦٨) ، ثلاثة أبيات من الشعر وجدت على  
الباب الرئيسى للمدرسة ، وهى :

انظر الى روض عجب المنظر  
قد راق حسنا لامحا فى الحجر  
وتأمل الباب النسيج صناعته  
تبدي الجلال بوضعه المتخير  
وادخل عليه للصلاة مبادرا  
لتفوز انعاما بيوم العشر (٦٩)  
أما فى الرواق الداخلى فقد وجد نفس الرجل الأبيات التسعة  
التالية :

ألا هكذا تبني المدارس للملم  
وتبقى عهود الجد ثابتة الرسم  
ويتصد وجه الله بالعمل الرضا  
وتجنى ثمار العز من شجر العزم  
تفاخر منى حضرة الملك كلما  
تقدم خصم فى الفخار الى خصم  
فأجدي اذا من الغمام من الجيا  
وأهدي اذا جن الظلام من النجم

(٦٨) انظر :

Cabanelas; D. : Inscricion Poetica de la Antigua Ma-  
drasa granadina, pp. 14, 15.

(٦٩) نكس المتر : ص ١١٨ .

فيا ظاعنا للعلم يطلب رحلة  
كفيت اعتراض اليد أو لجج اليم  
ببأبى حظ الرحل لا تنو وجهة  
فقد فزت في حال الإقامة بالغنم  
فكم من شهاب في سمائي ثاقب  
ومن هالة دارت على قمركم  
يفيخون من نور مبين الى هدى  
ومن حكمة تجلو القلوب الى حكم  
جزى الله عنى يوسف خير ما جزى  
ملوك بني نصر عن الدين والعلم (٧٠)

هذا ولقد حاول المستشرق الأسباني داريو كابا نيلاس ،  
التعرف على مؤلف هذه الأبيات الاثنى عشر ، لكنه لم يصل الى  
نتيجة محددة (٧١) ، ولم أستطع أنا أيضا التعرف على شخصية مؤلف  
الأبيات الثلاثة الأولى ، التي أوردها ألونسو دل كاستيو ، في حين يؤكد  
المقرئ أن الأبيات التسعة الأخرى ، هي لابن الخطيب ، وأنها كتبت على  
المدرسة النصرية بغرناطة (٧٢) .

وليست لدينا بيانات كافية ، تساعد على رسم صورة لما كانت عليه  
المدرسة ، ولكن يمكن أن نتخيل البناء من واقع الحال ، ومما تقدمه لنا  
مدارس شمال أفريقيا ، بأنه كان محتويا على بهو واسع تحيط به  
زواقات جانبية تستخدم للتدريس ، وأنه يحتوى على طابق علوى

---

(٧٠) المقرئ : نفح الطيب — ج ٩ ، ص ١٨٦ .

أزهار الرياض — ج ١ ، ص ٢٧٢ .

P. Cabanelas, D. : Inscripcion Poetica, p. 20.

(71) Cabanelas, D. : Inscripcion Poetica de la antigua  
Madrasa, pp. 23, 24.

(٧٢) المقرئ : نفح الطيب — ج ٩ ، ص ١٨٦ .

أزهار الرياض — ج ١ ، ص ٢٧٢ .

يستخدم لمبيت الطلبة الغرباء الواردين الى المدرسة \* وعلاوة على ذلك ،  
وفي نهاية الفناء الكبير ألحق بالمدرسة محلى صغير لاقامة الصلاة ،  
وهذا الجزء من المدرسة هو الذى تبقى على صورته الأصلية حتى  
يومنا (٧٣) \* وتؤكد الوثائق وجود مساكن للطلبة الى جوار المدرسة (٧٤) \*

وعلاوة على ذلك ، ألحق بالمدرسة مكتبة خاصة بها ، وتهد سلاطين  
غرناطة هذه المكتبة بامدادها بالكتب - ومن الكتب التى وقتت على هذه  
المدرسة فى فترات لاحقة ، كتاب الاحاطة لابن الخطيب ، حيث أمر  
سلطان غرناطة بوقفه على المدرسة فى عام ٨٢٩ هـ ، ولقد كتب صيغة  
هذا الوقف الفقيه الغرناطى الكبير ابن عاصم (٧٥) ، وهناك كتب  
أخرى تم وقفها على المدرسة مثل كتاب « الاشارات والتنبهات »  
وكتاب « ابن معط » (٧٦) \*

ولقد قام بالتدريس فى المدرسة مجموعة من كبار الأساتذة مثل  
قاسم بن لب ، حامل لواء التحصيل ، ومحمد بن على الخولانى أستاذ  
الجماعة وشيخ النحاة فى عصره ، ويحيى بن أحمد بن هذيل ، آخر حملة  
الغنون العقلية بالأندلس ... الخ \*

ويلاحظ أن مدرسة غرناطة تختلف عن بعض المدارس المشرقية  
من حيث عدد المدرسين الذين يعملون بها فى وقت واحد فبينما نجد  
أن النظامية يتولى التدريس فيها مدرس واحد هو الشيخ الشيرازى ،  
نرى أن مدرسة غرناطة مختلفة أيضا ، ففى الوقت الذى كان التجيبى  
( توفى ٧٥٣ هـ - ١٣٥٢ م ) يدرس العلوم العقلية ، كان الخولانى

(٧٣) عنان : الآثار الأندلسية الباتية فى أسبانيا والبرتغال ،

ص ١٧٢ .

(٧٤) ميانوينا : أحباس المساجد بمدينة غرناطة ، ص ٢٧ .

(٧٥) ابن الخطيب : نفح الطيب - ج ٩ ، ص ٢٠٨ - ٣١١ .

المترى : ازهار الرياض - ج ١ ، ص ٥٥ .

(٧٦) الطوخى : الحياة الثقافية فى غرناطة ، ص ٣٠٢ .

( رسالية دكتوراه لم تطبع بعد ) .



(توفي ٧٥٤ هـ - ١٣٥٣ م) يدرس النحو والآداب ، والسيار ( ٧٥٣ هـ - ١٣٥٢ م ) يدرس الفقه ، والحقيقة أن مدرسة غرناطة قد ضمت بين جدرانها كبار الشيوخ على عهدا ، ولم يكن من السهل القيام بالتدريس فيها فهي أتوه مواضع التدريس بالحضرة كما يقول ابن الخطيب فالسلطان شخصيا يتدخل في ذلك ، ولا بد من توصية أحد كبار العلماء مثلما حدث مع منصور الزواوي الذي أوصى به شيخ النخبة الخولاني (٧٧) ، وأقدم فيما يلي ترجمة لبعض أساتذة المدرسة ، الذين أمكنني التأكد من قيامهم بالتدريس فيها :

ابراهيم بن علي بن محمد الربيعي التونسي

( توفي في عام ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ - ١٤٧٠ م )

ذكره جورج مقدسي من بين مدرسي المدرسة النصرية ، ضمن مقاله عن المدرسة في أسبانيا .

ويقول عنه السخاوي انه من تلاميذ القاضي عبد القادر المالكي ، درس الفقه وأصوله ، وأذن له في تدريسهما (٧٨) .

ابراهيم بن محمد بن فتوح العقيلي الأندلسي

توفي : ٨٦٧ هـ / ١٤٦٢ م

هناك اختلاف كبير في تاريخ وفاته حيث ورد في نيل الابتهاج وفي الضوء اللامع أنه عام ٨٦٧ هـ - ١٤٦٢ م ، وفي درة الحجال ، أنه عام ٨٦٩ هـ - ١٤٦٤ م .

(٧٧) ابن الخطيب : الاحاطة - ج ٣ ، ص ٢٢٨ .

(78) Makdese, George : The Madrasa in Spain, Some Remarks, p. 154.

Revue de L'Occident Musulman et de la Mediterranée  
Numeros 15-16 2o. Semestre 1973.

تاريخ التلميم

ويقال عنه ، انه كان مفتي غرناطة المالكي ، وكان اقراؤه بالمدرسة ،  
وهو أنه مواضع التدريس بغرناطة (٧٩) .

أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري

توفي : ٧٧٠ هـ / ١٢٦٨ م

يقول عنه الدكتور شبانة ، أنه من أشهر أساتذة المدرسة (٨٠) ، ثم  
يعود ليؤكد من جديد ، أنه أوقف جزءا من حياته على خدمة مدرسة غرناطة ،  
حيث درس لتلاميذها (٨١) ، وفي موضع ثالث يقول : أنه قضى شطرا  
هاما من حياته بمدرسة غرناطة (٨٢) ، لكن لم يتبين لي من أي مصدر  
آخر أن ابن خاتمة عمل بالمدرسة ، وإنما عمل كثيرا في مسجد المرية .

وأورد ابن الخطيب ترجمة طويلة جدا من ٣٠ صفحة كاملة ،  
عن صديقه ابن خاتمة ، لم يشر فيها الى أنه عمل بالمدرسة ، وإنما  
أشار الى أن مجيئه الى غرناطة ، كان لجرد الزيارة في بعض  
الأحيان (٨٣) . كما أن ابن الأحمر لم يشر الى ذلك اطلاقا (٨٤) .

وفي درة الحجال لم يشر اطلاقا الا أنه عمل بمدرسة غرناطة (٨٥) .

هذا ولقد كتبت السيدة سوليداد خيلبرت ، مقدمة قيمة لتحقيقها  
لديوان ابن خاتمة ، أشارت فيها الى كافة المصادر التي تناولت حياة هذا  
المعلم الالمري : تاريخ ميلاده ، وفاته ، أعماله الأدبية ، علاقته بابن

- 
- (٧٩) ابن القاضي : درة الحجال ، ص ١٠٥ .  
السخاوي : الضوء اللامع - ج ١ ، ص ٣٠ .  
التنبكي : نيل الابتهاج ، ص ٥٤ .  
(٨٠) كمال شبانة : يوسف الاول ، ص ٩٩ .  
(٨١) شبانة : نفس المصدر ، ص ١٥٧ .  
(٨٢) انظر تطبيقه على ترجمة المؤلف ضمن كتاب « اوصاف الناس »  
لابن الخطيب ، ص ٦٩ .  
(٨٣) ابن الخطيب : الاحاطة - ج ١ ، ص ٢٣٩ - ٢٥٩ .  
(٨٤) ابن الأحمر : نشر الجمان ، ص ١٧٥ .  
(٨٥) ابن القاضي : درة الحجال - ج ١ ، ص ٤٠ .

الخطيب ، ترجمة لنصوص الرسائل المتبادلة بينهما ، ولم تشر في أى موضوع من دراستها الى أنه قد عمل مدرسا بالمدرسة الغرناطية ، وأن أهم ما قبله من مناصب هو الاقراء بجامعة المرية ، وأنه ربما قد شغل منصب كاتب لفترة قصيرة جدا (٨٦) .

الفقيه أبو محمد بن عبد الله بن أبي القاسم بن جزى

من اهل غرناطة

توفى : ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م

أديب ، حافظ ، قام على فن العربية ، مشارك في فنون لسانية تسواه ، طرف في الادراك وهو اليوم بمدرسة الحضرة ، يعرب فيغرب ، يباهى به على المشرق والمغرب (٨٧) .

فرج بن قاسم بن لب الثعلبي

من اهل غرناطة

توفى : ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م

حامل لواء التحصيل ، عليه مدار الثورى ، واليه مرجع الفتوى ببلده لغزارة حفظه ، وقيامه على الفقه ، واضطلاعه بالمسائل ، الى المعرفة بالعربية واللغة ، والمران في التوفيق ، والقيام على القراءات ، والتبريز في التفسير ، والمشاركة في الأصول والفرائض والأدب ، جيد الحفظ ، قعد ببلده للتدريس على وقور المسجد ، ثم استقل بعد ، وولى الخطابة بالمسجد الأعظم ، وأقرأ بالمدرسة النصرية في ٧٥٤ هـ -

---

(86) Gibert, Soledad : El Diwan de Ibn Jatima de Almeria. el prologo (Barcelona 1975) .

(٨٧) ابن الخطيب : الكتبية الكامنة ، ص ٩٦ .

ابن الخطيب : الاحاطة - ج ٣ ، ص ٣٩٢ .

البغدادى : هدية العارفين - ج ٢ ، ص ١٦٠ .

١٣٥٣ م ، معظمًا عند الخاصة والعامة (٨٨) .

محمد بن ابراهيم بن محمد السيارى

ومعروف بالبيبانى

يكنى ابا عبد الله

من اهل فرناطة

توفى ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م

أقرأ الفقه ودرسه عمره ، وانتصب للفتيا ، وتكلم للجمهور :  
وكان مرجعا فى المشكلات ، ومستشارا فى الأحكام ، يقوم على الفقه  
أحسن قيام ، عاكفا على تدريسه مكبا على تبيينه ، سهل الألفاظ ، حسن  
التعليم ، يشارك فى العربية والفرائض والأصول .

قرأ على الأستاذ الكبير أبى جعفر بن الزبير ، وعلى الخطيب  
المحدث أبى عبد الله بن رشيد ، وأخذ عن أبى الوليد الحضرمى .

وتوفى ، رحمه الله ، مدرسا بالمدرسة النصرية ، وخطيبا بمسجد  
النصورة (٨٩) .

- 
- (٨٨) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٤ ، ص ٢٥٣ .  
أوصاف الناس فى التواريخ والضلالت ، ص ٣٢ .  
التبكتى : فى الابتهاج ، ص ٢١٩ .  
ابن فرحون : الديباج - ج ٢ ، ص ١٣٩ .  
السيوطى : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .  
ابن الأحمر : نثر الجبان ، ص ١٨٦ - ١٩٦ .  
ابن بطوطة : الرحلة ، ج ٢ ، ص ١٩٠ .  
ابن القاضى : درة الحجال ، ج ٢ ، ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ .  
المقرئ : النفع ، ج ٨ ، ص ٢٦ .  
شبانة : يوسف الأول ، ص ١٦٤ .  
(٨٩) ابن فرحون : الديباج ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .  
ابن حجر : الدرر الكامنة فى اعيان المائة الثامنة ، ج ٣ ، ص ٣٨٢ .  
ابن القاضى : درة الحجال ، ج ١ ، ص ١٧٢ .

أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل البسطي

أشار لويس سيكو دي لوثينا في مقالة له عن شهادة طبية في صالح أحد أطباء غرناطة في نهاية القرن الخامس عشر بأن هذا الرجل كان مدرسا بالمدرسة الغرناطية قائلا بالحرف ما يلي :

« الفقيه المشهور ، المدرس بالمدرسة الغرناطية » ، لكن المقرئ يشير الى الرجل بلقب « المدرس » فقط دون تحديد ما اذا كان مدرسا بالنصرية أو المسجد الجامع . لكن اذا كان ذلك حقيقة وأن البسطي كان مدرسا بالمدرسة النصرية فهو ، اذن ، آخر مدرسي هذه المدرسة قبل وقوعها في أيدي الملكين الكاثوليكيين لأن هذا الرجل كان شاعرا البلاط المفضل ، لدى أبي عبد الله ، آخر ملوك غرناطة (٩٠) .

محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر

ابن مزروق

من أهل تلمسان

توفي : ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م

قدم الأندلس ، موقدا من أبي الحسن الريني ، واجتذبه سلطانها رحمه الله ، وبقي في غرناطة ، قلده السلطان الخطبة في مسجده هـ ٧٥٣ - ١٣٥٢ م ، وأقعدته للاقراء بالمدرسة في حضرته ، ثم انصرف بعد ذلك من الأندلس في أواخر عام ٧٥٤ هـ - ١٣٥٣ م (٩١) .

---

(٩٠) المقرئ : أزهار الرياض ، ج ١ ، ص ١٠٣ .

Seco de Lucena : El título profesional de un médico del S. XV, p 25.

(٩١) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

التبكي : نيل الابتهاج ، ص ٢٦٨ .

المقرئ : النفع ، ج ٧ ، ص ٣٢٧ وما بعدها .

ابن قنفذ : شرف الطالب في اسمى الطالب ، ص ٨٦ .

**محمد بن علي بن أحمد الخولاني**

توفي : ٧٥٤ هـ / ١٢٥٣ م

كان أستاذ الجماعة ، عاكفا على العلم ، ملازما للتدريس ،  
امام الأئمة غير مدافع ، مبرزاً ، امام أعلام البصريين من النحاة ، منتشر  
الذكر ، بعيد الحيت ، عظيم الشهرة ، مستبحر اللفظ ، يتفجر بالعربية  
تفجر البحر ، لا يشكل عليه مثله شكل ، ولا يعوزه توجيه ، جدد  
بالأندلس ما كان قد درس من لسان العرب ، من لدن وفاة أبي علي  
الثلوبين ( ٦٤٥ هـ — ١٢٤٧ م ) ، وكانت له مشاركة في غير صناعة  
العربية من قراءات وفقه ، وعروض ، وتفسير ، وتقدم خطيباً بالمسجد  
الأعظم ، وقعد للتدريس بالمدرسة النصرية ، وقل في الأندلس من  
لم يأخذ عنه من الطلبة ، وخرج ودرب وأجاز ، لا يأخذ على ذلك أجراً ،  
وخصوصاً فيما دون البداية ، الا الجراية المعروفة (٦٢) .

**محمد بن محمد بن محارب الصريخي**

المتوفى : ٧٥٠ هـ / ١٢٤٩ م

كان اماماً في الفرائض والحساب ، قائماً على العربية ، مشاركاً  
في الفقه والأصول وكثير من العلوم العقلية ، قعد بمالقة للأقراء .

دخل غرناطة مرات متعلماً وطالب حج ، ودعى للأقراء بمدرستها  
النصرية عام ٧٤٩ هـ — ١٣٤٨ م ، فقدم على الباب السلطاني ، واعتذر  
بما قبل فيه عذره .

توفي في مالقة في ربيع الآخر من عام ٧٥٠ / ١٣٤٩ م ، بعد  
أن تصدق بمال كثير ، وعهد بريع مجيد لطلبة العلم وحبس عليهم

---

(٦٢) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٣٥ ، ٣٦ .

المقري : فنح الطيب ، ج ٧ ، ص ٢٧٥ — ٢٨٠ ( الخامس ص ٢٨٣ )

طبعة احسان عباس ) .

البغدادي : هدية السارفين ، ج ٢ ، ص ١٥٩ .

كتبه (٩٦) .

### منصور بن علي بن عبد الله الزواوي

له مشاركة حسنة في كثير من العلوم العقلية والنقلية . ونظر في الأصول والمنطق والكلام . ودعوى في الحساب والهندسة والآلات .

قدم الأندلس في عام ٥٧٥٣ / ١٣٥٢ م ، غلقى رحبا ، وعرف قدومه ، فنتقدم مقرئا بالمدرسة تحت جراية نبهية وحلق للناس متكلماً على الفروع الفقهية والتفسير ، وأخرج من الأندلس في عام ٥٧٦٥ / ١٣٦٣ م (٩٧) .

### يحيى بن أحمد بن هذيل النجيبى

توفي : ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م

كان آخر حملة الفنون العقلية بالأندلس ، وخاتمة العلماء بها من طب وهندسة وهيئة وحساب وأصول وأدب ، الى امتاع المحاضرة وحسن المجالسة وعموم الفائدة .

خدم أخيراً باب السلطان بصناعة الطب ، وعقد بالمدرسة بقرطبة يقرئ الأصول والفرائض والطب (٩٨) .

(٩٣) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

التبكي : نيل الابتهاج ، ص ٢٤٩ .

(٩٤) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٣٢٥ .

التبكي : نيل الابتهاج ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

(٩٥) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٤ ، ص ٣٩٠ .

(ب) مدارس غرناطية أخرى غير التصرية :

يقدم لنا ابن الخطيب في كتابه الاطاحة ملاحظة هامة ، وذلك عند حديثه عن ما أنجزه سبطانه محمد الخامس « الغنى بالله » ، وذلك بعد عودته من المنفى في المغرب ، في عام ٨٧٦٣ / ١٣٦١م ، مفادها أن السلطان قد أعطاه تصريحاً ببناء مدرسة وزاوية وتربة فيقول :

«... الى موافقته اياي ، وتسويغه ما اخترعته باذنه ، وأجريت به بطيب نفسه من اتخاذ المدرسة والزاوية وتعين التربة ، مغيراً في ذلك كله على مقاصد الملوك (٩٦) » .

وفي نص آخر ورد بالاطاحة أيضاً ، نرى ابن الخطيب ، بعد محنته ، ينوئ أن يغير من أسلوب حياته ، وأن يبتعد عن السياسة ، وأن يعكف على حياة أخرى فيقول : ثم صرفت الفكر الى بناء الزاوية والمدرسة والتربة ، بكر الحسنات بهذه العظة (٩٧) .

ولكن : هل وصل الأمر بابن الخطيب الى تحقيق أحد المشروعين ؟ اننى أعتقد أن هذه المشروعات لم تخرج الى حيز التنفيذ ، حيث لم يشر الى ذلك أى كتاب تاريخى أو معمارى عن غرناطة ، هذا ولقد قام الدكتور مختار العبادى بدراسة عصر محمد الغنى بالله ، وتردد اسم المدرسة اليوسفية في بحثه ثلاث مرات ولم يشر الى أية مدرسة أخرى تم انشاؤها على عهد هذا السلطان (٩٨) ، كما أن الدكتور أحمد الطوخى قد قدم رسالة دكتوراة عن الحياة الثقافية في غرناطة ولم يشر اطلاقاً الى أية مدرسة أخرى (٩٩) غير المذكورة :

(٩٦) ابن الخطيب : الاطاحة ، ج ٢ ، ص ٥٩ .

(٩٧) ابن الخطيب : الاطاحة ، ج ١ ، ص ٣٠ .

(98) Al Abbadi, M., El Reino de Granada, pp. 170, 171. Y 203.

(٩٩) الطوخى : الحياة الثقافية بمملكة غرناطة ( رسالة دكتوراه بجامعة الاسكندرية ) .



وكذلك كتاب المستشرق الأسباني سيكو دي لوثينا « غرناطة في القرن ١٥ » (١٠٠) ، لم يقدم لنا أية معلومات في هذا المجال ، مما يؤكد أن هذه المدارس لم تصل الى حيز التنفيذ .

كما وجدت في أسبانيا بعد انتهاء حروب الاسترداد ، بعض المدارس الخاصة بالموريسكيين والمجنين ، وهناك وثائق مؤكدة عن وجود هذه المدارس في سرقسطة وغرناطة ولكن لن نتناولها هنا بالدراسة ، وسنقدم فقط الوثيقة الدالة على وجود مدرسة سرقسطة وبقائها حتى سقوط غرناطة تقريبا .

### الرحلات

الرحلة سمة من أهم سمات التعليم الاسلامي في العصور الوسطى ، وتتلخص في قيام الطلاب بالانتقال من مكان الى آخر بحثا عن مزيد من العلوم ، وعن أفضل المعلمين ، المنتشرين في كافة بلاد العالم الاسلامي .

وتعتبر الرحلة من أعلى مراحل التعليم ، كما أنها لعبت دورا هاما جدا في توحيد ثقافة العالم الاسلامي وتنشيطها ، حتى وصل بعض المؤرخين الى وصف هذا التعليم بالحركة ، يقول الدكتور ميكل دي ابالسا « الحركة هي أهم مميزات التعليم الاسلامي ، ويتجلى هذا في الرحلات ، من أجل اقتناء العلم » (١٠١) .

ولقد كان الحج ، وهو غرض ديني أساسي ، عاملا أساسيا في تشجيع الرحلات من كافة أنحاء العالم الاسلامي في اتجاه مكة والحجاز ، ومساعدة على الاجتماع واللقاء بين المسلمين من كافة أنحاء المعمورة .

(100) Seco de Lucena. L. : La Granada Nazari del Siglo XV.

(١٠١) ابالسا : التعليم العالي في القرون الوسطى الإسلامية وممارسته بالتعليم الحاضر - محاضرة القيت في ملتقى الامام الموزري بتونس.

ولكن لم يقتصر الأمر فقط على الرغبة في إغناء بناوحيات  
الدينية ، إذ أنه في مرحلة لاحقة ، أصبحت الرغبة بمرض العلم ، هدفا  
في حد ذاتها . ويرى الدكتور محمود على مكي أن الحماس للحصول  
على علوم جديدة كان واحدا من أهم دوافع التأثير في القيام بهذه  
الرحلات ، حقيقة كان هناك رجاله يهدفون إلى أداء الفرض الديني  
— كما بينا — أو الحصول على منافع مادية — كما سنبين — لكن  
الاهتمام الأكبر لهؤلاء كان بغرض هضم التعليم المشرقي (١٠٢) .

وهناك نوعان من الرحلات : رحلات الأساتذة ورحلات الطلاب ،  
وتختلف دوافع النوع الأول عن الثاني ، فالأساتذة يرحلون من  
مكان إلى مكان طلبا للشهرة أو الجاه ، أو غراما من الاضطهاد ، أو بحثا  
عن مكان أكثر ملاءمة لأفكارهم وآرائهم ، وهذه الرحلات قد أخذت  
أكثر من اتجاها ففي بداية الأمر كان انتقال المعلمين يتم من وسط  
العالم الإسلامي إلى أطرافه ، وفي مرحلة لاحقة حين نهضت هذه  
الأمصار وظهر بها كثير من العلماء أصبحت اتجاهات الرحلات متعددة  
فمن الأطراف الشمالية إلى الوسط وإلى الجنوب ومن الجنوب إلى  
الوسط وإلى الشمال ، ومن الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق  
وبالعكس .

أما رحلات الدارسين فهي أيضا ارتبطت بحركة رحلات المعلمين  
وتأثرت بها ، لأن العامل الأساسي المحرك لها كان في شهرة معلم  
أو شهرة مدينة ما .

أما بالنسبة لطلاب الأندلس ، فإن ظروف الأندلس الجغرافية قد  
حكمت اتجاهها نحو المشرق ، مروراً بالشمال الأفريقي وتونس ومصر  
وببلاد الشام ثم الاتجاه إلى العراق وبلاد الحجاز ، أو ركوب البحر  
إلى مصر ومنها إلى بلاد الشام ، عبر سيناء ، أو إلى بلاد الحجاز

عبر البحر الأحمر دون أن يعنى ذلك اقتصار هذه الرحلات على هذه الأماكن وإنما تجاوزتها الى المناطق الشرقية من العالم الاسلامى .

وتنقسم الرحلات الى قسمين رئيسين : الرحلات الداخلية ، والرحلات الخارجية ، والداخلية منها تنقسم فى نفسها ، الى رحلات داخل الاقليم ذاته ، أو داخل المصر بأكمله ، والرحلات الخارجية أيضا تتنوع ، فهناك الرحلة الى بلد معين أو الى بلاد كثيرة ، وهناك الرحلة الى أقطار قريبة أو الى أقطار بعيدة جدا .

والرحلات الداخلية تتم فى داخل الاقليم الواحد ، أو المصر الواحد ، وفى هذه الحالة يكون الاتجاه دائما من موطن الطالب الى المدن الرئيسية ، وخاصة عاصمة الاقليم ، التى كانت تتمتع دائما بكنار المعلمين ، كما تتيسر فيها أحوال المعيشة ، ولقد وجدت فى الأندلس عواصم أقاليم ذات شهرة عظيمة جدا مثل أشبيلية ، طليطلة ، سرقسطة ، مرسية ، غرناطة ، جيان ، بطليوس ، بلنسية .

ومن عاصمة اقليم الى عاصمة اقليم آخر ، ومن هذه العواصم كلها الى حاضرة المصر ، وفى الأندلس ، كانت قرطبة على عهد الخلافة ، محط الرحال ومطمح كافة الطلبة الأندلسيين . أما فى عصر ملوك الطوائف ، فإن كل عاصمة من عواصم الملوك تمتعت بمميزات لم تنعم بها غيرها حسب قدرة كل ملك ، على أن يجذب لعاصمته من الفقهاء والعلماء والشعراء والأدباء ، فقد احتلت أشبيلية مكان الصدارة على عهد الموحدين ، ثم غرناطة على عهد أسرة بنى نصر .

أما الرحلات الخارجية فكانت تتجه دائما الى عواصم الأمصار الاسلامية المشهورة مثل القيروان فى تونس والاسكندرية والقاهرة بمصر ، وبغداد والكوفة والبصرة بالعراق ، ومكة والمدينة بالحجاز ، ولقد اتجه الأندلسيون دائما الى هذه المدن للتعلم على أسانذتها وجلب الكتب منها .

ولكن في فترة لاحقة ، حينما أصبحت قرطبة في مستوى بضاهي المدن الشرقية ، غاننا نجد أن من الأندلسيين من يكتفى بما يتعلمه في هذه المدينة - مثلا : يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري ، وهو من أكبر علماء الأندلس خلال القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي ، لم يخرج من الأندلس ، لكنه سمع من أكابر أهل الحديث بقرطبة وغيرها ، ومن الغرباء القادمين إليها (١٠٣) .

ولقد تحولت قرطبة الى مركز جذب ، حيث جاءها الطلاب والدارسون من كافة أنحاء العالم الاسلامي ، فيقال عن عبد الرحمن ابن محمد بن وليد الأموي : أن سكناه بقرب دور بني هاشم ، ويصلي بمسجد الصينى (١٠٤) ، مما يدل على اتجاه بعض الرحلات من أقصى الشرق الاسلامي الى الأندلس .

وتتميز الرحلات سواء الداخلية أو الخارجية بطول المدة وكثرة الشيوخ ، الذين يمكن مقابلتهم خلالها ، فنجد أن :

ابراهيم بن هرون بن خلف ، المتوفى ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م ، قد أقام بقرطبة في طلب العلم أربعين سنة (١٠٥) .

وبقى بن مخلد ، لقي وسمع من مائتين وأربعة وثمانين رجلا ، وابن وضاح من مائة وخمسة وسبعين ، وابن غطين من أكثر من مائتين ، أما ابن حبيب فقد جال في الأرض ، وقطع طولها والعرض ، وجال في أكنافها ، وانتهى الى أطرافها (١٠٦) .

ولقد كانت الرحلات الداخلية ، تتم عادة ، قبل الرحلات الخارجية حيث يقوم الطالب بالدراسة على أهل بلده ، وينتقل منها الى المدن

(١٠٣) الحبيدي : الجذوة ، ص ٣٤٥ ، ٢٤٦ .

(١٠٤) ابن بشكوال : الصلاة - ج ١ ، ص ٣٨ .

(١٠٥) ابن الفرضي : علماء الأندلس - ج ١ .

(١٠٦) الأثرى : النفع ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

القريبة أو الى عواصم الاقليم ثم الى الحاضرة ، وبعد ذلك يسمى الى السفر للبلاد البعيدة •

ولقد تكفلت الأوقاف ، وأعمال الخير في كافة البلاد الاسلامية باعانة الطلاب ورعايتهم ، وتمكينهم من التحصيل الدراسي ، وفي الأندلس ، كانت أوقاف المساجد كثيرة جدا ، ومما لا شك فيه أن جزءا منها كان يوجه لخدمة الغرباء الذين هم في غالبيتهم من الدارسين •

ولم يكن الطالب يرحل الى مدينة ما بفرض التعلم على معلم واحد فقط فيها ، مهما علت شهرته ، ولكنه كان يسعى لانتهاز هذه الفرصة ، للسماع من أكبر عدد ممكن من الشيوخ في هذه المدينة ، كما أن الطلبة من كافة المدن قد تسعى الى مدينة ما بسبب وجود معلم ما بها •

وفي رسالتي للدكتوراه قمت بتحليل كتابين هما المعجم لابن الأبار ، حيث استخرجت طلبة كل مدينة ممن رحلوا الى مدينة مرسية للتعلم على الشيخ أبى على الصدفى وكتاب فهرسة ابن خير حيث استخرجت الأساتذة الذين رحل اليهم ابن خير في مدنهم لتلقى العلم عنهم •

وقد قصدت من تحليل الكتابين ، أن أبين حركة الطالب ، أو الطلاب الى أستاذ معين في مدينة ما ، أو الى أكثر من أستاذ في أكثر من مدينة ، ولقد رأيت حذف هذين المحققين حتى لا أزيد صفحات الكتاب — ويمكن للمتخصصين العودة الى المصدرين — أو رؤية أصل الرسالة •

## الاجازات العلمية :

عند انتهاء الطالب من دراسة كتاب ما مع أستاذ معين ، فإن الأستاذ كان يقوم بمنحه اجازة ، تشهد للطالب فعلا بدراسة الكتاب .

والاجازة نوعان ، شفوية وتحريرية ، والأولى أقدم عهدا من الثانية ، وأول من منحها هو أبو هريرة الى بشير بن مهتك ، حيث قال : كتبت عن أبي هريرة كتابا ، فلما أردت أن أفارقه قلت : يا أبا هريرة ، انى كتبت عنك كتابا ، فأرويه عنك ، قال : نعم اروه عنى (١٧) .

أما الاجازة التحريرية ، ففيها قد بين الشيخ بالتحديد ما يجيزه للطالب أو أن يجيزه باطلاق ، وهنا قد يحدد الأستاذ تاريخ موثده ومكانه وأسماء شيوخه ، وما يجب أن يروى عنه بصفة عامة .

وهناك أيضا اجازات سماع جماعية ، تعطى لمجموعة من الدارسين عند سماعهم كتابا معينا . ويقول الدكتور صلاح المنجد عن هذا النوع من الاجازات « بأنه فى الحقيقة ، صورة من الصور التى عرفها العلماء القدامى عن الشهادات العلمية التى تمنح اليوم ، والفرق بين السماعات والشهادات أن الأولى شهادات فردية تثبت عند سماع كتاب واحد وأن الثانية تمنح لمجموعة من الدارسين » (١٨) .

والاجازة فى أصلها ضمان بعلم الطالب ، وقدرته على نقل هذا العلم ، ولقد بدأت مع علم الحديث ، وهو العلم الذى تشدد عليه المسلمون كثيرا بسبب ما ناله من تحريف ودس وتزييف ، ولذلك وضعت له من القواعد الشديدة أكثر من غيره من العلوم للتأكد من صحة الحديث ، ومن هنا كانت الاجازة للدلالة على صحة نقل الناقل من المنقول عنه ، ثم انتقلت بعد ذلك الى باقى العلوم الأخرى .

(١٧) عبد الله فياض : الاجازات العلمية عند المسلمين ، ص ٢١ .

(١٨) المنجد : اجازات السماع فى المخطوطات ، ص ٢٣٢ .

ولقد وافق مالك بن أنس على منح هذه الاجازات ، دون أن يتركها للهوى ، أو غيره من الميول الشخصية ، وانما انطلاقا من اعتبارات محددة ، أهمها :

- ١ - أن يكون المدرس صحيح العقيدة ، بين العلم .
- ٢ - أن تكون النسخة المقرؤة قد روجعت بدقة شديدة على نسخة الأستاذ حتى تصبح صورة منها .
- ٣ - أن يكون الطالب عاكفا على طلب العلم (١٠٩) .

ولكن مع تطور الأيام فقدت الاجازة هذا المضمون الهام ، أقصد بذلك كونها ضمانا لمعرفة الطالب لما نقله عن أستاذه ، وأصبحت مجرد شهادة باللقاء أو السماع ، دون أن تعنى انطلاقا مدى تعمق حامل الشهادة أو معرفته ، بما حدد له في الشهادة ، حتى لقد ظهرت بعض الاجازات العامة ، التي تبيح « لمن أحب الرواية عنى من جميع المسلمين من أهل السنة ، ممن هو موجود في هذه السنة » (١١٠) ، فان محمد بن عبد الرحمن ، المعروف بابن الوزان ، صاحب الصلاة بجامع قرطبة ، قد سأله أحد أصحابه : أن يجيز له جميع ما يحمله بأى وجه حمل ذلك ، وما ألفه أو وضعه أو أجاب فيه في القديم والحديث ، ولجميع أصحابه أهل المجلس وغيرهم من طلاب العلم ، ولكل من أحب أن يحمل عنه من المسلمين ممن ضمه وایاه حياة في ذلك العلم ، فتبسم الشيخ واستغرب هذا السؤال ، ثم قال له منشرح الصدر ، طلق الوجه ، ظاهر التبسم ، نعم ، أنا قد أجزت لك ذلك كله ، ولجميع من سألت ، ممن أحب الحمل عنى من جميع المسلمين حيث كانوا (١١١) .

---

(109) Ribera, J. : Ho. de la ensenanza..... p. 89.

(١١٠) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٥٦ .

ابن خير : النهرسة ، ص ٥٥ .

(١١١) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

ولقد أصبحت الاجازة شيئا شرفيا ، غالواذ يسعى لى يحصل  
لأبنائه على اجازات من كبار الشيوخ الذين يلتقى بهم فى بلده  
أو فى خلال أسفاره ، كما سنتبين من المخطوط المسور كملحق لهذا  
الفصل ، والسلطان لا يمانع فى الحصول على الاجازة من كبار  
العلماء ، مثلما حدث مع سلطان مصر ، المظفر غازى ، الذى أرسل  
له ابن عربى المرسى اجازته (١١٢) .

وهى أيضا وسيلة للمهاداة وللتقدير ، والاعتراف بعلم  
الآخرين ، ومن هنا منح كثير من العلماء والفقهاء اجازاتهم  
لزملائهم وأقرانهم من كبار العلماء والفقهاء فنجد مثلا أن  
ابن الخطيب حينما يلتقى بابن صفوان يطلب منه اجازته ، فكتبها له .  
ونجد نص الاجازة فى الاحاطة (١١٣) .

ويكتب ابن الأحمر الى النقيه أبى القاسم عبد الله بن يوسف  
يسأله الاجازة فيمنحه اياها (١١٤) .

كذلك طلبت الاجازة بالمراسلة من كبار العلماء حيث يقوم  
راغبو الحصول على الاجازة بالكتابة اليهم ، يسألونهم منحهم اياها .  
يقول ابن الفرضى عند حديثه عن يوسف بن يحيى يوسف الأزدي :  
المتوفى ٢٨٨ هـ / ٩٠٠ م ، بأن أحد أصحابه قد رآه ، وقد جاءته  
كتب كثيرة نحو الماية كتاب من جماعة من أهل مصر بعضهم يسأله  
الاجازة ، وبعضهم يسأله فى كتاب الرجوع اليهم (١١٥) .

وأكثر الأمور غرابة فى مجال الاجازة هو أن يقوم بعض الفقهاء  
أو العلماء ، أثناء قيامهم بالرحلة بالحصول على اجازات لأصدقائهم

(١١٢) ابن عربى : اجازة ابن عربى للملك المظفر غازى ، الاندلس ،  
العدد ٢٠ ( ١٩٥٥ ) ، ص ١٠٧ - ١٢٨ .

(١١٣) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(١١٤) ابن الأحمر : مستودع العلامة ، ص ٥٣ ، ٥٤ .

(١١٥) ابن الفرضى : علماء الاندلس ، ج ٢ ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .



ومعارفهم وعائلاتهم من الأساتذة المشرقين ، هذا وتحتوى مكتبة الأوسكوريال على أغرب نموذج فى هذا المجال ، غفى المخطوطة رقم ١٩١٩ مكرر ، حزمة أوراق تحتوى على اجازات أسانذة من المشرق ، لمجموعة من الطلبة والفقهاء الأندلسيين والمخارية ، والجزء الأول منها قام بكتابتة محمد بن عمر بن محمد بن محمد بن ادريس بن رشيد الفهرى فى ١٤ رجب عام ٦٨٤ هـ / أكتوبر ١٢٨٥ م ، بفسطاط مصر ، ويتضمن الاجازة لحوالى مائة طالب وفقية علاوة على عائلة كاتب الاجازات ، وأولهم أبو عبد الله بن المهيم ، وآخرهم رحمة ، أخت ابن رشيد .

ويتجلى من قراءة المخطوط أن طالب الاجازة كان ينتقل من مكان الى مكان لى يحصل على اجازات المعلمين ، فنراه فى ١٤ رجب فى فسطاط القاهرة ، وفى ١٦ رجب بالقاهرة المعزية ، ولكن بعد شهر تقريبا يحصل على الاجازات ، من مشايخ القدس ، وذلك فى ٢٥ شعبان من نفس العام .

ويتضمن الجزء الثانى من المخطوط أسماء بعض الطلبة المشرقين ، والثالث أجفده الشيخ أبو عبد الله بن رشيد ، وهو يتناول طلبة من الأندلس وشمال أفريقيا .

وفى المخطوط يحدد بعض العلماء تاريخ ومكان ميلادهم والعلوم التى يجيزونها ، وبعضهم يحدد الاسم الأول والآخر من أسماء القائمة التى يجيزها .

وتتجلى فى المخطوط أيضا أسماء بعض السيدات العالمات اللاتى يمنحن اجازتهن لنفس المجموعة .

وكلفة الاجازات تم الحصول عليها على مدار عام ٦٨٤ و ٦٨٥ هـ /

١٢٨٥ و ١٢٨٦ م .

تاريخ التعليم

ومن الأسماء البارزة التي يحتويها هذا المخطوط نجد  
ابن عبد الملك صاحب كتاب الذيل والتكملة ، وأبا حيان الأندلسي ،  
وغيرهما .

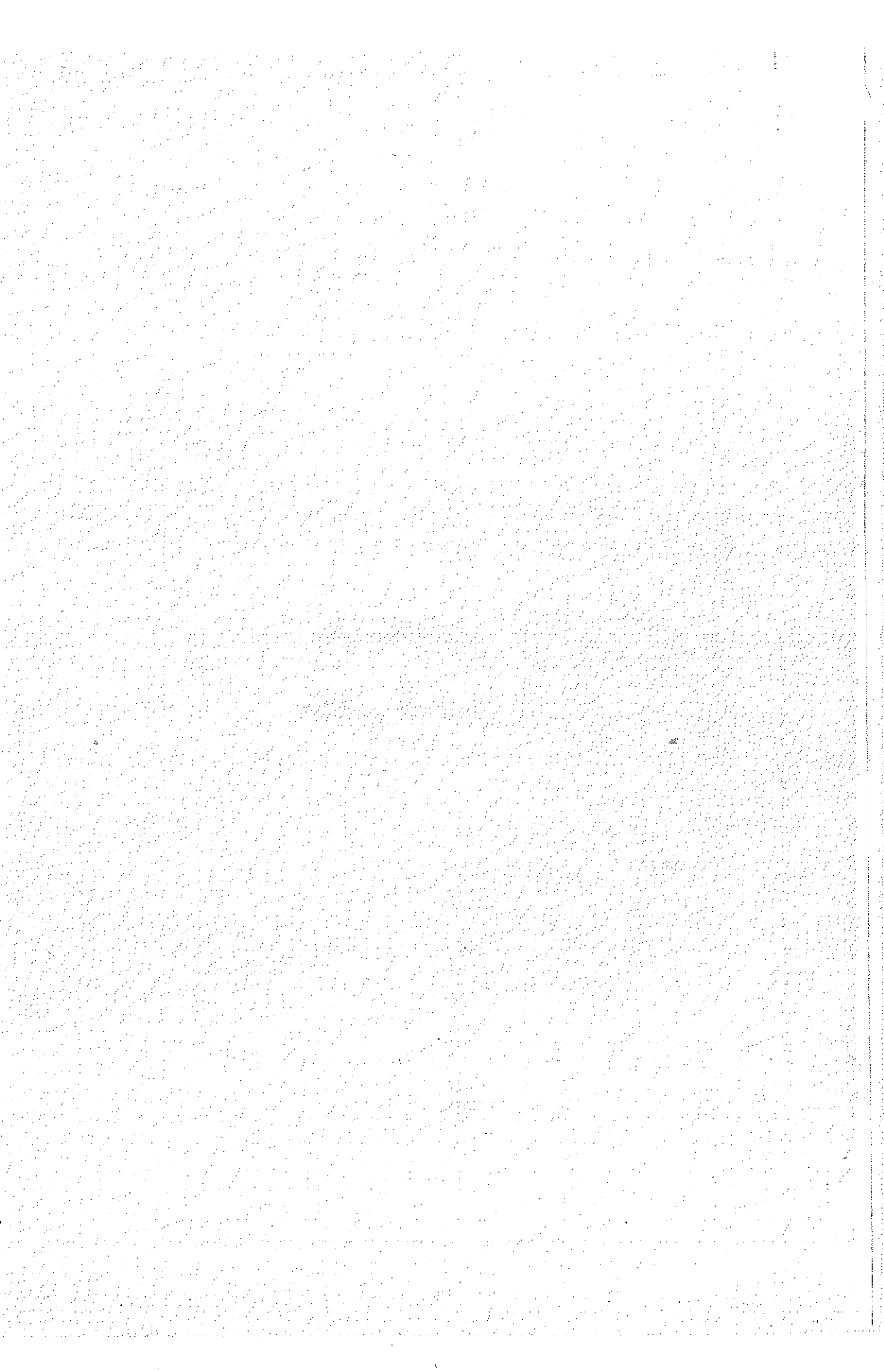
وللمخطوط أهمية كبرى حيث يمكنه تقديم المساعدة للدراسين  
في تقصي مسار بعض العلماء الأندلسيين والمغاربة إلى المشرق أو نوع  
دراساتهم ، وسأكتفى هنا بنشر صورة زنكوغرافية للصفحة الأولى .  
آملنا العودة إن شاء الله إلى تحقيقه ودراسته ونشره إن أمكن  
ذلك (١١٦) .

---

(١١٦) قمت بنشر قراءة للمخطوط ضمن نص رسالتي الأصلية سواء  
باللغتين العربية أو الأسبانية وقد رأيت أن أحذنه هنا خوفا من انتقال  
الكتاب أكثر مما يجب . ويمكن للمتخصصين رؤيته في نص الرسالة الودعة  
بالمعهد المصري بمدريد والمعهد الأسباني ومكتبة جامعة غرناطة ومدريد  
ومكتبة كلية التربية بالقاهرة .

## الباب الثالث

### التعليم الخاص



### مقدمة :

يقصد بالتعليم الخاص ، ذلك النوع من التعليم الذي يتلقاه أبناء الأمراء والخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة والأغنياء ، وبصفة عامة قيام الآباء باستئجار المعلمين لكي يتولوا تعليم أبنائهم . ويتحدد بالتعليم الخاص أيضا ذلك النوع من التعليم الذي ليس تعليميا عاما مما يقدم لأبناء الشعب ، وإن كان لا يختلف عنه كثيرا من ناحية المحتوى ، ولكن قد يتميز في بعض جوانبه مثل سن البداية ، أو مكان تلقي العلم ، أو في بعض مناحي المنهج بغرض الاعداد لمستقبل معين ، ولقد احتفظت لنا كتب التراجم الأندلسية بمجموعة وافية من أسماء الرجال الذين سعوا الى تأديب أولاد حكام الأندلس وكبار رجالهم . وعرف هؤلاء المعلمون في أغلب الأحيان باسم المؤدبين ، وإن كان ذلك لا يعنى بالضرورة قصور هذا اللقب عليهم ، لأننا نجد أن اللقب « مؤدب » انما ينسحب أيضا على كثير من المعلمين العاديين ، بل ان اللقبين « مؤدب » و « معلم » ، قد تبادلا المواضع في بعض الأحيان .

وكلمة الأدب قد تكون خلقت أو رواية والقائم بها يسمى المؤدب ، والمعلم هو أصل كل خير ، ويرى الجاحظ انما اشتق اسم المعلم من العلم ، واسم المؤدب من الأدب ، وأن العلم هو الأصل والأدب هو الفرع (١) .

ولقد اعتاد الباحثون اطلاق لقب المؤدب على من يتولى تعليم الخواص ، واسم المعلم على من يقوم بالتعليم في الكتاب بصفة عامة . لكن دراسة كتب التراجم الأندلسية توحى بأن كلمة مؤدب في الأندلس قد اتسعت لتشمل أناسا من غير الذين تولوا التدريس للخاصة ، بل أنها وصلت الى حد اطلاقها على معلم كتاب ، فقليل عن أحمد

(١) النجار ، ابراهيم : الفكر التربوى عند العرب ، ص ١٢٧ .

ابن شاب ابن عيسى المتوفى ٣١٧هـ / ٩٢٩م ، من أهل قرطبة ، « كان مؤدب كتاب » (٢) .

محمد بن أحمد الشاذلي المتوفى ٣٠٥هـ / ٩١٧م المؤدب ، سكن قرطبة وكان معتنيا بالعلم (٣) .

عبد الله بن نصر الصوفي المتوفى ٣١٥هـ / ٩٢٧م كان مؤدبا في مسجد أبي علافة (٤) .

عيسى بن سعيد بن سعدان الكلبى المتوفى ٣٩٠هـ / ٩٩٩م من أهل قرطبة قرأ القرآن بمصر ، وانصرف الى الأندلس ، فليزم التأديب ، وكان يقرأ عليه القرآن (٥) .

محمد بن خليفة بن عبد الجبار المتوفى ٣٩٢هـ / ١٠٠١م ، المؤدب من أهل قرطبة ، رحل الى مكة ثم انصرف الى الأندلس فليزم التأديب (٦) .

محمد بن أحمد بن محمد بن طالب بن أيمن بن مدرك المتوفى ٣٩٢هـ / ٩٧٣م ، المؤدب ، من أهل قرطبة ، كان رجلا صالحا خيرا ، وكان مؤدبا سمع منه الناس كثيرا (٧) .

محمد بن عبد الله بن محمد البهراني المتوفى ٣٨٥هـ / ٩٩٥م ، المؤدب ، من أهل قرطبة ، وكان معلم هجاء (٨) .

(٢) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٣١ .

(٣) ابن الفرضي : نفس المصدر - ج ٢ ، ص ٢٨ .

(٤) ابن الفرضي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٢٣ .

(٥) ابن الفرضي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٦) ابن الفرضي : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .

(٧) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٧٢ .

الضبي : البقية ، ص ٤١ - ٤٢ .

(٨) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٩٨ .

عبد العزيز بن مهلب بن معل ، المؤدب ، من أهل قرطبة (٩) .

ومن ناحية أخرى فأننا نجد أن كلمة « معلم » قد شاعت كثيرا في الألقاب الأندلسية ، وأنها انسجبت على كثير من طبقات المعلمين حتى أننا نجد لها تطلق أحيانا على مؤدبي الأمراء . يقول ابن الخطيب عند حديثه عن الأمير اسماعيل بن يوسف بن اسماعيل ابن فرج بن نصر ، سلطان غرناطة ، والذي حكم من ٧٦٠ الى ٨٧٦ / ١٣٥٩ الى ١٣٦٠ م ، أنه :

« استدعى له ولأخيه ، المعلم الذي كان السبب في اغاتة ارماقهما ، واعداد حياتهما ، الشيخ السفلة ، محمد البطروجي البائس » (١٠) .  
ويقول ابن حيان ، ان الأمير الحكم قد عهد بعقد استثمار الفقيه أحمد بن يوسف « معلم الأمير أبي الوليد هشام » (١١) .

---

(٩) ابن الفرضي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

(١٠) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ، ص ٣٩٨ .

(١١) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق د. عبد الرحمن الحجى ،





## الفصل السابع

### مظاهر الاهتمام بتعليم الخاصة

أولى الأندلسيون تربية أولادهم عناية كبيرة ، وإذا كان ذلك الاهتمام قد تجلّى لدى كافة الأندلسيين (١) ، فمن الأولى أن يكون لخاصتهم ولأهل الوجاهة منهم نصب السبق في هذا المجال ، كما أن كتب التراجم والتاريخ الأندلسيين قد اهتموا بتسجيل تراجم المعلمين والمؤدبين ، ولذلك خاضنا نملك بين أيدينا سلسلة من أخبار هؤلاء تمتد تقريبا من بداية الدولة الأموية في الأندلس حتى سقوط الدولة النصرية في عام ٥٨٩٧ / ١٤٩٣ م .

ومن دراسة هذه التراجم يمكن استخلاص الحقائق التالية :

٦ أولا : اهتمام خاصة الأندلس بتعليم أبنائهم :

وقد تجلّى هذا الاهتمام في عدة مظاهر ، يمكن تلخيصها فيما يلي :

#### (١) اختيار المؤدب علميا وخلقا :

نفقد حرص الآباء على أن يكون مؤدبو أولادهم من أعلى الرجال درجة في العلم ، ومن المتهود لهم بذلك ، فمؤدب الحكم بن هشام ( ١٨٠ - ٥٢٠٦ / ٧٩٦ - ٨٢٢ م ) ، سوار بن طارق ، قد لقي الأصمعي ونظراءه (٢) ، وجودى بن عثمان النحوى العبسى (توفي ١٩٨ هـ / ٨١٣ م) ، لقي الكسائي ، والفراء ، وأبا جعفر الروائى وغيرهم ، وهو أول من أدخل الأندلس كتاب الكسائي ، وله تأليف في النحو يدعى منبه الحجارة (٣) .

(١) انظر عبارة القري الواردة في النسخ ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

(٢) المتري : النسخ ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ .

(٣) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٨ ( الترجمة رقم ٦ ) .

أرسلان : الطلل السندية - ج ٢ ، ص ٣٣ .

وأبو محمد عبد الله بن بكر الكلاعي ، كان مؤدبا بالنحو ، عالما باللسان مبرزاً في الشعر ، أدبياً بليغاً ، أدب أولاد الأمير عبد الرحمن ابن الحكم (٤) .

ومحمد بن أرقم السبائي ، من أهل قرطبة ، كان ممن ينصر العربية والحباب ، ويتفنن فيه ، أدب القاسم وأصبح وعثمان ، أولاد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٥) .

وأبيوب بن منصور بن عبد الملك الأنصاري ، من أهل قرطبة ، كان عالماً بالاعراب ، موصوفاً بالعدالة أدب بعض أولاد الخلافة ، قال لي سليمان بن أيوب : كان الأمير عبد الله ( ٢٧٥ - ٣٠٠هـ / ٨٨٨ - ٩١٢ م ) ، « يسميه بالفقيه » (٦) .

أما قاسم بن أصبغ (متوفى ٣٤٠هـ / ٩٥١م) ، فقد « انصرف إلى قرطبة بعلم كثير ، وسكن قرطبة ، فكان له بها قدر عظيم ، وسمع منه الناصر لدين الله أمير المؤمنين قبل ولايته ، وولى عهده الحكم » (٧) .

ومحمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي ( المتوفى ٣٥٨هـ / ٩٦٨م ) ، « كان الغالب عليه العربية ، وكان فقيهاً اماماً موثقاً ، أخذ كتاب سيويه رواية عن ابن النحاس ، وكان جيد النظر ، دقيق الاستنباط حاذقاً بالقياس ، نظر الناس عنده في الاعراب ، وأدب أولاد الملوك ، واستأذبه أمير المؤمنين الناصر لابنه المغيرة » (٨) .

(٤) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ص ٨٤ .

ابن سميذ : المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ، ص ١١٣ .

(٥) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ج ١ ، ص ٩٢ .

(٦) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٨٧ .

(٧) ابن الفرضي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٣٦٤ .

اليحصي : ترتيب المدارك ، ج ٥ ، ص ١٨٠ .

حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين العرب ، ص ٣١ .

(٨) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٦٩ .

السيوطي : بنية الوعاة ، ص ١١٣ .

محمد بن اسماعيل النحوي المعروف بالحكيم القرطبي ( المتوفى ٥٣١ هـ / ٩٤٢ م ) ، كان الغاية في علم العربية والحساب والمنطق ، دقيق النظر ، لطيف الاستخراج ولم يكن أحد من أهل زمانه يتقدمه في علمه ونظيره ، وقال ابن الفرضي : كان عالماً بالنحو والحساب دقيق النظر ، مثيراً للمعاني ، مولداً للأبحاث (٩) .

حسين بن وليد بن نصر ( توفي ٣٩٠ هـ / ٩٩٩ م ) ، من أهل قرطبة ، كان نحوياً عالماً بالعربية ، متقدماً فيها ، أخذ بقرطبة عن ابن القوطية وغيره ، ثم رحل إلى المشرق ، ثم انصرف إلى الأندلس فاستأدبه المنصور لبيته ، وقربه من صحبتته ، وكان شاعراً كثير المدح ، له حظ من علم الكلام ، إلى أدبه (١٠) .

عبد الله بن سليمان بن دارود بن عبد الرحمن ( ٥٤٨ - ٦١٢ هـ / ١١٥٣ - ١٢١٥ هـ ) ، كان فقيهاً جليلاً متفنناً في العلوم ، واللوك الموحدين به اعتناء عظيم (١١) .

عبد الله بن محمد الشراط ( توفي بعد سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م ) ، من أهل مالقة ، يتقن على الأدب ، والعربية ، وله تقدم في الحساب ، والبرهان على مسائله (١٢) .

ولقد حرص الآباء على أن يتحلى معلموا أولادهم ببطقة عالية من التدين والأخلاق القويمية ، لأن ذلك كان يترتب عليه نتائج سيئة في مستقبل هؤلاء الأبناء ، سواء العملية أو الخلقية ، ومن هنا يمكن لنا أن نتبين لماذا تقرر كتب التراجم دائماً بين العلم والأخلاق عند حديثها عن هؤلاء المؤدبين - فجابري بن غيث ( المتوفى ٢٩٩ هـ - ٩١١ م ) ،

(٩) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

السيوطي : بغية الوعاة ، ص ٢٢ .

(١٠) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١١٤ .

(١١) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٤١٦ ، ٤١٧ .

(١٢) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٤٤١ .

مؤدب ولد الوزير هاشم بن عبد العزيز كان مشهورا. بالفضل  
متدينا (١٣) \* وأيوب بن منصور كان موصوفا بالعدالة (١٤) \* وعثمان  
ابن نصر بن عبد الله (٣٣٥ هـ - ٩٣٦ م) كان ذا سمت وعدالة (١٥) \*  
أما عن محمد بن أحمد بن أبي العافية الأيادي (٤٨٣ هـ - ١٠٩٠ م)  
فلقد كان رجلا فاضلا من أهل العلم والصلاح (١٦) \*

وكما قلت فإن أهمية حرص الآباء على اختيار مؤدبي أولادهم  
ممن يتمتعون بالعلم العالي وبالأخلاق الحميدة تكمن في أن هؤلاء  
يتركون تأثيرا قويا على طلبتهم سواء من النواحي الخلقية أو العلمية ،  
فالمؤدب هنا ليس مسئولا عن تلقين الأولاد علمه ، أو تحفيظهم الأدب  
أو الشعر ، أو تعليمهم قواعد اللغة وغريبيها فحسب ، لكنه قبل ذلك  
وبعده مثال يتطلع اليه الأولاد في تصرفاتهم ، ونموذج يحتذى  
في كلماته وأفعاله ، فمحمد بن هشام المرواني حينما دخل على الخليفة  
الناصر ليذكره استحسنه ، وأمره بالترام بنيه ليؤدبهم بحسن أدبه ،  
فيتخلقوا بخاتمه (١٧) \*

أما أبو مروان بن حبيب السلمي ( المتوفى ٢٣٨ هـ - ٨٥٢ م )  
فقد كتب الى معلم ولده رسالة يقول فيها : «بسم الله ، أما بعد ، فلنكن  
أول ما تؤدب نفسك ، فإن عيني متعلقة بك وأعينهم متعلقة بك ، فالحسن  
عندهم ما استحسنته ، والقبيح عندهم ما استقبحته ، وعلمهم كتاب  
الله ولا تكرههم عليه فيملوه ، ولا تخرجهم من غن الى غن حتى  
يحكموه ، فإن ازدحام العلوم مقللة للخيوم وعلمهم من الشعر أعفه  
ومن الحديث أشرفه ، وكن لهم كالطبيب الذي لا يضع الدواء

(١٣) ابن الفرضي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٠٢ .

(١٤) ابن الفرضي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٨٧ .

(١٥) ابن الفرضي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٣٠٥ .

(١٦) المراكشي : الذيل والتكملة - السفر الخامس - التسم

الاول ، ص ٥٨٦ .

(١٧) المقرئ : فتح الطبيب ، ج ٥ ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

الا في موضع الداء ، وهددهم دونى يزدادوا بذلك صلاحا ، والسلام » (١٨) .

ولقد ترك بعض المؤدبين تأثيرا سيئا على طلبتهم ، قد يصل بهم الى التمرد على الآباء ، ويتسبب في مأساة عائلية ، مثلما حدث مع معلم الأمير اسماعيل بن يوسف بن اسماعيل بن فرج بن نصر ، سلطان غرناطة الذى حكم من ٧٦٠ / ٧٦١ هـ - ١٣٥٩ / ١٣٦٠ م (١٩) .

ومن قبل ذلك هناك حادث مشابه قد وقع في أسرة بنى عباد حكام أشييلية (٢٠) .

ولهذا ما أن يكتشف الآباء ثغرة في أخلاق معلمى أولادهم حتى يعملوا على تلافيها ، ومنهم من الدراسة عليهم ، ويحكى أن أبا بكر محمد بن عبد الله بن ميمون العبدري القرطبي المتوفى ٥٦٧ هـ - ١١٨٠ م ، كان يحضر مجلس عبد المؤمن بن على ، الخليفة الموحدى ، مع مجموعة من العلماء ، ويبدى ما عنده من المعارف ، معظما موقرا ، الى أن أنشد يوما في المجلس أبياتا ثلاثة قالها تغزلا في شاب من أهل أغمات ، فكان ذلك سببا لأن هجره عبد المؤمن ومنعه من الحضور في مجلسه بل وصرف بنييه عن القراءة عليه (٢١) .

(١٨) المبرأوى ، أحمد بن أبى جمعة : جامع جوامع الاختصار والبيان ، ص ٣٩ .

أعراب ، سعيد : دور المخاربة في تربية الطفل ، ص ٣٨ .

وهذه النصيحة أوردتها الجاحظ في كتاب « البيان والبيان » ج ٢ ، ص ٥٣ ، من كلام عتبة بن نافع بن أبى سفيان لمؤدب ولده . ( انظر التربية الاسلامية للدكتور الأهوانى ، ص ٢٠١ ، والفكر التربوى عند العرب ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ . وكذلك اقتبسها الفزالى ضمن حديثه عن آداب الصبيان ( الفزالى : الأدب في الدين ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ ) .

(١٩) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ٣٩٨ .

(٢٠) ابن بسام : الذخيرة ، ج ٢ ، ص ٦٢٤ ، طبعة بيروت .

(٢١) السيوطى : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ١٤٧ .

المنونى : العلوم والآداب على عهد الموحدين ، ص ٤٠ .

تاريخ التعليم

(ب) الاهتمام براحة المعلمين وكرامتهم :

ينقل الدكتور أحمد فؤاد الأهواني عن الجاحظ قوله : ان المعلمين على ضربين : رجال ارتفعوا عن تعليم العامة الى أولاد الخاصة ، ورجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة الى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة (٣٣) \* وفي الأندلس حظى هؤلاء المعلمون وبالذات من وصل منهم الى تعليم أولاد الخلفاء بمكانة اجتماعية عالية جدا ، يقول ابن الخطيب عن محمد بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن عبد الله الخولاني ، من أهل غرناطة ، المولود عام ٧١٨ هـ - ١٣١٨ م ، بعد أن ذكر علومه وفنائه وكتبه ومشيخته : انه ترقى الى هذا العهد باشارتي الى التي لا فوقها من تعليم ولد السلطان ، والرياسة القرآنية بباب الامارة ، والامامة بالمسجد الجامع من القلعة (٣٣) \*

ويقول ابن وضاح ، انه لما قدم الثمر بن نجد الى الأندلس في أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن ( حكم من ١٧٢ الى ١٨٠ هـ - ٧٨٨ - ٧٩٦ م ) ضمه الى تأديب ولده ، وأنزله بالدار المعروفة بشبلار بدار ابن الثمر (٣٤) \*

حسين بن وليد بن نصر ، المعروف بابن العريف ( توفي ٣٩٠ هـ - ٩٩٩ م ) ، كان قويا عالما بالعربية ، متقدما فيها شأ بقرطبة ، ورحل الى المشرق ثم انصرف الى الأندلس ، فاستأدبه المنصور لبيته وقربه من صحبتة (٣٥) \*

أما الحكم المستنصر فلقد ضرب في الاهتمام بمعلمي ابنه بباع عريض ، فكان قيام أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي ( توفي

---

(٢٢) الأهواني : التربية الاسلامية ، ص ٢٠٢ ، وانظر أيضا تاريخ الفكر التربوي عند العرب ، ص ١٠٧ .

(٢٣) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

(٢٤) ابن الفري : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٩٩ .

(٢٥) ابن الفري : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١١٤ .

٣٧٩ - ٩٨٩ م ) بتعليم الأمير هشام الثانى سببا فى أن ينال أبو بكر هذا دنيا عريضة ، فقد تولى قضاء أشبيلية وخطة الشرطة ، وحصل له نعمة ضخمة لبسها بنوه من بعده زمنا طويلا (٢٦) .

سعيد بن الناكورى المتوفى ٣٩٣ هـ - ١٠٠١ م ، كان من أهل المعرفة والفهم استأدبه المنصور بن أبى عامر لولده ، وولاه الصلاة والخطبة بجامع الزاهرة (٢٧) .

وعبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن الأنصارى ( ٥٤٨ - ٦١٢ هـ / ١١٥٣ - ١٢١٥ م ) ، كان للملك الموحدين به اعتناء عظيم ، وقد كان أستاذ الناصر واخوته ، وكان له عند المنصور والدمم بذلك أكرم أثره (٢٨) .

عبد المولى بن أحمد بن محمد الأصبحى ( توفى ٦٧٥ هـ - ١٢٧٦ ) ، كان فقيها فاضلا اماما فى النحو حتى كان يسمى «سيبويه» زمانه . وكان معلما لادريس الحيوصى ، فلما صار الملك اليه استوزره ، وكان يتبرك برأيه ، ولا يكاد يفعل أمرا دونه (٢٩) .

#### (ج) الاحتفال ببدايات جلوس ابنائهم الى العلم ومتابعة تعليمهم :

يحكى المستعرب الأسباني خوسيه أنطونيو كوندى ، عند حديثه عن عثمان وايمان ، ابني الأمير عبد الرحمن الحكم ، أنهما كانا يتميزان بالأدب والفصاحة ، علاوة على ذكائهما الطبيعى ، لأن الأمير قد عهد بتربيتهما الى والى « سيدوفيا » ، محمد بن سعيد الغمرى ، الذى اجتهد فى تعليمهما وأنهما استفادا كثيرا من المناقشات التى كانا

- 
- (٢٦) ابن خلكان : وفیات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٧ ، ٨ .  
( ترجمات الزبيدى كثيرة جدا فى كافة كتب التراجم والأدب الاندلسية وسبق الإشارة الى بعضها ) .  
(٢٧) المراكشى : الذيل والتكملة ، ج ٤ ، ص ٤٦ .  
(٢٨) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ١١٦ ، ١١٧ .  
(٢٩) السيوطى : بقیة الوعاة ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

يحضرانها مع رجال العلم آنذاك ، وأن الأمير في كثير من الأحيان ، كان يسعد بالاستماع إليهما ، واختيار انتاجهما الأدبي (٣٠) .

لكن المثل الأكبر في هذا المجال نجده عند الحكم المستنصر بالله ، وربما كان السبب في ذلك يرجع الى شدة الشغف الذي كان يكنه الخليفة لابنه ، باعتباره ابنه الوحيد وولي عهده ، وأنه قد رزقه على كبر . ولقد احتفظ لنا ابن حيان بوصف تفصيلي لاهتمام الحكم بالاحتفال بقيام معلم ما ببدء الدراسة مع الأمير هشام فيقول عند الحديث عن عام ٣٦١ هـ - ٩٧١ م :

« وفي عشي يوم الأحد ، أول أيامه ( أول أيام شهر رمضان ) ، أوصل الخليفة الى نفسه الفقيه أحمد بن محمد بن يوسف الملقب بالقسطلي (٣١) ، فأمره بالتأهب لتعليم ولده الأمير أبي الوليد هشام . وأحسن وصاته به ، ورسم له في تعليمه وتدريبه رسوما أفاده عليها ولم يعد عنها ، نفع الله الولد بها ، وكان قد أمر بتطرية الدار المروفة بدار الملك بقصر الزعراء ، وتنجيدها ، وإقامة كل ما يحتاج الى اتقائه ، وإعداده بها ، وفي الطريق إليها ، وفتح باب غربى في فصل الثنيان بها ، يقرب عليه الخروج منها الى هذه الدار ، فيكون قعوده مع مؤدبه المذكور في المجلس الشرقي منها ، بأيمن طائر ، فتضى ذلك كله ، وأحكم شأنه ، فكان جلوس الأمير أبي الوليد مع معلمه في المجلس المذكور من الدار المحدودة يوم الخميس لخمس خلون من شهر رمضان ، واستخف الخليفة الحكم السرور بما هبأ الله من ذلك ، الى أن برز الى هذا المجلس نهاره هذا لتقع عينه

(٣٠) كيندى : خوسيه انطونيو : تاريخ الحكم العربى في اسبانيا :

ج ١ ، ص ٢٦٤ .

(٣١) أمير التلم أحمد بن محمد بن يوسف المافرى ( ٢١٠ - ٣٦٧ / ٩٢٢ - ٩٧٧ ) ، رحل الى الشرق سنة ٢٤٢ هـ / ٩٥٣ م ، وعاد ٢٤٥ هـ / ٩٥٦ م ، واستادبه المستنصر ٣٦١ هـ / ٩٧١ م ، وولى أحكام الشرطة ( المتيسر - طبعة الحجى ، ص ٧٦ ) .



على ابنه ، وشاهد صبره على الشقاء الذي لزمه ، فعاين من ركابة مجلسه واطلاقة وجهه ، واقباله على معلمه وسكون جائشه ما قرت به عينه ، وتجددت معه مسرته ، فبادر باخراج مال واسع الى صاحب الشرطة والسوق أحمد بن نصر بعينه ، ليقرقه على الضعفاء والمساكين وأبناء السبيل ، شكر الله تعالى على جليل منته عليه في قرة عينه وسلامة مجده ، وعهد بعقد استثمار الفقيه أحمد بن يوسف معلم الأمير أبي الوليد هشام ، بإجراء الرزق عليه : الرواتب والحملان والعلوفة ، وعهد بإقامة علوفة للأمير أبي الوليد ، محدودة العدد ، موصوفة الأطعمة ، تقدم اليه والى من معه من صبيان ، كل يوم بموضع حضاره ذلك ، وأمر بتقديم ذكاء ، الوصيف الكبير الخصى ، ناظرا للأمير أبي الوليد ، فيوما على جميع صبيانته متكفلا لشأنه » (٣٢) .

وفي موضع آخر تحت عنوان « ذكر ادناء الزبيدي النحوي » (٣٣) ، يواصل ابن حيان قائلا :

« وفي يوم الأحد ، للنصف الثاني من ذي القعدة منها ( يشير الى سنة ٣٦٢ هـ - ٩٧٣ م ) نفذ العهد الى محمد بن حسن الزبيدي ثم الأشبيلي النحوي بالترام مدينة الزهراء لمجالسة الأمير أبي الوليد هشام بن أمير المؤمنين ، ومفاتحته النظر في العربية ، وقد اعتمدت لنزوله منها الدار التي كان يسكنها صاحب الشرطة أحمد بن سعيد الجعفرى في حياة والده ، وأجريت الأرزاق الواسعة عليه ، واستقبل في هذا اليوم بصلة سنية ، وخلعة فاخرة ، جزاء على الذي تولاه من اختصاره لكتاب العين للخليل بن أحمد ، واقامته على الترتيب

(٣٢) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق الحجي ، ص ٧٦ ، ٧٧ .  
Garcia Gomez : Anales Palatinos del Califa de Cordoba  
AL-Hakam II, Por Isa ibn Ahmad Al-Razi, pp.  
98, 100.

(٣٣) سبقت الإشارة اليه ، وترجمته مذكورة في كافة كتب التراجم والأدب الأندلسي .

والتصنيف ، اللذين حددهما له أمير المؤمنين فيه ، فارتضى عمله فيه عند تصفحه له ، وأجزل صلته ، وأدنى مكانه وأوصله الى نفسه يومه هذا ، ففاوضه في عمله الذي برع فيه ، واستشار له من غوامض فنونه ، وناظره بين يديه يومئذ الوزير الكاتب الأديب جعفر بن عثمان في غرائب من هُنه في النحو واللغة والشعر ، فتباريا في الشأو وتسابحا في ميدان الاصابة ، غسر بها قلوب المعرغة وانتظم اتصال الزبيدي يومئذ بالخليفة الحكم ، وابنه الأمير هشام ، ونال حظوة « (٢٠) » .

وفي موضع آخر ، وتحت عنوان « ذكر أسماع الأمير أبي الوليد العلم والحديث » يتحدثنا ابن حيان قائلا :

« وفي يوم السبت لليلتين خلتا من شعبان منها ( يقصد بذلك سنة ٣١٤ هـ - ٩٧٤ م ) أمر الخليفة الحكم في الإرسال في طلب الشيخ الفقيه الراوية يحيى بن عبد الله بن يحيى بن يحيى بن يحيى الليثي (٢١) ، أرفع مسندى الحديث وقته ذلك بقرطبة ، لاجلاسـه عند الأمير أبي الوليد هشام ولده المرشح لولاية عهده ، ومشاهدته اياه للسمع منه والأخذ عنه لسمو درجته في العلم ، واعتلاء منزلته في الرواية إذ روايته عن عم أبيه أبي مروان عبيد الله بن يحيى عن أبيه عن يحيى بن يحيى عن مالك بن أنس رضى الله عنه ، فكان المرسل فيه من قبل الخليفة المستنصر بالله ، مؤدب الأمير أبي الوليد أحمد ابن يوسف المعروف بالقسطلى ، فأسرع الاستجابة وأقبل الى القصر ، مع ابن يوسف ، وتوصل الى الأمير أبي الوليد بمكان قعوده للحضار في الإدار المعروفة بدار الأولاد ، وكان بين يديه الوزير الكاتب صاحب المدينة بقرطبة جعفر بن عثمان ، فأعلم الفقيه يحيى عن أمر المؤمنين ، بحسن رأيه فيه ووعوع اختياره عليه لاسماع أعز الناس عليه ،

(٢٤) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق الحجى ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ .  
Sanchez Albornoz : Ho. de la Espana Musulmana 1423.

(٣٥) يحيى بن عبد الله : توفى ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، انظر ترجمته عند ابن الفرضى ، ج ٢ ، ص ١٩١ ، ١٩٢ .

مجتهدا في اغادته واعلاء درجته ، فشكر الشيخ وأثنى وأقعد ، فقرأ أحمد بن يوسف ، مؤدب الأمير مبتدئا بالجزء الأول من موطأ مالك ابن أنس في كتاب الفقيه يحيى بن عبد الله ، وهو كتاب الصلاة منه رواية يحيى بن يحيى ، وضبط الأمير أبو الوليد كتابه سامعا فيه ، ومقابلا بكتابه الذي لا يتضخ عنه ، كتاب لجده الخليفة الناصر لدين الله ، قرأه - رضی الله عنه - على عبيد الله بن يحيى بن يحيى في زمانه ورواه عنه عن أبيه عن مالك بن أنس ، وقرأه بعده ابنه الخليفة المستنصر بالله ، أيام طلبه على أحمد بن مطرف المعروف بابن المشاط ، حامله عن عبيد الله بن يحيى عن يحيى عن مالك ، فلما تم مجلس السماع وحان انقلاب الشيخ يحيى بن عبد الله ، نفذ عهد الخليفة بأن يكون ركوبه ونزوله في الفصيل ، بفصيل المسجد ، تشريفا وترفيها عنه فجري أمره على ذلك مدة اختلافه ، وعادوا الحضور يوم الأربعاء لأربع خلون من شعبان ، فأسمع الأمير على رسمه بمشاهدة الوزير الكاتب جعفر بن عثمان أثير الخليفة والده ، ونفذ العهد بأن يكون اختلاف الشيخ الفقيه الى الأمير أبي الوليد يومين في الأسبوع ، يوم السبت والخميس على الاطراد الى أن يكمل اسماعه الموطأ وجميع ما رواه من الدواوين عن عم أبيه أبي مروان عبيد الله بن يحيى وغيره من الشيوخ الذين لقبهم وأخذ عنهم ، ان أنسا الله مدته ، فجري الأمر على ذلك ، وأحرز الأمير به الفضيلة » (٣٦) .

وأبو بكر بن العربي ( ٤٦٨ - ٥٤٣ هـ / ١٠٧٦ - ١١٤٨ م ) يقول : « كنت يوما مع بعض المعلمين فجلس إلينا أبي رحمة الله عليه ، يطالع ما انتهى إليه علمي ، في لحظة سرقها من زمانه ، مع عظم اشتغاله » (٣٧) .

(٣٦) ابن حبان : المتنبس : تحقيق الحجى ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ .  
Garcia Gomez : Anales Palatinos de Califa de Cordoba  
Al-Hakam, II, pp. 256—258.

(٣٧) ابن العربي : قانون التاويل - وانظر أيضا : الفكر التربوى عند العرب ، ص ٢١٩ .

#### (د) المساهمة في وضع المنهج التعليمي لأبنائهم :

هذا ولقد سبق أن أشرت الى وصية عبد الملك بن حبيب ، لمعلم ولده<sup>(٣٨)</sup> ، كما أن الحكم المستنصر ، أحسن وصاة معلم ولده ، ورسم له في تعليمه وتدريبه رسوما أفاده عليها ولم يعد عنها<sup>(٣٩)</sup> . والأمير عبد المؤمن بن علي الموحدي الذي حكم من ٥٤٢ هـ الى ٥٥٨ هـ هجرية / ١١٣٠ - ١١٦٣ م وقف الحفاظ لحفظ « كتاب الموطأ » هو و « كتاب اعز ما يطلب » وغير ذلك من تواليف الموحدي<sup>(٤٠)</sup> . أما ابن الخطيب فانه لم ينس في رسالته في السياسة أن يركز على ما يجب نحو الأبناء فيقول :

« وأما الولد : فأحسن آدابهم ، واجعل الخير دأبهم ، وخفف عليهم من استغفارك وحنانك ، وأكثر من غلظة جنالك ، واكتم عنهم ميلك ، وأفض عليهم وجودك ونيلك ولا تستغرق بالكلف بهم يومك ولا ليلك ، وأنبهم على حسن الجواب ، وسبق اليهم خوف الجزاء على رجاء الثواب ، وعلمهم الصبر على الضرائر والمهلة عند استخفاف الجرائر وخذ لهم بحسن السرائر ، وحب اليهم مراس الأمور الصعبة المراس ، وحصن الأصـسطناع والاعتراس ، والاستكثار من أولى المراتب والعلوم ، والسياسات والعلوم ، والمقام العلوم ، وكبره اليهم مجالسة الملهين ، ومصاحبة الساهين ، وجاهد أهواءهم عن غفولهم ، وأحذر الكذب على مقولهم ، ورشحهم أن أنست منهم رشدا أو هديا ، وأرضعهم من المؤازرة والمشاورة تديا ، لتعزتهم على الاعتقاد ، وتحملهم على الازدياد ، ورضعهم رياضة الجياد ، واحذر عليهم الشهوات غهي داؤهم ، وأعداؤك في الحقيقة وأعداؤهم ،

(٣٨) ارجع الى تلك الوصية ص ٤٣٢ ، ٤٣٣ من الكتاب ، والتعليق عليها في الاشارة رقم (١٨) بياض ص ٤٣٣ .

(٣٩) ابن حيان : المتببس - تحقيق الحجي ، ص ٧٦ ، وترجمة سارثيا غومت بعنوان :

Anales Palatinos del Califa de Cordoba Al-Hakam II.  
par Isa ibn Abmad.

(٤٠) مجهول : الحلل الوشية ، ص ١٥٠ .

وتدارك الخلق الذميمة كلما نجمت ، واقدعها اذا هجمت ، قبل أن يظهر  
تضعيفها ، ويقوى ضعيفها فاذا أعجزتك في صغرهم الحيل ، عظم الميل \*  
أن الغصون اذا قومتها اعتدت  
ولن تلين اذا قومتها الخشب

واذا قدروا على التدبير ، وتشوفوا للمحل الكبير ، فلا توطنهم  
في مكانك ، جهد امكانك ، وخرقهم في بلدانك تفريق عيdanك ،  
واستعملهم في بعوث جهادك ، والنيابة عنك في سبيل اجتهادك ، فان  
حضرتك تشغلهم بالتحاسد والتبارى والتفاسد ، وانظر اليهم بأعين  
الثقات ، فان عين الثقة تبصر ما لا تبصر عين المحبة والمقة » (٤١) \*

#### ثانيا : اماكن التعليم الخاصة :

كان تعليم الخاصة يتم في أكثر من مكان حسب المكانة الاجتماعية  
والسن والجنس \*

( أ ) بالنسبة للمكانة الاجتماعية ، فانه اذا ما كان الطفل  
من أبناء الخلافة فان المعلم كان يذهب اليه في منزله ، وكان على  
الخليفة أو الأمير أن يعد لمؤدب ولده مكانا مناسبا يتولى فيه تعليمه ،  
ونستدل على ذلك من الملاحظات التالية :

أبو عبد الله عثمان بن المثنى القيسى ( توفي ٢٧٣ هـ - ٨٨٦ م )  
قد زاره بعض اخوانه في مكتبة قصر الخلافة وهو يعلم ولدا للأمير  
محمد ، جميل الصورة ، فقال له : « كيف حالك مع هذا الرشأ ؟ » (٤٢) \*

أما بالنسبة لعبد الرحمن الناصر فلقد وضع له جده الأمير  
عبد الله أشهر المعلمين ، وعنى عناية تامة بتربيته ، منذ فطامه الذي

(٤١) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٤ ، ص ٦٢٢ ، ٦٢٣ .

(٤٢) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

وإلى تلك الميمنة الشنيعة لوالده الأمير محمد (٤٣) .

عبد الله بن سليمان بن المنذر المكفوف من أهل قرطبة (٣٢٥ هـ - ٩٣٦ م) أستاذ به الناصر عبد الرحمن بن محمد لولده ، وقيل اختلف إلى أولاد الناصر ، وعلم داخل القصر (٤٤) .

ويحكى ابن عذارى ، عن جعفر بن عثمان ، الوزير المشهور ، أنه قد كتب في محتته الأخيرة إلى محمد بن أبى عامر المنصور يعرض نفسه عليه لتأديب ابنه عبد الله وعبد الملك فقال ابن أبى عامر :

« أراد أن يستجلىنى ، ويسقطنى عند الناس ، وقد عهدونى ببابه مؤملاً ، ثم يرونه اليوم بدهليزى معلماً » (٤٥) .

أبو محمد عبد الله بن يحيى الحضرمى ، المعروف بابن عبدون ( القرن السادس الهجرى - الثانى عشر الميلادى ) ، « كان الرئيس أبو الحجاج يوسف بن سعد هو الذى نقله من شاطبة إلى بلنسية ، واستأدبه لبنيه لما كان عليه من التصاون والعدالة ، وأباح له الاقراء ، فكان يعلمهم العربية بالقصر ، فاذا انفصل عنهم ، علم الناس أيضاً بمسجد رجة القاضى (٤٦) من بلنسية إلى أن توفى (٤٧) .

أما الحكم المستنصر ، فقد « أمر بتطرية الدار المعروفة بدار الملك بقصر الزهراء » ، وتنجيدها ، وإقامة كل ما يحتاج إلى إقامته وإعداده

---

(43) Conde J. A. : Ho. de la dominacion árabe, I, 365,366.

(٤٤) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ص ٤٣٦ .

(٤٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٤٠٠ .

Sanchez Albornoz : Ho. de Espana Musulmana I.

454 , 455. r

(٤٦) عبارة عن مكان متسع للاجتماعات الشعبية ، وكان خارج بلنسية ، انظر تفصيلات ذلك فى كتاب « الحياة العلمية فى بلنسية » لمجلى حسن ، ص ٧٥ .

(٤٧) ابن الأبار : المتعصب من تحفة القادم ، ص ٦٩ .

بها ، وفي الطريق اليها ، وفتح باب غربى خصيل الفتیان بها ليقترّب عليه الخروج منها الى هذه الدار - يقصد بذلك انصراف المعلم - فيكون قعوده مع مؤدبه المذكور في المجلس الشرقي منها » (٤٨) .

أما الشيخ يحيى بن عبد الله بن يحيى بن يحيى بن يحيى الليثي ، فقد توصل الى الأمير أبي الوليد يمكن قعوده للحضار في الدار المعروفة بدار الأولاد (٤٩) .

يقول أبو بكر بن أبي ليلي ، وكان كاتب أبي على الصدفي ( ٥١٤ هـ - ١١٢٠ م ) أنه كان يوما عند الصدفي اذ جاءه وزير ابن تاشفين ( يقصد وزير الأمير ابراهيم بن يوسف بن تاشفين الذي كان وليا على مرسية من قبل أخيه على بن يوسف تاشفين ، الأمير المرابطي الذي حكم من ٥٠٠ الى ٥٣٧ هـ الموافق ١١٠٧ - ١١٤٣ م ) ، فقال : « ان الأمين يريد أن يسمع عليك الحديث ، يعرض له بالمشي اليه ، فقال : لهذا جلست ، فكرر ذلك عليه ، فأجاب بمثله ، ثم رغب اليه ، بعد أن تكون له منه دولة في منزله ، فأسعفه على أن يصل اليه بعد الفراغ من اسماع أصحابه ، والقيام من مجلسه » (٥٠) .

وبالإضافة الى ذلك ، فان بعض أبناء الأمراء والخلفاء كانوا يخرجون الى حلقات المعلمين الكبار ، حيث نرى ابني الأمير عبد الرحمن ابن معاوية ، ابان وعثمان ، يحضران المحاضرات مع رجال العلم في ذلك الوقت (٥١) . ولقد أمر الأمير أيضا بأن يحضر هشام مع أخيه الأكبر سليمان المجلس العلمي للقاضي بالمسجد الجامع (٥٢) .

(٤٨) ابن حيان : المتقبي ( تحقيق الحجى ) ، ص ٧٦ .  
Garcia G. E., Anales Palatinos, p. 99.

(٤٩) ابن حيان : المتقبي ( تحقيق الحجى ) ، ص ٢١٦ .

(٥٠) ابن الأبار : المعجم ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

(51) Conde J. A. Ho. de la dominacion arabes, I. 269.

(52) Op. Cit., I. 200.

قاسم بن أصبغ بن محمد ( توفي ٣٤٠ هـ - ٩٥١ م ) رحل الى المشرق ، وانصرف الى الأندلس بعلم كثير ، وكتب كثيرة ، « وسمع منه كثيران هذه الكتب أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد - رضي الله عنه - قبل ولايته الخلافة ، ثم سمع منه ولي عهده الحكم واخوته » (٥٣) .

كما أن المستنصر - في حياة والده - قد سمع من سعيد بن جابر ابن موسى الكلاعي المتوفى ( ٣٣٥ هـ - ٨٣٩ م ) (٥٤) .  
وتردد أبو علي الصدفى في الذهاب الى بيت الأمير ، يعنى أنه رأى أن من الممكن ذهاب الأمير اليه .

(ب) أما اذا كان من أبناء رجال الدولة فانهم يتشابهون تقريبا ، من ناحية المكان ، مع أبناء الخلفاء والأمراء ، أى أن المؤدب يذهب اليهم في منازلهم ، ولكن نلاحظ من خلال دراسة التراجم التى بين أيدينا كثرة ترددهم على المعلمين في مجالسهم بالمساجد أو بالمنازل ، فالنسبة لاحتضار المعلمين الى المنزل فان أول خبر لدينا في تاريخ الأندلس ، هو قيام هاشم بن عبد العزيز ( وزير الأمير محمد الذى حكم من سنة ٣٣٨ - ٣٧٣ هـ / ٨٥٢ - ٨٨٦ م ) باحضار جابر بن غيث ، المتوفى ٢٩٩ هـ ( ٩١١ م ) الى قرطبة ، لكى يقوم بتأديب ولده (٥٥) .

أما زيد بن ربيع بن سليمان الحجرى ، فلقد كان أديبا جامعا ، حسن الضبط للغة والعناية بها ، واستأدبه الوزير أبو عثمان عبد الله بن محمد بن أبى عبيدة ، لولده جهور بن عبيد الله (٥٦) .

(٥٣) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٣٦٦ .

اليحصى : ترتيب المدارك ، ج ٥ ، ص ١٨٠ .

مؤنس : تاريخ الجغرافية ، ص ٣١ .

(٥٤) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٦٧ .

(٥٥) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٠٢ ، طبعة

مدريد ، ص ٩٠ .

السيوطى : بغية الوعاة ، ص ٢١٠ ، ٢١١ .

(٥٦) ابن حيان : التقبىس ( تحقيق أنطونيا ) ، ص ١٨ .



أما الوزير الكاتب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون وزير المتوكل على الله ، أمير بطليموس في عهد الطوائف ( ٤٦١ - ٤٨٧ هـ / ١٠٦٩ - ١٠٩٤ م ) ، فإنه يحكى أنه كان يوماً جالسا بين يدي مؤدبه الشيخ أبي الوليد بن ضابط النحوي المالتي (٥٧) .

ويتم احضار معلمى أبناء الخاصة الى منازلهم ، خاصة في الفترة الأولى من حياتهم ، ولكن عندما يتقدمون في السن ، فإنه من الممكن أن يحضر اليهم المعلم في المنزل ، أو قد يذهب الطلبة الى معلمهم في مساجدهم أو منازلهم أو أماكن تعليمهم ، كما أشرت في السطور الماضية الى المؤدبين الذين قاموا بتعليم أولاد كبار رجال الدولة في الأندلس ، ويؤكد ذلك لنا مقالة تركها لنا أبو بكر بن العربي ، حيث يؤكد أنه ( عند ريعان النشأة رتب لى أبى - رحمه الله - حتى حفظت القرآن في العام التاسع ، ثم قرن بى ثلاثة من المعلمين يتعاقبون على من صلاة الصبح الى صلاة العصر ثم ينصرفون عنى ، وأخذ في الراحة الى صبح اليوم الثانى فلا تتركنى نفسى فارغا من مطالعة أو مذاكرة أو تعليق فائدة ، وأنا بغرارة الشباب ) (٥٨) .

أما ذهاب هؤلاء الأولاد الى مجالس المعلمين فنؤكدده كثير من البيانات والملاحظات الدالة على ذلك ، أشير هنا الى بعضها فقط :

محمد بن خطاب أبو عبد الله النحوي الأزدي ( عاش في القرن الرابع الهجرى - المائى الميلادى ) كان من الأدباء المشهورين ، والنحاة المذكورين ، وكان يختلف اليه في علم العربية أولاد الأكابر وذوى الجلالة . وله مع ذلك شعر ماثور (٥٩) .

(٥٧) الأراكشى : المسجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .  
(٥٨) ابن العربى : العواصم من القواصم ، ص ١١ ، وانظر النص في كتاب الفكر التربوى عند العرب ، ص ٥١ - ٥٣ ، نقلا عن قانون التأويل .

(٥٩) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٥٠ .  
الضبى : بغية اللمس ، ص ٦٤ .

على بن جابر بن علي بن يحيى اللخمي الأشبيلي ( توفي ٦٤٦ هـ - ١٢٤٨ م ) ، يكنى أبا الحسن الدباج . عكف على اقراء القرآن ، وتدرّيس العربية والأدب ، نحواً من خمسين سنة ، لم يتعرض لسواه ولا عرج على غيره . . . .

وكانت لأبي الحسن الدباج - رحمه الله - أثناء اقراءه نوادر ، فقد كان يقرأ عنده صبي من أميان الجند ، كانت له شارة وقحمة ، فصاح ذات يوم يا أستاذ . . . كما أنه كان يلزم مجلسه بعض الطلبة والأعيان (١٠) .

أما ابن حيان ، مؤرخ الأندلس الكبير ، وابن وزير المنصور ابن أبي عامر ، فلقد درس وحده كتاب الفصوص على يد مؤلفه العالم اللغوي الشهير صاعد البغدادي ، على الرغم من أن مؤلف الكتاب قد أسمعه للناس في حلقات عامة - يقول ابن الفرضي عن ذلك :

وجمع أبو العلاء للمنصور محمد بن أبي عامر ، كتاباً سماه الفصوص في الآداب والأشعار والأخبار . . وأمره ( أي المنصور ) بأن يسمعه الناس بالمسجد الجامع بالزاهرة في عقب سنة ٣٨٥ هـ ( أوائل ٩٩٦ م ) ، واحتشد له جماعة من أهل الأدب ووجوه الناس أمة ، قال ابن حيان : وقرأته عليه منفرداً في داره سنة ٣٩٩ هـ ( ١٠٠٨ - ١٠٠٩ م ) (١١) .

أما بالنسبة للبنات من أبناء الخلفاء أو من أبناء الخاصة ، فإن تعليمهن كان يتم في المنازل ، ويتولى تعليمهن سيدات من أهل البلاط أو بعض المؤدبين المشهود لهم بالصلاح أو التقوى ، وفي بعض الحالات يقوم الآباء بذلك ، فالخليفة المنصور (الذي حكم سنة ٥٨٠ - ٥٩٥ هـ /

(٦٠) المراكشي : الذيل والنكلة ، السفر الأول ، ص ١٩٩ (التعليق) .

(٦١) ابن حيان : المقتبس ( تحقيق مكي ) ، ص ٢٠ ، المقدمة .

ابن بشكوال : الصلة ( الترجمة رقم ٥٤٠ ) - ج ١ ، ص ٢٣٦ .

١١٨٤-١١٩٩م) ، حينما استمع الى علي بن محمد بن يوسف بن عبد الله ،  
الفهري وهو يقرأ بمقبرة على جاري عادته ، أخذ بقلبه طيب نعمته ،  
فقربه واستخلصه ، وأمره بتعليم أولاده ، وقراءة حزب من التراويح  
في رمضان ، ثم خبر أحواله ، وعرف صونه وعقافه ، فأمره بتعليم  
بناته ، فاستعفا من ذلك معتذرا ، بأنه لا يدرك بعض التفرقة بين  
الألوان ، فأحظاه ذلك عنده ، لما تحقق من صدق نصحه ، وألزمه  
تعليمهن ، وكان سبب اثرائه وسعة حاله (٦٢) .

أما أم الحسن بنت القاضي أبي جعفر الطنجالي من أهل لوشة ،  
فلقد كانت نبيلة حسنة ، تجيد قراءة القرآن وتشارك في فنون الطلب  
من مبادئ غريبة واقراء ، ووسائل الطلب ، وتنظيم أبيات من الشعر .

نشأت في حجر أبيها ، لا يدخر عنها تدريجا ولا سهما ، حتى  
نهض ادراكها ، وظهر في المعرفة حراكها ، ودرسها الطب ، ففهمت  
أغراضه ، وعلمت أسبابه وأعراضه (٦٣) .

#### تعليم الوصفاء :

وهناك بعض الطوائف الخاصة قد جرى تعليمها ، اما في القصور  
أو في أماكن اقامتهم ، ومن هؤلاء وصفاء القصور حيث تخصص  
في تعليمهم أحمد بن مضا بن عبد الجبار بن مضا ، القرطبي ، وتقول  
ترجمته : كان أديبا متفنا في علوم اللسان العربي ، أدب طويلا  
للخاصة والعامة ، ثم قصر على تأديب الوصفاء بالقصر (٦٤) .

#### تعليم الرهائن :

أما الرهائن ، فلقد كانوا دائما من أبناء حكام الأقاليم وكبار  
العائلات التي يخشى تمردا على السلطة المركزية ، فلقد كان يتم

(٦٢) المراكشي : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الأول ،  
ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ .

(٦٣) ابن الخطيب : الاحاطة - ج ١ ، ص ٤٣٠ .

(٦٤) المراكشي : الذيل والتكملة ، السفر الاول ، ص ٥٤٣ .

تعليمهم في دار اقامتهم \* هذا ولقد حفظت لنا كتب التاريخ الأندلسي القديمة نصا غريدا في هذا المجال ، يشار اليه أيضا ضمن الحديث عن تدخل الدولة في شؤون التعليم بالأندلس ، والنص يتحدث عن أن القاضي أمية بن عيسى بن شهيد وزير الخليفة عبد الرحمن بن الحكم ( ٢٠٦ - ٢٣٨ هـ / ٨٢٢ - ٨٥٧ م ) ، « حضر يوما بدار الرهائن المجاورة لباب القنطرة بقرابة ، ورهائن بنى قيس وغيرهم من أبناء الثوار ينشدون شعر عنتره أمام مؤدب ، فقال لبعض الأعوان : على بالمؤدب ، فلما وصل الى القصر ووافاه المؤدب قال له : لولا أني أعذرك بالجهل لأدبتك أدبا موجعا ، تعمد الى شياطين أبناء شياطين قد شجى بهم الخلفاء فترويه شعرا عنتره والشعر الذي يزيدهم بصيرة في الشجاعة ! كف عن هذا ، ولا تروهم الا خمريات الحسن ابن هانيء ، وشبهها من الأهزال ، ومثل شعر عمر بن أبي ربيعة وجميل ، وغيرهما من أمثالهم » (٦٥) \*

وعلاوة على ذلك ، فان بعض الخلفاء قد جعل لمؤدب ولده مسكنا خاصا فلقد أمر الخليفة الحكم المستنصر في عام ٣٦٢ هـ - ٩٧٢ م بأن يلزم محمد بن حسن الزبيدي ، مدينة الزهراء لجالسة الأمير أبي الوليد هشام ، ابن أمير المؤمنين ، ومفاتحته في العربية ، وقد اعتمدت لنزوله منها ، الدار التي كان يسكنها صاحب الشرطة ، أحمد ابن سعيد الجعفرى في حياة والده ، وأجريت عليه الأرزاق الواسعة (٦٦) \*

أما الأمير هشام بن عبد الرحمن فلقد أنزل مؤدب ولده في الدار المعروفة بشلار بدار ابن الشمر (٦٧) \*

(٦٥) اخذت هذا النص بالذات من :

ابن السماك : الزهراء المنورة ، ص ١٠ ، ما زال تحت الطبع ؛  
تحقيق الدكتور محمود مكي ، بمجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بميدريد ، العدد العشرون ، ولقد ورد النص مع اختلافات بسيطة في أكثر من كتاب ( انظر تفصيلات ذلك في الفصل الخاص بتدخل الدولة في التعليم في الأندلس ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ ) .

(٦٦) ابن حيان : المقتبس ، طبعة الحجى ، ص ١٣٤ .

(٦٧) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٩٩ .

شلار : ريش من أرباض قرطبة الشرقية ، النسخ ، ج ٢ ،

### ثالثا : المنهج التعليمي لتلك الفئة :

سبق لى أن أشرت في بداية هذا الفصل الى أن المنهج التعليمي لأبناء الخاصة ، لا يختلف كثيرا عن المنهج التعليمي العام في الأندلس ، وأن تباين عنه في بعض الجزئيات ، النابعة من طبيعة الطبقة الاجتماعية ، أو الاعداد لمستقبل معين ، أو غير ذلك من الأمور \* ولذلك فلن أسهب في ذلك المكان كثيرا عن البرنامج التعليمي ، لأننى تناولته في مكانه المناسب من الرسالة وسأكتفى بالإشارة الى بعض النصوص التاريخية التى أشارت الى نواحي محددة من تعليم الأمراء وأبناء كبار رجال الدولة في الأندلس \*

والمستعرب الأسباني خوسيه أنطونيو كوندى ، يصف لنا ما كان يتلقاه ابن الرحمن بن محمد من تعليم فيقول :

« وضع له أشهر المؤدبين ، الذين علموه أحسن تعليم ، فحينما بدأ مرحلة الطفولة علموه قراءة القرآن ، وحفظه بكل طوائفه ، وفي الثانية عشرة ، تعلم الحديث والسنة وأيام العرب والنحو والشعر ، والأمثال العربية ، وحياة الأمراء ، وكذلك علوم الادارة والحكم ، وعلوم انسانية أخرى \* »

وبعد ذلك تدرّب على الفروسية ، والتحكّم برشاقة وأناقة في حركات حصانه ، والتصويب بالسهم وقذف الرماح ، واستعمال كافة الأسلحة ، والدراية بالجيل العسكرية ، ولقد تدرّب على هذا كله وعمره احدى عشرة سنة ، عندما كان يلعب مع أقران صباه (٦٨) \*  
وثمة برنامج آخر ، أعده الأمير الموحدي عبد المؤمن بن على ، ننقله فيما يلى :

« وقف الحفاظ لحفظ « كتاب الموطأ » هو « وكتاب أعز ما يطلب »

---

(٦٨) كوندى : تاريخ الحكم العربى ، ج ١ ، ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، طبعة ١٨٢٠ .  
١٠ تاريخ التعليم

وغير ذلك من تواليف المهدي ، وكان يدخلهم كل يوم جمعة بعد الصلاة داخل القصر ، فيجتمع الحفاظ فيه ، وهم نحو ثلاثة آلاف كأنهم أبناء ليلة ، من المصامدة وغيرهم ، قصد بهم سرعة الحفظ والتربية على ما يريده ، فيأخذهم يوما بتعليم الركوب ، ويوما بالرمي بالقوس ، ويوما بالعموم في بحيرة صنعها خارج بستانه مربعة ، طول تربيعها نحو ثلاثمائة باع \* ويوما يأخذهم بأن يجذفوا على قوارب وزوارق صنعها لهم في تلك البحيرة ، فتأديبوا بهذه الآداب ، تارة بالعطاء ، وتارة بالأدب ، وكانت نفقتهم وسائر مؤننتهم من عنده ، وخليهم وعدتهم كذلك \* .

ولما كمل له هذا المراد فيهم ، عزل بهم أسياخ المصامدة عن ولاية الأعمال والرئاسة ، وقال : العلماء أولى منكم ، فسلموا لهم (٦٩) \* .

أما النص الذي يوضح لنا محتوى التعليم الذي كان يتلقاه أبناء الأندلس عامة ، وأبناء الخاصة منهم ، خاصة في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، فلقد قصه علينا العالم الأندلسي الكبير أبو بكر بن العربي ، المتوفى ٥٤٣ هـ - ١١٤٨ م ، قائلا :

كان من حسن قضاء الله تعالى ، أني عندما كنت في عنفوان الشباب وريان الحداثة وعند ريعان النشأة ، رتب لي أبي رحمه الله حتى حذقت القرآن في العام التاسع ، ثم قرن بي ثلاثة من المعلمين أحدهم لضبط القرآن بأحرفه السبعة التي جمعها الله فيه ، ونبيه الصادق صلى الله عليه عليها في قوله : « أنزل القرآن على سبعة أحرف في تفصيل فيها » ، والثاني لعلم العربية ، والثالث للتدريب في الحساب ، فلم يأت على ابتداء الأشد في العام السادس عشر من العدد ، إلا وأنا قد قرأت من أحرف القرآن نحوًا من عشرة ، بما يتبعها من أضغام وظهار وقصر ومد وتخفيف وشد وتحريك وتكين وحذف وتنميم وترقيق وتفخيم ، وقد جمعت من العربية فنونا ،

(٦٩) مجهولًا : الحلل الموسية ، ص ١٥٠ ، ١٥١ .

وتصرف فيها تمرينا : منها كتاب الواضح (٧٠) و « الجمل » (٧١) ،  
وكتاب النحاس (٧٢) و « الأصول » لابن السراج (٧٣) ، وسمعت  
كتاب الثمالي (٧٤) وكتاب الصناعة الأصلية الذي أنهاه الخليل (٧٥)  
الى سيبويه (٧٦) ثم تولى سيبويه نظمه وترتيبه ، وقرأت من  
الأشعار جملة منها « السنة » (٧٧) ، وشعر الطائي (٧٨)  
والجعفي (٧٩) ويسيرا من أشعار العرب والمحدثين ، وقرأت  
في اللغة كتاب ثعلب (٨٠) واصلاح المنطق (٨١) والألماني (٨٢) ،  
وغيرها ، وسمعت جملة من الحديث على المشيخة ، وقرأت من علم  
الحسبان : المعاملات والجبر والفرائض عملا . ثم كتاب أوقليدس  
وما يليه الى الشكل القطاع (٨٣) ، وعدلت بالازياج الثلاثة ونظرت  
في الاسطرلاب في سقط النقطة ونحوه ، يتعاقب على هؤلاء المعلمون  
من صلاة الصبح الى صلاة العصر ، ثم ينصرفون غنى ، وآخذ في  
الراحة الى صبح اليوم الثاني . فلا تتركني نفسى فارغا من مطالعة  
أو مذاكرة أو تعليق فائدة ، وأنا بفرارة الشباب (٨٤) .

- (٧٠) لأبى بكر محمد بن الحسن الاندلسي ( توفي ٣٧٩هـ / ٩٨٩م ) .
- (٧١) لعبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي ( المتوفى ٣٣٧هـ / ٩٤٨م ) .
- (٧٢) لأبى جعفر أحمد بن محمد النحاس ، توفي ٣٣٨هـ / ٩٤٩م .
- (٧٣) محمد بن السري بن سهك ، توفي ٣١٦هـ / ٩٢٨م .
- (٧٤) أبو العباس المبرد ، صاحب كتاب الكامل ، توفي ٢٨٥هـ / ٨٩٨م .
- (٧٥) الخليل بن أحمد ( ١٠٠ - ١٧٠ هـ / ٧١٩ - ٧٨٧ م ) .
- (٧٦) سيبويه ( ١٤٨ - ١٨٠ هـ / ٧٦٧ - ٧٩٧ م ) .
- (٧٧) وهى اشعار امرئ القيس ، والناطقة وعلقمة وعنقرة  
وزهير وطرفة ، وكلهم من شعراء العرب البارزين .
- (٧٨) أبو تمام الطائي ( ١٩٠ - ٢٣١ هـ / ٨٠٧ - ٨٤٥ م ) .
- (٧٩) المتنبي ( ٣٠٣ - ٣٥٤ هـ / ٩١٥ - ٩٦٥ م ) .
- (٨٠) ثعلب ، من رواد مدرسة الكوفة في اللغة ، توفي ٢٩١ هـ /

٩٠٣ م .

- (٨١) لابن السكيت ( ١٨٦ - ٢٤٤ هـ / ٨٠٣ - ٨٥٨ م ) .
- (٨٢) لأبى على التتالي ( ٢٨٨ - ٣٥٦ هـ / ٩٠٠ - ٩٦٦ م ) .
- (٨٣) الشكل القطاع : قطعة من دائرة ، رأسها اما على مركزها ،  
واما على محيطها ، أنظر مفتاح العلوم للخوارزمي .
- (٨٤) ابن العربي : العاضد من القواصم ، ص ١١ .
- المترى : فتح الطيب - ج ٢ ، ص ٢٥٠ ، والفكر التربوي عند  
العرب ، ص ٥١ - ٥٣ .

ولقد احتفظت لنا كتب التاريخ بما يمكن أن يلقى ضوءاً من  
من الداخل على الرغبة المعتملة داخل نفوس الحكام في اعداد بعض  
أبنائهم اعداداً خاصاً يتناسب ومسئولية الحكم ، حتى أصبح من أهم  
الأهداف الرئيسية التي تلقن لهؤلاء الأولاد كيفية ادارة شؤون الحكم ،  
وجاءنا هذا النص ضمن أول مذكرات شخصية ، سجلها تاريخ الأدب  
الأندلسي ، وهي التي كتبها الأمير عبد الله سيف الدولة بن بلكين من  
باديس ، أمير غرناطة على عهد الطوائف والذي حكم من ٤٦٦ الى  
٤٨٣ هـ / ١٠٧٣ - ١٠٩٠ م ، يقول النص : وقد كنا - معشر أصلاً  
بيت المملكة - نرى أن أكثر ما نتأدب به أعمال السياسة في طلب  
الرياسة ، والسعى لها بكل الوجوه واحضار الأذهان ، ما لو أن المفرط  
في بعض ذلك منا يكون أفقه الناس في سائرها من العلوم ، لكان  
عندنا ناقصاً ، لا يصلح لهذا الشأن ، حتى وقع التنافس عليه \*  
وقتلناها نحن علماً لرياضة أنفسنا لها ، وما أجزأنا عليه آياؤنا ،  
وبصرونا فيه من أولى شأننا \*

وتلك صناعة يجب تعلمها لضرورة الحال ، كسائر الصنائع التي  
منها معاش الناس ، ولابد لهم من اتقانها \* ولغمرى أن الوالى أكثر  
علماً وأحسن عقلاً : فان جميع عقول الناس تعرض لديه واليه تهدى  
الأخبار ، ويتخاصم الناس ، وعنده يقع الطلب ، وترفع الحاجات  
ونقع العناية ، فيرى ويسمع كل يوم جديداً لم يره أمس \*\*\*  
ويواصل الأمير عبد الله قائلاً :

ولما كان المظفر جدي - رضى الله عنه - قد أوتى من  
الدعاء والتميز لأحوال الزمان ما لاخفاء به ، وأنه من أكد ما يجب  
النظر فيه ترشيح أحد بنيه للولاية بعده ، وأن ذلك لا يتم الا بتمينه ،  
واعماله في جميع خدمته ، كي يتدرب ، ولا يخفى عليه أمر من أمور  
الدولة ما يحتاج اليه فيه نفسه ، كنت ممن وفقه الله ليره والانصاع  
لوصيته - فأمر بإخراجه من المكتب الى التصرف بين يديه ، وقال لى



— نضر الله وجهه — معك من الكتاب وتلاوة القرآن ما يكفيك !  
وهذا أولى ما تتعلم ، فعليك باحضار ذهنك لجميع ما يكون منى  
وما ينقضى في دولتي أيام هذه الفتن ، فان الزمان أشر والأيام أقصر  
من أن تدرك ، تعلم كل شيء يعني به الملوك لأبنائهم •

فامنتات حده ، وأخذت نفسى أولا بالتواضع له ، واختصار  
كل شيء يقع منه في نفسه أنى أشره به الى تعجيل الولاية أو الحرص  
على الرياسة ، بل كنت أتأبى له عن ذلك ، ولا أحكم بين اثنين الا عن  
مشورته ومشاركة أهل السن والعمل من وزرائه ، وأنزل نفسى لهم  
بمنزلة الابن ، حتى وقع ذلك من أنفسهم موقعا أرتضوني به للخلافة  
من بعده • واتفق في ذلك رأيهم مع رأى الجد ، رحمه الله •

ولم يكن من نهار الا وأستفيد غيه فائدة من تجربة وحنكة (٨٥) •

وقبل ذلك نجد إشارة الى نفس المعنى ضمن قصة طويلة قد  
وقعت بين الأمير عبد الرحمن بن محمد وجده الأمير عبد الله أوردها  
لنا ابن حيان ، تستخلص منها أن الأمير قد تفرس في حفيده عبد الرحمن  
النجابة فخرجه بأدبه ، وأجهد في تعليمه (٨٦) •

#### دور النساء :

يبدو أن النساء قد لعبن دورا هاما في تربية الأمراء والخاصة  
في الأندلس ، وخاصة في المراحل الأولى من حياة هؤلاء ، ومن الطبيعي  
أن تتولى النساء ذلك بحكم قيامهن بالأعمال المنزلية الخاصة بالحضانة  
والرعاية لأطفال الخلفاء وكبار رجال الدولة ، ولذا كانت النساء اللاتي  
كن يعشن في هذه الأماكن ممن يتمتعن بالسمة الطيبة والأخلاق الحميدة ،  
والعلم والثقافة الواسعين ، ولست أجيد داعيا لأن أذكر هنا كثيرا  
من أسماء النسوة ، اللاتي كان يعج بهن بلاط الخلفاء والأمراء ، ومكانتهن

(٨٥) عبد الله ( الأمير ) : مذكرات ، ص ١١ — ١٣ •

(٨٦) ابن حيان : المقتبس ( تحقيق انطونيا ) ، ص ٣٩ ، ٤٠ •

من الناحية العلمية فلقد خصص المقرئ فصلا كاملا للحديث عن نسائه الأندلس (٨٧) . ويمكن لمن يرغب في المزيد ، الرجوع اليه - وانما أثر فقط كمثال على ثقافة تلك النسوة ، الى ما يقال عن «لبنى» ، كاتبة الخليفة الحكم المستنصر بالله ، حيث وصفها الصنفى بأنها كانت نحوية ، كاتبة ، شاعرة ، بصيرة بالحساب والعروض ، حاذقة ، توفيت سنة ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م . وفي موضع آخر قيل : انها كانت تكتب الخط الجيد ، تحوية شاعرة ، عروضية ، بصيرة بالحساب ، مشاركة في العلم ، لم يكن في قصرهم أنبل منها ، خطاطة خطاطة جدا (٨٨) .

وأكثر النصوص دلالة على قيام النساء بمهمة تعليم أبناء الخامة خلال مراحل عمرهم الأولى قد قصه علينا ابن حزم القرطبي حيث يقول :

ولقد شاهدت النساء ، وعلمت من أسرارهن ، ما لا يكاد يعلمه غيري ، لأنى رببت في حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال الا وأنا في حد الشباب وحين تنبقل وجهي ، وهن علمننى القرآن ورويننى كثيرا من الأشعار ودربننى في الخط (٨٩) .

وننقل هنا ثقافة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الخليفة الموحدى كدليل آخر على التعليم الذى يتلقاه أبناء الخلفاء والأمراء

(٨٧) المقرئ : نفع الطيب ، ج ٥ ، ص ٢٩٩ .

(٨٨) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٦٩٢ .

السيوطى : بغية الوعاة ، ص ٣٨٣ .

(٨٩) ابن حزم : طوق الحمامة ( تحقيق برشيرا ) ، ص ١٢٦ ، والترجمة الفرنسية ، ص ١٢٧ .

Asin P. : Ibn Hazm de Cordoba, I. 39.

Gomez Nogales : Teoria u clasificacion de las ciencias segun Ibn Hazm, p. 66.

ابو زهرة : ابن حزم ، ص ٣١ .

Garcia Gomez, E. : El Collar de La paloma. غارثيا غومث :

فى ذلك الحين - يقول عبد الواحد المراكشى ، انه كان : حلو الألفاظ ، حسن الحديث ، طيب المجالسة ، أعرف الناس كيف تكلمت العرب ، وأحفظهم لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها فى الجاهلية والاسلام ، صرقة عنايته الى ذلك أيام كونه بأشبيلية واليا عليها فى حياة أبيه ، ولقى بها رجالا من أهل علم اللغة والنحو والقرآن ، منهم الأستاذ اللغوى المتقن أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الملك المعروف عندهم بابن ملكون فأخذ عنهم جميع ذلك وبرع فى كثير منه .

أخبرنى من لقيته من ولده ، كأبى زكريا ، وأبى عبد الله ، وأبى ابراهيم اسحاق ، وغيرهم ممن لقيته وشافهته منهم ، أنه كان أحسن الناس ألفاظا بالقرآن ، وأسرعهم نفوذ خاطر فى غامض مسائل النحو ، وأحفظهم اللغة العربية ، وكان شديد الملوكة ، بعيد المهمة ، سخيا جوادا ، استغنى الناس فى أيامه وكثرت فى أيديهم الأموال ، هذا مع ايثار العلم شديد ، وتعطش اليه مفرط صح عندى أنه كان يحفظ أحد الصحيحين - الشك منى ، اما البخارى أو مسلم ، وأغلب ظنى أنه البخارى ، حفظه فى حياة أبيه بعد تعلم القرآن ، هذا مع ذكر جمل من الفقه ، وكان له مشاركة فى علم الأدب ، واتساع فى حفظ اللغة ، وتبحر فى علم النحو حسبما تقدم ، ثم طمح به شرف نفسه ، وعلو همته الى تعلم الفلسفة ، فجمع كثيرا من أجزاءها ، وبدأ من ذلك بعلم الطب ، فاستظهر من الكتاب المعروف بالملكى أكثره ، مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل ، ثم تخطى ذلك الى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة ، وأمر بجمع كتبها ، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموى (٩٠) .

(٩٠) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ص ٣٤٦ .

كان لتعليم الأمراء ، بعض الجوانب المؤثرة اما على حياة المعلمين أنفسهم أو على طلبتهم ، ولا شك أن القيام بمهمة مؤدب لأولاد الخلفاء كان يحمل المؤدب الى مكانة اجتماعية عالية جدا ، حتى لقد قيل ان الحاجب جعفر بن عثمان ، أشهر الوزراء على عهد هشام الثاني ، قبل أن يقتله المنصور بن أبي عامر ، وصل الى ما وصل اليه ، لأن والده كان معلم الخليفة الحكم في صباه (٩١) .

والوزير عيسى بن سعيد من أكثر وزراء الدولة العاصمية شهرة وجاها ، وقد نال ذلك لأن والده كان معلما (٩٢) . لكنها من جانب آخر قد تكون سببا في خلق بعض المشاكل للمعلمين مما جعل بعضهم يتفادى القيام بهذه المهمة ، فقد رفض محمد بن هشام الرواني صاحب كتاب « أخبار الشعراء » أن يقوم بتأديب أولاد عبد الرحمن الناصر قائلا : أن الفتيان لا يتعلمون الا بشدة الضبط والقيد والأغلاظ ، وأنا أكره أن أعامل بذلك أولاد الخليفة فيكرهوني ، وقد يحقد على بعضهم ذلك الى أن يقدر على النفع والضرر (٩٣) .

وبعض الأساتذة كان يرغب ذلك اعترازا بنفسه ، وبعلمه ، فيقال أن داود بن يزيد الغرناطي انتقل الى باغة من أجل أن السلطان دعاه لاقراء بنييه ، فقال : والله لا أهنت العلم ، ولا مشيت به الى الديار (٩٤) .

وهناك أيضا بعض الجوانب التربوية الهامة التي روعيت في تربية الأمراء ، وخاصة أولئك الذين كانوا يتلقون تربيتهم في منازلهم ، وأقصد بذلك محاولة اقامة اتصال بينهم وبين الأطفال الذين هم في سنهم

(٩١) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٣٠٥ .

(٩٢) ابن حيان : المتين ( تحقيق عبد الله جمال الدين ) ،

ص ٢١ .

(٩٣) المقرئ : النفع ، ج ٥ ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٩٤) السيوطي : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٥٦٣ .

بعض الجوانب الأخرى :

من أبناء الأمراء أو البلاط حتى لا ينمو لديهم شعور العزلة ، فنجد أن عبد الرحمن الناصر كان يتلقى تعليمه مع أقرانه ، وأن الحكم المستنصر ، قد جعل بعض الصبيان مع ابنه هشام ، في موضع حضاره (٩٠) - هذا في الوقت الذي يشكو فيه ابن حزم من تأثير عزلته وحيدا بين النساء - يصف ذلك المستعرب الأسباني الكبير آسين بلاثيوس ، قائلا :

ان هذه التربية الأولية المنعزلة ، وذلك الانغلاق ، قد أثرا دون شك في تكوينه الخلقى وفي مزاجه النفسى (٩١) .

انه لم يكن يقتصر في تأديب الأمير على مؤدب واحد ، وانما من المحتمل أن يكون له أكثر من مؤدب ، فنجد أن الحكم بن هشام قد وضع له من المعلمين : سوار بن عبد الرحمن (٩٢) وكيبة بن ربيعة (٩٣) . علاوة على أن الثمر بن نمير حينما وصل الى الأندلس على عهد الأمير هشام ضمه الى تأديب ولده (٩٤) .

أما الأمير عبد الرحمن بن الحكم فقد استأدب لأولاده كلا من عبد الملك بن أيمن بن فرحون (٩٥) ، وأبى بكر محمد عبد الله بن بكر الكلاعى (٩٦) وعثمان بن المثنى (٩٧) ، وعبد الله بن سليمان المنذر (٩٨) . والحكم المستنصر بالله قد وضع لابنه أكثر من معلم ، كما سبق أن بينا خلال صفحات هذا البحث .

(٩٥) ابن حيان : المقتبس ( تحقيق الحجي ) ، ص ٧٧ .  
Garcia Gomez, Anales Palatinos ..... p. 100.

(٩٦) Asin Palacios : Ibn Hazm de Cordoba, I. 38.

(٩٧) المقبرى : النسخ ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ .

(٩٨) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ج ١ ، ص ٦٥ .

(٩٩) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٩٩ .

(١٠٠) المراكشى : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الأول ،

ص ١٥ .

(١٠١) ابن الفرضى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٩٤ .

(١٠٢) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ، ص ١١٣ .

(١٠٣) ابن الفرضى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٣٠٢ .

(١٠٤) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ص ٢٣٦ .

ومن جانب آخر ، فانه من الممكن أن يختار الخليفة معلما لكل واحد من أبنائه ، أو معلما واحدا ، لأكثر من واحد من أبنائه .

فبالنسبة للحالة الأولى ، نجد أن الخليفة عبد الرحمن الناصر ، يختار الفقيه محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي ليكون مؤدبا لابنه المعيرة (١٠٤) .

---

(١٠٤) ابن الفرضي : علماء الاندلس ، ج ٢ ، ص ٦٩ .  
السيوطي : تقييد الوعاة ، ص ١١٣ .

## الفصل الثامن اهتمام الخاصة بالتعليم

أشارت بعض كتب تاريخ التربية التي تناولت تاريخ التربية الإسلامية إلى أن أهل الأندلس لم يقدموا كثيرا للعلماء أو لطلبة العلم ، وأن مسجد قرطبة ، على عظمته ، وكثرة ما قيل فيه ، لا نجد بين أيدينا ، ما يفيد ما أوقف على هذا المسجد من أموال ومن أوقف : فيقول الأستاذ محمد عبد الرحيم غنيمة في كتابه « تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى » : ويبدو أن حياة الطلاب بالأندلس كانت أشق من غيرها في بلاد الإسلام الأخرى ، وبينما كانت رواتب الطلاب بالشرق منتظمة ثابتة ، ظلت حياة الطالب الأندلسي قائمة على الكسب الشخصي أو الصدقات ، التي يجود بها أهل الخير ، « وقليل هم في تلك الديار » .

ولعل فيما نقلناه من قول بقى بن مخلد ، تصويرا واضحا لبعض الطلاب الأندلسيين ومعيشتهم .

وعلى كثرة ما قيل في وصف الجامع الأعظم بقرطبة فأننا لا نجد فيما كتب ذكرنا لأى نوع من الرواتب للأساتذة أو الطلاب ، وسبب ذلك ، هو تأخر الحركة المدرسية بالأندلس ، وغلبة الحرص والبخل على أهلها . وربما كان لاختلاطهم بالعناصر الأوروبية ، أثر في تخلتهم بأخلاق بعيدة عن الكرم العربى والشرقى الذى تميزت به بلاد الشرق فاذا رأوا شخصا قادرا على الخدمة سبوه وأهانوه ، فضلا عن أن يتصدقوا عليه ، وهذا أمر محمود ، ولكنه دليل على مبلغ حرصهم على المال ، بالنسبة للمشاركة (١) .

(١) محمد غنيمة : تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى ، ص ٢٦٨ .

وتلك فكرة طيبة ، ولكن من شأنها أن تجعل التعليم مقصورا على القادرين فقط ، أرسنقراطيا لا يقدر عليه الا أهل الثراء ، وهذا ما يدفعنا الى القول بأن التعليم عند أهل المشرق كان أكثر ديموقراطية وأرحب مجالا من التعليم الأندلسي وأكثر رعاية للمذاهب والكفايات الانسانية التي قد يقضى عليها العجز ويقتلها الفقر .

والحقيقة ، أن الغالبية العظمى ممن أرخوا للتعليم أو للتربية في الاسلام ، هم من الباحثين المشاركة ، أى أن معظمهم من بلاد المشرق الاسلامى ، ولذلك لم يتح لأى منهم التعمق الكافى فى المراجع الأندلسية خاصة ، مما جعل الأندلس فى كثير من المؤلفات ، لا تحظى الا بأقل القليل من الدراسة والبحث .

ان هذه هى أول مرة يحظى فيها تاريخ التعليم فى الأندلس بدراسة جامعية متخصصة ، تسعى لالقاء الضوء على جوانبه المتعددة . ولقد أتيح لكتاب هذه الدراسة أن يعيش من حياته ستة أعوام كاملة على الأرض الأسبانية - أى على نفس المسرح الجغرافى الذى جرى عليه هذا التاريخ الأندلسى ، كما أنه قد أتيح له أن يطلع على أكبر قدر ممكن من المراجع والمصادر التى تتناول كلغة مظاهر الحياة فى الغرب الاسلامى عامة والأندلس بصفة خاصة ، ويمكن لى أنؤكد بأن الحقيقة التى لا خفاء فيها ، أن أهل الأندلس قد قدموا للعلم وللعلماء وللطلبة كل الوسائل التى ساعدتهم على أن يرتفعوا بالأندلس فى مجال العلم والتعليم ، الى أعلى درجة ممكنة ، مما جعل من الأندلس عامة ، وعواصمه الكبرى خاصة مشعلا للثقافة ، ومركزا للتعليم خلال العصور الوسطى .

لقد حاولت فى بداية الرسالة أن أبين اهتمام حكام الأندلس بالعملية التعليمية ، واقتصرت على تناول مجهودات الأمراء والخلفاء والملوك والسلاطين فقط ، وهنا سأتناول فى ايجاز دور بعض الخاصة فى الاهتمام بالعلم والتعليم ، والانفاق على الطلبة والعلماء ومراكز



التعليم في الأندلس ، حيث قاموا برعاية الفقراء ، وتسهيل سبل العلم لهم ، ومساعدتهم ماديا حتى وصلوا الى درجة من العلم ، لا بأس بها ، وهناك من حبس داره على الطلبة ، ومن حبس كتبه عليهم - والأمثلة على ذلك كثيرة جدا ، فلنستعرض بعضا منها :

تحدث كتب التراجم عن « أبي عبد الله محمد بن سليمان ابن الخياط الرعيني الأعمى القرطبي ( المتوفى ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م ) (١) أن أباه كان يبيع الحنطة بقرطبة ، ونشأ هذا الأعمى نشأة أعلانه على أن بلغ غاية من العلم الحديث والعلم القديم . »

وكان بنو ذكوان (٢) ، هم الذين كفوه مؤونة الدهر ، وغرغوه للاشتغال بالعلم ، وكان الغالب عليه المنطق (٣) .

أما فرج بن أبي الحكم بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم اليحصبي ، من أهل طليطلة ( ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م ) ، فقد غات أهل زمانه في العلم والعقل والفضل ، وحبس داره على طلبة أهل السنة (٤) .

وأبو العباس أحمد بن رشيق ( المتوفى بعد سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ) ، الذي تولى جزيرة ميورقة « فكان ينظر في أمور الجهة التي كان فيها نظر العدل والسياسة ، ويشتل بالثقة والحديث ، ويجمع العلماء والصلحاء ويؤثرهم ، ويحلح الأمور جهده » (٥) .

(٢) الحيدى ، ص ٥٣ ، والضبي ، ص ٧٧ ، يذكر أن عام الزفاة في حدود ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م ، وينص ابن حبان على أن وفاته ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م ، انظر المتن ، ص ٨٨ ، والمغرب في حلى المغرب ، ج ٢ ، ص ١٢١ .

(٣) انظر عن بنى ذكوان بن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، تحقيق : شوقي ضيف ، ج ١ ، ص ٢١٥ .

(٤) المصادر المذكورة في الملاحظة رقم (٢) .

(٥) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ .

(٦) الضبي : بغية الملتمس ، ص ١٧٨ - الحجى : التاريخ

الاسي ، ص ٢٦٠ .

سعيد بن الحسين بن سعيد بن خلف ( المتوفى ٦٨٠هـ / ١٢٧١م ) ،  
كان والى ميورقة في عام ٦٢١هـ / ١٢٣٣م ، انتسابه أهل العلم  
وطلبته من بلاد الأندلس وبر العدو ، فكان يحسن اليهم ويستجلب  
ودهم ، ويجيد القيام بهم ما أقاموا لديه ، ويحسن صرف من أحب  
الأنصار منهم (٧) .

محمد بن عياض بن محمد بن عياض بن موسى اليحصبي  
( المتوفى ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م ) كان قاضيا ، وكان محبا لأهل العلم ،  
مقربا لأصاغر الطلبة ، ومكرما لهم ، ومعتنيا بهم ، ليجب اليهم العلم  
والتمسك به ، ما رأينا بعده في هذا مثله (٨) .

سعدون بن مسعود المرادي ( المتوفى ٥٢٠هـ / ١١٢٦م ) ،  
كان متقدما في علم العربية والأدب ، حسن المشاركة في الفقه كثير  
البر بطلبة العلم ، واسع الصدر لهم ، حسن الخلق (٩) .

أبو عبد الله محمد بن عيسى بن عرج بن اسحق التجيبي  
المعالي : كان اماما في القراءات ، ومن أهل الصلاح ، توفي في أشبيلية  
في منتصف ذي القعدة ( ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م ) ، وحبس كتبه على  
طلبة العلم الذين بالعدو (١٠) .

محمد بن محمد بن محارب الصريحي ، توفي بمالقة في أوائل  
عام ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م ، بعد أن تصدق بمال كثير ، وعهد ببيع مجيد  
لطلبة العلم ، وحبس عليهم كتبه (١١) .

- 
- (٧) الأراكشي : الذيل والتكملة ، ج ٤ ، ص ٣١ .  
(٨) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .  
ابن عياض : التعريف بالقاضي عياض ، ص ٥ .  
(٩) الأراكشي : الذيل والتكملة ، ج ٤ ، ص ٢٢ .  
(١٠) أرسلان : الحلل السندسية ، ج ٢ ، ص ٢٤ .  
(١١) ابن الخطيب : الاحاطة في أخبار غرناطة ، ج ٢ ، ص ٧٩ .

ويقول ابن الفرغى عن قاسم بن سعدان بن عبد الوارث ،  
( المتوفى ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م ) أنه : لم يزل في نسخ ومقابلة الى أن  
مات ، ولم يحدث وحيس كتبه ، فكانت موقوفة عند محمد بن محمد  
ابن أبى الدليم ، وكثير من سماعنا عليه منها (١) .

وعلاوة على ذلك ، فهناك في التاريخ الأندلسي ، ما هو أكثر دلالة  
من ذلك كله . هناك الفقهاء المعلمون الذين كانوا يقومون باطعام  
طلبتهم ، ومشاركتهم في الطعام ، واعداد مكان الدراسة بما يحقق  
الراحة الكاملة لهؤلاء الطلبة ، ولنضرب مثلاً على ذلك فقط ، بيتان  
اهتمام الفقهاء بطلبتهم اهتماماً كبيراً ، واعطاءهم اياهم عناية خاصة .  
يحكى لنا ابن الأبار ، في ترجمته للنعمان بن المنذر ، ما يلي :

أنه من أهل قرطبة ، صاحب أبا عبد الله محمد بن عمر بن لبابة ،  
وحكى عنه . قال ابن حيان : قرأت بخط عبده بن عبد الله الشاعر قال :  
حدثني أبى عن النعمان بن المنذر ، عن الفقيه محمد بن عمر بن لبابة  
قال : كنت يوماً عند أبى وهب عبد الأعلى في حبابة بقرب مقبرة  
قرين ، وكان يمتزجها بيده في نفر من الطلبة نسمع عليه ، إذ حضر  
خداؤه فيقدمه اليها نأكل معه ، إذ استأذن عليه هاشم بن عبد العزيز  
صاحب الأمير محمد ووزيره الأثير فأذن له على تكسره ، ودخل ونحن  
نأكل خبزاً قدمه الشيخ آدمه من بقل الجنان ، فجعل يداعب الشيخ  
ينصاعة طرفة ، ولا ينطلق الشيخ معه ، ثم قال له : أبا وهب  
أما تدعوني الى طعامك ؟ تخاف أن نلتهمه ! فقال له : أنه ليس من  
الأطعمة التي توافقك ، فقال : بلى ، وإن لم يكن فانا نتبرك بما نصيب  
منه ، ومسد هاشم يده الى لقمة من الخبز يغمسها في البقل ، وجعل  
يلوكها ولا يستسيغها ، فلما فرغنا سأل الشيخ عن مسألة فقه جاء لها ،  
فأفتاه الشيخ بما عنده ، فأظهر هاشم سروره بجوابه وقام لينصرف ،

(١٢) ابن الفرغى : علماء الأندلس ، ص ٣٦٧ .

القاضي عياض : ترتيب الدارك ، ج ٤ ، ص ٢٤٨ .

فتحركت لأقوم معه ، فضرب الشيخ على يدي ، وأجلسني حتى خرج هاشم ، فلما مضى قال لي : ما أردت بهذا ، قلت : أردت إكراماً في مجلسك . فقال لي : بغس ما صنعت يا هذا ان كنت تطلب العلم لله تعالى ، فأعزه يعزك الله تعالى . وان كنت تطلبه للدنيا فمعد عنا ، وكن خادماً لهؤلاء متصرفاً بين أيديهم ، فهو أنفق لك عندهم ، وأؤكد لك عند خالفك ، فأخجلني شديداً ، وحافظت على وصيته (١٣) .

وأكثر الأمثلة دلالة على عناية الأستاذ بطلبته ما يصل إلينا ، عن أحمد بن سعيد بن كوثر الأنصاري ، من أنه كان فقيهاً ، متفنناً ، كريم النفس ، أخذ عن جماعة من علماء بلده ، وأجاز له جماعة من شيوخ قرطبة مع أبيه .

حدث عبد الله بن سعيد بن أبي عون قال : كنت آتياً اليعة من قلعة رباح وغيري من المشرق ، وكنا نيفا على أربعين تليداً ، فكنا ندخل في داره في شهر « نونير » و « دجنير » و « وينير » في مجلس قد فرش ببسط من الصوف مبطنات ، والحيطان باللبود من كل خول ، ووسائد الصوف ، وفي وسطه كانون في طول قامة الانسان ، مملوءاً فحماً يأخذ بدفئه كل من في المجلس ، فاذا فرغ الحديث أمسكهم جميعاً ، وقدمت الموائد عليها ثرائد بلحوم الخرفان بالزيت العذب ، وأيام ثرائد اللبن بالسمن أو الزبد فنأكل من تلك الثرائد حتى تشبع منها ، ويقدم بعد ذلك لونا جديداً ونحن قد رويانا من ذلك الطعام . فكنا ننطلق قرب الظهر مع قصر النهار ولا فتعشى حتى نصبح الى ذلك الطعام الثلاثة أشهر ، فكان ذلك كرماً وفخراً لم يسبقه أحد من فقهاء طليطلة الى تلك المكرمة (١٤) .

وأحمد بن محمد بن عبد العزيز التجيبي المتوفى ٥٦٢٩/ ١٢٣٩م

(١٣) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ج ٢ ، ص ٤٢ . و ص ٧٥١ .  
طبعة عزت الطار .

(١٤) ابن بشكوال : الصلة ، ص ٤١ .

كان منزله « مألوفاً لطلبة العلم ، يأوون اليه ويحتكمون فيه احتكامهم في أماكنهم » (١٥) \*

وأحمد بن أبي عبد الله محمد ، المعروف بابن العشاب ، المتوفى ٥٦٣٧ / ١٢٣٩ م ، « كان كثير الكتب في كل فن من العلوم على تشاريفها سمحا لطلبة العلم بها ، وربما وهب منها للتمسك الأصله النفيس الذي يعز وجوده ، ويعظم جدواه ، وترتفع قيمته احتساباً به وحسباً على التعلم » (١٦) \*

ولقد كان للأندلسيين احساس بقيمة العلم بمعناه الراسع ، فقد حرصوا على التعلم ، وساعدوا الغير على ذلك ، وقد ضرب لنا داود بن عيسى بن حيوبة الكلاعي ، من أهل قرطبة ، مثالا رائعا على التعاون من أجل مساعدة الآخرين على التعلم ، حتى ولو فاقوه في مجال العلم ، فيقال انه « رحل الى الشرق ، فاجتمع مع بقى بن مخلد ، وكان بقى لا مال له ، وكان داود واسع المال ، فسأله بقى أن يتيح له من ماله ما يشتري به الكتب ، ويجمع الدواوين ويكون سماعهما واحداً ، وقال له : أرجو أن ينفعك الله بذلك ، فأجابه داود الى ذلك ، فكان بسبب اكثار بقى من الرواية والجمع ، ولما انصرف الى الأندلس ، كتب بقى الكتب لنفسه » (١٧) \*

أما بالنسبة للمرتبات الثابتة المخصصة للأساتذة وللطلبة ، فقد تناولت هذا تفصيليا ، في الفصل الخاص بالأجور ، ولكن يجب التأكيد هنا بأن مسألة الأجور في العالم الاسلامي في عصوره الوسطى قد أخذت أكثر من شكل واحد وفي الأندلس أيضا وجدت الأجور ، ودفعت لمستحقيها بأكثر من طريقة ، اما عينا أو نقدا ، ونضرب مثالا على ذلك ، بأحمد بن خالد ، الذي نقله الخليفة عبد الرحمن الثالث

(١٥) المراكشي : الذيل والتكملة - السفر الأول ، ص ٤٦٥ .

(١٦) المراكشي : الذيل والتكملة - السفر الأول ، ص ٥١٢ .

(١٧) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ط القاهرة ، ١٣٢٣ ، ص ٢٢٤ .

تاريخ التعليم

الى المدينة بقرطبة ، وأسكنه دارا من دور الجامع قربه ، وأجرى عليه الرزق من الطعام والادام والناض ( الدراهم والدنانير ) ، وله ولخله في بيت المال حظ (١٨) .

ولعل في ذلك ما يبين وجود منازل موقوفة على المسجد تستعمل لاقامة الغرباء والفقهاء وطلبة العلم . فاذا أضفنا الى ذلك كله عناية أهل الأندلس بالغرباء ، وأن قسما كبيرا من الغرباء كان من الطلبة القادمين الى الأندلس للتحصيل والرواية لأمكن لنا أن نؤكد أن أهل الأندلس بكافة مستوياتهم ، شعبا وحكومة ، قد بذلوا الكثير في سبيل العلم والتعليم (١٩) ، وليس ذلك بغريب على شعب عرف قيمة العلم فسمى اليه ، وعرف قيمة العلماء فقدرهم تقديرا عظيما .

واختتم بشهادة أوردها المقرئ في حق الأندلسيين قائلا :

وأما حال أهل الأندلس في فنون العلم ، فتحقيق الانصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التمييز ، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجتهد أن يتميز بصنعة ، ويربأ بنفسه أن يرى فارغا عالة على الناس ، لأن هذا عندهم في نهاية القبح ، والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة ، يشار اليه ، ويحال عليه ، وينبه الى قدره وذكره عند الناس ، ويكرم في جوار أو ابتياع ، أو ما أشبه ذلك (٢٠) .

---

(١٨) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٢٢٠ ، طبعة القاهرة ،  
و ج ٢ ، ص ١٥٨ ، طبعة دوزي ، ج ٣ ، ص ٢٣٦ ، طبعة احسان  
عباس .  
(١٩) انظر في عناية أهل الأندلس بالغرباء ، كتاب الضبي : بغية  
الملتبس ، ص ١٦٨ .  
(٢٠) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

## خاتمة

إن النظام التعليمي من أهم المسالم التي تميز حركة الشعوب على طريق تطورها وارتقائها ، كما أنه الأساس الذي تبنى عليه حضارات الأمم ، ومن هنا كانت أهمية دراسة الأندلس ، للتعرف على أسس وعمل هذه الفترة الزاهية من تاريخ الأندلس في العصور الوسطى .

ولقد تبين من هذه الدراسة ، أن المسلمين في الأندلس قد وجهوا اهتماما خاصا للتعليم ، ابتداء من السنين المبكرة في حياة الطفل ، واستمرارا الى سن الكهولة بل والى المات .

حاولت الأسرة الأندلسية تعليم طفلها باكرا ما أمكن ذلك ، وتميزوا في هذه المرحلة عن باقي الأقاليم الاسلامية الأخرى ، حين لم يركزوا كل جهودهم ، على تعليم القرآن فحسب ، وإنما خلطوا مع القرآن أشعار العرب ولغتهم ، مما جعل الأندلسيين يتمتعون بقدرة لسانية كبيرة ، ومستوى لغوي عال .

أما مدرسو المرحلة الأولية ، فقد تميزوا عن زملائهم في باقي أنحاء العالم الإسلامي بارتفاع ثقافتهم ، على الأقل لم نجد في مجالات الأدب الأندلسي ، ما يشير الى مثل ما كان يعانيه معلمو هذه المرحلة في بلاد المشرق ، ولقد ساعد على ارتفاع مستواهم الثقافي أن المستوى العام للثعب الأندلسي كان طيبا ، أما المستوى الاقتصادي فكان أيضا لا بأس به مما دفع الناس الى الاقبال على تعليم أولادهم واجتهادهم في الحصول لهم على معلم ، كما أن الدولة قامت من جانبها بتوفير التعليم المجاني لأبناء الفقراء ، مثلما قام به الحكم المستنصر من انشاء ٢٧ مكتبا في قرطبة وحدها ، وأوقفت حوانيت السراجين ليدفع منها مرتبات المعلمين .

وقد مورس التعليم في المرحلة الأولى في المكاتب بصفة رئيسية ، واتخذت أماكنها بصفة عامة بجوار المساجد أو في منازل المعلمين ، أو في أماكن خاصة قام المعلم باستئجارها ، ولقد لعب المنزل في هذه المرحلة دورا رئيسيا ، حيث قام الآباء أو الأخوات أو الأقارب ، بتعليم أطفال الأسرة ، أما بصفة شخصية ، أو مباشرة تعليمهم على أيدي معلمين محل ثقتهم .

• وكانت المرحلة الأولى من التعليم ، تبدأ في المكاتب .

وقد بدأت هذه المكاتب في الظهور في الأندلس ، في فترة مبكرة جدا ، أرجعتها الى السنوات العشر الأولى من الفتح ، ثم انتشرت بعد ذلك انتشارا كبيرا في مدن وقرى الأندلس ، وكانت هذه المكاتب تقبل الطفل في سن السادسة تقريبا ، ويستمر فيها مدة تتراوح بين ستة وسبعة أعوام ، يستكمل خلالها حفظ القرآن الكريم ، ويتعلم القراءة والكتابة .

وبعد أن يتمكن التلميذ من استيعاب دروس الأساتذة ، ويعرف جيدا القراءة والكتابة ، كان يترك المكتب ، ويبدأ في التردد على حلقات الشيوخ في المساجد بادئا بذلك المرحلة الثانية من حياته التعليمية .

وتتميز المرحلة التعليمية الثانية بعدم التقيد بوقت دراسي معين ، أو ببرنامج دراسي محدد ، حيث ارتبطت الدراسة دائما بوقت الأستاذ وظروفه فالأساتذة الذين تخصصوا في حياتهم للتعليم ، أعطوا دروسهم على فترتين خلال اليوم ، أحدهما صباحية والثانية فيما بعد الظهر .

أما الأساتذة غير المتفرغين فنقد تنوعت ساعات دروسهم ، وإن كانت عادة تكون في الصباح .

كما تنوع البرنامج التعليمي تنوعا واسعا ، متخذا أساسا ثابتا من العلوم الدينية واللسانية ، ثم منطلقا بعد ذلك لدراسة باقى فروع



العلوم الإنسانية والتخصص فيها ، والمواد التي درست خلال هذه المرحلة يمكن أجمالها في المجموعات الثلاث التالية :

١ - العلوم الدينية ، وتشتمل هذه المجموعة لتشمل كل المواد المتعلقة بدراسة القرآن الكريم والحديث النبوي \*

٢ - العلوم اللسانية ، ويقصد بذلك كل المواد المتعلقة باللغة والنحو والأدب والبيان \*

٣ - العلوم العقلية ، وتشتمل بدورها على أربع مجموعات فرعية هي العلوم الطبية والعلوم البحتة والعلوم الفلسفية والعلوم الاجتماعية \*

وقد برز الأندلسيون كثيراً في مجال العلوم الدينية ، وخاصة في مجالات دراسات المذهب المالكي ، حيث قصروا انتاجهم التشريعي والديني على هذا الجانب ، وقاوموا بكل شدة المذاهب الدينية الأخرى ، دون أن يعنى ذلك عدم ظهورها المطلق على أرض الأندلس \*

أما في مجال اللغة والأدب ، فإن مستوى الأندلس قد ارتفع ليضاهي المدن المشرقية كالقاهرة وبغداد ، وتتمكن قرطبة من أن تتحول الى مركز من أهم المراكز الفكرية في العالم في القرن الرابع الهجري / السادس الميلادي \*

وقد بدأت الدراسات العقلية متأخرة نسبياً في الأندلس ، ولكنها تطورت بسرعة كبيرة جداً . وفي القرن الرابع الهجري ظهر عدد كبير من الأطباء والمهندسين والمعماريين والفلكيين ، ووصلت الى قممها خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين \*

وقد تميزت الدراسات الفلسفية ، ضمن هذه المجموعة ، بتميزها للاضطراد والمطاردة ، ولعل ذلك كان عاملاً مساعداً على تطورها سريعاً ، وبين الخاصة ، حتى أن أكبر عدد من فلاسفة المسلمين

قد برز في الأندلس ، كما أن هذه المادة قد وجدت الحماية من الدولة في بعض الفترات مثلما حدث على عهد الموحدين وعلى عهد ثاني ملوك الدولة النصرية .

ويؤكد أبو حيان أثير الدين ، أن واحدا من أسباب هجرته الى المشرق أنه كان لدى السلطان عالم في الطبيعة والمنطق والفلسفة قال له يوما اننى أخشى الموت وأريد أن تجعل لى مجموعة من الطلبة أعلمهم هذه العلوم ينفعونك بها بعدى ، ووقع الاختيار على أبى حيان ، وهرب الى المشرق حتى لا يجبر على ذلك على الرغم مما جعل له من الجرايات والكسب والأرزاق (١) .

وكانت المساجد التي انتشرت في كافة المدن والقرى الأندلسية هي المركز الرئيسى للتعليم في هذه المرحلة ، ومن ثم فإن كل مسجد لم يكن الا مركزا تعليميا ، وهناك المساجد الجامعة التي ضمت بين حدرانها أكثر من حائطة تعليمية .

وتتميز هذه المرحلة أيضا بأنها ليست مرحلة متوسطة بين التعليم الأولى والتعليم النهائى ، وإنما بأنها مرحلة متوسطة ونهائية في ذات الوقت ، بمعنى أنها كانت تعد الطالب تماما للحياة العملية ، كما أنها كانت الأساس لمن يرغب في التخصص والتعمق ، ولذلك فإن السن فيها أيضا كان غير محدد ، فمما كان الطالب ينتقى من المكتب ، ويبدأ في التردد على هذه الحلقات ، حتى يصل الى المستوى الذى يرغب فيه في التوقف عن الدراسة . وللمهمما كان يميز الطالب ، طوال المدة التي كان يقضيها فيها ، هو ارتباطه بأستاذ معين ، حتى لقد عرف بعض الطلاب بأساتذتهم ، وتخصصوا في موادهم .

وقد تمثلت طرق التعليم الرئيسية في الاقراء والاسماع والاملاء ، حيث كان يجلس الأستاذ في حلقة معينة ، اما بالمسجد أو بالمكان الذى

(١) السيوطى : بنية الوعاة ، ج ١ ، ص ٢٨٠ - ٢٨٥ .

اتخذهُ لتدريسه ، ويقوم بالقراءة من كتاب ، أو أن يتولى طالب من الحاضرين القراءة ويستمع اليه الآخرون ، بينما يقوم الأستاذ بمهمة التصحيح .

وقد سادت العلاقات الطيبة بين الأستاذ وطلّبه ، فالأول مسئول عن تعليمهم وتوطينهم وبذل كل الجهد في صالحهم ، أما الثاني فمطالب بأن يعكف على الدراسة ، وأن يحترم أستاذه ، وأن يمضى على قواعد وعادات المجالس العلمية .

كان أستاذ هذه المرحلة ، أستاذا مثقفا ، واسع الاطّبع ، تتجلى فيه معرفته الجيدة بمادة تخصصه ، وعلمه بالمواد المتصلة بها ، ومن السمات البارزة في معلمى هذه المرحلة ، موسوعيتهم العلمية ، بمعنى أن الأستاذ كان يجيد أكثر من مادة ، وأكثر من علم ، وخاصة في مجالات العلوم العقلية فنجد أن كافة الأطباء تقريبا كانوا يعرفون علم الفلك والرياضيات والفلسفة ... الخ .

ومستوى المعلمين الاقتصادي والاجتماعي كان عاليا ، فقد شكلوا من الناحية الاجتماعية طبقة عرفت بطبقة الفقهاء ، احترمها الشعب لعلمها ودينها ، واحترمها الحكام لحاجتهم الى تأييدهم ولعلمهم بمكانتهم لدى العامة .

أما من الناحية المالية ، فإن المعلمين كانوا ينقسمون الى فئات : فئة تتلقى أجرها من الدولة ومن بيت مال المسلمين ، وفئة أخرى وهي الغالبية تتلقى أجرها بناء على عقد مع ولى أمر التلميذ ، والفئة الثالثة تتقاضى أجرها من بعض الأعمال التى توكل اليها في المساجد ، مثل الامامة أو الصلاة ، أو الأذان أو الاقراء .

وتبين الدراسة أن دخل المعلمين كان مرتفعا حتى أن بعضهم كان يجنى من المهنة أكثر من ٤ آلاف درهم شهريا .

وعلاوة على ذلك ، وجد بعض المعلمين ممن قاموا بالتدريس مجاناً . ولم يكن للمعلمين رزى معين ، غنى شرق الأندلس ، لم يلبسوا العمامة التى كانت شائعة فى غرب الأندلس عامة ، كما أنهم هؤلاء بملابسهم ومظهرهم اهتماما كبيرا وخاصة فى أوقات التدريس .

أما المرحلة التعليمية الثالثة ، فهى مرحلة تكميلية وتخصصية ، ولذلك فليس لها من البداية أو النهاية ، فهى مرحلة استكمال للمعلومات وتجديد لها ، وهى تستمر مدى الحياة .

وقد وجدت هذه المرحلة التعليمية فى أماكن كثيرة : فى المساجد الجامعة وفى المدارس ، وفى المكتبات ، وفى مجالس الأمراء والخاصة ، وفى حوانيت الوراقة ... الخ .

ولكن أهم سمتين تميزت بهما هذه المرحلة ، هما المدرسة والرحلة .

فالمدرسة هى مكان خصص للتعليم ، أشرفت عليه الدولة ، وساهم فيها الأمراء والأغنياء بحيث أمكنها أن تقدم للطالب بالإضافة الى الناحية العلمية ، أماكن للاقامة وضمانا بالتغذية .

وظهور المدارس فى الأندلس يشوبه الغموض الكثير ، والبيانات الموجودة لا تكفى تماما لاثبات ظهورها ، لكن على الرغم من ذلك أمكن الإشارة الى امكانية ظهور المدارس فى الأندلس فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، كما أنها أصبحت مؤكدة الظهور ، على عهد الموحدين .

وفى القرن الثالث عشر الميلادى ، ظهرت مدرسة أخرى فى مرسية ، وبعدها مدرسة صوفية فى مالقة ، ثم مدرسة غرناطة فى القرن الرابع عشر ، ومن المحتمل أن مدينة غرناطة قد شهدت أكثر من مدرسة فى ذات الوقت .

أما المرحلة الأخيرة فهي قمة الحياة التعليمية ، وفيها يرحل الطالب من بلده الى أقرب مدينة أو الى عاصمة الاقليم ثم الى عاصمة مصر ، بالإضافة الى الرحلة التي كانت تتجه الى خارج مصر . وقد أُوِّع الأندلسيون كثيرا بالرحلات وظهرت أسماء الكثيرين منهم في مجالس التعليم في القاهرة وبغداد ومكة والمدينة وغيرها من المدن الإسلامية الكبرى ، وأصبحت الرحلة ثمينًا أساسيا في التكوين الثقافي للأندلسيين ، وأعطوها عناية كبرى ، ومن ناحية أخرى حينما نما المستوى الثقافي للأندلس ، فأننا نجد أن كثيرا من الأندلسيين كانوا يصلون الى مكانة علمية ، دون القيام بالرحلة الى المشرق .

ولقد خدمت الرحلات في الاطلاع على تطور الحركة العلمية في الشرق وفي نقل الكتب والأعمال العلمية من هناك الى الأندلس .

وفي نضاية هذه المراحل الدراسية ، كان لابد من منح شهادة أو اجازة للدارس تبين أو تشهد بقيامه بدراسة كتاب معين أو سماعه من أستاذ ما .

وانتشرت الاجازات بنوعها الشفوي والتحريري ، وتطورت كثيرا في مضمونها ، فظهرت الاجازة الفردية ، واجازات السماع ، والاجازات العامة .

فذلك هو النظام العام للتعليم الذي اتبع في الأندلس ، وضمن هذا الاطار كانت هناك بعض شرائح المجتمع ، التي تميزت ببعض الخصوصيات - ومن هذه الشرائح أبناء الخلفاء والأمراء والوزراء والخاصة عموما . وتميزت هذه الشريحة في تعليمها بباكال الطفل الى مؤدب من مستوى ثقافي عال يتولى تعليمه .

والبرنامج الدراسي لهذه الشريحة الاجتماعية لم يختلف كثيرا في تفاصيله عن البرنامج العام ، فهو يتناول أيضا في الأساس العلوم

الدينية واللغوية . ثم يمضى متطورا مع ميول الطفل وامكانياته في دراسة علوم أخرى . ولكنه اختلف مع هذا البرنامج العام ، تبعا للمستقبل الذى ترغب العائلة فى اعداد ابنها له وخاصة بالنسبة لأبناء الخلفاء .

أما الشريحة الثانية ، فهي الخاصة بتعليم النساء ، حيث لم تؤكد المصادر بصورة واضحة ذهاب البنت الى المكتب ، ومن المؤكد عدم تردها على حلقات الدرس ، ولكن ذلك لا يعنى عدم تعليم الفتيات ، فلقد تولى الآباء هذه المهمة ، كما أوكل تعليمهن الى معلمين موثوق بهم .

ولم تكن الدولة بمعزل عن هذه الحركة التعليمية ، وانما شاركت فيها وتدخلت فى توجيهها بأكثر من أسلوب .

ففى مجال الحياة التشريعية قصرت الدولة الأمور على المذهب المالكي مما صبح الحياة التعليمية كلها بهذا المذهب ، كما أن الدولة قامت بدفع مرتبات للفقهاء فى حالات كثيرة وخاصة على عهد المرابطيين والموحدين وبنى نصر - كما اهتمت الدولة ببناء أماكن تعليمية ، فشيّدت المساجد ، أكثر المراكز التعليمية فى الاسلام عموما ، والمكاتب - وبعد ذلك المدارس .

وقد لعبت المجالس العلمية التى كان يعقدها الأمراء والخلفاء والملوك ، دورا هاما جدا فى تطوير الحركة التعليمية ، وفى الارتفاع بالمستوى العلمى لفقهاء الأندلس وفى اثارة الحماسة بين الأدباء والشعراء وغيرهم .

وبعد القيام بهذه الدراسة ، تفتحت أمامى أبواب كثيرة تجب معالجتها وطرحت كثير من الأسئلة التى تحتاج الى دراسات منفصلة متخصصة منها :

١ - التأثير الذى تركه نظام التعليم الأندلسى على الجاليات اليهودية والمستعربين المسيحيين \*

٢ - دور قواعد اللغة العربية فى إعادة بناء قواعد اللغة العبرية وفى قواعد اللغة القشتالية \*

٣ - تأثير المؤسسات التعليمية الأندلسية على نظام الجامعات فى أسبانيا المسيحية ، والملة بينهما \*

٤ - الصناعات التعليمية الخاصة بالورق والقلم والدواة والحبر وكذلك المكتبات ، وإعارة الكتب ، والنواحي الأدبية المتعلقة بهذه المجالات \*

ولكننى رأيت أن أقصر بحثى على هذا العرض ، فاتحاً بذلك الباب أمام كثير من الدراسات التى يمكن لها أن تستكمل هذا المجال \*





## فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الامداء	٣
تقديم ، للدكتور عبد الفتى عبود	٥
تمهيد : المسرح الجغرافى	١٥
الباب الأول : الدولة والتعليم فى الأندلس	١٩
الفصل الأول : منذ الفتح الى نهاية الدولة الأموية	٢١
( أ ) مقدمة	٢١
( ب ) التعليم فى عصر الولاة	٢٧
( ج ) عصر الامارة	٣٢
انتشار المذهب المالكى	٣٧
( د ) عصر الخلافة	٦٣
( هـ ) الدولة الطامرية	٩٩
قرطبة الخلافة	١٠٩
الفصل الثانى : منذ سقوط الدولة الأموية الى سقوط غرناطة	١٢٤
( أ ) عصر الطوائف	١٢٤
( ب ) المرابطون والموحدون	١٢٨
( ج ) الدولة النصرية	١٣٦
الفصل الثالث : بعض مظاهر تدخل الدولة فى التعليم فى الأندلس	١٤٣
أولاً - التدخل فى المنهج التعليمى	١٥١
ثانياً - التدخل فى شئون المعلمين	١٥٥
ثالثاً - الاشراف على أماكن التعليم وعلى انتظامه	١٦٠

الموضوع	الصفحة
رابعا - استقبال المعلمين المشرقين في الأندلس	١٦٢
خامسا - بناء الأماكن التعليمية	١٦٣
الباب الثاني : المراحل التعليمية في الأندلس	١٦٥
مقدمة	١٦٧
المراحل التعليمية حسب المنهج التعليمي	١٦٩
المراحل التعليمية حسب مكان الدراسة	١٧٠
الفصل الرابع : المرحلة التعليمية الأولى	١٧١
المكان	١٧١
دور المنزل	١٧١
المكتب	١٧٣
المكتب في الأندلس	١٧٤
أماكن وجود المكتب	١٧٦
سبب الذهاب إلى المكتب	١٨٠
المنهج التعليمي في المرحلة الأولى	١٨٤
طريقة أبي بكر بن العربي في التربية	١٩٤
طريقة التعليم في المكتب	١٩٧
بعض النواحي التربوية في المرحلة الأولى	٢٠٢
المعلمون	٢٠٥
أجرة التعليم	٢١٢
تعليم البنات في المكتب	٢١٧
الفصل الخامس : المرحلة التعليمية الثانية	٢١٩

الموضوع	الصفحة
أماكن التعليم في هذه المرحلة	٢١٩
( أ ) المنزل	٢١٩
( ب ) المسجد	٢٢٢
المنهج الدراسي	٢٣٦
١ - العلوم الدينية	٢٣٧
علم التفسير	٢٤٠
علم القراءات القرآنية	٢٤١
الفقه	٢٥٠
علم الحديث	٢٥٦
علم الكلام	٢٦٢
٢ - العلوم اللسانية	٢٦٥
اللغة	٢٦٦
النحو	٢٦٩
علم البيان	٢٧٤
الأدب	٢٧٥
٣ - العلوم العقلية	٢٨١
( أ ) المجموعة الطبية	٢٨٣
١ - علم الطب والصيدلة	٢٨٣
٢ - علم النبات	٢٨٧
( ب ) العلوم البحتة	٢٨٨
( ج ) العلوم الفلسفية	٢٩٢

الموضوع	الصفحة
( د ) العلوم الاجتماعية	٢٩٣
طرق التعليم في المرحلة الثانية	٣٠٣
١ - الاقراء	٣٠٣
٢ - الاملاء	٣٠٤
٣ - المناظرة والحوار	٣٠٥
أوقات التعليم	٣٠٨
حلقات التعليم	٣١٠
المعلمون في المرحلة الثانية	٣١٥
أجر المعلمين في المرحلة الثانية	٣١٨
ملابس المعلمين	٣٢٠
العلاقة بين المعلم والطالب	٣٢١
تعليم النساء في المرحلة الثانية	٣٢٤
الفصل السادس : المرحلة التعليمية الثالثة	٣٢٦
نظام المدرسة في الاسلام	٣٢٩
المدرسة في الأندلس	٣٣٤
المدارس المؤكدة	٣٤١
١ - مدرسة مرسية	٣٤١
٢ - مدرسة مالقة	٣٤٢
٣ - بدايات المدارس في غرناطة	٣٤٤
( أ ) المدرسة النصرية	٣٤٦
مؤسس المدرسة النصرية	٣٤٦

الموضوع	الصفحة
بعض أسانذة المدرسة النصرية	٢٥٧
( ب ) مدارس غرناطية أخرى غير النصرية	٢٦٤
الرحلات	٢٦٥
الاجازات العلمية	٢٧٠
الباب الثالث : التعليم الخاص	٢٧٥
مقدمة	٢٧٧
الفصل السابع : مظاهر الاهتمام بتعليم الخاصة	٢٨١
أولا اهتمام خاصة الأندلس بتعليم أبنائهم	٢٨١
( أ ) اختيار المؤدب علميا وخلقيا	٢٨١
( ب ) الاهتمام براحة المعلمين واکرامهم	٢٨٦
( ج ) الاحتفال ببدايات جلوس أبنائهم الى العلم، ومتابعة تعليمهم	٢٨٧
( د ) المساهمة في وضع المنهج التعليمي لأبنائهم	٢٩٢
ثانيا : أماكن تعليم الخاصة	٢٩٣
تعليم الوصفاء	٢٩٩
تعليم الرهائن	٢٩٩
ثالثا : المنهج التعليمي لتلك الفئة	٤٠١
دور النساء	٤٠٥
بعض الجوانب الأخرى	٤٠٨
الفصل الثامن : اهتمام الخاصة بالتعليم	٤١١
خاتمة	٤١٩

